

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ

مَكِّيَّةٌ مَبْدُوءَةٌ فِيهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ
مَكِّيَّةٌ مَبْدُوءَةٌ فِيهَا



Bibliotheca Alexandrina



0024182

المجلد

الحضارة الإسلامية في المغرب



دار الثقافة

للنشر والتوزيع

32 — 34 شارع فيكتور هيو — ص.ب. 4038

الهاتف 30-76-44 — 30-23-75

الدار البيضاء

الطبعة الثانية 1406 — 1986

جميع حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مضارتنا الإسلامية في المغرب

من العسير أن يعيد الكاتب طبع كتابه دون شعوره بضرورة التغيير والتجديد فيما كتبه من قبل ، سيما في كتب التاريخ والحضارات حيث تستجد المعلومات ، وتأتي المكتشفات بالشيء الكثير ..

ولكنني لن أغير من كتابي هذا — وأنا أعيد طبعه — إلا بالتقديم والتأخير في بعض فصوله ، وإلا في استبدال اسمه القديم « الحضارة المغربية عبر التاريخ » باسم « الحضارة الإسلامية في المغرب » .

تقديم

ان الحضارة هي تعبير عن كل منجزات اعمال الانسان فكريا ووجدانيا وعمرانيا ليحقق ذاته ، ويطور مجتمعه ، ويسهم في المسيرة الانسانية .. وهي بهذا التعريف السهل تشمل مختلف انتاج الانسان وعطاءه ، كما تعبر عن مدى اسهام الشعوب والامم في تنمية المجتمعات الانسانية والتسامي بها ، ولكنها بهذا التعريف السهل أيضا ترتبط بعقيدة الانسان ومبادئه وبيئته ومرحلته التاريخية .

والحضارة في المفهوم الاسلامي تنطلق من رؤية مثالية للحياة ، ويسعى كل مسلم وكل مجتمع اسلامي أن يحقق هذه الرؤية ويعمل على انمائها وتوضيحها حتى تظل حية في ضميره وسلوكه ومعاناته ، وحتى يجعل واقعه يسير على هديها . ولذلك فالحضارة هي مثل عليا وتجارب متنوعة ، وخلق وابداع ، ومعاناة لتصحيح مسيرة الانسان . فهي في الواقع بروز للثقافة الاسلامية الكامنة في ضمير الفرد وسلوك المجتمع وتحديه للانحرافات الجارفة وهي محصلة واقع تاريخي يتصل بمختلف العلاقات الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية .

وحضارتنا الاسلامية تلزم كل مواطن أن يكون أميناً مثالياً في ابتكاراته وفي تقليده ، في عمله وسلوكه وفي اختياراته ومواقفه ، وهذا ما يضيف ، عليها صفة الالتزام بالمبادئ

الاسلامية ، وهذا ما يجعل صلتها قوية بتراثها لانها امتداد واستمرار .

ان جدلية ارتباط الحضارة بالتراث ، وبتأكيد الواقع هي دينمية تطور وتنمية ذاتية في حضارتنا بل ان تاريخ الاسلام يتحرك بربط الاسباب بالمسببات على أساس السير في النهج الاسلامي .

ان حضارتنا الاسلامية تراث مثالي ، وواقع معاش وملاحقة دائمة للمبادئ والقيم دون التخلي عنها أو تناسيها في كل عمل اجتماعي ، وهي بهذا الاسلوب توحد بين المسلمين قاطبة أينما كانوا في الشرق أو في الغرب ، في الشمال أو الجنوب ، كانوا أمما أو اقلية بين أمم أو مهاجرين في أوطان غير أوطانهم لانها ذات مبادئ واحدة ، وقيم مشتركة ولانها لا تتخلى عن الخصوصيات المميزة للشعوب والبارزة في الاعراف والعوائد والتقاليد ، لان هذه الخصوصيات تبرز الانسجام والتكامل في حظيرة الامة الاسلامية جمعاء .

مقدمة

اشكائيات التطور والتغير في الحضارة الإسلامية

ميكانزم التطور في الاسلام :

التحديات الحضارية المعاصرة ، والصراع الثقافي المتزامن معها . ينبثق عنهما مفهوم جديد للحضارة ، وتعريف شامل للثقافة . وسيجد الانسان المعاصر في هذا المفهوم للحضارة والتعريف للثقافة ترسانة من الأسلحة ليقترحم أطروحة انسانية جديدة هدفها انصاف كل أمة واحقاق كل قضية عادلة .

ان المفهوم الجديد للحضارة والثقافة الشاملة هو محصلة معادلات علمية ثابتة يعتمدها كل عقل قويم المنهاج ، وكل وجدان واع . وهو مفهوم تمخض عن جهود قرون وقرون . ومنذ الأول الذي نبض فيه عقل الانسان بالتفكير ، ووجدانه بالاحساس . ومنذ بدأ يشعر بحاجته لعون الآخرين . فأرسى العلاقات بالحوار المتبادل وتجاوز موضوع الذات ، الى موضوع بالآخرين .

ان الثقافة الشاملة المعاصرة ستدفع بانسان الغد الى افراز مفاهيم جديدة ، يقر فيها بجهده ، وجهد غيره ، وعمله وعمل غيره ، والى صياغة مستحدثة للنماذج والقوالب الفكرية ستساعد على تنمية الحوار ، وانسجام الرغبات ، ووحدة الأهداف ، فاذا انهار صرح الانانيات الذي شيده انسان ما قبل

التكنولوجية ، فستتأثر بجانبه المفاهيم الخاطئة ، والاعتبارات المزيفة ليبدو الإنسان كما هو ، وكما يجب أن يكون ، دون أن ينهر أمام متسلط أو يستلب إزاء حضارة . ولم يصبح من المجدى أن يقول أحد أن آباءه اكتشفوا وحدهم ، أو اخترعوا قبل غيرهم . فتلكم خرافة وأسطورة ، ولقد كشفت الأيام أن الحضارة من بناء المجتمع الانساني كله .

فليس عمل الفكر ملكا لأمة أو الشعب أو لمرحلة تاريخية ، وليست التكنولوجيا ملكا لأمة أو لشعب ، بل هي إنتاج الجميع ولكن ستظل الثقافات تعبر عن خصوصيات الأفراد والجماعات ، وعلاقتها بالتطور والتغيير الذي يفرضونه أو يفرض عليهم .

ما هي خصوصية الثقافة الإسلامية ؟ وما علاقاتها بالتطور والتغيير ؟ وما هي اشكاليات التطور في الاسلام ؟ هذا هو سؤالنا وهذا ما سنحاول أن نجيب عنه :

والواقع أن السؤال هو المنطلق الاول لتحديد الجواب ، فهو الذي يخطط للفكر جوانب الموضوع ويعطيه الوضوح والبيان وارتباطات علاقاته الابسيتمولوجية ، وكم من سؤال ضل الموضوع في الجواب ، وأفسد الوضوح ، وعطل الفائدة لقد أقام سقراط فلسفته على الحوار ، والسؤال والجواب، محاولاً أن يعلم الإنسان كيف يسأل ليحظى بالجواب الواضح المفيد الذي تنبنى عليه فلسفته وآراؤه .

وقد ضبط المنهج الاسلامي اشكالية السؤال لئلا يكون مجرد كلام يشق طريقه في الفراغ ، وجعل كل موضوع اشكالية تبتدىء بها طريقة المعرفة ونهجها وغايتها دون أن يحجز نفسه في منهج خاص .

وعندما يكون السؤال محددا واضحا فان الجواب لا ينطلق من فرضية أو مسلمة أو بديهية ، وانما ينطلق من الفطرة السليمة . أى من نقطة الصفر لتتبنى عليه سلسلة الارقام المتتالية ، والفطرة السليمة نقطة التقاء العلاقات المشتركة بين الناس كافة ، المنطلقة من أصالة التفكير والوجدان ، وبذلك يجد كل فرد الجواب واضحا مبنيا على وحدة الفكر الجماعى ورأى الناس كافة وشمولية الموضوع .

وهكذا يكون الجواب مركزا على قواعد ثابتة لبناء الفكر الجماعى ، وتكون هذه القواعد ذات معادلات عقلية ، وليس طقوسا ، وذات مبادئ وليست ذات مصالح ويمكن على أساسها صياغة براهين منطقية وحجج مقنعة تخاطب العاطفة والعقل ، والفكر والوجدان ، والمادة والروح .

ومن هذه القواعد تتسج المعلومات لتكون من نسيجها استنتاجات ثابتة نابعة من طبيعة الذات وامكانات الفكر فى المعرفة التى ليست رياضية مرتبطة بباقى المعادلات ارتباط السبب بالمسبب ، والعلة بالمعلول . وعند اختلال أى شرط فى المعادلة أو وضعها فى غير مكانها الطبيعى تصبح المعرفة ناقصة لا تعطى نتيجة ولا تغدق فائدة وينشأ الغلط عن عدم ضبط المعادلات مما يؤدى الى فساد النتائج أو استحالتها ، لأنها لم تبن على السلم الطبيعى فى قانون الوصول الى المعرفة وكل الحقائق العلمية والأخلاقية والاجتماعية هى نتيجة معارف مرتكزة على معلومات مضبوطة لمعادلات متسلسلة تخضع للمقولات والتكيف بعامل الزمكانية وطبيعة الفكر والعمل . وتنشأ أغلاط الانسان عن عدم ضبط المعادلات أو فهمها مما يؤدى الى فساد النتائج وضبابية المفاهيم لأنها لم تبن على السلم الطبيعى فى قانون الوصول الى المعرفة ، فكل الحقائق والمقولات العلمية

والاجتماعية هي نتيجة معارف مرتكزة على معلومات مضبوطة لمعادلات خاضعة للمقولات المنطقية وللإحساسات الانسانية الدقيقة ، ويظهر ذكاء الانسان في مدى استفادته من المعادلات تركيبيا وتحليلا لابرار الحقائق وكشفها وابداعها واختراعها ، حتى تتولد النظرية من سلسلة الحقائق والمعرفة من المعارف ، كما تتولد الأغصان من الشجرة . وكما يتدفق الماء من الينبوع فما يكاد الانسان يعرف شيئا حتى يجد نفسه أمام أشياء فيبدأ رحلته من جديد وينفذ البحر ولا ينفد المداد لتسجيل الكلمات والايحاءات اشكالية التطور في فلسفة الاسلام ترتبط بذات الانسان وعلاقاته مع الموضوع وعلاقاته مع النص المختص بالموضوع ، فالانسان لا يحدد بفكره وعقله فقط بل بفكره وعقله وحده ووجدانه وعواطفه وبالعلاقات (وهي الجسور) التي تصله بالموضوع الخارجى وهى علاقات بنص معرفى مستوحى من خارج ذاته أو من فطرته ذاتها ليكون عمله الفكرى مرتكزا على أساس متين .

وقد اهتم الاسلام بربط الذات الانسانية عقلا ووجدانا بالنص القرآنى الذى يوجهها ، فالمعرفة المتكاملة اما من قراءة كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، أو من الاصفاء الى هواجس الانسان الفكرية والوجدانية وتقليب النظر فى ذاته ، واما من النص الذى يعيه من خلال تأملاته الفكرية والذى يفيد سلوك الانسان وتفكره .

ومن خلال علاقات الذات ، والموضوع والنص ، تقوم جدلية الصراع ليتحكم الانسان فى ذاته وموضوعه عن طريق النص أو عن طريق التجربة ومعاناة الموضوع خارج الذات ، فلم يبق حوار ذاتى Dialogue مع النص يكرر ذاته ، أو يكرر الموضوع ، وانما يظل فى جدلية مع فكره ومع الموضوع وبذلك يتجنب الاخطاء والاغلاط ويكتسب علما تجريبيا وعقليا ، .. وخارج ذاته ،

أى العلم الشمولى . وبذلك بتجنب ما وقعت فيه الكنيسة التى ظلت تحاور النص ولا تصل الى الموضوع ولا تقول بالتجربة فوقعت فى نظريات وأوهام ميتافزيكيا علمية ، وتمسكت بنظريات حسبته علمية وتطورت فى ميتافزيكيا لا علاقة لها بالموضوع وواقع الحياة ولا صلة لها بالواقع العماى مما اضطر العلماء الى ادانتها والبحث عن العلمانية والدنيوية .

وقد تنبه الغزالى الى خطر المنطق الارسطاطاليسى العقلانى البحث والى خطر الفلسفة اليونانية المبنية على المنطق فأيدى الاسلام الذى يوفق بين العقل المنطقى والتجارب الموضوعية ، وحذر الغزالى علماء الاسلام أن يقفوا فى وجه المسلمات العلمية والمعادلات الكونية والحقائق المفهومية لانهم اذا وقفوا فى وجهها فان موقفهم سيضعف الدين ، وسيضعف العلماء أيضا وسيقيم تعصبا وجمودا عند علماء الدين ، وشكا وحيرة لدى العلماء التجريبيين .

وبذلك فالغزالى أنقذ الاسلام هما وقعت فيه الكنيسة وقادها الى فصل الدين عن الدنيا ، والوحى عن العقل . مما يفتح فجوة تاريخية لتسرب الالحاد الى الدين والفصل بين عضوين متكاملين .

فلا يمكن أن نعيش بدون صوت الوحى ، الذى يؤكد من أعلى على الرحمة والتعاطف، ولا يمكن أن نعيش دون استعمال العقل الذى أمرنا باستعماله لنحقق أنسيتنا ووجودنا وخلافتنا فى الارض وقدرتنا على الخلق والابداع، ولا يمكن ان نفكر أو نعيش بدون موضوع وبدون جسور العلاقات بين الذات والموضوع .

فالاسلام سلطة دينية ودنيوية ، عقل ووجدان وموضوع وذات وقد اصطفى الله رسوله فى جزيرة العرب حيث لم تكن

سلطة ادارية قاهرة تضطر الدين الى البحث في عالم الروح والرحمة فقط كما وقع للمسيحية أمام جبروت الرومان، فتخلت عن التنظيمات العقلية المادية الارضية واكتفت بصقل الروح ، وقد أراد الله أن يكون رسوله جامعاً بين القوة الروحية والقوة الزمنية ؟ وهما قوتان لا بد لهما في موضوع ، وتجربة مع الموضوع ولا بد للموضوع أن يحدد بنص مضبوط .

ينطلق الفكر للممارسة العلمية فتصحح الفكرة من تجرد وتصاغ في علاقات جدلية مع الموضوع والنص وهكذا دواليك دون وناء أو توقف وهذا هو ميكانزم التفكير الذي يفرز الافكار والنظريات في عملية تحديد للمفاهيم وصياغتها وربطها ببعضها لئلا تبقى مفهوما مجردا معهما دون ارتباط بغيره وتحديد علاقاته الابداعية للخلق والابتكار والاكتشاف في غمرة من صراع الافكار بعضها ببعض وتولد بعضها عن بعض وبقاء الصالح منها وتجاوز الخطأ في الفهم والتقدير وصياغة المعادلات . وفي هذا الميكانزم الحيوى يتم التناقض والتضاد والتكامل ثم التولد أو الاجهاض . فكل فكرة لا تفهم الا في تضادها مع فكرة أخرى ، وعلاقة التضاد تخلق الحيوية والحركة فهو فيض عقلى داخلى كنبض القلب الجسمى الخارجى ، كل حركة تعنى دفعا للأمام وكل سكون يعنى توقفا وشدا الى الوراء ؟ فالحركة هى التناقض والصراع . ويتجاوز العقل الفكرة المجردة الى المعاناة الذاتية أو الى المعاناة مع الموضوع ، فتمتزج القدرات التجريدية الفكرية والمعاناة الوجدانية الذاتية والموضوع الخارجى ليتم نمو الافكار ونضجها وخلقها وابداعها وتواديها وتأثيرها . فالفكرة متولدة عن الارادة ، والارادة تبدو في القدرة ، وليس الا جدلية مع الموضوع ، فلا معرفة دون معاناة أو تجربة ولا تجربة دون موضوع ، ولا موضوع دون فكرة ، وارادة ، فالشئ الظاهر ، والباطن

والميثافزيك والفزبك والشاهد والغائب كلها تكشف عن الفكرة والذات ، والموضوع والعلاقات بينهما جميعا ، والاسلام (قول) أى تفكير و (نية) ارادة ، و (عمل) أى تجربة ومعاناة . فهو ليس مجرد احساس وشعور ذاتى كالنرفانا البودية ولا انعزالية ورهبانية كالمسيحية ، ولا سلسلة تجارب ذاتية كاليهودية .

والفكر والمعاناة ، والايمان والوجدان والموضوع والذات هي جميعها مجالات للصراع الذى هو عملية التضاد والتناقض لينتج عنه التطور والتغيير .

وتوجد كلمات تنتج عن قانون التضاد والتناقض والتكامل وهو ميكانزم التفكير والوجدان فى الاسلام .

ان ألفاظ التغيير والتطور والتجديد والاصلاح والتقدم والسيورة والطفرة كلمات تقابل التوقف ، والاصالة ، والمحافظة ، والاستقرار . وبجانبها كلمات مثل الجمود والاستلاب والتقليد . والانحراف ولكننا سنركز على اصطلاحين فقط . التطور والتغيير .

ونتساءل عما تعنى كلمة التطور ؟

ان التطور يتحقق عن مقابلة بين شيئين واختيار الانسب والاحسن . مقابلة تلقائية فى غالب الاحيان وقد تكون بتدخل الانسان وعلمه وارادته لتحقيق حالة أحسن . وهذه المقابلة هي قانون التطور . وكما جاء فى القرآن الكريم (ولكل جعلنا شريعة ومنهاجا) أى قانونا ونهجا وطريقة .

فللتطور أسباب وللتأخر أسباب كذلك ، والمعادلة هي ربط سبب بمسبب وعلة بمعلول ليتحقق التطور فى الطريق المستقيم . وهو الخالق الذى بيده كل شئ

وقانون التضاد والتناقض يولد صراعا مستمرا ليتولد عنه شىء جديد ، والعالم يعيش هذا الصراع الدائب مادة وفكرة في الحياة معادلة في استطاعة الانسان أن يحققها لأنها تدخل في اختياراته وحيثه .

ويقرر الاسلام أن الحياة صراع دائم (فلولاً دفاع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض) وهو مناقض للكمال الالهي ، (فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وهذا الدفاع بين الناس هو صراع وحركة لتتبع الصيرورة والتغير النافع والتجديد والإصلاح . وهذا هو التطور أما التغير فهو حركة فقط غير واعية وربما يكون انتكاسة .

ان كل تطور حركة الى الامام . لأنه حلقات سلسلة متواصلة . كل حلقة ايمان وفكر واستقرار ونزوع ، فالإيمان استقرار ، والتفكر حركة ونزوع وقلق للإيمان والاستقرار .. والاستقرار ليس ركوداً واستكانة ولكنه اشاعة وعطاء ينزع الى تفكير متلاحق لا ينشأ عن قلق ولكنه ينشأ عن حاجة للكمال . والفكر حركة في مجال بنى متصل بمختلف البنى يؤثر ويتأثر بالانظمة المفهومية والانماط السلوكية ، والعمليات الدائبة في التعبير عن الذات وعن الموضوع .

فالتطور هو الحركة الناشئة عن دفع الله الناس بعضهم لبعض ، والتضاد بالتنسيق يكون الاستقرار والسكون المستقر والسكن على مفهوم ثابت لا يلبث أن ينازعه مفهوم آخر ضاغط . هو نزوع الشك والقلق .

والتضاد معادلة في طبيعة الانسان بين فطرته التي تنزع للقيم ، والمبادئ العامة ، حتى تكون وحدة اجتماعية حافظة لشخصية الانسان والمجتمع الاسلامي كله .

والصراع بين الفطرة والعريضة والتضاد بينهما ، وبين تعالي القيم والميول الشخصية ، ينشئ تضادا مستمرا بين الارادة والاستسلام . وبين الفتق والرتق والانجاب والقتل والبناء والتخريب . فكل تيار جارف يواجه تيارا جارفا معارضا . ويعبر الاسلام عن ذلك الصراع بين الخير والشر وطريق الله الواضح وطريق الشيطان المنحرف وقد يبدو التضاد واضحا في الثنوية وقد يكون خفيا ليتدخل الانسان بارادته لحيثه .

وباختصار فالتضاد شرط كل تطور لانه مبعث الحركة . وعدم وجود التضاد يعنى التوقف . لان الضد من طبيعته ينفي ضده ، ولا يجتمع معه ، ولذلك يقاومه ، ومقاومته تعنى الحركة والتقدم لان القيم الثابتة تنفى القيم المزيفة والصدق ينفى الكذب والنور ينفى الظلام وكما يقول ابن عربى حقيقة العالم تقوم على الاضداد . وكما يقول الامام على : « بمضادته بين الاشياء عرف أن لا ضده » فمبدأ التضاد فى الاسلام يخضع للمثل والقيم كأسس فكرية ، ولذلك فالثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية كذلك تعتمد الصدق والفروض والواجبات ، ولكنها تقر ظهور الاحرمات والمكروهات لا كقواعد ولا كأسس ولكنها كسلبيات لتحقيق الواجبات . مما تولد عنه الهميم ، والمبادئ المرتكزة على منطلق الفطرة لتكون :

- (1) — قوة الدفع الى الاستمرار والتطور .
- (2) — لتكون قاسما مشتركا للوحدة .
- (3) — لتعبر عن قوة الدفع لصناعة التاريخ .

لتكون رادعة لمن يحاول الخروج عن المصلحة العامة والخط المستقيم . ان قانون التضاد لم يكن معروفا بهذا الوضوح فى

الفلسفة الدينية التي سبقت الاسلام ولم يكن معروفا حتى في الفلسفة اليونانية بهذا الوضوح .

لقد كان الفلاسفة القدماء يرون أن الشيء الحقيقي هو الذى لا يتحول ولا يتغير ، فاذا تبدل فذاك دليل على عدم وجوده ووجود النقيض في كينونته معناه عدم ثباته ، ولذلك لا يعتبر معناه عدم ثباته ، ولذلك لا يعتبر حقيقة ولا يكون معرفة لأن الحقيقة والمعرفة تبنيان على الثوابت ، ولهذا فإن أفلاطون كان من رأيهِ أن اجتماع الاضداد في الاشياء مما يخفضها من سلم الموجودات ، واتباع أرسطو رأى أستاذه فكان أبو المنطق القديم يؤسسه علم المنطق على الكينونة لا على الصيرورة وهذا منشأ الخلل في منطق أرسطو حيث بدا ما هي البراهين من ضعف يؤدي الى نتائج غير مقبولة فالغزالي وابن تيمية وابن حزم وابن خلدون وغيرهم انتقدوا ما في منطق أرسطو من خلل ولذلك لم يطمئن اليه علماء السنة من المسلمين واعتمد الاصوليون بعض أبوابه وكان ديكارت كانت وهيمل ورسل من أعظم المقوضين لمنطق أرسطو . ولعل الهيجلية لم تجد في هذا المنطق ما يؤيد فلسفتها المبنية على ضرورة التناقض في كل شيء حتى يمكن استمرار التغير . بينما منطق أرسطو صوري أى هندسة ثابتة . فهو صورة غير متحركة ومنطق هيجل حركي أى متتابع الصور ، الاول صورة فوتغرافية والثاني فلم متتابع الاحداث .

كان منطق أرسطو يركز على ثلاثة مبادئ .

مبدأ العقلانية .

مبدأ السببية .

مبدأ الماهية أى خضوع الماهية لقانون الذاتية وقانون عدم

التناقض وقانون الوسط المرفوع أى عدم اجتماع النقيضين .

أما هيجل ، فالمنطق يقوم على التضاد ، وعلى استمرارية التنقل من الموضوع الى اللاموضوع الى التركيب من الايجاب الى السلب ثم الى سلب السلب .

والواقع أن مذهب هيجل سبق به علماء الكلام والاصول في الاسلام . فقد قال بالتضاد كل من النظام والجبائى والاشعرى والغزالي وابن عربى والطوسى والرازى ، وانتقلت هذه الآراء الى فلاسفة الغرب وبالاخص عن طريق سينوزا الذى قال بنشوء التناقضات ثم اتحادها فيما بينها أى (الديالكترك) وظهر تفسير ذلك واضحا عند فيخته وشلينج . وجاء هيجل فوسع الموضوع واعتبره وسيلة لتبرير الواقع .

لقد تحدث فلاسفة الاسلام عن الجدلية بأنها عملية بين الاثبات والانكار ، أى عدم اجتماع الضدين وانتهى هيجل الى التأليف بين الضدين . ومن رأى فلاسفة المسلمين أن التضاد في الحركة وفي التكامل لا في الحركة وحدها ، ولذلك قالوا : تضاد الموجودات الطبيعية شرط لدوام الفيض الالهى وامتداده المستمر وعنايته بخلقه الى الصيرورة وهى وجود واخراج من العدم .

ويفسر الفخر الرازى 1149 - 1204 الصيرورة بأنها الحدوث الانبثاقى بالطفرة ، وليس الحدوث بالتدرج ، اذ أن الحدوث بالتدرج لا معنى له ، وهو مجرد خداع بصرى فما تظنه تدريجيا يحدث دفعة واحدة ، فالحركة هى مجموعة أجزاء متتالية ، فليس هناك بدء أو بدء وانما هناك صيرورة وتنقل من حال الى حال وتطور متتال .

وعندما نضع يدنا على الطفرة فى كلام الرازى نجد صلته

قوية بالنظام . فلو تضافرت الجهود بينهما لوضعنا أسس الميكانيكا الحديثة .

ومذهب الرازي يفسر مبدأ التطور قبل أن يصل فيلسوف التطور سينسر الى تفسير التطور بأنه تناسق عمايتى التفريق والتجميع وذلك ان كل كيان طبيعى ينقسم ، وكل قسم مفصل يعود فيجمع بمنظومة من الروابط الجديدة تجعل منه وحدة جديدة ، ولكنها فى هذه الحالة أكثر تعقيدا فى تركيبها مما كانت عليه من قبل، وهى فى نفس الوقت جزء من الكليات الاولى ، كما تصبح فى صورتها الجديدة أقدر على القيام بوظيفتها .

ويحدث هذا التطور على مراحل متساوية فمن مرحلة التجميع الى مرحلة التفريق وهذا المفهوم للتطور يوحد أشتات المعرفة وقد بسط سينسر (1820 — 1903) مذهبه فى كتابه المبادئ الاولى وهو مقدمة كتابه (الفلسفة التاليفية) .

وقد استثنى من تطبيق المبدأ ما أسماه (بالمحال على المعرفة) ويعنى به الجانب الذى لا يرد على خبرة الانسان كاللاهوت والمجردات مثل المكان ، الزمان ، الحركة ، والقوة .. والقاعدة عنده فيما يمكن معرفته هى اماكن مقارنته بغيره . ولما كان المطلق مستحيل المقارنة بغيره استحالت معرفته ، فحد المعرفة الممكنة هو الظواهر وعلاقاتها .

واستطاع سينسر أن يوضح فى كتابه (أصول البيولوجيا)

(1 يرى النظام ان الجوهر ينقسم الى درجة يصبح فيها طاقة وهو قريب من النموذج المعروف للذرة والذى يتكون من نواة تضم عددا من البروتونات والنيوترونات تدور حولها فى مدارات ثابتة مجموعة من الالكترونات ، وبينما تكون النواة موجبة للكهرب فان الالكترونات المحيطة بها سالبة اما الذرة نفسها فمتعادلة من الوجهة الكهربائية ، وهناك قوة كهربية وميكانيكية تحفظ للذرة نظامها الشبيه بالسديم الشمس .

وأصول علم النفس ، كيف تقدمت الحياة بفعل المواعمة المستمرة بين العلاقات الداخلية في الكائن الحي والعلاقات الخارجية في عناصر البيئة .

ويرى في كتابه (أصول علم الاجتماع) أنه كلما تطور المجتمع انفصل الفرد عن الكيان الاجتماعي وازداد حرية .

وفي تطور الاخلاق يرى أنها تطورت نحو التوفيق بين حقوق الفرد والجماعة وألح سينسر على مبدأ العودة الى الطبيعة والعناية بالجسد والصحة ، وإشاعة الروح العلمية وتوجيه الافكار الى قوانين التطور الفكري والنفسي ، والتربية الذاتية .

وقد عدل مذهب سينسر جون ستيوارت 1873 — 1806 الذى عاد الى مذهب الرازي فى فلسفته Emergence Evolution والذي قال بأن التطور الانبثاقى والتركيب المنتخب كيميائى عقلية (أى أن امتزاج الافكار تنشأ عنه أطوار فكرية جديدة لم تكن واضحة فى الافكار المتعددة قبل امتزاجها) .

وجاء لوبد مورجان Leoyd Margen فحاول تعديل مذهب سينسر الذى قال بالارتقاء فى عالم العضوية وغير العضوية، وأنه ارتقاء البساطة الى التركيب ، ومن التشاكل الى التنوع ، وبأن الله تعالى هو الوجود المطلق الذى يتجلى فى الوجود المشهود والعقل الانسانى (آخر مثال) وصل اليه الوجود فى التجلى .

وأكد موجان أن الانتقال يجب أن يحتوى شيئاً جديداً . والتركيب الجديد يبرز خصائص كانت مكنونة ، وهذه الخصائص نفسية وحيوية تعلو وتبرز بعد الخفاء ، ويرى أن درجات الارتقاء تكون فى المادة فى اخلاطها الكمية والكيميائية ، ثم فى الحياة ثم فى العقل . فلكل ذرة عقل . ولذلك يجوز أن نقول عقل الشجرة ، لأنها

لا تخلو من عنصر العقل المحرك والمدبر وهو بالنسبة للشجرة في حالة النزارة التي تكفيها للحياة وضبط قوانين نموها (وكل شيء يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أما الذي يخرج الاطوار ويبرر العقل ويخلقه فهو المدبر الاول وبجانب هذا الفيلسوف جاء صموئيل اسكندر 1855 الذي عدل التطور وقال بأنه في المادة صورة عن الزمكانية فليس الزمان عدما اذا انزل عن المكان ولا يمكن ذلك ، وتجمع .. ومن الانبثاقين من يجمع بين مذهب التطور ومذهب هيكل ذلك لأن هيكل يرى أن الله هو الوجود المطلق الذي يتمثل في حدود الوجود المشهود ، والعقل الانساني آخر مثل وصل اليه الوجود في هذا التجلي فهو أرفع مثال . والمادة ومظهرها نشأت عن الكون المؤلف من الزمان والمكان ، واذا فطبقات المادة ذات الخصائص الأولية (والحجم والشكل والعدد والحركة) ثم خصائص الاعراض (اللون . والصوت . والرائحة ودرجة الحرارة) . وهذا التركيب هو نظام ، يستلزم منظما .

ورأى صدر الدين (1643 م) وهو من فلاسفة المسلمين ومن الحية في تركيب أجزائه ، والكون يتجلى في حوادث لا في أشياء ، لانها تتجدد باستمرار .

وتوضيحا لفلسفة الوجود والعلم في الفلسفة الاسلامية وعلاقتها بالتطور والضرورة حسب أصول الثقافة الاسلامية نجد هذه الفلسفة ترى :

— ان جميع القضايا ، وجميع الافكار ، وجميع الآراء والنظريات ، فيها جوانب السلب وجوانب الايجاب ، سواء في المفاهيم والمنظومات الفكرية أو في التعابير اللغوية . فجملة زيد

ليس واقفا هي زيد جالس ، فالإيجاب والسلب متواجدان حتى في التعبير اللغوي ، وإذا فالوجود والعدم بينهما ترابط وعلاقة ، أى سلب الربط وربط السلب ، فمصادق السلب ومصادق الإيجاب واحد ، والمقابلة بينهما تولد الصيرورة أى التدرج والسيلان ، أو ما عبر عنه برجسون بالوجود السيلال وهو يعنى بالفكر السيلال في أن يكون وجودا مستمرا .

ورأى صدر الدين (1643 م) وهو من فلاسفة المسلمين ومن شراح فلسفة ابن سينا وؤلف كتاب (الواردات القلبية) باضافة الزمان أى البعد الرابع معبرا به بين الابتداء والآنية ، فالان هو بداية الوجود ، ومعنى ذلك أن الوجود ممتد ، وذو بعد مطاط يتطابق مع الزماني ولكنه محدود وليس بلاحد . وهذا البعد يشبه فلسفيا الى حد بعيد مذهب النسبية الذي يرى أن الفضاء رباعى الابعاد ، والبعد الرابع هو الزمان فلا يمكن ولايتأتى قياس حركة من الحركات بالطول والعرض والعمق دون أن تضيف اليها بعد الزمان فالآن هو نقطة فرضية اعتبارية في الزمان مثل النقطة الهندسية التى يبتدىء بها المكان . ويقول في كتاب الاسفار : الحركة والزمان من الامور الضعيفة في الوجود التى وجودها يتشابه مع عدمها ، ويزيد في موضوع آخر : ان المتغير يربط بالثابت فالثبات للتغير والتجديد ويدل على هذا الفهم قوله تعالى في سورة هود وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، ويفسر ذلك بأن الشئ المتصل وجوده بعدمه يضم بقاؤه الفناء لان أسباب موجبات حفظه وبقاء الانسان حتما أسباب وموجبات هلاكه وفنائه . واذا فهناك اتصال الوجود والعدم في كل شئ ولذلك يجب اعتبار نشاط الذهن حول مفهوم العدم .

فامتداد الزمان الذى أدخله (صدر الدين) كبعد رابع

هو امتداد للموجودات التدريجية من القوة الى الفعل ومن الطاقة الى البروز ولو أن رأى النظام في الجوهر الفرد الذي قال انه يصل الى نقطة التجزء التام أى بصريح العبارة يصل الى نقطة يصبح فيها (طاقة) لكان للمسلمين السبق في نظرية النسبية ، زيادة في التحليل ، فالشئ غير الموجود هو الذى يكون في الحال أما الماضى فقد كان ، وأما المستقبل فهو أمر وسيكون . ولو لاحظنا فكرة الزمان في الفكر العربى لوجدنا الفعل قد يكون ماضيا ، ويكون حالا . أما المستقبل Future فلا يكون ، وانما هو الامر أى الخلق والامتداد لامر جديد .

ان قضية التضاد في تفسير الحركة تبتدىء من الوجود والعدم ، ويرى الفلاسفة المسلمون ويتبعهم علماء الكلام أن جميع القضايا والافكار موجبة ، وسلبية ، وبين الوجود والعدم والسلب والايجاب رابطة وعلاقة الربط ربط السلب ، ومصداق السلب ومصداق الايجاب واحد والمقابلة بينهما تولد الصيرورة والتدرج والسيلان . فامتداد الزمان الذى أدخل كعبد رابع امتداد للموجودات التدريجية من القوة الى الفعل هو الذى يكون في الحال ، أما الماضى فقد كان فيه الشئ موجودا وكذلك سيوجد في المستقبل وبالتمعن في هذا التحليل ترى مدى موافقة الفلسفة الهجلية لتفكير علماء الاسلام ، فهما معا يرميان أن اتحاد الوجود والعدم في الصيرورة .

وبناء على هذا التحليل فالفلسفة الاسلامية في مواجهة الهيجلية ترى أن اتحاد الوجود والعدم في الصيرورة ، كما يرى هيجل ويتنافى مع مبدأ اجتماع النقيضين وهو (دياكتيك هيجل) فالفلسفة الاسلامية تنبى مبدأ اجتماع النقيضين خارج الذهن . وربما يرجع ذلك الى عدم وحدة ادراك المفهوم الواقعى

الخارجي للمسئلة لاعتبارات مفهوم معنى العدم والوجود في الثقافتين .

غير أن الديالكتيك الهيجلي ينفي مبدأ اجتماع النقيضين والديالكتيك الاسلامي يجمع بينهما في الصيرورة ، وهذا ناتج عن عدم ادراك أو وحدة ادراك المفهوم الخارجي للمشكلة والاعتبارات اللغوية لتفسير العدم .

واذا فالديالكتيك الهيجلي واضح في فلسفة مثالية تتخذ العقل المثال المطلق في الطبيعة والذهن وصورة واقعية تستند الى التناقض ، ولهذا فهيجل من الواقع لا يرفض مبدأ اجتماع الضدين بصورة ذاتية ولذلك فلا تباين بين فلسفته والفلسفة الاسلامية بصورة ذاتية ، فهو غير مخالف لما أقره فلاسفة المسلمين . فالصورة في المرأة ليست هي الذات النازرة فهي صورة على شكل ذات الانسان وليست ذات الانسان . أى أن الانسان في الخارج هو شئ آخر ، وليس هو الانسان ذاته .

واذن فالديالكتيك القديم هو عدم اجتماع الضدين . لان القدماء رأوا أنه لا يمكن أن يكون الشئ موجودا وغير موجود ، وهيجل يرى أن الاشياء تكون موجودة وغير موجودة لانها اذا كانت موجودة فقط تكون ساكنة ، فلا تغيير ، وهيجل يسمى اجتماع التناقض في وجود الاشياء وفي الذهن وهي مثالية . وهي الديالكتيك . والصيرورة ليست وجودا أو عدما بل تركيب نقيضين فالوجود معدوم وهو صورة المقبول .

وهنا لا يتفق مع الفلسفة الاسلامية التي ترى عكس ذلك أن أى الشئ في الصيرورة موجود ومعدوم لان علماء المسلمين اتجهوا الى الموضوع لا الى الادراك العقلي والموضوع ليس نقطة مقابلة لمبدأ عدم اجتماع النقيضين .

ان هيجل واضح في فهمه للجدلوية في فلسفته المثالية ، لان المنهاج الديالكتيك الذى على ضوئه يتخذ العقل (المثال المطلق) في الطبيعة والذهن صورة واقعية تسند الى التناقض . ولهذا فهيجل لا يرفض مبدأ اجتماع الضدين بصورة ذاتية ولذلك فلا تباين في فلسفته والفلسفة الاسلامية .

واذا فالخلاف في الصيرورة بين فلاسفة الاسلام وهيجل ليست قضية اجتماع النقيضين أو اختلافهما . بل في أسلوب التفكير ومنهاج العقل وأساس الانطلاق . لانه انطلق من المثالية المطلقة بينما هم في الاسلام انطلقوا من التعادلية بين المثالية والحسية والموضوعية فقد ينتهيان الى رأى موحد ولكنهما لم يأتيا من رأى موحد .

وتوضيح هذا المنطلق ان هيجل يرى التصور مجموعة من النسب والعلاقات والاضافات أى المقولات العقلية ويرى أنها هى معنى الوجود المحض ومعنى العدم المحض . ويرى أن الموجود موجود وهى مرحلة التصديق والموضوع ولكن الوجود (اللامعين) يساوى العدم وينتهى الى أن الوجود هو صورة القبول . لانه أى الوجود المحض لا يمكن أن يتحقق وانما يحقق في التركيب مع العدم بينما يبطل فلاسفة الاسلام أصالة الوجود ويرون أن الشيء الذى هو في الوجود الواقعى وهو الوجود المحض . لان الوجود يتصف بطابع سيال لانه يختلط مع العدم ويدخل مرحلة الصيرورة . أى فهم يتهجون طريقا عكسيا وان كان يبدوا اتصالهما معا .

وتنتهى الصيرورة والتغيير الى التولد . أعنى هذا الناتج الذى نتج عن الصيرورة فما موقف الانسان منه ؟ وما موقف الشرائع والقانون ؟ وما موقف المجتمع منه . ربما كانت هذه قضية القدر والقدر والحرية والاختيار والجبرية والحتمية .

لوجود قانون ثابت ، وهو قانون خفي يوجه ويتحكم وتبدو عنه ظواهر طبيعية واجتماعية ذات علاقات فيما بينها علاقة السببية والعقلية .

والانسان مخلوق من المخلوقات الكونية فله نفس خصائص المخلوقات يخضع في علاقاته مع الطبيعة ومع المجتمع للأسباب والمسببات . وربما كانت علاقات الانسان مع الطبيعة والمجتمع أكثر تعقيدا ، لانه ليس مجرد شيء بل هو عقل ووجدان ، وهذا ما يجعل علاقاته تتعدد وتتغير ، وتتطور تبعا لذلك وتتعدد الاسباب والعلل لبروز نتائج تشابه احداها الاخرى .

ان عالم الطبيعة يتكون من ذرات ، وعالم الاحياء يتكون من خلايا . والمذهب الذرى يربط بين تفاعل الذرات وتأثير بعضها ببعض بقانون الاسباب والمسببات الذاتية والخارجية ومن حركة صادرة عن طاقاتها حيناً ، وفوق طاقاتها أحيانا أخرى .

ومن أجل هذا فإن الانسان في حياته الاجتماعية يعمل وفق قانون الطبيعة دون تدخل ارادته ، وأحيانا يتدخل هذه الارادة . فيكون طورا مسيرا وطورا مخيرا . فاذا جهل قوانين الطبيعة كان مسيرا أما اذا عرفها كان مخيرا ، وكما يقول الغزالي : كلما كثرت معارف الانسان كبرت حريته .

فالانسان ليس كالحجرة الصماء ، ولا كالحيوان الاعجم لانه يستطيع عندما يعرف الاسباب والعلل أن يتدخل فيها ليغير مسيرته .

ولكن كيف السبيل للتغيير ؟ فالغريزة والفطرة وعمل العقل كلها أداة لتغير الاحوال ، غير أن المنهاج المتزن هو الذى يجب أن يتوفر عليه الانسان ليستطيع أن يكون على بصيرة من أمره في التغيير والتطور ، ومن هذا المنطلق يمكن للانسان أن يخوض في طريقه التغيير والطور حتى لا يعرض نفسه للدونية .

ان التطور والتغيير تنشأ في (الفرد) وفي (المجتمع) وفي (الامة) وهو في كل ذلك يخضع لجذلية الديالكتيك . فيؤثر بعضها في بعض .

على أن السلفية الحديثة ترى التطور يجب أن لا يخرج عن القوانين العلمية في الاجتماع ، تلك القوانين التي تحدد سمات الظواهر والتي تربط الاهداف بالوسائل ولهذا فتطور الحضارة الاسلامية يرتبط بمفاهيمها الخاصة العقائدية والفكرية والاخلاقية والاقتصادية والمادية . ولهذا فنقل تقنيات وتكنولوجيات التطور المادى بحرفية وتقاييد تفسد مسيرة الحضارة الاسلامية لاختلاف الاهداف والغايات بين الحضارات الشرقية والغربية .

فالعلوم التكنولوجية في اطار حضارة الغرب هي غير العلوم التكنولوجية في اطار حضارة الاسلام وهذا نفس ما سلكته أوروبا حين اتصلت بالحضارة الاسلامية وأخذت عنها ، واستفادت منها . فأوروبا أخذت القوانين وغيرت الاهداف ومثال على ذلك ، فالطب عند ابن سينا والرازي لا يفرق بين المادة والنفس ، ولكن الطب الغربى أقام الطب الجسدى وحده ، والطب النفسى وحده ،

فلا بد اذا أن نفرق بين ما يدخل فى اطار القوانين العلمية وتطبيقاتها وبين الاتجاهات والاهداف التى تحدد نموها وتطورها، وكمثال على ذلك أيضا فالحضارة الاسلامية تجعل الانسان مركز العمل العلمى وهدفه، بينما تهتم الحضارة التقنية المادية بالاشياء والطبيعة وتجعل الانسان تابعا لها ، وايست بقاءه له ، وبما أن الاسلام دين الفطرة ، وحضارة المادة تنمو على حساب فطرة الانسان ، وتعرضه للانهييار والاستلاب ، فان الاسلام لن يأخذ من حضارة الغرب ما يقضى على الانسان نفسه وقد يجوز أن تتكامل الحضارات ويأخذ بعضها عن بعض دون تحفظ اذا كانت من فصيلة واحدة ، ولكن لا يمكن تكاملها اذا اختلفت فصائلها ، كما هو معلوم فى قواعد البيولوجيا ، وليس معنى ذلك رفض الحضارة الاسلامية للمادية اطلاقا ، ولكن معنى ذلك أن الحضارة الاسلامية مركز اشعاعها روحى : وتتطور المادة حول اشعاعها ، بينما الحضارة الغربية مركز اشعاعها مادية ويتكون الجوانب النفسية والروحية كهالة بجانبها .

تحددات ومفاهيم عن الحضارة

ما هي الحضارة ؟

ان كل محاولة لتحديد مفهوم الحضارة تستلزم دراسات طويلة وعميقة يعسر نقصها ، ورغم ان كل باحث في اى جانب من جوانب الحضارة ملزم باعطاء نظرة محددة لها تقريبا ، فانه يجد نفسه مرغما ان يكتفى بالنزر اليسير مما يحقق له تعريفها تقريبا لبعض جوانبها فقط ذلك لان الحضارة تتصل بكل عطاءات الانسان في مختلف العصور ، ولها علاقات جدلية بكل انتاج الانسان أيضا منذ ظهوره على مسرح الحياة في مختلف المجالات سواء منها الفكرية أو الوجدانية أو التقنية ، وإذا أضفنا الى هذا كله حقيقتها التجريدية ، ظهر الى اى حد يصعب تعريفها ..

ويختلف علماء الاجتماع في تعريف الحضارة اختلافا ناتجا عن المدلول اللغوي لهذه الكلمة أو عن الايديولوجية التي يؤمن بها العالم الاجتماعي ، وإذا كان من اللازم أن نحددها تحديدا موضوعيا بعض الشيء ، فالحضارة نتاج عدة عوامل منها العامل الثقافي وما يعطيه الفكر والوجدان من عاطفة وفلسفة وعلم وفن ، ومنها عامل المدنية وما يعطيه من تفاعل الانسان مع البيئة وتحديه للمحيط والزمان والمكان ، وحركة التاريخ ، فهي كالأجهزة الامامية للحركة الثقافية المتأججة وراء كل عمل انساني وانتاج بشري ، وما يؤثر في نمو الحضارة من تعاقب الازمان وبين البيئة المتفاعلة مع الانسان في حوار وصراع مستمر وسواء

كانت بيئة صحراوية أو غابوية أو ساحلية أو بحرية ... فان كل عمل انساني يتحدى به العجز والاستسلام ويظهر وجوده يبدو واضحا فيما نسميه بالحضارة .

وقد استعمل المغاربة كلمة الحضارة فيما يفيد العمران وحسن الاخلاق والسلوك ، وينقل الشيخ محمد الطالب ابن الحاج في كتابه (رياض الورد) عن الاديب المغربي محمد بن الخياط المتوفى سنة 1273 هـ 1770 م في الدفاع عن الحضارة .

عاب الحضارة قوم لاخلق لهم
اذ لم ينالوا نصيبا من مبانيتها
وقالوا عن حسد أضنى قلوبهم
هذى الحضارة لا ندري معانيها
فقلت ان الذى انكرتم عرض
فان من دونها الدنيا ومن فيها
ان الحضارة أخلاق مهذبة
تهدى معالى لنا من دون باريها
فالعلم أواها ، والفضل تابعه
فمن يطاولها ؟ أو من يدانيها ؟

وخص الانجليز عبارة الحضارة فيما يدل على طريقة العيش لجماعة بشرية فى بقعة خاصة ، وبيئة معينة Awayo Fliving فالحضارة نمط فى السلوك ، ومزيج انتاج وتطور ، وطريقة تفكير ، ونظرة للحياة من زاوية خاصة ، وسلوك عام .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مفاهيم المدنية والحضارة : ان الحضارة هى طريقة حياة جماعة انسانية ، فهى اذن أنماط السلوك المكتسبة التى يستعملها الانسان ... والحضارة تزدهر وتتقدم عندما تجد طبيعة وبيئة صالحة وامكانات طبيعية

طبيعية ورغبة في التطور والتجديد ونزوعا الى السلام والبناء .
ويعرف (ول ديوارنت) الحضارة بقوله :

هى نظام اجتماعى يعين الانسان على الزيادة فى انتاجه
الثقافى ، ولهذا فالحضارة تصاحب الوجود الاجتماعى للانسان .

أما الثقافة فيقول أحد المفكرين الالمان : هى مزيج من
التعليم والحضارة والعقيدة والتراث فقد يكون الرجل متعلما
حاذقا ولكنه لا يكون مع ذلك مثقفا ، وقد يكون مثقفا وليس
له قدر كاف مما تتناوله التربية الاساسية وقد تكون الامة ذات
حضارة عريقة ولكن ليست لها الثقافة التى تؤهلها . على أن
الاستعمال العام لها مرادفه للادب ولطف المزاج ، والذوق
الجميل وبالاخص فى ميدان الفنون ... ويرى آخرون أن الحضارة
هى بنية فوقية أو واجهة أمامية ، تعتبر الثقافة بنيتها
السفلية Infrastructure فالثقافة هى حوار مستمر بين الاقتصاد
(أى الناحية المادية) وبين البحث والتفكير وهو الناحية الروحية
أو الادبية ، والفكر ، يطور الاقتصاد ، كما أن الاقتصاد يطور
الفكر أيضا ، فليست الثقافة غاية ، وانما وسيلة ، وليس الاقتصاد
غاية ، بل هو وسيلة لتحسين مستوى الانسان واسعاده ،
والثقافة فكر يترجم الى عمل ، والعمل حركة دينميكية لابرار
الفكر ، لقد بدأت الثقافة مع العمل ، كما بدأ
العمل والبناء الحضارى مع الثقافة .. ويلاحظ مؤرخو الثقافة
أنها اصبحت برجوازية حين انقسم الناس الى عامة يعملون ،
والى مفكرين يبحثون بحثا ترفيهيا .. فبرزت الكتابة والادب
والفن والموسيقى من صميم التجربة ، ثم أصبحت ظلالا للمتفرجين
من الناس ، وخدمت الثقافة حين ابتعدت عن التجربة والمعاناة ،
فأصبحت ميتافزقيا خيالية وصوفية حالة ، لا تطور العمران
والحضارة والفلاحة ، وانما تمتص الاعمال فى وناء ، وأصبحت

الثقافة الحضارة والمعرفة المجمدة فقط فاضطر الشعب العامل ان يجد ثقافته في فنونه ورقصه وتصويره وملحونه ، وما يعبر عنه بالفلكلور ، كتعويض عن الثقافة نفسها التي ترفعت عنه ، أو صعبت عليه أما الثقافة في الواقع ، فهي المعارف والأبحاث والدراسات التي تساعد الانسان على الفهم والبناء والتشييد عن وعى وهى التى تخطط ، وتكون الانسان المنتج والعامل والمستهلك وتعلم فى المدرسة والاذاعة والتلفزة والصحافة وتخطط فى المخبر والعمل ... فلأجل تطور الاقتصاد والحضارة يجب تطور الثقافة والفكر ، والعكس كذلك ... وهذا لا يعنى تجريد الثقافة فى محتواها المتنوع فهناك ثقافة فردية تربية الملكة والذوق والجسم والنفس ، وهناك ثقافة اجتماعية تقرر النظام والعدل ، تنتج الى الطبيعة والآلة والفلاحة والطاقة والصناعة والمعادين لتطويرها بالبحث والتصميم ... وهكذا تتعاون الثقافات فيما بينها ليتكون انتاج جديد ، يعوض المندثر ، ويتلاحم مع المجتمع وينعكس ذلك على البناء الحضارى .

والحضارة هى آثار الانسان فى حياته العامة فى مأكله وملبسه وعاداته وعمرانه وابنيته وفكره وثقافته وهى انظمتها وتربيات حياته وهى أساليب تلقينه وتعليمه وبيعته وشرائه ، وزواجه وطلاقه ، وحياته وموته ، وحفلاته وافراحه واحزانه واعياده وصحته ومرضه واسلوب عيشه فى سلامه وحربه ... فكل هذه الحركات الدائبة فى المجتمع تعطى تحديدا نهائيا لما نسميه بالحضارة .

وكما يبدو من خلال هذا كله ، الحضارة هى تشخيص لحياة المجتمع ، ذلك لانه حركة فكرية ووجدانية تلاحم الثقافة الفكرية والفنية والوجدانية والفنية . وله كذلك عطاء تقنى يظهر فى التمدن المادى ، وفى انواع البنايات وانماط الألبسة والعادات

الانسانية ومن خلال ذلك تبدو الحضارة كشخصية لهذا المجتمع ... فتختلف باختلاف الحركة الخلفية لها ... وبذلك تختلف الحضارات بين الحضارة السحرية كالكلدانية والفرعونية والحضارة الدينية كالمسيحية والهندية والاسلامية والحضارة الفلسفية كال يونانية والهلينية . والحضارة العلمية والتقنية وكما تختلف الحضارات حسب أصولها ومقوماتها ، وحسب ما تعتمد من ثقافات ، تختلف كذلك تبعاً لمعطيات البيئة التي لها انعكاسات على طبيعة الثقافات ، فالبيئة الجغرافية اليونانية ذات الجبال العالية ، والرياح العاصفة أوحى بالخيالات والمثولوجية الاغريقية بينما توحى الصحراء بالهواجس الداخلية ، وتنمى الاحساس الباطنى ، كما أن ظلال الاشجار الباسقة في الادغال الموحشة مما يطبع حضارة الغاب بالحذر والوحشة ، وتؤثر البحار وأمواجها ، في تكوين حضارات البحار والمغامرات في عالم المجهول ... والواقع أن كلمة الحضارة تحمل بالتعريف المعجمى عدة معان ، فهي بالمعنى الانتروبوجى تتناول كل حضارة مختلفة عن الاخرى ، فتدرس كظاهرة اجتماعية لها خصائصها المعينة لها ، وتدرس بمعناها العام كفاعلية انسانية مبدعة ، فهي بالمعنى الاول تعنى ما نحن بصدد أى دراسة انتاج الانسان في بيئة جغرافية معينة مرتبطة بزمان خاص ، بينما هى بالمعنى الثانى تركز على المؤسسات الاجتماعية والثقافية والعمرانية ، وبذلك تدرس كظاهرة اجتماعية ضمن التقدم الاجتماعى والثقافى وهى بالمعنى العام تعنى كل المعطيات الثقافية والمادية التى اكتسبها الانسان خلال تحديه واستغلاله للارض والطبيعة .

والحضارة بهذا المعنى ذات فاعلية انسانية شاملة مشتركة ، كما انها بهذا المعنى توضح مدى حيوية الحضارة وعدم فنائها وفواتها ، وانما تستمر ثم تتحول وتتطور دون أن تفقد

خصائصها الاولى ولهذا فالتركيز على المعانى السابقة فى شرح الحضارة يدل على أن الحضارة بنية اجتماعية تعتمد التنظيم الاجتماعى والفنى والفكرى .. والتنظيم الاجتماعى بكيفيته وكميته ينعكس على المفهوم الحضارى كما ينعكس على الجهد الفكرى والوجدانى والتقنى ، ويخلف مقياس سموها بقدر ما تعطى من تنظيم ورخاء وسعادة عقلية ومادية ، اما هدف الحضارات فهو تحقيق حركة التاريخ لتطوير الانسان وتقدمه متكاملًا فى دائرة الاقتصاد والفكر والوجدان والعلم والتقنية . والحضارة مجموعة المعطيات المادية والمعنوية فاذا عرفنا حضارة مجتمع من المجتمعات البشرية عرفنا أنواع النشاطات الفكرية والوجدانية والابداعية والتقنية كما عرفنا ما يتوقعه أفراد هذا المجتمع من بعضهم ومن غيرهم لان الحضارة من حيث طبيعتها ووظائفها ذات وحدة فى المجتمعات كلها والخلاف بين الحضارات فى نوعيتها فقط .

والحضارة شروط :

- (1) نظام اجتماعى ينظم فيه الافراد بقوانين وأعراف وعادات وتقاليد ، لتكوين بنية اجتماعية سليمة متكافئة .
- (2) أعمال وانجازات تتوالى بفعل الذكاء الانسانى والتطور الدائب ، وتتبلور فى تقدم تقنى وفكرى .
- (3) قيم ومبادئ يهدف المجتمع الى تحقيقها ، ويناضل من أجلها تتجلى فى الثقافة العامة التى تضمن مستوى أخلاقيا وأدبيا واجتماعيا .

وعملية التطور هى تاريخ الحضارات ، فكل تقدم دفعة للامام ، واسهام من الجميع ، وعطاء لكل الامم ، وعلى أساس العمل المنظم تقع التنمية الحضارية . ويذكر الدارسون لشخصية

الحضارة وتفاعلها مع مكوناتها أنها تتسع باتساع
الممارسين لها والخالقين المجددين فيها وانها ، ليست لها
نهاية محتومة وليس في طبيعتها ما يرسم لها حدا معلوما (1)
(الفلكلور ومشكلات الحضارة المعاصرة) عالم الفكر المجلد 3 -
العدد 1)

الثقافة والمدنية والحضارة

أما عن تحديد العلاقة بين الثقافة والحضارة والمدنية
والمجتمع ، فقد اختلف الباحثون في هذه العلاقات فالمجتمع هو
مجموعة من الافراد تربطهم مصالح تنتهي بانتهائهم ، اما الحضارة
فهى اساليب مختلفة من الحياة للجماعة ... واذن حضارة مجتمع
هى طريقة الحياة التى يعيشها أفراد ومجموعة أفكارهم
والاستعدادات التى اكتسبوها .. فالحضارة تراث انسانى تختلف
بين المجتمع والاخر وان لم تختلف في طبيعتها التى هى تكيف
الانسان مع البيئة الخارجية .. ويفرق الباحثون الالمانيون بين
الحضارة والمدنية فالحضارة هى صورة التعبير عن الروح العميقة
للمجتمع ، أما مظاهر التقدم التكنولوجى والآلى فهى المدنية
(الفلكلور ومشكلات الحضارة ، عالم الفكر . الكويتية) .

ويذكر F. B. Taylor في كتابه الثقافة البدائية Primitive culture
ان الحضارة هى الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والعقيدة
والفن والاخلاق والقانون والتقاليد وكل القدرات التى يكتسبها
الانسان بصفته عضواً في مجتمع ...

ونتساءل عما كان من الضروري أن تتلازم الثقافة والحضارة؟
فالتاريخ يذكر نماذج لحضارات بدون ثقافة ، ولثقافة بدون

حضارة فكل ثقافة لم تشيد آثارا ملموسا تبقى حركة خفية دون حضارة ، فثقافة الزهاد لا تتبلور في حضارة .. كما ان الحضارات المدنية المنحرفة كالنازية تعتبر حضارة دون ثقافة مثل ذلك الرجل القوى الجبار الذى يفترس كالحيو ان فهو جسم عليه البسة الحضارة ولكنه بدون ثقافة ، والحقيقة أن القول بالتفريق والفصل بين الحضارة والثقافة يرجع الى اختلاف التصور لمفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة ، ذلك لان مفهوم الثقافة يختلف باختلاف الحضارات والبيئات كما يختلف حسب الاشخاص ومستويات ثقافتهم .. وهذا الاختلاف في مفهومها يؤدي الى الاختلاف في تحديدها ، لذلك خصها الكتاب المعاصرون بتكاليف مختلفة المشارب للتعريف بها وبيان فروعها ونواحيها وعلاقاتها بالحضارة والمدنية والمجتمع .. فالمفكر الفيلسوف الذى يفضل حياة الادغال هو مثقف وفي نفس الوقت يعطى للحضارة التى يمارسها عطاء انسانيا .. والبناء الامي الذى يعمل دون وعى وتصميم يعطى للحضارة عطاء بارزا في الماديات والمظاهر .. وهذا الاختلاف بين العطاء الثقافى والعطاء المادى الحضارى يرجع للخلاف في تحديد الثقافة نفسها فقد عرفها المفكر (ماتيو ارنولد) بانها افضل ما انتجه الفكر وصاغته الاقلام .. كما عرفها قبله المفكر الفرنسى بونكارية قائلا ... انها ما يتبقى في الذهن بعد نسيان كل شئ ؟ ... ولعلنا بهذين التعريفين نقارب بين مختلف التعاريف القديمة التى جعلت الثقافة تعتمد المعرفة ، والوعى ، والتعبير اما مفهومها الانثربولوجى فهو انها مجموعة العناصر المكونة لنمط خاص من أنماط الحياة .. ولاشك أن الثقافة سواء بالمفهوم التقليدى أو بالمفهوم العلمى الحديث . هى وسيلة للسمو بالانسان سواء بوسائل جديدة تهدف الى التوعية الثقافية أو بالوسائل التقليدية .. فليست لها غاية الا ان تكون عاملا لاسعاد الانسان

وجدانيا وعمليا .. والترفيه عنه وتركيزه الترابط بينه وبين مجتمعه والانسانية جمعاء .

والثقافة تعبير واع واقع بأسلوب لغوى أو بأسلوب فنى عن خصائص المجتمع المعبر عنه ، هادفة الى غاية انسانية ، ولهذا فالثقافة تعبير عن كل عمل انسانى واع سواء كان صادرا عن العقل أو عن الوجدان ولذلك أيضا فالعلم جانب من جوانب الثقافة والفن كذلك ، والكلمة المسموعة والمكتوبة تعابير ثقافية وقل كذلك عن العوائد والمثيولوجية ، والاعراف والفلكلور تعابير ثقافية .. واذن فالثقافة تمس كثيرا من الجوانب التى تستقل عنها فى الدراسات الموضوعية . فالعلم ، والميثولوجى والفن والفلكلور قد تكون مجال دراسات خاصة موضوعية وبذلك تكون علوما أو فنونا ولا تكون ثقافة الا حين تكون تعبيرا عن واقع وتهدف الى شىء ، أى عندما تحيا وتتحرك وتواكب الحضارة الانسانية .. ولكن عند ما نحاول تحديد الثقافة لابد من الاستعانة بهذه العلوم ودراسة جوانبها الثقافية ، فلذلك تعتمد على الميثولوجية وعلم الاثنولوجية وعلى تاريخ العلوم والفنون وعلى الفلكلور وعلى مختلف العلوم التى من بينها أيضا (علم اجتماعيات الثقافة) وهو علم حديث يبرز علم الاجتماع الثقافى كعلم دى قوانين وقواعد .

وكلمة الثقافة فى أصلها العربى لا صلة بينها وبين كلمة Culture (كلتيور) الالمانية أو الفرنسية التى لها معنى حصيلة ما يزرع ، فهى فى هذا الأصل لها جذور عقلية بينما هى فى العربية لها جذور اخلاقية ، واذا تجاوزنا الأصل اللغوى الى الأصل التاريخى ، نتساءل عما اذا كانت الثقافة تقيّد الابتكار والخلق أو هى التقليد والاتباع ؟ أو هى انتهاج المثل الاعلى الخلقى أو انتهاج المنطق الفكرى ؟ اذ ان المثقف يكتسب

معرفته عن تجاربه الشخصية وعن أصالته للاستفادة من هذه التجربة وإشاعتها بين مواطنيه لما فيها من خير لهم جميعا ولما تسعدهم به من تكوين مجتمع سليم وهذه الإشاعة قد تصبح تقليدا في الاتباع أو تقليدا في الخلق ، اذ الاول يؤدي الى التقليد الاعمى والثانى يفضى الى التفتح الثقافى . وقد ادرك كثير من علماء الاجتماع آفة التقليد في الشعوب فابن خلدون يرى ان الشعوب المغلوبة عندما تقلد تفقد شخصيتها ومن عادة المغلوب أن يقلد الغالب، وكذلك فان من عادة الغالب أن يستعمل الجونسيدلثقافة المغلوب ، وبقدر ما تكون الثقافة عريقة وانسانية يصعب تفويتها ولو على الغالب لان انسانيتها تتحكم في مصير الغالب أيضا وتنقل اليه ، كما وقع لكثير من الشعوب التي دخلت الاسلام فاعتمدت على الثقافة الاسلامية في بلورة شخصيتها الجديدة اما الثقافة الضيقية التي لا تصدر عن ذكاء الخلق والابتكار فهي تفضى الى العزلة والانحصار ، وتعرض للكساد وعدم القدرة على التحدى وموافقة التطور ، وهذه آفات تعرض للثقافة اما لان اصولها الاولى ليست عريقة تعتمد على مقومات اصيلة ، واما لعدم التزامها لخدمة قضايها ، واما لانحرافها عن رسالتها ، واما لانها لم تعد واعية بمقوماتها كما هو الشأن في عدة بلاد اسلامية رغم انتمائها لعالم الاسلام لان الثقافة اذ تصدر عن عقيدة تحدد مفهوم الكلمات والاصطلاحات والتعابير فلا ثقافة دون عقيدة اذ من العسير ان يلتزم الانسان دون رصيد اخلاقي ، وكما تعتمد الثقافة على العقيدة تعتمد على اللغة القومية التي تحدد المفهوم اللغوي في عقلية الشعوب ، ونحن نرى كيف يفهم المسلمون القرآن اخلاقيا دون معجمية ويلتزمون لمبادئه العقيدية لارتباط العقيدة باللغة . فالعقيدة تحدد اللغة وتكون العقل والآداب ، واللغة تخدم العقيدة

وتصل بمراكز العقل الانساني ، والعقيدة تخلق الوحي في الانسان واستمراره ليلتزم ، وتظل اللغة السر الامين لنقل الايحاء والفكر وصلة الانسان بالانسان ... فعوامل البيئة الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والجنسية تتعاون في تحديد اللغة ومدلولها وصلتها بالفكر لوخز مكانه الاخلاقية ، وذلك جانب الثقافة الاهم في الانسان لان الثقافة لا بد لها من عقيدة ومن لغة ومن هدف ، ومن وعي ومن أسلوب في التعبير عن الفكر والوجدان والعواطف سواء باللغة أو اليد أو الرسم أو النحت أو الموسيقى أو الرقص أو الفلكلور الجماعي ... ويهدف كل ذلك للسمو بالانسان وتعاطفه مع الانسان لانه حيوان رامز يسعى دائما للتعبير عما يجيش به عقله ووجدانه ليتصل بمجتمعه الصغير وهو أسرته ، والكبير وهو مجتمعه ، والاكبر وهو الامة جمعاء ، وهذا التعاطف الثقافي يسمو على اللغة لانها وسيلة للمجتمع القومي ، ولذلك يلاحظ أن الصلة الثقافية في قيمتها تربط بين المفاهيم الانسانية متجاوزة اللغة التي هي وسيلة لخدمة الانسان في مجتمع ضيق نسبيا . لهذا نلاحظ استساعة لآراء (روسو) و (فولتر) وسينسر وجيمس كومت ، في المجتمعات الاسلامية اكثر من الاستساعة لآراء البابوات ورجال الكنيسة لتقارب الهدف الثقافي الانساني ، كما نرى صلة الغرب بابن رشد وابن خلدون اكثر من صلته بالامام مسلم وأبى حنيفة .

ان الايمان والعقيدة واللغة والالتزام والهدف أساس الثقافة التي هي روح للحضارة بل انها مظهر خارجي وعارضة للمحتوى الثقافي ، أما اللغة فتحدد بعمق الفكرة الاصلية التي تصدر عن مثقف عبقرى ، وقد يكتب الكاتب بغير لغته وهذا لا يمنعه ان يكون مثقفا ، ولكن تفقده الاصاله في التعبير ، ولذلك لا نعثر على شاعر فرنسي باللغة العربية ، لان الشعر هو ارقى فنون الكتابة الذي

يفتقر الى عبقرية اللغة ، كما ان كثيرا من المثقفين العرب الذين كتبوا بالفرنسية لم يكونوا من عباقرة الشعر وقد يحسنون القصة والمسرحية وما يتصل بالثقافة العامة ، ولكن الاصالـة اللغوية في الشعر لا بد لها من جذور محلية ، لان الكلمة تعبر عن حقيقة باطنية وتترجم عملا .. فالرقص قد يكون مشاعا ومفهوما لانه ليس تعبيراً بخلاف اللغة المعتمدة على عمق الاصالـة .

أما عن علاقة الحضارة بالمجتمع ، فالمجتمع هو مجموعة افراد ... فهو اذا فرد كبير ، ولهذا فالمجتمع هو بيئة الحضارة ومجالها ومصدرها فكلما كان قويا نشيطا الا اعطى حضارة متينة ، فالمجتمع كالانسان حين يصاب بالضعف وعدم القوة ، يضعف ابتكاره فيصبح هزيلا ،، وهذا ما تصاب به الحضارات ، فعندما تنطفئ الحضارة الغالبة على الحضارة المغلوبة تفقد الثانية شخصيتها وتصبح مقلدة تشك في قيمتها وقوتها وقدراتها وقد ذكر ابن خلدون ذلك في مقدمته حيث عقد فصلا خاصا عن تقليد المغلوب للأغالب ، فتضعف حضارته لاهمال مقوماته التي هي فعالية المجتمع بنشاط افراده ... ولهذا فالمجتمع هو مجال الحضارة ومقياسها فكلما كان مجتمعا نشيطا حيا الا وكانت حضارته حية نشيطة وكلما اصاب بنـابة الا وينعكس ذلك على حضارته ذاتها .

نشأة الحضارات في نظر الاسلام :

يقرر الاسلام (والديانات السماوية بصفة عامة) ان الحضارة تحققت على الارض بارادة الله فقد خلق آدم واصطفاه وجعله خليفة في الارض ليعمرها ، والهمه من فيضه كل أسباب الحضارة والعمران ، فعلمه الاسماء كلها ولا يوجد اسم بغير مسمى ثم

تتابعت رسالات الانبياء والرسول ترشد الانسان بوحي من الله ليقاوم الشر للخير ويعصم من الانحرافات ... ورغم ظهور نزعة التطور الداروينية التي تقرر أن الانسان انحدر في تطوره من القردة فان هذه النظرية ظلت تعاني حاقة مفقودة ، وظل كثير من المفكرين في مذهب التطور يرون ضعفها ويقرر المفكر الفرنسي (جان بيفتو) رئيس المجلس العلمي البارزى الذى وقف جزءا من عمره لدراسة أصل الانسان ، أن النظرية القائلة بوجود جدع مشترك انبثقت عنه كل من الجنس البشرى و جنس القردة الكبيرة ما تزال مفتقرة الى البرهان الحاسم ، واذا كانت هناك تشابهات بين الانسان والقرد ، فانها غير كافية للجزم بوجود اصل واحد للانسان والقرد ... والشئ الذى جعل كثيرا من علما التطور يرون أن بعض القردة تحولت الى خلقة بشرية وبقي بعضها على خلقته ما يزال مجهولا ، ولو أنا سلمنا بان الجنس قد افترقا بعضها عن بعض في زمن من ازمئة التاريخ فما نزال نجهدل الاسباب العلمية الحق ، بل ثبت بالمراقبة العلمية ان تطوّر الكائنات الحية ينتجه متصاعدا الى مرحلة الكمال (النفسى) وبما ان الانسان اكمل الكائنات جسميا روحيا ونفسيا فان من المنطوق القول بان الانسان كان في سلسلة التطور اكمل مما انتهى اليه القرد لما له من خصائص نفسية متفوقة .. ولهذا فان الانسان لم يظهر على الارض صدفة وانما كان الهدف الحق من تنظيم الكون فجاء مركبا في احسن تقويم ، وهذا ما يؤكد علميا النظرية الاسلامية والدينية بصفة عامة . ويتحدث بعض المفسرين عن تعدد الاوادم بذليل نص (القرآن) على علم الملائكة بأن الانسان سيفسد في الارض ، وهى قوله دالة على تجربة الخلق قبل آدم .

والحضارة في نظر الدين لها بداية ، ولها نهاية

ونهايتها يوم القيامة . وعندما تنتهي اعمال الانسانية سيسأل عما فعل في حياته وبهذا فان الحضارة الاسلامية حضارة دينية واعية ترتبط بالمستقبل الاخرى الواضح المعالم .

وكلما ورد في القرآن الكريم عن الحضارات القديمة فهو تقرير لمصيرها من الوجهة الاخلاقية ... واطهار ان انحرف الانسان هو انحراف للمجتمع وبالتالي نهاية للحضارات وسقوطها النهائي المأساوى .

وقد اعترف الباحثون الحضاريون كجستاف لبون ، والمؤرخ روزنتال في كتاب التاريخ عند المسلمين بقيمة الحضارة الاسلامية ومعجزتها سواء من حيث نموها بسرعة مدهشة أو ابداعها ونموها بالتوسع أكثر من العمق (1) .

نشأة الحضارة في نظر العلم :

ويرى علماء الانثروبولوجى أن الانسان الاول البدائي عرف حضارة بسيطة تناسب حياته في الكهوف أو الادغال وكل ما يمكن أن يقال عن عطاء الانسان الاول البدائي الذي كان يعيش منذ حوالي نصف مليون سنة خلت انما هو تخمين وافترض وقد عثر على آثار فنية حضارية قرب (بايا Bayonne) أو بكهوف جرسالدى حيث تطورت صناعات الانسان في النحت والتصوير والحرث ... وظهرت بعد ذلك الاسرة كنواة للمجتمع وكان الانتساب الى الام والخضوع لحكم المرأة Regime matricirchal

(1) نشر جوستاف جون جرونديام . الاستاذ بجامعة شيكاغو كتاب الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية ويشمل مقالات تبحث عن الاسلام باعتباره حضارة ودينا ، وتبحث التراث الثقافى ، وحالة البلاد الاسلامية وعلاقة العرب بالحضارة الاسلامية .

ثم أصبح الرجل صاحب السيادة وقد نشأ عن هذا التفاعل الثقافى والاجتماعى والبيئى حضارة بدائية كانت القبيلة نواتها فظهرت الطوتمة لمعرفة أعضاء القبيلة وتحالفهم مع بعض الحيوانات والاشجار .. ومن هنا نشأت حضارات ذات قوانين اجتماعية وصلات دينية حسب الموقع الجغرافى والتأثيرات البيئات آثر على نشأة الحضارات وتورها بسرعة أو توقفها دون تطور ... وتلاحمها أو تعزلها وتفصلها حسب مدى قدرة انسان كل بيئة على التحدى والعطاء الفنى واللغوى والمعمارى .

ومن المفكرين من يرى ان الحضارة نشأت بسيطة وتطورت وما تزال دائبة فى التطور ويذكر سبنسر أن المجتمع الانسانى كائن عضوى تماما له اعضاء للتغذية ودورة دموية وتعاون بين الاعضاء وتناسل ، فهو يولد وينمو ويمتد ثم تستقل أجزاؤه ، والمجتمع كالفرد يتعاوره التكون والانحلال فقد تمت الوحدة السياسية من الاسرة الى الحولة ثم عصبة الامم ، وكذلك الوحدة الاقتصادية من الصناعة المنزلية الى الشركات ، كما تمت القرية الى المدينة . فالتطور حتمى فى المجتمع يتألف ويتنافر ، وهدف التطور هو الصناعة والرقى والتخلى عن الحروب .

ويرى ابن خلدون أن الحضارة هى نتيجة حتمية تطورت من العصبية القبلية والحياة البدوية الى الحضارة حسب مرحلة مضبوطة ثم تنتهى لتنشأ حضارة اخرى فهى مثل الكائن الحى يولد ويشب ويهرم ويموت ليترك المجال لوليد آخر ويرى مثل هذا الراى (فيكو) وغيره من المؤرخين ولابن خلدون نظرية متكاملة عن نشأة الحضارة وتطورها ونهايتها وتفاعلها مع بعضها بالتقليد والمحاكاة وغير ذلك .

بينما يرى هيجل (1770 — 1821) ان الحضارات تجارب

بشرية ، وهى فلسفات متعددة فلكل حضارة فلسفتها وحضارة
فكل امة لها روح ولباب Geis وتتكون كل حضارة من
مفهوم خلقى وتنظيم اجتماعى ، ومن تفاعل هذين مع حركة
الزمان تنشأ حركة التاريخ وغاية الحضارة هو تحقيق المطلق
كما هو فى تصور المسيحية ، وقد درس هيجل تسع حضارات منها
مصر الفرعونية والعربية بطريقة منطقية جدلية وقد حاول
سبنجلر Spengler (1880 — 1936) أن يفسر قيام الحضارات
وسقوطها بناء على تصور عضوى لبناء الجماعات ، حيث يرى
ان الجماعة كائن حى يولد وينمو ويموت ويسمى الاوج بمرحلة
يكون الانحدار والتوقف ... ويعطى توينبى Toynbee تفسير
للحضارة بناء على نظرية التحدى والاستجابة Challenge aid response
حيث اعتمد احدى وعشرين تجربة حضارية ويفسر الحضارة
أنها نتيجة تجربة اشتراك جماعة فى نظرة واحدة للعالم تلك
النظرة التى تحدد موقف الجماعة كلها من الحياة كما تحدد
العمل الجماعى والروابط الدينية والسياسية والفلسفية
والاقتصادية والانشطة الفلاحية والتجارية الخ ... ولهذا فلا
يقسم توينبى التاريخ الى عصور ولا الى دول بل الى وحدات
حضارية ، كل وحدة لها طابع فكرى خاص ، ولهذا يتكلم عن
الوحدة المسيحية الشرقية أو الجماعة الهندية الخ ، والحضارة
لا تمر فى مراحل الكائن الحى العضوية وانما هى تطور الجماعات
من نشوئها ونموها وسقوطها وتفككها .. فهى فى مرحلة النمو
تغزو شعوبا اخرى لتتحول الى دولة عالمية اى جزءا من العالم
وعندما تتفكك تترك طابعا حضاريا فى الوحدات الصغيرة التى
تتجراً . والحضارة تصيغها نخبة قليلة حيث ترسم وتبدع اما
الجمهور فهو طبقة عاملة فتكون داخلية أو خارجية وبعد صراع
بين الاقلية والعاملة تنتهى الى السقوط ، ثم تبدأ تجربة حضارية

على يد شعب آخر ...

فالحضارات لا تنفى آثارها وحضارة كل جماعة وان اجتازت مرحلة النمو ثم السقوط ثم التحلل The Disintegration فهي في نموها تدخل في كيائها شعوبا اخرى لتتحاول الى دولة عالمية Universal State وليس من الضروري ان تشمل العالم بما فيه وانما تشمل قسما منه فقط وفي اثناء التفكك تخلف وراءها طابعا حضاريا حيا فاعلا في كل الوحدات المجزأة عن الدولة العالمية وسمى المؤرخ الانجليزى هذا الطابع الحضارى Universal church كما ان كل حضارة تلتقى باخرى لتتكون حضارة جديدة كما يلتقى الجدول بالجدول ليكونا نهرا كبيرا فهناك الالتقاء ولا يمكن أن يكون السبق هو الاساس الحضارى .. ان فلسفة (التركيب الحضارى) لا تعنى افلاس الحضارات ونهايتها بقدر ما تعنى تفاعلها واستمرارها أما عن مكان نشأة الحضارة الاولى فقد قال بعض المتخصصين أنها نشأت الشرق الأدنى بوليل وحده الكلمات اللغوية الاساسية كالام والاب . وقبل نشأت في عدة أماكن ومن المؤرخين من من يجعل (الساميين) آباء الحضارة ومعظمهم يرى أن (السامية) تغير عن العرش لتحقيق اهداف عنصرية .

لماذا الاهتمام بدراسة الحضارة العربية الاسلامية :

ان الاهتمام بدراسة حضارتنا المغربية الاسلامية هو لبورة شخصيتنا التاريخية والمعاصرة حتى نستطيع استجلاء حقيقتنا للاسهام في عملية انقاذ ما تعانيه الحضارة المعاصرة من ضحالة روحية ، ذلك أن الباحثين في الحضارة الغربية يتفقون أنها حضارة مادية تقنية تولدت كرد فعل ضد سيطر الكنيسة الروحية على اوربا ، وعما خلفته تلك السيطرة من فقد توازن بين الروح

والمادة ، فكانت حضارة أوربا ترتكز على أحداث مفهوم جديد للانسان يجعله أداة سيطرة على الطبيعة واستغلالها احساسا بشخصيته المستقلة عن الكون وحقيقته الفردية ، فساد الاهتمام بالعلم الطبيعي وتآزر العلم والفن والفلسفة في خلق عالم جديد وحضارة تسودها التكنولوجيا ولم تتأقلم هذه الحضارة وانما عمت العالم كله على حساب المقومات الروحية فاضحت تعانى في نفسها أزمة روحية (عبر عنها الفلاسفة الوجوديون بالقلق الروحي) والاشفاق عن مصير الانسان امام عملاق التقدم المادي الذي سوف يدمر العالم اذا لم تصاحبه روح انسانية ومعطيات روحية ... ولهذا فنحن نصرف الاهتمام الى ابراز معالم الحضارة الاسلامية التي تعتمد القيم الانسانية كلها والطاقات البشرية وتحفظ التوازن بين الانسان وطاقته وبيئته .

علم الحضارة المقارن :

والحضارة المغربية الاسلامية شارك في انمائها العرب والبربر وغيره من المتواجدين بأرض المغرب وتأثرت بالحضارات الفينيقية والقرطاجنية المتأثرة بالحضارات الشرقية كلها من البابلية والكلدانية والاشورية والفرعونية كما تأثرت بالحضارة الرومانية المتأثرة باليونانية والهلمية ثم الحضارة الاسلامية التي اخذت عن حضارات فارس والروم والترك والهنود والصين .. فالحضارة المغربية هي حضارة اسلامية وعربية ومغربية اعتمدت الفكر العربي واللغة العربية والاخلاق العربية والاليق أن نسميها حضارة مغربية اسلامية ، مغربية لانها تعتمد الوطنية والقومية وتاريخ المغرب قبل الاسلام ، واسلامية لانها حققت ذاتها ووجدت حقيقتها وقوتها واعطت من فيضها بفضل الاسلام وتعاليمه وتوجيهاته ، فالمغرب اسهم في الحضارة الاسلامية كلها

سواء التي انتشرت في الاندلس واوربا أو افريقيا عبر الصحراء وبلاد السنغال ... فكان المغرب من بناة الحضارة الاسلامية .

واذا كان الحاضر وليد الماضي ... فالمستقبل امتداد الحاضر، لان الحاضر حصيلة الاحداث الماضية بمعناها الواسع وهي التي تكون حاضرا .. ولذلك فنحن نعمل على تجسيم الحاضر وتحسينه لبناء غد أفضل ، مستلهمين كل مصادر القوة ومزكبين كل عوامل كرامة الانسان ومحاولين معرفة الاصلية بانتسابنا الى أرض تلائمنا معها ؟ دون ان تصرفنا العواطف عن الموضوعية ، ولا الموضوعية عن الانسية المغربية .

واذا كانت شعوب دخيلة جعلت عن بلادنا مسرحا لاحداثها، فان من واجبنا ان نفرق بين الاصيل والدخيل ، والمضر والنافع دون ان نتيح الفرصة لاحد ليتجاهل دورنا الحضارى البناء .

ان هدف دراسة تفاعل حضارتنا يرتكز على معرفة الحضارات القديمة وتفاعلها واسهامها كلها في العمل الانساني مما جعلنا نحتاج للمستقبل من طغيان الجانب المادى على الجانب الروحى حتى لا نشاءم مثل (سبنجلر) Spengler في كتابه (سقوط المغرب) ومثل توينبى الذى لاحظ أن أزمة الحضارة الغربية هي طغيان جانبها المادى . فالهدف من هذا التعاون تحقيق انسانية كاملة لا قمع فيها ولا تسلط ولا ظلم ولا طبقية ولا استغلال .

واذا كان التعليم تكوين عقلى وروحى وجسمانى للناشئة ، لتواجه الحياة العلمية وتجعل من الانسان قوة واعية لشخصيتها ورسالتها ، كما توضح طريق العمل للمجتمع ، فالحضارة وهي الانتاج الضخم نتيجة لهذه الاعمال ، ومهما تكن برامج الحاضر ومناهجه متسمة بالواقعية والتقنية والمعاصرة ، فلا يمكن مطلقا ان نتناسى أثر الماضي في توجيه التخطيط وفي التكوين العقلى

والفنى والوجدانى ، وليس معنى ذلك الدعوة الى الاستكانة الى اعمال الجودود وامجاد الماضى بل ان الايمان بالماضى يجب ان يكون بقدر ما فى فعاليتته وجدوده فى توضيح طريق المستقبل ، التى نحن مضطرون الى سلوكها ، ومرغمون الى تأليف انفسنا معه ، لان التاريخ ليس ماض فقط ، وانما هو خط وهمى يطلعنا على المستقبل ؟ ولا اعتقد ان اى طبيب فى وسعه ان يعالج مريضه دون ان يعرف تحليلا دقيقا لتاريخ مرضه والمه ، سواء كان طبيا نفسيا أو طبيا عضويا ، ومن هنا لابد للتفكير للمستقبل من معرفة الماضى الذى ليس احداثا بقدر ما هو علل واسباب لمختلف المظاهر ، والعلل بدورها نتائج لتفاعل الفكر مع البيئة والزمان ، ولهذا فتاريخ الفكر أجدى من تاريخ الاحداث لانه يفسرها .

ولاثراء الفكر المغربى لمواجهة المستقبل المطلق يوجب شحذه بحركة الماضى ، وغنى الانتاج فى البيئات الفكرية العميقة التى تتخيل وتصمم قبل البناء فليس التاريخ قضاء مبرما ، وانما هو حركة عميقة ومغامرات وجدانية وفكرية فى الماضى ، لشحذ الفكر فى المستقبل للتطور الى حياة احسن . ومن يستطيع اذا واجهته المضلات أن لا يرجع الى ذكرياته وتجربته ليواجه المشكل فينتصر حسب صلابة عوده واختمار تجربته ، وما تاريخ الفرد الا تاريخ مصغر لتاريخ الامة ، لان كينونة الفرد استقطاب مصغر لكينونة الجماعة ، ثم لكينونة الانسانية جمعاء المتفاعلة مع الكون فى ظواهره البادية واسراره الخفية ، وحركة الفكر والوجدان اقرب الحركات الى كينونة الفرد والجماعة ، واصدق طريق للتجمع والائتلاف واقوى دعامة للهدف الغائى لعمل الانسان .

والمغرب فى خضم هذا المجال الممتد أفقا وعرضا ، اى فى جذور تاريخية وفى اتصالاته مع اصناف من الثقافات والاراء والنظريات الخارجة عن بيئتنا فى حاجة ان يتبين طريقه وموقعه

الفكرى جغرافيا وتاريخيا ليخط مذهبه على أساس الواقع والتاريخ وليرسى حضارته على اسس متينة .

وقد تحدث كثير من المؤرخين العرب والمستشرقين عن مظاهر الحضارة المغربية كابن ابي زرع في (القرطاس) ، والجزنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في العبر وابن الخطيب في الاحاطة ، والمراكشي في المعجب ، والزركشي في تاريخ الدولتين ، وابن مرزوق في المسند الصحيح ، والفشتالي في المناهل وابن زيدان في الاتحاد وابن ابراهيم في الاعلام وغير هؤلاء كثير ...

كما بحث كثير من المستشرقين في الحضارة المغربية مثل مارسى ودوزى ، وتيراس ، واندري جوليان ، وكوتيتي ، وكودارت وميلي وجوستاف ، وسيديو ، وغير هؤلاء ، غير أن أبحاث المؤرخين العرب يختلط بها البحث التاريخي بالبحث الحضارى وينقصها التسلسل والبحث العلمى ، كما ان دراسة المستشرقين تنقصها النزاهة ، وربما تتحكم فيها عوامل عقلية اجنبية غربية عن فهم طبيعة الحضارة المغربية الاسلامية .

وقد كان المغرب معبر ثقافات وحضارات ، بل ان المغرب عندما سد ابوابه في بعض مراحل تاريخه انعزل وضعف أمره ، ووهى شأنه ، لان طبيعته تابى الانكماش ولأن موقع المغرب (البرمائى) بين القارات والمحيط الاطلسى ، والابيض المتوسط ، جعله ذلك كله نقطة ارتكاز حضارى ومعبرا ثقافيا دائم الحركة والنشاط فكريا واقتصاديا .

حيوية الحضارات :

ظهرت عدة نظريات في موضوع حيوية الحضارات فالنزعة الوظيفية تحصر مهماتها في مقارنة عناصر الثقافات

والحضارات البدائية بعضها مع بعض ، مع بيان وظيفة كل عناصرها داخل الكل ، وتعنى بحراسة الشعوب البدائية كما هى فى الواقع لتشرح وظيفة كل ظاهرة فى اطار مجموع الظواهر المشكلة للثقافة والحضارة .. وبجانب النزعة الوظيفية تعتمد النزعة التطورية على تطور المجتمع تطورا تاريخيا أى على ما كان من قبل ثم ربطه بواقعه وحالته ، ويرى بعض المفكرين المعاصرين ان الحضارة تسير بين قطبي الشرق والغرب أو بين اوربا وامريكا فى تبادل وتعاقب فهم فى الشرق حية حتى اذا استهلكت تحولت الى الغرب لتعود منه الى الشرق فى حوار مستمر ؟ ويعبر تتبع ما قيل فى الموضوع فى هذا الكتاب الذى هو رؤوس أقلام لبحث الحضارة الاسلامية المغربية ؟

نشأة الحضارة في المغرب

الانسان المغربى الاول :

كان العصر الجليدى أو الزمن الرابع مرحلة جيولوجية لتكوين سطح الارض ، ومن المؤكد أن الانسان لم يظهر قبل العصر الجليدى . فلما كانت نهاية هذا العصر ظهر الانسان الاول على البسيطة فى البقاع التى خف فيها الجليد ، ولم يبق معرضا لخطر الطوفان الذى تعددت آفاته من أثر ذوبان الجليد ، وفى العصر الحجري الاول أخذ الانسان المغربى يصنع أدواته البدائية من حجر الصوان التى عثر المنقبون على الكثير منها ، وبالأخص فى جنوب تونس بنواحي قفصة ، أما فى العصر الحجري الوسيط ، فقد عثر المنقبون على أدوات حجرية كالسكاكين وصفائح حجرية مستعملة لتجزئة لحوم الصيد ، وفى العصر الحجري الاعلى ، ظهرت الادوات الحجرية المتعددة الاشكال التى عثر عليها الاثريون فى نواحي قفصة ووهران وسواحل المحيط الاطلسى المغربى ، وقد ارتقت الحياة وتطورت فظهر فى الشمال الافريقى الوعل والفيل الافريقى ، وفى العصر الحجري الثالث ، بدأ صقل الحجر والاستعداد للدخول فى العصر المعدنى والبرونزى . وكانت الصحراء المغربية فى هذا العهد غنية بالوحوش من فيلة وزرافات وأسد وفهود وتماسيح مما يدل على خصوبة أرضها ، وترك الانسان المغربى القديم نقوشا على الصخر تعطى نظرة عن الحياة فى هذه الحقبة عما وصل اليه

الانسان الافريقى من تطور فى تدجين الحيوانات واستغلال
لحمها وصوفها ...

وقد دلت الادوات والمخلفات الحجرية البيضوية الشكل
حيننا ، على مدى مهارة الانسان الافريقى وذكائه ... وتوجد بقايا
أدوات حجرية مصقولة كالمقابض والفؤوس والاسلحة فى
نواحي شالة وسيدى قاسم وسوق الاربعاء ونواحي تارودانت
فى جبال الاطلس الكبير ، وكلها تدل على أن الانسان المغربى
ذا كفاءة ونشاط وذوق فنى ...

ولعل أقدم انسان عثر عليه فى افريقيا الشمالية عاش منذ
أربعمائة ألف سنة تقريبا ، وذلك فى عهود مختلفة
منها الصقلى ، ويناسب آخر عصور ما قبل الجليدى والميلازى
والتبرينى ، والمنسترى أو (فريملى) الذى يناسب عصر ما
بين الجليدى وعصر (ريس - ورم) ثم فى العصر المناسب فيما
بعد الورمينى أو الفلاندرى ، ويقول بعض علماء الاجناس ان
الانسان المغربى هو أول انسان عرفه التاريخ ، ومن المغرب انتقل
الى أوروبا شمالا ، وافريقيا غربا ، ويؤكد العلامة سرجى أن
الانسان الاوربى الابيض أصله من المغرب (من وهران) وعثر
فى سنة 1933 أحد حراس مصلحة الآثار بالرباط على جزء من
فك بشرى ، كما عثر بعد ذلك بثلاث سنوات فى القبيبات بالرباط

(1) يظهر فى دراسة علم اصول الانسان لبقايا هياكل الحيوانات وهياكل
الانسان القديم ، وما تركه من مخلفات بأوروبا أن الشمال الافريقى هو
المهد الاول للانسان الابيض بدليل وحدة البناء بين شواطئ المحيط
الاطلسى ووحدة الادوات الحجرية ، كما أن جبهة الإنسان الاول
من بقايا العصر الجليدى بأوروبا تتشابه مع جبهة انسان العصر
الحجرى بافريقيا . فأصل الاوربيين على هذا من شمال افريقيا
ويطلق عليهم أور افريكان Eurafraican ، ومنهم الايبيريون ، وتؤيد
لغة الباسك هذه النظرية باصولها الافريقية البربرية ، ويكون هذا
دليلا على أن شمال افريقيا هى أصل الانسان الابيض .

على هيكل بشري له 16 سنة من بقايا العصر الجيولوجي ذى تكوين بدائي ، وأسفرت الدراسة الانتروجولوجية عن هذا الهيكل بأنه شبيه بخصائص الهيكل المكتشف فى نياندا نطيل Néanderdertel قرب نهر الريف ، كما اكتشف بجانب الهيكل الانسانى هياكل للفيلة قرب الدار البيضاء بمنجم سيدى عبد الرحمن ، وبالإضافة الى وجود الانسان فى شمال افريقيا فى هذه الناحية عثر على بقايا مصنوعات بيد مغربية فى سيدى عبد الرحمن بالدار البيضاء وسوق الاربعاء وعرباوة مما يدل على عراقة الحضارة المغربية ، وعثر فى أرحود قرب آسفى سنة 1962 على جمجمة تقارب صفاتها انسان (نياندرتال) واكتشفت بقايا اسنان راقية التركيب قريبة من الانسان الحالى فى مغارة قرب تافورالت ترجع الى اثنى عشر ألف عام .

واذا تجاوزنا الانسان الاول الذى ظهر بالرباط وعرفت آثاره بسيدى عبد الرحمان بالدار البيضاء فاننا نجد آثارا عريقة فى القدم فى كهوف جبال (تاشوكالت) وجبال (اخفى تازت) بل نجد فى هذه الكهوف رسوما للفيلة والاسد مرسومة على الصخور بطريقة بدائية دالة على وجود هذه الحيوانات ببلادنا التى كانت أرضا ملتفة الاغصان كثيفة الاشجار كغابات البلاد الافريقية مما يدل أن المغرب كان يمتد الى افريقيا السمراء لا تفصله عنها هذه الصحارى الرملية التى تكونت فى عصور لاحقة ...

وتدل الآثار القديمة أن المغرب فى عصوره الاولى كان يسكنه منذ عشرة الالف سنة تقريبا سكان سود البشرة ثم انقرضوا وهاجر اليه سكان الصحراء الكبرى الذين كانت بلادهم خصبة فى أول الامر ثم استحال لاسباب جيولوجية الى صحراء وأصبحت موطنًا للسلالة السامية منذ آلاف السنين ويثبت

التاريخ القديم منذ العصر الحجري وجود الانسان في افريقيا حيث عثر على بقايا هيكل في طنجة . ويؤكد العلامة الطبيعى (بيفتو) أن انسان نياندرتال وجد منذ العصر الحجري وانتشر في مختلف القارات ولعل هذا الانسان سبق بأنواع أخرى قبل انسان (نياندرتال) الذى كان منتشرا في كل بقاع العالم وبالاخص في افريقيا ، نظرا لصعوبة الحياة في أوربا التى لم يستطع الانسان الحياة فيها في العصر الثلجى مما ساعد الانسان الافريقى على النمو وتجاوز حياة الكهوف الى الحياة في العصر الحجري حيث تحدى قسوة الطبيعة واستعمل الادوات البدائية بمهارة ودقة .

ثم ظهر الانسان (المستيرى) الذى كان في افريقيا يمثل نموذجا وسطا بين المستيرية والانسان ذى الملامح الميكوكية الاشولية ... وقد يكون من المسلم به عند علماء الانثروبولوجى أن يكون الانسان المستيرى في افريقيا يشابه الانسان المستيرى في أوربا وآسيا نظرا لتشابه المعطيات الحضارية ، ويظهر ذلك جليا في اتقان الجميع للصناعات الحجرية على نحو متشابه ، ولاشك أن عبوره الى أوربا كان عن طريق المغرب ومن المستيرية والاريجانستية تكونت مدنية الانسان العاقل (نياندرتال) وحسب مقاييس الجمجمات فان التشابه واضح بين جمجمة انسان هذه الحقبة . ويقسم علماء الاجناس العصر الحجري القديم في أوربا الى عصر الاوريجناس والسولترى والمجدلى ولكل عصر حضارته ، ويذكرون أن الحضارة الاوريجناسية ترجع الى جنس (جريمالدى) وهو من الزنوج ، أما الحضارة السولترية فالجنس (الكرومانيون) وهو قوقازى والحضارة المجدلية الى جنس شاسلييد .

فالحضارة الافريقية اذا ترجع الى الجنس الجريمالدى ..

الذى كان جنسا افريقيا وصفه العلامة الكسندر موريه بأنه جنس زنجى صغير الحجم من نوع الهنتوت والبوشمن الموجودين الآن فى أواسط افريقيا . ويظهر أن هذا الجنس بدا فى افريقيا الشمالية واستمر تأثيره فى حوض البحر الابيض المتوسط ، ولعله عبر الى أوربا حيث وجدت هياكله فى أوربا الغربية والوسطى حتى العصر الحجري الحديث ويمتاز بجمجمة مبلطحة ، وتوجد تماثيل تاريخية عثر عليها الباحثون فى الحفريات الاوربية تؤيد هذه العبور من افريقيا الى أوربا .

وفى فترة مليون سنة تهجنت الاجناس لتصل الى النموذج الانسانى فاختلفت الاشكال المتعددة للانسان ليبرز الانسان كما هو ذو حضارة مزدهرة ، وبرزت الحضارة العاطرية فى المغرب والحضارة (السبيلية) فى مصر ، والحضارة (القفصية) فى الصحراء ثم جاء زنوج (جريمالدى) لينتسروا فى أدغال افريقيا وجاء بعدهم اليها جنس (كرومانيون) ، المغرب وظهرت الحضارة (الايبيرية المغربية) بعد الحضارة العاطرية شمال غرب افريقيا ، وحضارة قفصة فى تونس ، وبذلك يكون المغرب عرف حضارتين وسكنه نوعان من الاجناس ، وكان صلة وصل أنثروبيولوجية بين أوربا وداخل افريقيا ، ولاشك أن بقايا هؤلاء الاجناس بالمغرب استقبلت شعوبا نزحت اليه من افريقيا عبر خط ليبيا وأخرى من أوربا عبر جبل طارق ، فالوافدون اليه عبر ليبيا كانوا من اليمن الذى هاجروا بلادهم لعوامل اقتصادية قبل ميلاد المسيح بنحو ثلاثين قرنا فدخلوا الحبشة ومنها الى مصر ثم الى ليبيا حيث استقروا فى آخر مطافهم بالمغرب وبالجزائر المحيطة بنواحيه كسردانيا وصقلية ومالطة والكنارى ، ولاشك أن الخصائص الجنسية الكامنة فى شكل الجسم وطريقة التفكير وأسلوب ممارسة الحياة طبعت هذا الجنس بطابع خاص ظهر فى خصائصه الحضارية وذوقه الفنى .

وترك لنا الاجداد المغاربة رسوما
لحضارة عريقة مسجلة في آثار فنية ،
تدل على أن المغربى القديم عرف كيف ينقل عن الطبيعة الحياة
وصورها المعاشة ، كما ترك لنا (خروف زناكة) *Le bellier de zenaga*
الذى اكتشفه الاثريون في فكيك ، وفي جبال الاطلس الكبير ، كما
عثر علماء الآثار على نحو من ثلاثة آلاف صورة بشرية وحيوانية
منقوشة على الصخور في كهوف الجبال الاطلسية بجبال أوكايمدم
وباكور ، حيث تحمل تلك الصور البشرية حرايا وأعتدة حربية
معروفة عند الانسان القديم في النصف الثانى من الالف الثانية .
ترك الانسان المغربى القديم حياة الكهف الى الحياة فى القرى
المبنية فى شكل الخيام (كاسطيليا) *Castella* ، وتطور منها الى الحياة
فى القصور أو (الحصون) التى تضم الادوات والمحصولات الزراعية
ثم عرف بناء المدن بعد اتصاله بالفينيقيين ، وقد ترك لنا آثارا كثيرة
تتمثل فى صناعة الحراب والخناجر ودرقات الدفاع ، ونقش
المجوهرات للترزين بها ، ويكشف عام البلينتولوجى عن أدوات
للانسان المغربى قرب بسكرة وسطيف وهى عبارة عن كرات
حجرية ، ودبابيس ... ثم فى العصر الحجرى الاعلى نجد حجرات
منحوتة دقيقة الأشكال ، وما يعبر عنه بالصياغات الحجرية ، على
أن الانسان المغربى فى العصور (النيولوتية) تطورت مدنيته
وكثر الحيوانات التى يستأنس بها بعد اختفاء حيوانات الصيد
مما ساعد على ازدهار الفلاحة ، فظهر الفأس وعرفت وسائل
الاستفادة من العظام ، كما عرف الانسان المغربى فى هذه الحقبة ،
الرسم وصناعة التماثيل ، والنقش على قشور بيض النعام
وكانت الصحراء الكبرى تصل بين مصر والمغرب ، فتأثر
بالحضارة الفرعونية ، وخلف المغاربة القدماء صخورا منقوشة
شاهدة على تأثرهم فى هذه الحقبة التاريخية بحضارات مصرية ،

بل يؤكد بعض الباحثين أن مصر والمغرب كرا من منبع ثقافى واحد كما فى (تاريخ افريقيا الشمالية) لاندري جوليان .

البيئة الجغرافية للحضارة المغربية :

المغرب بمفهومه الجغرافى عموما ذو شكل رباعى الاضلاع مشتمل على مرتفعات تحيط بها مياه المحيط والمتوسط ورمال الصحراء ، ولم تكن الصحراء رملية خالصة كما لم يكن بوغاز (جبل طارق) يفصل المغرب عن أوروبا فكان الاتصال مستمرا بين القارتين . وسواحل المغرب كثيرة التضاريس ، تتوسطه الجبال الممتدة عبر المغرب الاكبر ، وقد تأثرت طبيعة أرضه بالمناخ وتجزأت الى أقسام مستقلة . كما تطورت التضاريس عبر التاريخ فكانت فى الحقبة الاولى L'ère primaire سلسلة من الالتواءات ثم جاءت مرحلة الانجراف فتغيرت ملامح الارض تدريجيا ، وبالاخص فى فترة تكون جبال الالب ، ولعوامل جيولوجية وتغييرات مناخية عرف المغرب الاقصى أمطارا غزيرة أخصبت أرضه فتكونت فيه الغابات الشاسعة العديدة التى آوت الحيوانات المختلفة ، ويذكر (اندري جوايان) (1) . أن افريقيا الشمالية ليست كتلة منسجمة بالرغم من الظروف العامة التى ألزمت تضامنها المادى والبشرى ، فقد برزت فيها نواحي سلبية ونواحي ايجابية ، ومن مميزات تضاريس المغرب الاقصى تكونت مجموعتان من السهول (الاولى) من مصب تنسيقت الى (ملوية) و (الثانية) من الحوز وسهل تدلا الكبير .

ويمتاز مناخ المغرب بتفتحه للمؤثرات الاطلسية فى غور البلاد وداخلها ، والبيئة الجغرافية تأثير على الحضارة المغربية

(2) تاريخ افريقيا الشمالية .

ونشأتها ، اذ أن الارض هي مسرح الحضارات ولهذا الموقع الجغرافى كان المغرب ممرا للحضارات من افريقيا الى أوروبا والعكس كذلك ، كما كان ممرا لحضارات البحر الابيض المتوسط ، دون أن ينال ذلك من شخصيته القوية بل كان ذلك عاملا في تفتحها واقتباسه من مختلف الحضارات .

وقد وصف المغرب الجغرافيون اليونانيون القدامى أوصافا تكاد ان تكون خرافية ، وفي قصيدة الالياذة لهوميروس وصف خيالى لمضيق جبل طارق وشواطئ المغرب لدى ذكره لاسفار ملك اغريقى ثم كانت رحلة (حانون) القرطاجنى قبل القرن الخامس الميلادى الذى عبر الشاطئ الاطلسى الى مضيق غانا . وقد حاول القرطاجنيون أن يشيعوا تخوفات عن الحر الاطلسى فسموه بحر (الظلمات) لئلا ينافسهم اليونان في فتوحاتهم ، كما تكلم عن المغرب سطرابون وبالاخص عن جبال الاطلس . والجغرافى الاسبانى القديم بوبونيورملا Pomponic Milla المولود بجنوب اسبانيا في Tingentra ووصف صراع Antée مع هركلبوس ودفنه قرب العرائش حيث توجد بساتين Hesperice ذات التفاح الذهبى الذى يعطى الشباب الدائم .

ان للبيئة الجغرافية أثرا عظيما على التفكير والوجدان ، وبالتالي على البناء الحضارى للامة ، فالبيئة الجغرافية تحدد معالم التفكير والوجدان ، وتؤثر في الفلسفات والاخلاق والمفاهيم ، ولذلك نجد شعوبا تتصف بمثانة الاخلاق وقوة الفكر وصرامة السلوك بينما نجد أخرى تؤثر اللهو والمرح والهزل والعبث وهكذا تتكشف طبيعة الشعوب حسب المعطيات الجغرافية وتتبلور بتأثير البيئة . واذا كانت البيئة الجغرافية والمؤثرات المناخية تسعى لتوزع الكتل البشرية حسب معطياتها فان المبادئ

الاخلاقية والقيم الانسانية المشتركة بين الشعوب تسعى جهدها
جهدها لفك الحصار البيئي والجغرافى لتجعل من الناس أمة
واحدة تتكامل مصالحهم الثقافية والاقتصادية ويتبادلون التجربة
والمعرفة .

ومن امتداد وجذب العوامل الانسانية ، وشد المعطيات
البيئية تبدى الشعوب مقدرتها على التحدى والتلاقح ، وهو ما
يعتبر أساسا لبناء الحضارة الانسانية ، وازهار ملامح
شخصيات الشعوب وقدرتها وصمودها .

وانطلاقا من هذا يعتبر المغرب بلادا ذات خصائص فكرية
ووجدانية املتها المعطيات الجغرافية ، وهو فى نفس الوقت
بلاد متفتحة تأخذ وتعطى دون أن تضحى بشخصيتها ورسالتها
ومكانتها ، كأمة ذات حضارة بارزة عبر تاريخها المديد ..

وقد اهتمدى الجغرافيون القدمى سواء من اليونانيين أو
من العرب كالبكرى والادريسي وابن خلدون وغيرهم الى أن
بلاد المغرب تمتد من برقة غربا حتى المحيط الاطلسى حيث
لاحظوا وحدة بيئات ثلاث ذات خصائص متشابهة تضم افريقيا
ونوميديا وموريطانيا ، كما سمى الرومانيون القدماء هذه
الاقطار افريقيا والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى وتبعهم
الجغرافيون العرب من بعد .

وهذه البيئات الثلاث المتكاملة اقتصاديا وثقافيا وسياسيا
تميزت كل واحدة منها عبر تاريخها المديد بخصائص أخلاقية
وثقافية وأدبية تلاقحت فيما بينها عبر العصور وكانت فى تكاملها
أعظم معبر عن شخصية المغربى باعتباره أول انسان افريقى
صارع الطبيعة وتحداها لبناء معالم الحضارة الانسانية الاولى .

الحضارة المغربية ما قبل الاسلام

سكن المغرب قديما أقوام عبرت اليه من افريقيا واوروبا وآسيا ، وأول هجرة وقعت من المشرق الى المغرب كانت منذ حوالي 7.000 سنة اذ حكم قبل الميلاد بنحو خمسة قرون ميناوس بلاد مصر وأخطر اللوبيون الى دخول المغرب ومضايقة الجيتول (كدالة) .

وفي آواخر الالف الثالثة قبل الميلاد غزا المغرب أبرهة من ملوك العرب البائدة الملقب بذى المنار ، وربما كان هو ذا القرنين فخلف بالمغرب جدود قبائل صنهاجة وكتامة ؟

وبظهور حضارة (القوافل) التجارية وصل الهكسوس الى مصر ثم وصلت بقية من العرب الى المغرب بعد خروج الهكسوس من مصر ، ثم اكتشف البحارة الفنيقيون شواطئ المغرب وأشأوا به مستعمرات تجارية .

على أن أقدم من تعرف من سكان المغرب هم البرابرة الذين اجتازوا اليه عبر الاراضى المصرية وليبيا حتى وصلوا الى شمال افريقيا ، وأسسوا بها مراكز تجمعات قبلية واتجهت قوافلهم الى تشاد وموانئ لوبيا المعروفة عند الفنيقيين (سطرأ — أو باليتين — مانيا) المركب منها اسم (طرابلس) أى بلاد المدن الثلاثة .

وكانت القوافل اثناء عبورها تقيم مستعمرات مؤقتة حيث يقع التبادل التجارى والاقتصادى مما ساعد على ظهور حضارة القرى ومدن القوافل .

وبعد انتظام أمر العبرانيين تحت امارة يوشع طاردوا الفلسطينيين الذين كانوا يتألفون من الكنعانيين واليقشانيين والعماليق فوفدوا على المغرب عبر مصر ، واستقروا به وطبعوه بحضارتهم ودينهم ولغتهم .

والكنعانيون ساميون ، وليسوا يافثيين ولا حاميين كما يذكر مؤرخو اليهود ترويجا لدعايد سياسية وعنصرية .

وفي سنة 1215 ق م وصل الى افريقيا جماعة من الكنعانيين بعد انتصار العبريين عليهم .

واهم الهجرات التى عرفها المغرب هجرة المصريين والعرب . (الاولى) ، منذ 5000 ق . م حيث قام الكاهن المصرى ميناووس أحد الكهنة (الخور شسو) بمحاربة (الجيتول) سكان الجنوب المغربى فغلبوهم وطردوهم واستوطنوا بجيوشهم فى الصحراء المغربية . ثم هجرة العرب القحطانيين للمغرب وهم من اهل اليمن وهكذا اخذ يعرف بنوع القبائل العربية (التى هاجرت من المشرق الى المغرب من كنعانيين وفنيقيين وقرطاجنيين وغيرهم من هؤلاء الذين تدفقوا على المغرب من كل مكان فتصاهروا مع سكانه الاصليين .

البربر :

دلت الابحاث الانثربولوجية ان اصل الانسان البربرى من انسان(مشتى)العربى وانسان ما قبل المتوسطى(Premediterranien) وهذا التنوع الانثربولوجى يرجع الى عدة أصناف لها صلة بالجنس العربى والآخرى بالجنس الزنجى .

والمعروف أن اول السكان الذين بنوا المغرب وشيدوا به حضارتهم هم (الامازيغ) وهم البرابرة الذين استعجم الكنعانيون لغتهم فلقبوههم بالبربر ، كما يرى ابن خلدون ، وتحتفظ بهذا اللقب السجلات القديمة سواء فى أهازيغ الرومان القدماء أو تاريخ مصر القديمة حيث توجد فى شعب النيل (واد بربر) . وبالقاموس المحيط للفيروزبادى ان البربرة صوت الماعز ، وكثرة الكلام والصياح . ودلو بربار لها صوت (بربر) جيل والجمع برابرة وامة أخرى بين الحبوش والزنج وكلهم من ولد (قيس غيلان) . ويؤيد ميلثوس الكاتب اليونانى صعوبة النطق باللغة البربرية قائلا : يتعذر على حناجر غير البربر النطق بأسماء قبائلهم . ويرى رينان أن جنس البربر المتكلم بالبربرية كان يمتد من مصر الى السنيغال ... ويتحدث المؤرخون عن أنفة الشعب البربرى من لقب البربرى ، الذى يدل فى مختلف اللغات على معنى خاص ، فهو فى اللغة اليونانية وصف مأخوذ من Barbare التى تفيد معنى القوة الضاربة ، وهو فى اللغات السامية كالكنعانية دال على الاستعجام ، وعدم فهم مدلول اللفظ فى الكلام حسب تفسير ابن خلدون لذلك انفوا من هذا اللقب فى مختلف الاعصار الى اليوم ، وما يزالون يعتبرون اسمهم (امازيغ) اى الرجال الاحرار مؤنته تمازيغت (1) ، وجمعه امازيغن اى الرجال

(1) وكلمة بربر مشتقة من كلمة (فرفاروس) Farfaros ومعناها اختلاط الاصوات ويرى (فيغه) ان اصلها (واروارا) ومعناها بالسفسكريتية (غريب) .. ولفظة (باربار) تدل فى جمع اللغات على الرطانة =

الاحرار ، وهذا الاسم الحقيقي دال على تأييد لغوى لنسبتهم الى الفضيلة السامية لا الى العنصر السلتي بدعوى ان كلمة (البربر) هى كلمة يونانية اطلقت قديما على هذا الشعب ولان كلمة (باربار) هى فى اللغة اليونانية صفة لكل شعب حربى ، وليست علما على هذا الشعب بالذات ، بل ان اليونان لم يكونوا يعرفون البربر عن طريق الاحتكاك وانما عرفوهم بواسطة مؤرخيهم (كهيقاطس) (1) .

= والضوضاء او على القسوة والهمجية ، وسماههم اليونانيون بهذا الاسم لشراسة مقاومتهم للغزو الرومانى اليونانى تيل مجيء الكنعانيين . ويرى النسابون ان اصل البربر ساميون ويرى ميدون Meduon انهم يافتيين ويقول آخرون انهم اخلاط من القبل والمخالقة والكنعانيين وقريش تلاقوا فى الشام ولغطوا فسماهم افريقش بالبربر لكثرة كلامهم ويرى اغلب المؤرخين القدامى ان اجلاء البربر الاختيارى او الاضطرابى او الاجبارى وقع فى عهد جالوت حيث طردوا من الشام بعد انتصار داود .

ويذكر المؤرخ اليونانى هيرودوتس ان البربر ينقسمون الى رحل وهم بربر المغرب الادنى ، والى من يسكنون فى السهول وبحرثون فيها وهم بربر المغرب الاوسط ، وسكان الجزائر من البربر وهم الجيتوليون الذين يسميهم العرب (جدالة) و (غزولة) اما سكان المغرب الاقصى فهم (الفاروزيون) .

واستقر الشعب البربرى (امازيغ) فى شمال افريقيا بعد عبوره اليها من جنوب ليبيا وشمالها وعن طريق الحبشة وعن مضيق جبل طارق واستقر بليبيا وتونس والجزائر وجزر الكنارى وجزر سردينيا وصقلية وقوصرة ومالطة .

وللشعب البربرى لغته المتميزة بأصواتها ولهجاتها ولهجاتها .

(1) المؤرخون للبربر : من القدماء ، مؤرخو المصريين ، واليونانيون والرومانيون والبنوتيين والبرابرة .

المصريون اول من روى تاريخ البربر لانهم من فصيلة الهاميين اى من فصيلتهم كالاكباش والصوماليين والسودانيين ، وفى الوثائق المصرية المكتوبة على البردى نجد معلومات عن القبائل البربرية المعاصرة للفراعنة ، وكانوا يعرفون باسم (تاحو) او (ربو) ، وكان الاسم القديم لهم (لوبو) وهى اصل كلمة (ليبيا) كما كانوا يسمون (اشبط) وهل اصل القبيلة البربرية المعروفة عند اليونان (اشبوستان) . =

و (هيرودوت) الذى استقى معلوماته البربرية من المصريين، كما ان اليونان سموا المغرب (بسيريا) وسموا سكان ليبيا (اللوبين) وسموا ليبيا بالقسم الشمالى من افريقيا الذى يسكنه البيض وقابلوا بينه وبين الصحراء . وبلاد الاحباش السود . وتكلم مفسرو القرآن عن الشعب البربرى وخصائصه لى تفسيرهم لرحلة ذى القرنين الى مكان غروب الشمس (حيث وجدها تغرب فى عين حمية ووجد عندها قوما) وهؤلاء هم البربر الذين تحدث عنهم المفسرون . أما الرومان فيسمونهم بهذا الاسم ، وبافريقيا التى يريد العرب بها القارة نسبة الى افريقش بن نوح ، وكما عرفت كلمة بربر فى اللغة اليونانية واللاتينية عرفت فى اللغة الفارسية فقد ورد فى الشانامة ، اسم البربر علما

= وتدل الحفريات التى أجريت على حدود برقة ان البربر هو بناء الحضارة الاولى فى افريقيا وعنهم أخذ المصريون وطوروا حضارتهم . ومن المؤرخين اليونانيين الذين اهتموا بتاريخ البربر ديودوروس الصقلى الذى عاش فى القرن الاول قبل الميلاد وعاصر الامبراطور أوغسطس ويتحدث عن هجوم الرومان على نواحي قرطاج ، كذلك ألف استرابون كتاب التاريخ يبدأ سنة 144 ق.م. وينتهى سنة 27 م. معتمدا على المؤرخ الرومانى (تانوسيس) الذى ألف جوليائه فى عهد يوليوس قيصر .

وقد فتح الرومان قرطاجنة سنة 146 ق م ودام حكمهم الى سنة 698 بعد الميلاد وعرفوا البربر المتأثرين بالحضارة الفينيقية . وارخ لهذا العهد (سالسطيوس) الذى عاصر عهد الفتح الرومانى لافريقيا (146 ق م) وحروب (يوغورطا) .

ومن المصنفات ، البرابرة ابوليوس الذى كتب رواية الحمار الذهبى . ومنهم المؤرخ فلوروس الذى يقارنه النقاد بابى خلدون . وقد اشتهر بتلخيصه لمعشرات (طيطش ليوس) . ومنهم مرونونوس ، مؤلف الليالى الاتيكية .

أما فى العهد الاسلامى فاشتهر المؤرخين للبربر ، الوراق وابراهيم اعتمد مصادر بربرية مكتوبة باللغة البونيقية واللوية باقلام مؤرخين والرفيق ، واحمد التبفاشى لكن ابن خلدون أعظمهم على الإطلاق ، وقد اعتمد مصادر بربرية مكتوبة باللغة البونيقية والعربية باقلام مؤرخين برابرة عاصروا الامبراطوريات البربرية قبل القرن الثالث قبل المسيح الى سنة 146 ق م .

على شعب كان يقيم في اواسط آسيا ، وورد تارة علما على شعب
في نواحي اليمن ومصر وذلك في وصف مسيرة الملك (كيكائوس)
الى حرب ملك البربر ، حيث جاء فيها .

شه بربر بستان بيارست كنك
زمانه وكركونه ترشد برنك
سيباهى بيامدز بربر بزرم
كه از لكشر تاه برخابت برزم

ومعنى البربر بالفارسية التطابق والتشابه ، وما تزال في
فارس جماعة تسمى البربر وهم قوم رحل (1) . كما أن مدينة
فاس المغربية ربما تكون اسما منقولاً من اسم مدينة (فاس)
الفارسية ، وإذا كان المغرب يعرف من فصائل البربر قبائل
سوس ، فان فارس كذلك تحتفظ بهذه الفصيلة ايضاً ، وفي قصة
النبي ابراهيم انه كان في سوس بنواحي العراق .. ، ويذكر علماء
الاقاليم كياقوت والهمداني ان (سوس) بالاهواز وأكثر أهلها
ينسجون الثياب المعروفة باسمهم اى (بالثياب السوسية) .

ولا يستبعد ان يكون هؤلاء البربر (السوسيون) من اصل
(يمنى) الذين منهم فريق توجه لفارس وآخر جاء الى المغرب
ويؤكد هذا وجود مدن بالمغرب تحمل اسماء توجد بفارس كفاس ،
والقيروان .

ويستأنس لهذه الصلة بوجود مفردات فارسية في اللهجة
السوسية كسين اى اثنان و (سه) ثلاثة مثلاً .

كما يستأنس لذلك ببعض المعلومات الطلسمية والعادات

(1) ما يزال ساحل عمان واليمن يحتفظ بقبائل تسمى (بربرة) تكلم عنهم
ابن بطوطة في رحلته ولاحظ تشابههم مع صنهاجة في المغرب سواء في
عاداتهم أو تقاليدهم .

التجارية وآلات الطرب والالعاب البهلوانية ولعل هذه العراق
الجنسية هي التي مهدت لدولة بنى رستم ان تؤسس مملكة في
سجلماسة وفي وهران في أول عهد الاسلام بالمغرب فلولاً تقارب
جنسى لما استطاع هؤلاء ان يؤسسوا مملكة عظيمة داخل المغرب .

ولعل صلة البربر بفارس هي التي اوحى الى علماء الاجناس
ان ينسبوهم الى السلالة الهندية الاوربية التي نزحت الى افريقيا
من آسيا وهؤلاء يعترفون بوجود السلالة السامية ذات الاصل
العربي ، غير انهم يقولون بازدواجية العنصر ، وبوجود سلالة
بربرية ثانية اوربية مستدلين على ذلك باختلاف السحنة ولون
الشعر ولون العيون وشكل الجمجمة واختلاف اللهجات ، يخضع
لعوامل جغرافية لاختلاف الجبال عن السهول وموقع الفصول
وتدل كلمة البربر في اللغة الرومانية على السرعة كما جاء في بعض

Sature tu Fere Mars Linen Sallistas Barber

الاغاني الدينية

(اى) ليكتف مارس الجبار ارقصوا على السدود ، قفوا سيروا ،
(فبربر هي السرعة) .

ويرى بعضهم ان البربر يرجع للجنس الاروى الذى اصله
من الهند أو ما يسمى بالعنصر (اليافتى) عند علماء المسلمين ،
وانهم مروا من الهند الى فارس ثم القوقاز وذهب بعضهم الى
اسكندانيا ، وبعضهم الى فيرلاندا ، وبعضهم الى فرنسا
وبريطانيا وهم (الولش) والبلج في بلجيكا والغال في فرنسا
والاييريون في اسبانيا ، وفريق توجه الى افريقيا عبر اسبانيا ،
وحجتهم ان طريق هؤلاء من الهند الى المغرب وشمال اوربا واحدة
حيث نصبوا المسلات (المنهيد) وكذلك المصاطب (الدولمين)
والمستديرات (فرومليكيس) في طول طريقهم وبوجود اسماء
متشابهة لهذه القبائل كقبائل الكيماريين ، وبنى عمارة في المغرب
وتونس مثلاً ، وبياض البشرة ورأى هؤلاء لا تدعمه حجة علمية ،

وانما هي افترضات فقط اذ ان القبائل تنتقل وتتشابه معطياتها الحضارية ، وربما انتقلت هذه القبائل من المغرب الى اوربا كما وقع لبعض فصائل مطماطة التي انتقلت من المغرب الى امريكا قبل الغزو الرومانى بكثير فى رأى بعض المؤرخين ...

وقد لعب البربر دورا هاما رئيسيا فى تاريخ حوض الابيض المتوسط ، حيث أقاموا الممالك ودوخوا الامصار وامتدوا فى الانحاء منذ ان خرجوا من الجزيرة العربية الى شاطىء النيل ثم الى بلاد (امانتى) منذ ازيد من عشرة آلاف سنة ، ثم جاءت جالية كنعانية بعد انتصار بنى اسرائيل عليها فى عهد الفنيقيين كما ذكر ذلك المؤرخ (بروكون) بقوله : عندما عجز اهل فلسطين عن صد غزاة بلادهم هاجروا الى مصر فليبيا فأقام هرقل فى سفن فينيقية و (آمانتى) هى المغرب كما سماها قدماء المصريين أو (هيسبيريا) كما سماها اليونان وسمى العرب اقصى غرب مصر بالمغرب لغروب الشمس به .

وتروى الميثولوجية الاغريقية ان اطلس ملك المغرب الاسطورى خذل صديقه (برسى) فمسخ جبلا وحكم عليه ان يحمل السماء على كتفيه ، فكان معنى ذاك ان المغرب يحمل ثقل السماء ، وقد اطلق العرب كلمة بربر فى لغتهم على الخروج الى البادية ، وعلاوا بذلك سبب تسمية بر بن قيس غيلان أنه قيل بربر اى خرج للباحية (1) .. وفى شعر امرئ القيس قوله :

« على كل مقصوص الديابى معاود

بريد السرى بالليل من خير بربرا »

وقد اهتم المؤرخون القدامى بتاريخ البربر وأنسابهم

(1) يزعمون ان تهاضر اخت (بر) بكت اخاها بقولها :
لتبك كل باكية اخاها كما أبكى على بر بن قيس

وعوائدهم ، فالمؤرخ اليونانى هيرودوت يقسم البربر الى من كان منهم بالمغرب الادنى وهم رحل ، ومن كان منهم بالمغرب الاوسط وهم يسكنون السهول ويحرثون الارض ويصلحونها ، ومنهم من يسكن الجبال فيعمرون الغابات ، وسكان الجزائر من البربر هم الجيتوليون المسمون عند العرب بجذالة ، وجزولة ، كما وصف هيرودوت عوائد البربر وخصائص اعرافهم حيث كانت النساء يزغردن في الحفلات، وكذلك تكلم البحار اليونانى سيلاكس في رحلته بافريقيا بالقرن الرابع قبل الميلاد فوصف سواحل افريقيا كلها ، متكلماً على ساحل المغرب الاقصى الغربى ... كما تكلم (يودوروس) المؤرخ الصقائى معاصر الامبراطور الرومانسى أوغسطس ، ويضم مؤلفه تاريخ العالم الى سنة 60 ق . م وكان لسترابون الفضل فى الكلام بتفصيل عن الامبراطوريات البربرية التى ظهرت فى القرن الثانى ق . م فى عهد يوبا الاول والثانى ويوغورطة، كما ألف المؤرخ الرومانى سالستينوس (86-30 ق.م) عن حروب يوغورطة، وألف يوليوس قيصر كتاب حروب افريقيا (2) والواقع أن يوغورطة شغل المؤرخين الرومان لانه وحد البلاد وكون امبراطورية بذل الرومانيون جهدهم للقضاء عليها وفعلا حققوا ما أرادوا فقصوا عليه وعلى قرطاجنة فى وقت واحد ، واقتطعوا من (يوبا الاول) ويوبا الثانى قسما من البلاد فاهتم يوبا الثانى بالعلوم والآداب وجعل من شرشال عاصمة للحضارة الهلينية ... أما النسابون فى العرب والبربر فيرى معظمهم أن البربر من سلالة يمنية عاربة من قحطان نزحوا

(2) يرى ابن خلدون ان البربر من ولد كنعان بن حام وان اسم ابيهم مازغ ولكن صنهاجة وكلمة من بقايا القبائل اليمنية ، ويصدر حكمه النهائى انهم بمعزل من العرب الا ما تزعمه نسبانية العرب من صنهاجة وكلمة وعنده انه من اخوانهم (ج 6 ص 192 تاريخ ابن خلدون) .

من ديارهم لأسباب جغرافية وسياسية ودفعتهم عوامل بيئية الى اختيار الإقامة في شمال افريقيا التي تشابه الحياة الخصبة فيها ، بالحياة الخصبة في بلاد اليمن ، وعلى هذا فالتفسير التاريخي لسكان المغرب العربي هو أن أصلهم من الجزيرة العربية جاءوا في دفعات متوالية حسب عوامل الهجرة ، فقد قدموا منتجعين في الفترة الاولى ثم جاءوا غزاة في عهد الفنيقيين وأخيرا جاءوا فاتحين ناشرين للدعوة الاسلامية بعد الهجرة .

وما أن ظهر الاسلام وغزا العرب المغرب ناشرين للدين الاسلامي حتى تحرك الشوق القديم الذي ظل خافتا طيلة عصر الوندال الاليم ، وعهد البزنطيين المظلم وانتعشت جذوة الحضارة الشرقية الكامنة في بلاد البربر ، تلك الجذوة العرقية التي أذكاهها القرطاجنيون في التشبث بعد الفتح بالاسلام وما يذكره النسابون من العرب والبربر يكاد تتفق عليه معظم الروايات عن أصل العرب والبربر معا ، فالنسابون من (ابن الكلبى) الى (ابن قتيبة) وابن جرير الطبرى والمسعودى والوراق التونسى ، يتفقون على نسبة البربر الى العرب (1) بل أن بعض القبائل البربرية كقبيلة صنهاجة تصف نسبتهما القبليّة بالحميرية .. ويذكر مؤلف القرطاس أن بر بن قيس ، وبربر بنت مجدول هي أصل قبائل سكنت الشام وجاورت العرب فامتزجت بهم ... وعلى هذا فالبربر عرب مصريون والبرانس يمنيون ، بناء على أن القبائل البربرية اما من أرومة البرنس

(1) يقول ابن خلدون : علماء الانساب متفقون على ان البربر يجمعهم جدان عظيمان :

البرانس . ومادغيس (الملقب بالابتر) .. وبين النسابين خلاف هل هما لاب واحد ، أم لا ؟ فعند ابن حزم لاب واحد من نسل كنعان .. وقال سابق المظلم على ان البرنس من نسل كنعان ، والبرتر هم بنو بر بن قيس .

(مادغيس) أو من البتر . وينتقد ابن حزم حميرية صنهاجة وكتامة ويؤيده مؤلف نشر المثنى ومؤلف البدور الضاوية ... وإذا عدنا الى النسابين البرابرة فسابق المطاطى يؤكد فى نسبه عروبتة ويرى أن البرنس من مازغ بن كنعان بن حام ، والبتر من بر بن قيس بن غيلان بن مضر من ذرية سام ...

ويستنتج من وحدة الاصل أن قرطاجنة ذات الاصل الفنيقي لم تبذل مجهودا بذكر لادماج البربر فى حضارتها ، وكانت لغة البونيك التى تعربت تنحدر من آرمية أهل الشام هى لغة أمراء نوميديا كما أكد ذلك سان أوجستان .

وذكر كوتيتى فى كتابه عصور المغرب المظلمة أن المتكلمين بالبونيكية هاجروا المغرب وانتشروا فى افريقيا الشمالية بعد وفاة النبى موسى عليه السلام وهو يرجع الى قول ابن خلدون عن هجرة الحميريين والكنعانيين الى المغرب عن طريق مصر وليبيا (1) فى غزو افريقش الحيمرى لبلاد المغرب التى أصبحوا بها معروفين بالبربرة (2) .

ويذكر مؤرخو اليونان أنهم وجدوا فى شمال افريقيا كتابة على الرخام الابيض مضمناها (أننا لحقنا بهذه الديار هربا من قاطع الطريق يوشع بن نون) .

صفات البربرية : والصفات الخلقية المكونة لما يسمى بالروح البربرية هى صفات العربى القيم فهو يدافع عن تصرفاته ، ولا يسمح بتقنينها ، ويحافظ على الجوار ،

(1) كلمة ليبيا ربما كانت مشتقة من كلمة لواءة ، القبيلة البربرية (انظر بزامة فى كتابه من ليبيا) .

(2) ينسب لافريقش انه قال :

بربرت كنعان لما سقنتها
أى ارض سكنوها ولقد
من بلاد الضنك للخصب العجيب
هازت البربر بالعيش الخصيب

ومحافظته على عهده جعلت منه رجلا صابرا على المكاره تابثا في الشدائد ، وهذه الصفات كونت له نظاما خاصا يعيش عليه فلم يعرف الحكم المركزي وانما كان يعصوب حول عظيم يدافع عنه ، لذلك عرف نظاما للحكم هو نظام (القيادة) الذي ينفذ بعد حكم استشاري ، هو رأى الجماعة البربرية (1) فهي تحذوا حذو المجتمع العربى القديم حذو القدة بالقدة سواء منها ما يتعلق بالعوائد السوسولوجية واخصها الوشم والخضاب والختان أو المعتقدات الميتافيزيقيا واهمها التعاقد بحركات الواكب ومظاهر الكون المفزعة والسجود فى العبادة ، وتحريم لحم الخنزير ، كما ذكر كوتى ، ولولا بعض التأثيرات البيئية التى لا مناص لها والتى عبر عنها أحد أعلام الفكر البربرى فى القرن الخامس عشر الميلادى الحسن اليوسى بقوله فى كتابه (المحاضرات) ، لو علم ارسطو فضل الكسكوس فى الطعام ، والموسى فى الحلق والبرنوس فى اللباس لشهد للبربر بالحكمة ، وهناك حجة لغوية على هذه الصلة السلالية بين العرب والبربر ، ذلك لان اللغات السامية لها مميزات خاصة ذكرها الاستاذ دوروزة فى كتابه (الوحدة العربية) منها :

(1) اعتمادها على الحروف الصامتة ولا تلتفت الى الاصوات بمقدار ما تلتفت الى الحروف الصامتة .

(2) اغلب الكلمات السامية يرجع اشتقاقها الى اصل ذى ثلاثة احرف أو حرفين .

وقد ذكر ميشوبلير فى محاضراته أن قواعد النحو البربرى قريبة من القواعد العربية مما يجعله يرى ان البرابرة

(1) ستيفان فزال . نظم البربر الاجتماعى والسياسى والاقتصادى (التاريخ القديم لافريقيا الشمالية) .

اصلهم من الشرق بل هناك كلمات عربية ما تزال واضحة في اللغة البربرية كالماء (امان) والدم والاب والام والخال والحياة والموت ، ويافوح وازيم (من الازيم) وازرو (من اصر) والقائف (اى الكاهن) وغير ذلك من الالفاظ المستعملة المتداولة الدالة على وحدة الاصل وكذلك التعابير ذات الاصل العربى مثل ، (ساقطع تربته) ووحدة القواعد مع النحو العربى كوجود كاف الخطاب وما الاستفهامية ، والماضى الناقص (كان) بل هناك دليل صوتى وهو حرف الضاد الذى لا يوجد الا فى العربية مما يدل على وحدة الاصل اذ يسود على اللغات السامية ظاهرة الفعل لان اشتقاقات كلماتها هى فى الاصل من الفعل وليس فى اللغة السامية اثر لادغام كلمة فى اخرى حتى تصير الاثنان كلمة واحدة تدل على معنى من كلمتين مستقلتين كما فى اللغات الاخرى .

والذين يدرسون اللغة البربرية يؤيدون هذه الظاهرة فلا مجال اذا للشك فى انتسابها الى الارومة السامية التى لا تجمع العرب والبربر جمعا لغويا فقط بل تجمع بينهما جنسيا وسلاليا ولقد اثار اختلاف اللهجتين العربية البربرية فى بلاد المغرب فضول المستشرقين الذين يشكون فى وحدة العنصر مع ان فى سوريا فريقيا يتكلم الكردية والتركية وفى السودان فريقيا يتكلم الزنجية وفى الشام من يتكلم الآرمية والتركية ولم يشك علماء النسب فى وحدة الجنس رغم اختلاف اللغات واللهجات .

فاللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كاختها العربية وهى من اللغات السامية القديمة المعبر عنها فى تاريخ اللغات Protosemique وهى تتشابه مع العربية فى كثير من المفردات واصل الاشتقاق ومخارج الحروف ، ولقحت هذه اللغة مرة اخرى بالعربية القحطانية بعد جلاء يهود خيبر عن ضواحي يثرب واقامتهم بشمال افريقيا حيث اشتغلوا بالحرث والفلاحة كما لقحت

قبل ذلك بالعربية قبل الميلاد بخمسة قرون عام 480 حيث هاجرت قبائل كنعانية عربية الى بلاد افريقيا وتكونت اللغة المعروفة بلغت البونيك Ponique وهى لغة سامية خليطة من الفينيقية بل هى اقرب لغة الى الفصحى العربية القديمة .

ويؤكد باسى ان البربر لم يقيموا مدينة تعتمد الكتابة لاداء لغتهم ... غير انهم كانوا يحذقون كتابة بقى اصلها مجهولا ، يختلف الباحثون فيه ، فيرى بعضهم انها كتابة ترجع الى اصل فنيقي ... كما تشهد بعض حروفها على القرابة بينهما وبين خط الطوارق (التيفناغ) ... واقدم ما نعرف من المكتوب بهذه الحروف يرجع الى سنة 139 قبل الميلاد ..

ويلاحظ الباحث فى اللغة البربرية أن مخارج الحروف متساوية فى اللغتين حتى حرف الضاد ، فانه ينطق به عند الشلحين كما ينطق به عند العرب سواء بسواء ، فانهم يقولون : أضاض للاصبع ، ويقولون أبضت من بضعه أو قطعه ، ولا يفوت الشلحة من حروف العربية الا المعجمات منها ، كالثاء والذال والظاء ، وهى نفسها مهجورة فى اللهجات العربية الدارجة (1) .

واذا أردنا أن نعرف مقدار ما فى الشلحة من العربية نجد المصطلحات المتعلقة بالمنزل واللباس والمركوب وأحوال الانسان والملابس الشخصية ، ففى المنزل مثلا نلاحظ توافر ألفاظ منها الموضع والبيت والباب والعتبة والشرجب والقفل والمقصورة والحش والاروى والهري والصهريج والساقية والجابية والحانوت والقوس والكرة والدكان والقنديل والفتيلة ،

(1) تقويم المنصور (1343) هـ توفيق المدنى ، عروبة الفنيقيين . ودخول الفنيقيين الى كلومبيا لابراهيم هجر (مجلة المعرفة عدد 10) ص 32 عدد 2 1965 . محمد المختار السوسى (دون تصرف) .

وكذلك المجرم والقدر والمعلقة والزلفة (أى السلطانية) والصاع
والكأس والغراف (آنية الشرب) والسطل والبراد والمرجل
والمائدة والموسي والمغسل والفوطة والجراب والاشفى والزيف
(المنديل) والكسوة والقشيب والدراعة والملحفة والازار والفراش
والمخدة والزربية والسراويل والابزيم والمضمة والصدره والجبة
والخيظ والحريير والقطين والسدى (كما نجد حول المركوب) .
الحلس والقنتب والحمل والركاب والمهماز والجوالق والشكال
واللجام والسبط . أما عن التعبيرات الوجدانية فان المفردات
العاطفية ذات اصل عربى مثل : الحزن والفرح والقلق
والجرى والذهاب والمقل (النظر بالقلّة) والاحباء بالثوب
والحنان والهدوء والهدنة والصلح . (نفس المصدر : محمد
المختار السوسى) .

فهذه كلها وكذلك غيرها تستعمل على نسق استعمالها
العربى فى أصل المعنى . وكذلك أسماء الاعضاء فى الانسان والحيوان .
فالييا فوخ والقلّة والمقلّة والصماخ واللسان والمنخر
والشعر والقلب والرئة والترب والرجل والبطن والعرق والخزر
يقصد بها البربرى ما يقصده العربى .

وكذلك المصطلحات الفلاحية من النبات نجد الشجر والزيت
والادام والكمون والجزر واللوبيا والحمص والبلح والباكور
والكراويا والقصيل والابزار والزبيب .

وهكذا نجد فى تعابير البربر ألفاظا عربية كثيرة التداول فى
كلامهم منها ما هو جامد لا يدخله التصريف ومنها ما يدخله
التصريف فيأتون منه بالماضى والمضارع والامر والوصف والمصدر .
كما نجد ألفاظا غير قليلة عند البربر ، لا تروج غالبا حتى فى
لغة العرب المخالطين للبربر وهى السرى ... بمعنى الجدول ،

والاوق (الثقل والشؤم) الشرب (شحم الكرش) والفدع التواء
 المفصل ، والشمط الخيط المعلق في آخر الرجل والقلزم
 والفاس (والخلف) زق الادم ، وأفنت الانسان عن وجهته :
 صرفه عنها والبكت : الضرب بالعصا ، وذرى بمعنى سقط ، وأل
 اذا بكى . فانها — وكلمات كثيرة قد تعد بالمآت — لا يكاد يعرف
 أن لها أصلا في العربية الان الا في قواميس اللغة العربية ، وقد
 يسمع سامع اطلاق البربر لفظة أزيل على الشعرة ، ولا يجول في
 ذهنه أن أصل الكلمة الاسب بالسين وهو شعر الركبتين ثم قلبت
 السين زايا ، وزيد فيها اللام فجاءت كلمة أزيل أو أنها مأخوذة
 من السبلة التي بمعنى الشعر مطلقا وقلبت السين زايا ، وكذلك
 يسمع لفظة الرذن بمعنى الولدان جمعا فقلما يهتدى الى أصل
 الكلمة وكذلك يسمع أسوأ بمعنى شرب الماء وهي كلمة تتصرف
 عندهم غالبا على حرف السين فقط ، ماضيا ومضارعا وأمرا
 ومصدرا فلا يكاد يعرف أن أصل الكلمة من احتسى الماء أى شربه
 وكذلك يسمع (كا) (الكاف المفخم) فلان العالم أى كان فلان
 عالما ولا يحسب أن الكلمة هى كان المفخمة المعروفة نفسها في
 العربية وانما قلبت الكاف كافا (مفخمة) وهى لهجة عربية
 صحيحة ثم تحذف النون في الكلمة أحيانا .

وهذا التأثير يقوى في الكلمات الدينية التى هى كثيرة جدا في
 اللغة البربرية مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج فشلت كل
 فأنت مثلا تسمع تمزكدا وتصلت وتلفطرت فتعلم أن أصلها المسجد
 والصلاة والفطرة التى يقصدون بها صاغ زكاة الفطر . وهذا الباب
 كثير جدا وغالبه معرف بالالف واللام حتى صحت القاعدة التى
 تقول : ان كل لفظة جامدة في الشلحة بدئت بالالف واللام فانها
 عربية الاصل .

وربما شلحوا جملة عربية تامة كقولهم ما تريد مازكانتك

أرياتا ، ومما اتفقت فيه اللغتان كاف الخطاب فانه يستعمل في
الثلحة استعماله في العربية .

وكذلك ما الاستفهامية . لانه قلما تكون جملة أو جملتان
متصلتان من الثلحة الا وجد فيهما تأثير العربية .

فلنشد هذا البيت البربرى (1) :

أمرب أور ارحم أه آل متتئين
أفلتدكا رآمد أرت اتن ويض

ففى هذا البيت أربع كلمات عربية، رب، رحم، اقل، ويض.
ولنشد بيتا آخر أيضا (2) :

أو شن زلن أوراك ايكى ايمى غوتا
أورو كان ايلى بلابويد نغسار أورى الشيات

وهناك بيت آخر (3) :

وانا مود لايبذ أوزموز أرسول ايت مشى وبر
أولو كان ايكى اللزانس أتنسول أمين

والكلمات العربية في السوسية والثلحة على ثلاثة أقسام :

(أولا) ما جاء عن طريق الدين من كل ما يتعلق بالشرع وما
جاء عن طريق المدنية العربية من أسماء أدوات المنزل واللباس
وآلات الاعمال التى تزاوول ، ومن أسماء الاشجار ، والعلوم
التى انتشرت بانتشار تلك المدنية فهذا القسم تسرب من مؤلفات

(1) يشبه قول الشاعر العربى : لا فى الكلام تقص أجنحة المنى ، ولذلك
يشبه شكلها المقراضا .

(2) يشبه معناه قول الشاعر العربى : لنا الصدر دون العالمين أو القبر

(3) يشبه المثل العربى : انتهب الفرصة قبل أن تصبح غصة .

العلوم ومدارس الدين والمخالطة في الاسواق والمقايسة فى المتاجر فهناك مؤلفات كثيرة ترجمت الى الشلحة فشلحت كلمات كثيرة من العربية وتكثر هذه المؤلفات فى الفقه والمواعظ والحساب والفرائض والتوقيت ، فالترجمات فى هذه الفنون متعددة .

(ثانيا) ما هو قديم عند الشلوح مما سبق الفتح الاسلامى ، ويظهر الى أنه متأصل فى اللغة الشلحية ، لانه من الكلمات البدائية فى حياة الشعوب . وذلك كالموت والحياة والدم والريح والاب والام والصوت والبر والبحر والقرب والبعد ، وهى ألفاظ تصل الى مائة كلمة ولا يعلم لها مرادف فى أسلوب البربرية يمكن أنه هو الاصل الاصيل ويكون الاخر من الدخيل وهذه الالفاظ وما على غرارها يتفق على التلفظ بها فى معناها كل من أصحاب اللهجات البربرية المتفرقة حوالى الاطلس زيادة على ما فى سوس .

وكون أمثال هذه الالفاظ أقدم من الفتح الاسلامى هو الراجح ، وربما كانت ألفاظا غمرت مرادفاتهما من البربرية منذ تسربت من العربية القديمة على عهد الفتح الاول للفينيقيين الذين نعرف صلبهم من أبناء الجزيرة العربية فتكون حجة للمؤرخين الذين يؤكدون أن البربر موجة من موجات الشرق فى عصور ما قبل التاريخ .

وثالثا) ألفاظ تتردد ما بين هذين القسمين ولا يترجح فيها جانب على آخر كالتلعة والاحتباء والاحتساء والافول بمعنى وجده الى غيرها من ألفاظ كثيرة (1) .

(1) محمد المختار السوسى : تأثير العربية فى اللهجة الشلحية العدد (2) اللسان العربى 1965 (دون تصرف) .

الشخصية المغربية :

للمغربى نظرة شمولية للحياة فلهذا يميل تفكيره الى النظرة العامة الموضوعية كما أن ثقافته مطبوعة بالتركيب والتحليل ، مما يساعده على فهم ما يرد عليه من تيارات ثقافية مختلفة ولذلك وجد في الحضارة الفينيقية شخصيته اللغوية والاخلاقية ، وفي قرطاج استكمل نضجه السياسى ومن ذلك التاريخ وهو يبحث عن وسائل الاستكمال الذاتى فوجد في الاسلام عقيدة تلائم نظرتة للحياة ، وتمذهب بالمالكية بصفة جماعية وتمذهب بالتصوف الجنيدى لا الحلاجى لان الاول تصوف بسيط سنى أما الثانى فله أصل فلسفى يونانى ، وعرف من المذاهب الاسلامية المذهب الخارجى ليستكمل وحدته منفصلا عن الخلافة الاسلامية فى المشرق ، ولقد اختلف على كل المذاهب الاسلامية الفقهية من الاوزعية والحنفية والحزمية ليستقر أخيرا فى (مالكية) عياضية، وعقيدة أشعرية ، موقفا فى ذلك بين، طبعته وشخصيته وتفكيره .

فهذه هى الشخصية المغربية المنتزعة من الصفات الفطرية ومن صميم العقل الباطن الذى لا يخطئ الفكر فى اعتبارها من عوامل الاصاله ، فهى خصال خاصة لا سبيل الى شيوعها وذيوعها بين البشر أجمعين بل هى مكتسبة من الوراثة وعوامل الدم والرحم والتلاحم مع البيئة وهذه الصفات يشترك فيها البربرى والعربى مما يدل على وحدة اصلهما ومن هذه الصفات (الغيرة) والدفاع ، عن الشرف وهى من الطبائع التى سيتعذب العربى الموت فى الزياد عنها ، ومن طبائع البربرى الذى يستهوى الدم من أجلها ، ومظاهر هذه الغيرة وأن كانت تختلف فهى فى جوهرها غيرة ايجابية دافعة الى اقتحام واستعذاب الموت ، ومن ذلك الكرم وهو من أخلاق العرب والبربر معا ، قلما نشاهده فى أريحيته فى غيرهم من شعوب الارض ، ومن ذلك الشجاعة التى تفقد

صاحبها الرشد فيسترخص حياته ويرى فيها مجده الاوحد ،
ومروؤته الكاملة فلا يتهاون ساعة اللقاء ولا يجين في الهيجاء (1).

والجماعة عند البربر خلية يرتكز عليها المجتمع البدوى وهى
جماعة منتخبة تلقائيا للاشراف على مصالح السكان الفلاحية
والاقتصادية والاجتماعية وتخضع لقانون تقليدى (أزرف)
والشيخ مشرف منتخب لمكانه الاجتماعى ، وهى وان كانت تظهر
كخلية بسيطة الا أنها فى الواقع اتخذت عبر التاريخ تنظيمات
دقيقة تحتاج الى كثير من الكفاءات والمرونة وكانت مصدر
الديناميكية التاريخية لمجتمع البربرى حتى ليقول كثير من علماء
الاجتماع المعاصرين أن تاريخ المغرب هو تاريخ بواديه ولم
يدرس بعد موضوع (الجماعة) وأثرها الاجتماعى فى البادية
دراسة علمية دقيقة مركزة ، وذلك لان الدارسين لها فى الغالب
من الاجانب ، وهم لعدم فهمهم للشخصية المغربية ووعيههم
لها يستنتجون استنتاجات غامضة غير صحيحة الغالب وشكلية
أيضا لان التدليل على وجود القوانين الاجتماعية فرضية فقط ،

(1) يقول عثمان الكعاك : واما تخلق البربر بالفضائل الانسانية، وتنافسهم
فى الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف
والرفعة بين الامم ومدعاة المدح والثناء من الخلق ، من عز الجوار
وحماية النزيل ، ورعى الذمة والوسائل ، والوفاء بالقول والعهد ،
على المكاره . والثبات فى الشدائد وحسن الملكة ، والاغضاء عن
العيوب ، والتجافى عن الانتقام ، ورحمة المسكين . وبر الكبير ، وتوفير
وتوفير اهل الدين ، وحمل الكل ، وكسب المعلوم ، وقرى الضيف
والاعائلة على النواذب ، وعاء الهمة ، واباء الضيم ، ومشاقسة
الدول ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملوك وبين النفوس من الله
فى نصر دينه ... فلهم فى ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت
مسطورة لحفظ منها ما يكون اسوة لمتبعية من الامم ، وحسبك ما اكتسبوه
من حميدها ، واتصفوا به من شريفها ان قادتهم الى مراعى العز وارمت
بهم على ثنايا الملك حتى علت على الايدى ايديهم ، ومضت فى الخاق —
بالبسطة والقبض احكامهم .

تتوقف على كثير من التحليل لتكون واضحة ... وكذلك لان
الانثروبولوجية الاجتماعية لم تصبح عاما قادرا على العطاء في
ميدان الاجتماع البشري لما بين العلاقات الاجتماعية المتشابكة
البناء الاجتماعية من تعقيدات تخفى على العالم غير المتخصص .

فالبناء الاجتماعي لا ينفصل عن الثقافة السائدة التي لها
كل القدرات على فهم الاشياء فقد خضع المجتمع البربري
(عبر التاريخ) لنظام الجماعة لعدة تجارب وتأثيرات بأعراف
أخرى جديدة سواء في عصر الموحدين أو المرينيين أو العلويين
وبالاخص في عهد المولى اسماعيل الذي جعل من عملية (الف)
و (الصف) وسيلة للوحدة بين القبائل وقد عانت الجماعة المغربية
عدة تجارب أخرى ، وفشلت في معظمها ، والواقع ان التمازج بين
سكان المغرب جميعا نفى كل بقاء لعرف خاص ، ووجود الاقاليم
بخصائص لغوية لا يؤيد دعوة العرفية اذ أن اللغة أصبحت
اقلية للسكان العرب والبربر والافارقة .

واستغل المستعمرون خصائص الشخصية المغربية
الانسانية (المورفولوجية) والاعراف البربرية ، واللغة الخاصة
لهذا الشعب فجادلوا بلغته الشمال الافريقي وبدأوا بذلك في
الجزائر سنة 1874 وفي المغرب سنة (1934) .

الديانات :

كانت الوثنية البربرية تعبد آلهة خاصة بها وهي :

ماكورنا ويونا ، وماكورفوس ، وماثيلا ، وليست لدينا
دراسة مفصلة من هذه الوثنية وانما تعرف أنها وثنية محلية ،
كما عرفت عبادة الاشجار والحيوانات وتقديس بعض الملسوك
ورؤساء القبائل في مرحلة تكوين التفكير القديم البدائي .

وكذلك تعرف المغربى القديم على وثنيات شرقية ويونانية .
ثم ظهرت به اليهودية التى وصلت عن طريق اليهود استيلم وهم
الذين جاءوا من المشرق عن طريق الحبشة ، ثم بعد ذلك بواسطة
اليهود الذين وردوا على المغرب بعد أن أجلاهم الخليفة عمر
رضى الله عنه عن خيبر لما عانى من دسائسهم وخياناتهم
فجاءوا الى المغرب حاملين ديانتهم وبعض المعارف الفلاحية التى
خبروها فى الواحات العربية كما يذكر اسحاق ولنفسون فى كتابه
(اليهود فى جزيرة العرب) .

ودخلت النصرانية الى المغرب بعد أن أصبحت دين
الدولة الرومانية ، وظهر بالمغرب مفكرون مسيحيون .
وعبد البربر فى القرن الاول قبل المسيح (افريكا) وهو وثن
مغطى بجلد فيل حيث كانت المجوسية دمن المغرب منتشرة .

مدنيات :

جمعت أرض المغرب بين حضارة الغاب وحضارة الصحراء ،
فكافح المغربى للتغلب على قسوة الطبيعة التى تملأت عليهم
بثلوجها المتراكمة على جبال الاطلس وبحيواناتها المفترسة
الضارية ، فكان المغاربة يوقدون النار من الشرارات ليستدفئوا
بها فى كهوف الجبال ، ويطاردون الحيوانات المفترسة .. وبتوالى
الايام استخدموا النار لطهى الطعام وتحجير الفخار والاولانى ،
ولا نعرف الكثير من محاولاتهم المدنية فى العصر الحجرى

(1) اليهود فى المغرب منهم الصغاردم Saphardim وهم يهود البحر
الابيض المتوسط دخلوا المغرب أواخر القرن الخامس عشر بعد
تفيعهم من اسبانيا ... ومنهم اليهود البليشتيم أو البيلشتيم Pichlime
أو Pilchime وهم الذين دخلوا المغرب قديما فى عصر دارد .. ومنهم
اشكترم Achkenazim وهم يهود اوريا الشرقية .

والبرونزى والحديدى وانما نعرف الصور البدائية التى رسموها فى الكهوف فى العصر الحجرى معبرة عن عواطفهم المشدودة بجمال الطبيعة ورقة الانوثة . على أن أعظم كشف فى حياتهم بالنسبة لهذه الحقبة هو استغلالهم لخيرات الارض بعد أن تعلموا زرع الحبوب والعيش بها ، وكان ذلك سببا فى استقرارهم على ضفاف الودية ، وفى المنبسطات الخصبة ، فاستطاعوا بذلك أن يخرجوا من عزلتهم كأفراد ضائعين فى الغابات والفضاء الى أناس متكئين مع رفاقهم متعاونين معهم (1) .. وبذلك تأسست القرى وتبادل الافراد المصالح الزراعية ، فاستأنسوا الحيوانات الاليفة وربوا ما يصلح للطعام من الحيوانات والدواجن ، ولا شك أن المغاربة فى هذا العصر البدائى تقدموا فى صناعة الآلات ، وتعاونوا على دفع الضرر واجتلاب الصالح ، فصنعوا السكاكين من الحجر والفؤوس ، ثم اكتشفوا مادة النحاس كما اكتشفها غيرهم فى هذا العصر فأعجبوا بتألقها وجعلوا منها حلية للنساء ، واستعاضوا بها عن القوس الحجرية ، وربما طرّقوا شيئا منه وخطّطوا به جلود الحيوانات فتدثروا بالبرنوس الجلدى ضد عوادي البرد القارس . وهكذا أخذت حياتهم تتطور وتزدهر ، وأعانت الحياة الزراعية على خلق جو من المرح والاستراحة والاستدفاء بالشمس والاستتارة بالقمر فى ليالى يطيّب فيها السمر والحديث ويحلو الغناء والرقص ، فكان لهم فراغ أتاح لهم فرصة تكوين نواة الحضارة الفكرية والادبية والتأمل فى اختلاف مظاهر الكون ، مما أدى بهم الى الايمان بالله واقامة معابد بسيطة لعبادته ، وما أن توفرت الزراعة حتى ظهرت رغبة فى

(1) عرف سكان افريقيا الشمالية حضارة الكهوف ثم حضارة البحيرات ثم حضارة الانهار .. ثم حضارة السفن البحرية .

تبادل المزروعات مع المدن والقرى المجاورة واضطروا أن يستخدموا الخيل للتغلب على المسافات البعيدة والاتصال مع مختلف البلدان والقرى النائية ، وكان حسن الجوار ينقلب في بعض الاحيان الى سوء تفاهم ، فيتكدر الجو ، ويضطر كل فريق للدفاع عن شرفه بالسيف ، ووقعت حروب وفتن أعربت عما في طبيعة المغربي من بطولة وشهامة ، وتحمس للدفاع عن الشرف والعرض والمتاع والحرية الشخصية التي يحبها ويستعذب الفنون في الدفاع عنها ، فكان يظهر (الاقليد) أيام المحن والحروب حيث تختاره قبيلته وتحفظ بأمجاده ويبقى لجماعته شرف الحكم وتسيير المدشر والقرية ، وكان النزاع والشجار يتعدى في بعض الاحيان القرى والمدن الى الحدود والبلاذ المتأخمة فنشأت حروب على حدود البلاد ، تعرض فيها أجدادنا للانتصار والانهازم على السواء فسيبوا ، وأسروا ، وبذلك تكونت صلات بينهم وبين أعدائهم استحالته بعد طور الحرب الى سلام ودعة وبذلك تعرفوا على العوائد والمعتقدات والاداب الاجنبية (1) .

وعرف الفلاح كيف يغرس الارض بفأسه ثم يحرثها بمحاريث تجرها الدواب ، وعند ما يتم نضج الحبوب يأتي على المحصول حتى يفرز الحبوب عن القشور ، ثم يحفرون (مطامير) يودعونها ما أنتجته الارض وبذلك يضمنون عيشا سنويا و ذخرا ضد المجاعات التي تأتي بها السنين العجاف .

وكانوا يعتمدون على المنجل والمذراة والمحراث في حياتهم الفلاحية ... حتى اذا انتهى موسم الحصاد أقبلوا على الحياة فرحين يقصون الاحاديث ويستطيون السمر ويحتفلون فسي

(1) هذا السياق وفق ما قصه معظم ابصا (نشأة الحضارة) .

حلقات (حيدوش) ترقص فيها المرأة بجانب الرجل رقصات عذبة ، وينشدون أشعارا غنية بالعواطف والاحساس الانسانى ، وكانت الفروسية أحب الالعب اليهم حيث يتسابق الرجال على الافراس والجمال مظهرين خفتهم وحيويتهم كذلك عرفوا الحيوانات المتوحشة وروضوا الاسد ، وعرفوا حيوانات أخرى انقرضت الآن وتعرفنا على هياكلها فى الحفريات وكان من بينها الفيل الافريقى الذى انقرض من أمد بعيد ، وعوض بالجمال الذى دخل المغرب فى أواخر الحكم الرومانى .

واعتمدوا أول الامر فى معاشهم على الصيد وتربية المواشى ، ثم الفلاحة التى تطورت فى عهد الزعيم البربرى (ماسينيىسا) حوالى القرن الثانى ق.م. وكانوا يقاتلون أعشاب الجبال وانتاج الحقول المبتوثة فى المنحدرات كالقمح والشعير والذرة والخرطال والزيتون والكرم والرمان والجوز ، فتعلقوا بأرضهم وأصبح الاغرم عند القبائل أشبه بملكية الجماعية اليوم أى فى شكل اشتراكية فلاحية توزع المحاصيل على الجميع نظرا للاشتراك فى الارض والعمل ، ثم تطورت الاشتراكية الى توزيع الارض على العائلات ، فعرفت الملكية الفردية . وكانوا يرحلون فينقلون الخيام على الخيل والبهاائم ، واستوطن السكان الجبليون كهوفا فى الجبال أو فى نواويل وأكواخ من الطوب حيث كان غذاؤهم النبات الطرى والكسكس واللبن ، وشرابهم الماء العذب القراح ، وبذلك صحت أجسامهم حتى أصبح لا يقهرها الا الهرم ، وتطور أسلوب البناء الى (القصور) أى الحصون المبنية على أطراف الجبال التى تحتوى على الخزائن والمؤون والمطافى والعزيب ، وتطورت هذه الحياة الى (المدشر) فتجمع الناس فى سكتاهم على شكل قرى بدائية ، أما الاسرة فكانت تسكن فى منزل صغير ذى طابق واحد يصعد اليه بدرج صغيرة

ويحتوى الطابق على غرف ومخزن الحبوب فى (تغرمت) ، ويسكن الاغنياء فى حصون صغيرة مربعة بها ساحة وبرج للحراسة . أما الفقراء فيسكنون فى (تدارت) ، أى دار صغيرة بدون طابق .

وساعد التطور الاجتماعى على الاستقرار بدل الترحال ، وبذلك أتيج للبربرى فى القرية أن يبنى حصونا ومخازن ومستودعات مشتركة ، أو ما يعبر عنه بالبربرية (أغرم) أو (أجدير) ، وهكذا تطور المظهر المعمارى من شكله الاول العتيق الى شكل دهليز أو دار ذات سطح ، وهذا السطح هو النموذج التقليدى للسكن المغربى الذى ظل أساس الشخصية المعمارية المغربية رغم تنوع التصميمات المتعاقبة حسب اختلاف البيئات . ويتمثل هذا الفن (تغرمت) فى الاطلس المتوسط وهى عبارة عن قلعة مربعة ذات حصون تحتوى زواياها على برج متصل بغرفة فيها درج توصل الى الطابق الارضى ، أما الحصون القائمة بالاركان فتستغل كاهراء ومخزن الحبوب ، وعلى الطابق الثانى من البيوت (الايغرم) أو (التغرمت) ، ويفوقه فى كثرة المخازن المواجهة للبناء وهو مستودع جماعى وخزين للقرية ، وحصن ومركز التجمعات .

ولباس المغربى الاول ، كان من جلود الحيوانات ثم نسج الصوف وضم أطراف بعضها الى بعض حتى تطورت الى (البرنوس) المعروف اليوم .

وكان سلاحه الذى يرد به هجمات المعتدين فى أول الامر مقدودا من الحجارة ثم الحربة ، ثم القوس ، ثم الخنجر ، ثم السيف والدرقة المصنوعة من جلود الفياة . واعتمد على الفرس فى حربه ولم يتأثر بنقل حضارة (العربات) لصعوبة ارتقاء الجبال بها ...

وشاع استعمال التزيين عند النساء والرجال على السواء فتحلى الرجل بأقراط الاذن ، وأكاليل الريش ، وتحلت المرأة بالخلخال ، ووشموا وجههم بعلامات طوثرية خاصة ، واقتسموا العمل فى الحقل ، الا أن المرأة اختصت بالطبخ والنسيج وصناعة الخزف ، واختص الرجل بالفلاحة والحرث والبناء والدفاع عن حوزة القبيلة .. وكان الصبيان يعبثون فى ألعاب ما تزال آثارها فى المغرب كلعبة (قبة من ذا) وهى أن يخفى أحد الاولاد وجهه فى حجر زميله ثم يتناوب الاطفال على وضع الايدى على ظهره ، وعليه أن يعرف أسم الواضع اليد أخيرا والا هبوا بالضرب على ظهره ، وهذه اللعبة عرفها قدماء المصريين باسم لعبة اخفاء الوجه ، وكلعبة (طاييب) حيث كان يختفى بعض الاطفال ، وعلى رفاقه أن يبحثوا عنه فاذا أمسكوه قبل أن يصل الى المنطقة الحرام فهو مكلف دائما بالبحث عنهم .

ودفنوا الموتى فى الكهوف الطبيعية المنحوتة بعد عماية الثنى وتكسير العظام حتى لا يعود الموتى الى الحياة ، وعندما اتصلوا بالقرطاجنيين فى القرن الثالث الميلادى اقتبسوا منهم عادة حرق الاموات ودفن الحلى والاثاث مع الميت ... كما فعل المصريون القدماء .

ويخطئ بعض علماء التاريخ الاجتماعى حين يظنون ان المغاربة القدماء كانوا ينتسبون لامهاتهم ، وان المرأة كانت تتزوج عدة رجال ، اذ الواقع (كما يرى أندرى جوليان) أن الانتساب كان الى الاباء ، وكان الرجال يعددون النساء فلم يعرفوا (الامومية) لاسباب اجتماعية .

وتدل الاعراف والعادات التى خلفها أجدادنا على أنهم كانوا أتقياء منصفين يأبون الظلم والاعتداء ويؤثرون البساطة ،

فلم يخلفوا أهراما عظيمة أو قصورا مشيدة أو تماثيل لعظمائهم
وانما كانوا يميلون الى التواضع والعطف على الضعيف وتقدير
أعمال الانسان لا تمجيد صورته وعبادة تماثله .. ولعل أساس
هذه الظاهرة هو ايمانهم بشخصية كل انسان وعدم تسخيره
لتنشيد مظاهر تافهة أو بناء كبير يرسم عليه ميزان العدل ،
فلذلك أحبوا من حكاهم وأمرائهم البساطة والشجاعة ، وعطف
عليهم حكاهم فلم يسخروهم للأعمال المرهقة ، ولم يحفلوا
بمظاهر الابهة والحكم .

كما عرف البربر أدبا وجدانيا ومرحا جماعيا في
(الانشادى) وادب ملحمى معبرا عن الذاتية « الادبية
والوجدانية » .

مراكز الحضارة المغربية الاولى

14 ق. م - 643 ب. م

عثر في حفريات أثرية عن معالم مدينة (لاشيش) وهي مدينة كنعانية بنيت في السهول الخصبة فيما بين مدينتي القدس وغزة ، وتمثل زهرة المدائن في العهد البرونزي الذي سبق ظهور الاسرائيليين بكثير وكانت هذه المدينة مأهولة قبل حوالي اثنين وعشرين الف سنة ، وعاصمة للكنعانيين ومنها ومن فلسطين وفد الكنعانيون على المغرب حيث ادخلوا الفلاحة والصناعة وأسسوا به عدة قرى ، فظهرت نواة حضارة مغربية جديدة برزت في مدن عريقة في القدم مثل سجلماسة وسلا ودمنات ، وفي وفي كتاب عجائب الامصار لمؤرخ مغربي مجهول ، ذكر لعدة مدن قديمة (كقنط) قرب مدينة آسفى و (تيط) قرب الجديدة و (ازموور) المؤسسة قبل العهد الفينيقي ، ويذكر (ميكيل طارديل) في بحثه « عصر الفينيقيين الاول بالمغرب » ان العلاقات البحرية بين طرفي البحر الابيض المتوسط اقدم من الفينيقيين بكثير ، ولعلها نشأت في العصر الحجري الجديد ، ويؤكد ذلك ما ورد في (العهد القديم) عن قوارب الصيد التي تعبر المتوسط ، وكذلك بوصف (هيردوت) لتجارة الذهب عبر المتوسط ، وبما ذكره (سترابون) عن ماضى افريقيا واسلاندا وما جاء في أقاصيص المتيولوجيا اليونانية ... وقد عفى الزمان على هذه الحضارة البدائية الاولى ، فذابت في حضارة القرطاجنيين ، التي ذابت بدورها في الحضارة الرومانية ثم عفى الهجوم الوندالي على ذلك كله ويذكر (الفريد بيل) في كتابه « ديانة الاسلام في بلاد البربر » ان البرابرة بعد احتلال

الوندال فقدوا كل ما استمروا به من الحضارة القرطاجنية والرومانية .

قرطاج : (814 ق.م الى 146 م) .

في سنة 814 ق.م (تقريبا) فرت الاميرة جونو (عليشة أرملة أسرباس رئيس كهنة صور) من ظلم أخيها بينغماليون المستأثر بالملك دونها ، ونزلت بساحل المغرب الذي كانت به جالية فينيقية فاشتريت أرضا ، وبنت بها (قرت — جونو) التي حرفت الى قرطاجنة فيما بعد ومن المؤرخين من يرى ان اصل قرطاج (قرية حداش) وهو اسم بربري قديم .

ويروى هيروdot ان الفينيقيين (السوريين) اكتشفوا شاطئ القارة الافريقية ، فجاءوا اليها وبنوا بها اصنام هرقل بطنجة ، وحملوا اليها صناعة الزجاج وغيره من منتوجاتهم ، ثم ضاعت مدنيتههم بعد انتصار الاسكندر المقدوني عليهم وكان الفنيقيون يسمون بلاد افريقيا (افريكان) اشتقاقا من اسم سكانها (افري) أى بلاد الافرى وكانت تسمى قبل ذلك لوبييا أو لبييا وعاشت قرطاجنة تسعة قرون قبل أن يهدمها الرومان ، وستة قرون بعد تخريبها محتفظة بالحضارة الفينيقية بل وظلت اللغة الفينيقية لغة الشعب ولساننا للوعظ ، والعقود ، والوصايا الى القرن الثالث ب م كما ذكر سكان أوغست ، وكان الرومان يستعملون المترجمين بينهم وبين سكان المغرب بل سجل بهذه اللغة ادب مغربي وثقافة مغربية استفادت منها روما كثيرا ... ويذكر المؤرخون الرومانيون ان مجلس الشيوخ الروماني كلف (دى سبيلانييس) أن يترجم 28 كتابا عن الفينيقية الى الرومانية وكان عمل الفينيقية تسهيلا للفتح العربى لأن لغتها لا تبعد عن أصول اللغة العربية والبربرية ، وكما لاحظ (جوستيل)

في (تاريخ افريقيا الشمالية) انه لم يبق الشعب البربري وحده في الشمال الافريقي ، اذ سرعان ما جاءت الجالية الفينيقيّة من الشرق ، واقامت في افريقيا الشمالية ، وبما أن هذا الشعب ينتهي في نسبه الى الكنعانيين الساميين ، فقد تألف بسرعة مع البربر الذين ينتسبون « حسب رأى معظم المؤرخين » الى اليمن ، وسرعان ما أسس الفينيقيون مدنا مهمة على طول ساحل افريقيا الشمالية كبنزرت في تونس ، وطنجة وشفالة في المغرب ، وينقل (ميكيل طارديل) عن (بيلنيوس) ان هذا المؤرخ لا يذكر تأسيس مدينة ليكسوس ، بل يذكر معبدها بما يدل على أن بناء المعابد سابق على تأسيس المدن ، وبالتالي بوجود فترة طويلة من ملاحظة الاستكشاف والمبادلة التجارية قبل انشاء مراكز المستعمرات ...

لقد جاء الفينيقيون (1) يحملون حضارتهم البحرية والبرية الى المغرب ، فأخذ سكان المغرب عنهم الخط الفنيقي وتخلوا عن الخط المعروف باللوبي المشتق من الحميري ، وهو أقدم من الهيروغليفى المصرى ... وازدهرت الثقافة الفينيقيّة في المغرب وتركت آثارها بارزة في مؤلفات القرطاجيين وظل التأثير الفينيقي واضحا في الحضارة المغربية اليوم ، ويقول (ميكيل طارديل) ان هذا النفوذ كان فاصلا في تكوين ثقافة مغربية ذاتية يجعلنا نرى أن الاسم المناسب في تاريخ المغرب للفترة المتراوحة فيما قبل

(1) الفينيقيون من الكنعانيين الذين هاجروا بلاد الشمال سنة 530 ق.م وسكنوا فينيقيا حسب الاسم اليوناني المأخوذ من كلمة فنكس، أي الخيل أو اللون الاحمر ، وجاء في الفورا وصف المدنية الفينيقيّة بهذه العبارات (انهم لاستخراج الذهب حفروا واديا بمعزل عن السكان ، وانهم على بعد من الناس يتدلون متأرجحين في سبيل لم يعرفه النسر ولم تبصره عين الخداء ، وانهم بسطوا أيديهم على الصوان وقلبوا الجبال من اصولها وفي الصخور نحتوا قنوات .

سقوط قرطاجنة خلال الحرب الثانية ونشأة البيوت المحلية الحاكمة المعروفة والتحاق المغرب بالامبراطورية الرومانية (هو القرطاجنى الموريطانى) ونستطيع ان نتعرف من خلال الحضارة الفينيقيّة الشرقية على مدى تأثيرها في بلادنا من خلال الفلاحة والتجارة ، والفينيقيون شعب فلاحى وتجارى ، ظهرت آثاره الفلاحية في غرس البساتين بأنواع الفواكه الشرقية كما كان شعبا تجاريا بما ينتج من أدوات فلاحية ومنزلية كالأكواب والاباريق ، والصناعات اليدوية كالتنسج بالإضافة الى أن الفينيقيين كانوا من الشعوب التى جابت البحار فتركت في المغرب ثقافة بحرية ، كما ترك الفينيقيون أيضا ثقافة روحية دينية ظهرت في هيكل (بعل) ومعبد (تانيت) ، هذان المعابدان اللذان اعتمد بهما التفكير الدينى الفينيقي ومن المعلوم ان الفينيقيين تأثروا بعده ديانات قبل ظهور المسيحية في الشرق ، واختلف على بلادهم الانبياء وكان دينهم توحيدا وكان لهم بالمغرب تأثير ذينى حيث عرف البرابرة لأول مرة عبادة الكبش (عمون) وعبادة (بعل) و (تانيت) وغيرهما كما في رحلة (حانون) ، وكذلك قدموا القرابين البشرية لتكون لهم معينة لاستجلاب رحمة السماء ، واذا كان من القرطاجنيين شعبا تجاريا وفلاحيا ، فهذا من احدى عوامل الخلاف بين قرطاجنة وروما التى كانت شعبا عسكريا يفتح البلد لاستغلالها فلاحيا وليمد روما بخيراتها (1) وقد ظل القرطاجنيون معتقدين بتنمية العمران والاقتصاد طيلة وجودهم في المغرب ، ويذكر الربان (جنون) في رحلته ان القرطاجنيين

(1) وصفت التوراة الفنيقيين بأنهم تجار فلاحون ويصفهم (هردوت) بأن لهم ذوقا وغنى لا حد له وقد ظهر ذلك هيكل هرتل الذى فيه عمودان يتألقان في الظلام ، ويرى (سترابون) اليوناني انهم علماء فلك ورياضيات وهم معلمو اليونان .

خرجوا في ستين سفينة عظيمة ليؤسسوا المدن ، ومنها (ثميتيرية) المهدية (وسلو) وحصن (فريكون) (وغيتة) و (مليطة) و (ارنبي) ، حتى نهر لكسوس « وادي سوس » و (اجدير) و (روسادير) « مليلية » في الشمال الغربى (2) .

وتطورت الحضارة المغربية في هذه الحقبة في كل المجالات الحيوية ، ففي الفلاحة والزراعة تدل الآلات البدائية المستعملة ان البربر كانوا شعبا ذا ثقافة فلاحية تشبه الثقافة الفلاحية في حوض النيل وبلاد آسيا ، مما يدل على وجود تبادل تجارى في اساليب الري والفلاحة . وفي الآثار الموجودة ما يبرهن على وحدة التقاليد الفلاحية ، أو على الاقل ما يبرهن على ان البرابرة من سلالة أسيوية نقلت عوائدها الى المغرب بعد مرورها بوادي النيل ، وقد عرف البربر حياة الحضرة ، وحتى القرن الثانى الميلادى بقى البربر تتنازعهم الحياة الفلاحية والرعية أما الحياة المدنية فلم تعرف الا بعد الغزو الافريقى ، وأقدم مؤلف نعرفه كشاهد على الاثر الفنيقى هو كتاب (ماكون) Magon وهو كتاب يتناول الفلاحة واساليبها ، وقد ترجم الى اللاتينية ، وكان عمدة الرومانيين في هذا الميدان .

(2) أسس الفينيقيون مدينة Lixus سنة 1101 ق.م ومدينة اوتيكة Utique قرب تونس .. وجدد الرومانيون Haut empire مدينة Lixus ويرى Plive أن بها حداثق Hesperices .. ثم جدد البيزنطيون Bas Empire مدينة الكسوس .. فلما جاء العرب بنوا على انقاضها مدينة تسمى ... وسبق أن أسس الرومانيون قريها مدينة Oppidum Novum وهى المسماة بالقصر الكبير... وكانت هذه الناحية ابنان الفتح الاسلامى مكتظة بالمدن كالبصر الموصوفة ببصرة الكتان وبالحمرء ، عاصمة الادارسة بعد سقوط فاس وكان مركزها قرب المدينة الرومانية Valentia أو قرب Banassa ومدينة أصيلا التى هدمها أبو الفتوح صاحب افريقيا سنة 368 ومدينة اقبلام ومدينة جنيارة ، ومدينة ماسينة أو ماستة ومدينة (كرت) ومدينة الحجر ، وقصر مصمودة وغير ذلك من المدن التى تكلم عنها البكرى .

وأما التأثير الاقتصادي فالآثار تؤكد انهم منذ القرن السابع ق.م. افرغوا في جزيرة الصويرة المنتوجات التي حملوها معهم من شتى البلاد التي قطعوها عبر السواحل اللبنانية الى الشواطئ المغربية ، ومنها الصحون المجلوبة من جزيرة قبرص وروديس ، واوانى الفخار المجلوبة من المدن الاغريقية ، وكانت السفن الفينيقية تمخر عباب البحر الابيض المتوسط حيث تحمل حضارتهم الى باقى الاقطار النائية وقد عالج القدماء المغاربة بالجلود صنائع مختلفة ، كالخرجة واجهزة الافراس والاحذية والمقابن والوسائد المرصعة بخيوط الحرير .

وساد في الاقتصاد نظام المبادلات في أول الامر ، فكانوا ينتجون بعض الآلات الفلاحية والاسلحة البدائية للدفاع عن حوزتهم ويبيعونها وكذلك صياغة بعض انواع الجواهر كما تاجروا في الحيوانات المفترسة مع الرومان وغيرهم ، وفي أنياب الفيل الافريقى الذى انقرض نهائيا من افريقيا ، ونشطت المرأة بجانب الرجل في ميدان الصناعة فنسجت الزرابى ونقشت الاوانى رعت الماشية .

وظهر اثر المعتقدات الكهنوتية في عبادة الشمس ومظاهر الكون ، وبعض عوائد الفراعنة التى جاء بها البربر اثناء هجرتهم عبر وادى النيل ، فلذلك وضعوا موتاهم بعد صبغها في كهوف نحتت في الجبال،ودفنوا الاثاث بجانبها استعدادا لحياة ثانية،وربما دفنوا في قبور هرمية ، وعرفوا في صلاتهم السجود وهو من مظاهر العبادات الشرقية ، ودال على نسبة ارومتهم الى بلاد المشرق ، كما كانوا يختنون حسب التقاليد السامية القديمة .

والمرأة البدوية سيدة منزلها وقد ينتسب اليها الابناء ، كما سادت عادة تعدد الزوجات .

التأثيرات الثقافية :

وقد ترك لنا البربرى معالم ثقافية فى الآداب اللسانية ، منها (اليزلان) من الأطلس المتوسط وهو قصائد شعرية تمجد البطولة والفروسية ، وعرف البربر المسرح الشعبى (انشادن) وهو مسرح غنائى يعتمد الحوار من شخص أو أشخاص ومسرح (عبيد الرما) وهو مسرح هزلى وكان التعبير الجماعى عن الفرح بفن الرقص المعتمد على الإيقاع والتصفيق والنقر ، وكان (الحيدوش) و (الاحواش) رقصة يعتمد على الموسيقى ، وعلى المظهر الأنيق حيث يكون استداريا وقد أسس (يوبا الثانى) معهدا موسيقيا بمدينة شرشال (فى القرن الثانى قبل المسيح) ، كما ألف أول معجم فى المعارف ، وفى الأنساب البربرية .

وكان التمثيل شائعا عند البربر القدماء فى عهد (يوبا الثانى) فى مدينة شرشال والغالب ان له اصولا شرقية ، اذ هو فى الاصل اناشيد وتساوير يستعطف بها الرب ويتوسل اليه (

كما عرفوا فى عهد (يوبا) نحت الاصنام حيث نحتوا من الحجارة تماثيل لآلهتهم وعبدوها ، وقد صور البربرى القديم سواء على الصخور أو على بيض النعام أو على الخزف وترك لنا التاريخ الاثرى مجموعة من الرسوم التعبيرية .

أما الشعر الملحمى فهو عريق فى الآداب البربرية فقد عرفته قبل الرومان وفى عهدهم أيضا وكذلك الآداب البربرى تآثر بالآداب القصصى والمسرحى الرومانى ، وبدا هذا التأثير حتى الى العصور الاسلامية فى الآداب العربية ، ومن ذلك ملحمة (الصابى) بلغة تشلحيت ، كما فى دائرة المعارف الاسلامية .

ويلاحظ الاستاذ (ريكار) ان لرسوم البرابرة طابعا هندسيا

قارا ، مع الاقتباس من صور الطبيعة ، وتختلف هذه الرسوم اختلافات كثيرة من مربعات متداخلة الى تروس صغرى الى رقع للعب الى خطوط متشابكة الى اشكال سداسية .

وباختصار ، فقد طبع المغاربة مساكنهم ولباسهم وأثاثهم بفنهم المستمد من الاشكال الهندسية والرسوم الطبيعية التى تحتقى بتصوير الانسان والحيوان ، وكان فنهم عبارة عن خطوط وتعاريج متناسقة دون التفات الى الاقواس والحنايا المعروفة فى باقى الفنون .

وفى كتاب « تاريخ افريقيا الشمالية » (1) ان الطابع القرطاجى بقى متجليا فى صناعة المعادن والخزف المذهب والاصباغ والنسيج والجد وآلات الفلاحة والآلات البحرية ، وكانت الثياب البونيقية شرقية بقميصها الطويل الاكمام العريضة وكساء السفر والطربوش والبرنس .

وبقى التأثير كذلك فى الاعراف والعادات ، كتعدد الزوجات وانواع الحلى وشكل الرموس ، وتعليق الخمسة (اى اليد) وتحريم اكل الخنزير .

واستمرت الحضارة الفينيقية طيلة قرون عديدة يختلف المؤرخون فى تقدير مدتها (ثم جاء الرومانيون فانقرعوا الفينيقيين من الشمال الافريقى بعد حروب مديدة استمرت قرونا) واتاحت للبربر أن يكونوا مملكتهم البربرية وبذلك تكون ادب بربرى كتب بخطهم أو بخط لوبى فعبر عن شخصيتهم ، ولكن هذا العهد لم يطل امده ، لان الرومان انتصروا على القرطاجنيين واجلوهم واسسوا الامبراطورية الرومانية التى كان الشعب المغربى سواء فى تونس أو الجزائر من ضحاياها ، غير ان جزءا من القسم الثالث من هذه

(1) ص 92 (كوتى) .

المستعمرة المعبر عنه بموريطانيا الطنجية كان في بعض الاحيان تابعا للاندلس أو الجزيرة الايبيرية أو (بطيقا) كما يعبر الرومانيون وعندما فتح العرب افريقيا الشمالية واصلوا فتوحاتهم في افريقيا بالاندلس فكانت الاندلس تابعة للمركز الادارى في شمال افريقيا وحتى بعد انتهاء عهد الولاة في المغرب بقيت الاندلس تحت نفوذ الشمال الافريقي طيلة عهد المرابطين وعهد الموحدين وهما من العصور الذهبية في التاريخ المغربى الوسيط .

وتجلى الفن المغربى الجديد في بناء الدور والمساكن ، اذ بعد حياة الخيمة عرف المغاربة حياة الاستقرار في الدور المستقرة ، وعرفوا المساكن الخاصة بالرحالين المتأرجحة بين الاخبية واطحاص القصب ، أو الطوب ، وكانت الدار منحوتة في بعض الصخور الاطلسية كما ظل (الايغرم) أو (التغرمت) هو المستودع الحصين والمجمع القوى الذى قد يكون كبيرا ضم الهيكل ، وقد يكون صغيرا ، وقد يشمل مساكن الماشية والمستودعات والاصطبلات والباحات الواسعة والحدائق المحاطة بسور ذى أبراج محصنة .

لقد كان المغربى يبنى بيته بالحجارة فاذا لم يجدها بلـل التراب وافرغه في اوعية مستطيلة وسماه (الطابية) (1) واستعمل القرميد في التسقيف والتبليط والاعمدة ، اما الابواب فتؤخذ من اشجار الارز والحفصة وتزين بنقوش وترصيعات جميلة ، وحدائد مسبوكة متقنة وبداخل البيوت اثاث من صناديق منقوشة واعمدة للخناجر مرصعة وملاعق خشبية وركب مزرکشة للفرسان واقراط جميلة للنساء ، اما صناعة الخزف فتكاد تنفرد بها النساء ، ويختص الجنوب (درعة) بنقش الخوامى ، وتفنن الاطلسيون في رسم الصور المختلفة على الاوانى المنزلية حيث تبدو في فن النسيج

(1) بناء (الطابية) تختلف مواده حسب العصر والبيئات المغربية .

رسوم وتسطيرات رائعة من اشكال الاسحال والاسديات المستعملة في الاخبيسة ، تتحت الرسوم والتسطيرات مع تلوينها في مغازل تتداخل فيها اللحمية في السداة وادراج خيوط توضع في منحرجات هندسية مدققة ، وتركب (المنازل) عادة من ركزتين واسطوانتين وتغطي اللحمية المعالجة باليد السداة ، فترسم صورا جميلة ، واذا تغير لون اللحمية تكونت سلسلة من الخطوط المتوازية ، وهكذا استطاعت يد الصناع ان ترسم بالالوان والخيوط صورا في نهاية الدقة والجمال ، تتجلى في البرانس والاردية والاكسية والمخدرات والخمر والوسائد . واشهر ما تركه الفن المغربي القديم (الزربية) التي تغمر بيوت المغاربة حيث تمتاز برسوم رائعة تنقل الطبيعة بألوانها نقلا أميناً معبرة عن رقة الذوق وسمو الفن ..

السيطرة الرومانية وتحري الحضارة المصرية للسيطرة الرومانية

146 ق. م – 439 ب. م

انتهت الحروب البونيقية المستمرة بين قرطاج وروما ، باحتلال افريقيا الشمالية التي أصبحت تابعة لروما ، يحكمها وبدأت روما عملها Préteur قاض من رتبة قنصل يدعى بريطور في افريقيا بمسح الارض حتى يتأتى لها أن تستعمرها استعمارا فلاحيا ، وأصبحت أرضها مسرحا لصراع مديد بين القسوات الرومانية وسكانها الاحرار بقيادة (ماسينسا) (ويوبا) (وتاكفار يناس) Tacfarinas ومجالا للخلافات العقائدية والمذاهب المسيحية ثم ميدان تمرد قبائل المزالمة وجدالة في عهد اغسطس ... وهكذا كان الرومان يرون الاحتفاظ بافريقيا لانها مزروعتهم التبري ، يستغلون زروعها وماشياتها وأشجارها كخشب السندروس والارز ... وعندما تعرف المغاربة على الجمل (سفينة الصحراء) توغلوا في الصحراء الافريقية مستفيدين اقتصاديا وتجاريا فظهرت حضارة جديدة في قصور صحراوية وجبلية وحياة بذخ وفروسية ما تزال آثارها ماثلة . ولم يعمد الرومانيون الى احتلال الشمال الافريقي مباشرة بعد احتلال قرطاجنة ، بل اهتموا في البداية بالنواحي المجاورة لها واصبح

(1) راجع تفاصيل عن الموضوع بكتاب تاريخ افريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة الدار التونسية للنشر .. والتأشير الروماني بافريقيا 1913 مسناج

القسم المقتطع تابعا للجمهورية الرومانية تحت اسم افريقيا ، ثم فصلوا الامارة الوطنية الاصلية بحدود ، هي عبارة عن خندق يمتد من طبرق الى ناحية صفاقص ، وحولت العاصمة الادارية لهذا الاقليم الى (اوتيكا) شمال تونس ، ووضع على رأسها حاكم روماني لم يلبث ان اصبح يحمل لقب نائب قنصل Pro consul غير أن هؤلاء الموظفين السامين الذين اسندت اليهم ادارة الاقليم كان همهم الوحيد الثراء العاجل على حساب الاهالي حيث بدأ الشعور بجور الحكام الرومان يتحول لديهم شيئا فشيئا الى ثورات خطيرة .

وقد وجد الرومان مقاومة عنيفة من طرف السكان سواء في نوميديا أو موريطانيا الطنجية ... أما نوميديا فقد كانت مملكة عظيمة تختلف حدودها حسب اختلاف المراحل التاريخية التي اجتازتها ، فقد كانت تمتد غربا الى ملوية قبل عهد المؤرخ سطرابون وشرقا في ليبيا الى ما وراء الاطلسي ، ولها مدن مهمة كمدينة قسطنطينية المزدهرت في عهد ماسينسا ، ومثل غنابة وسبجينة عاصمة صفاقص ، وشرشال وبجاية وتينيس المسماة في عهد الملك جوبا بقيصرية اعترافا بفضل اغسطس .

وقد عرفت افريقيا في هذه الحقبة مدنية وعمرانا وحضارة فائقة وثقافة فكرية ، فأسس يوبا الثاني ملك فلوليوس وشرشال جامعة للآداب والعلوم والفنون المعروفة في وقته .

وقد ألقت بهذه الجامعة دوائر معارف عن الجزيرة العربية والبلاد المغربية وألفت كتب في الطب والنبات واستفاد الرومانيون من هذه الدراسات كما كانت بقرطاج جامعة للآداب والعلوم والفنون ، وكان أساتذتها ينتدبون للتدريس في جامعة روما ، مثل المعلم أبليوس والمشرع ساينوس جوليانوس ،

وكأسرة غوردیانوس ، والطبيب أليينوس ، وظهر كتاب مسرحيون قرطاجيون ألفوا آثارهم باللاتينية مثل (فرنسيوس) والروائي (باكاست) والكاتب (أبولنكس) .. وتسلق الحكم في روما (سبتينوس سفروس) الذي دافع عن أبناء افريقيا ضد الأنظمة القانونية المتعسفة المتسلطة عليها ، فكان من قياصرة روما الذين عطفوا على بلادهم .

أما موريطانيا فكانت المملكة المغربية المحادية لمملكة نوميديا شرقا عند وادي ملوية وتشكل القسم الشمالي من المغرب الأقصى اليوم وهي نسبة الى (المور) الذي كان يطلق على المواطن الذي ينتمي الى هذه البلاد ، ولا يعرف مصدر هذه التسمية فقليل انها تحريف لكلمة الميديين ، او انها اسم لنبات ارجواني كانت تصبغ به الاردية ، وتتخذ الروايات الاولى من تاريخ موريطانيا مظهرا اسطوريا على غرار الميثولوجيا اليونانية فتتحدث عن دخول هرقل الى موريطانيا ومقاومة انطى واطلس له والى هذا الاخير تنتسب جبال الاطلس ، ويجعل بعضهم (انطى) ابن الاطلس .. ونظرا لموقع نوميديا في حدود قرطاج فقد كان الرومان يضايقون القرطاجيين وكان (ما سينسا) يساعدهم من الداخل طمعا في ان يستقل ويملك الشمال الافريقي كله وشيدت معظم الرومان بالمغرب على انقاض مدن اخرى ومن اهم المدن .

أولا : طنجة ، وقد عثر الاثريون على اثار فسيفساء في الكنيسة الاسبانية وهي تمثل الشاعر اورقي بنايه وسط مجموعة من الحيوانات ، كما اكتشفت نقوش في عين الحمام ، وكهف بما جنوب رأس سبارتل وغير ذلك .

ثانيا : ويلي ولا تزال كثير من آثارها قائمة الى الان بما

فيها قوس النصر والحمامات والاسواق والدور ومعاصر الزيتون.

ثالثا سلا (مكان شالة الحالية) ... وما تزال فيها
آثار عديدة للرومان .

رابعا : باناسا على ضفة سبو ، وبها آثار كثيرة .

خامسا : تامودا قرب تطوان .

الثقافة :

صنع الرومانيون مؤسسات افريقيا بطابعهم السياسى
والادارى والثقافى ، فانتشرت اللغة الرومانية المعروفة ببلاغتها ،
وتأثير خطاباتها وخطبها ، وساعدت جامعة (قرطاج) فى العصر
الرومانى على انتشار القانون الرومانى بما فيه من تشريعات
وتنظيمات ادارية مما أتاح لكثير من سكان قرطاج البونيقيين
التوجه الى روما للتعليم والتعلم بها .

السكان :

من الصعب ان نعرف شيئا عن كثافة السكان المغاربة فى عهد
الرومان على ان المدين مهمما بلغ كبرها لم تتجاوز فى الشمال الافريقى
اربعين الف مواطن باستثناء قرطاجنة ، وكان سكان المدين فى
معظمهم فلاحين يشتغلون فى الاراضى المجاورة للمدينة ثم
يروحون الى مساكنهم مساء ، الا المهاجرين من الاقطار الخاضعة
للاحتلال الرومانى ، وبينهم سوريون وعرب ومهاجريون ومن
كل البلاد التابعة الدولة الرومانية .

الدين :

كان الرومانيون (1) متمسكين بوثنيتهم ، وقد ظلوا أوفياء لها في مختلف البلاد التي حكموها حيث كانوا يجتمعون لعبادة الامبراطور في مظاهر الوثنية المألوفة لديهم .. وقد تطلع الافارقة لفهم هذه الديانة ولكنها لم تكن تحظى بالقبول لأنها وثنية سطحية لا تتناسب صفاء ذهنهم ويعتبرونها بالاضافة الى ذلك عبادة اعدائهم .. ولم يمنعهم ذلك ان يعيشوا في لحظاتها حياة العبث والشهوة في الحفلات التي تقام في هذه المناسبات والتي يجدون فيها متنفسا لما يلاقوه من تعسف وجور وظلم .. أما الديانات التي كانت تحاول الاستئثار باهتمامهم فهي الوثنية الشرقية ، والمسيحية ، واليهودية ، ويذكر ابن خلدون ان عقائد البربر في المغرب تطورت حسب تأثرهم بمن جاءهم من الامم .

وكان المغاربة القدماء يعرفون المجوسية متأثرين بالوثنية الفارسية التي حملت اليهم من فارس في رأى من يرى ان اصل البربر من عنصر يمني ذهب بعضه لفارس او من يرى انهم من عنصر هندي عبر الى المغرب عن طريق فارس ... وكذلك عرفوا اليهودية التي دخلت مع المتهودين اليمنيين منهم ... ومن اليهود الذين جاءوا الى المغرب بعد تخريب معبدهم في أيام (الجلوة) كما جاءوا كذلك بعد انتشار الاسلام في جزيرة العرب وخروجهم

(1) ان العقيدة الرومانية قبل ظهور المسيحية وثنية قامت على انقراض الوثنية الفينيقية ، فهدم الرومان معبد بعل وعوضوه بـ (بابلون) ، كما هدموا (تانيت) ، وعوضوه (بسيلتين) ، ثم تبسح الرومان بعد انتصار المسيحية في بلادهم وحملوها الى افريقيا حين كانت ذات اثر قوى في البربر الذين رأوا فيها عقيدة الخلاص مما يعانون من تعسفات الرومانيين وارهاتهم للشعب البربري ، ولم يلبثوا ان تركوها يوم اعتنقها الرومان كدين رسمى واصبحت لاتقيم لروقتا بينهم وبين اعدائهم .

من خبير وفي عهد الخليفة عمر ، وعرفوا المسيحية سواء حين اضطهدوا الرومانيون فاستقبل المغاربة كثيرا من المسيحيين أو حين أصبحت الدين الرسمي للدولة الرومانية .. وفعلا ازدهرت المسيحية واصبحت لها كنائس متعددة في المدن المغربية وامتد العالم المسيحي بكثير من القديسين امثال ترتوليان ، سايريان ، والقديس سان اوغستان ، بل خرجت كنائسهم ظافرة من الاضطهادات الكثيرة التي تعرضت لها على يد الكنيسة الرومانية ثم ضعفت المسيحية أمام الاسلام ويذكر المستشرق توماس ارنولد في بحثه في تاريخ المسيحية في شمال افريقيا ان عدد المسيحيين في نهاية القرن الميلادي كان قليلا جدا ، ولكن استمرار بقائهم في ظل الحكم الاسلامي دليل على انعدام وسائل العنف والاكراه في التحول الى الاسلام ، كما ينص تاريخ المسيحية في المغرب على ان الولايات الرومانية في افريقيا التي كان الاهالي المسيحيون بها لم تكن في المغرب كله ، لان الصحراء الكبرى كانت تقف حاجزا منيعا ضد تسرب المسيحية ، واذا كان يوجد قبيل غزو الوندال عدد كبير من الاسقفيات يبلغ نحو الخمسمائة ، فلم يكن هذا العدد مقياسا لعدد المؤمنين من المسيحيين نظرا للعادة المتبعة في الكنيسة الافريقية من تعيين اساقفة في معظم المدن والقرى بصفاتهم موظفين يعيشون في كنف السكان الذين يخدمونهم . (كما ذكر توماس ارنولد) .

وانتشرت ملة (الدوناتوسية) نسبة الى دوناتوس وهي نزعة مسيحية ضد الكنيسة الرسمية التي برزت بعد مؤتمر (ميلانو 313) . وقد انضم انصارها (الدوارون) ، وهم من الفلاحين الكادحين ، مما ساعد على ابراز ثورة اجتماعية لمقاومة الامبراطورية الرومانية والكنيسة الرسمية وكان (اغسطوس) اكبر عدو للدوناتوسية .. ثم جاء (جنسريق) ليحارب الكنيسة

حربا شعواء لانه كان اريوسيا ... وكانت سنة 442 من اقسى
السنين عناء للمسيحية في افريقيا .

ويذكر تاريخ المسيحية قبل الاسلام محاولة الكاتب
الافريقي المسيحي (لكتانتىوس Lactantius المتمسح سنة 300 م
ليوفق بين العقل والعقيدة ، لما رأى من تناقض بينها وان كان
يرمى بذلك ان يدخل المشركين الى المسيحية ، كما ان اغسطس
المولود سنة 364 كان يدعو الى الجهاد لينصر دين الله معتمدا
قول المسيح (ادفعوهم الى دين الله دفعا) وقد أعلى رأيه في
العناية الربانية حيث اختار الخالق منذ الازل عباده الذين كتبت
لهم النجاة ...

التعليم في العصر الرومانى :

لم يكن الرومان يعلمون أبنائهم فضلا عن أبناء البلاد
المغصوبة ، وكان تعليمهم حرا لا يتقيد بمدرسة أو معهد بل كان
التلميذ في بلاد اليونان والرومان يتلقى علومه عن مدرسين
متعددين لاتجمعهم صلة ، وكل معلم يدرس في داره على طريقتة
الخاصة ، فلما انتشرت المسيحية لم تستغن عن الدراسة اليونانية
والرومانية باعتبارها اداة أدبية ، ولكن طبعتها بطابع مدرسى
موجه توجيهها وعظيا .

المغرب في العهد الرومانى :

لقد استولى الرومان على المغرب من سنة 146 ق.م الى
سنة 439 بعده ونشروا به لغتهم وحضارتهم وآدابهم ، فظهر
بين المغاربة مؤرخون وكتاب وشعراء ، استطاعوا ان يقدموا لنا
وصفا حيا عن الثقافة المغربية في هذا العصر ... فالقديس
اوغستوس العنابى وصف في كتبه المجتمع الافريقي خلال

القرن الخامس بعد الميلاد وما يعتلج فيه من عواطف وفورات وحيوية ، كما إن الكاتبين ترتليان وفيريانوس انتقدا المجتمع الافريقي مع وصف للعائلة المغربية والحياة الدينية والمدنية وما في المجتمع من حانات ومسارح وساحات عمومية واسواق .. أما الكاتب الروائي ابو ليوس فألف مسرحيات خالدة منها الحمار الذهبي وقد اكتشفت له عدة مؤلفات باللغة اللاتينية ... ورغم هذا التأثير الرومانى فقد ظل الشعب المغربى يتكلم الفينيقية ويحدثنا القديس (غوستينوس) وهو أحد رجال الدين المغاربة ، أنه كان يستحيل عليه أن يلقي قداسة باللغة اللاتينية لان معظم الناس الذين يستمعون اليه لا يعرفون حرفا واحدا من اللاتينية ، وانما كانوا يعرفون اللغة الفينيقية ، التى كانت منتشرة انتشارا واسعا ، حتى أن العرب الذين جاءوا المغرب وجدوا الناس يتكلمون اللغة الفينيقية ، وهى لغة سامية اخت العربية ، بل انها لهجة من اللهجات العربية فكان الانتقال منها الى لغة أخرى كالانتقال من اللهجة المغربية الى المشرقية .

ولم تسيطر روما على البلاد المغربية بسهولة بل اتحد البرابرة والقرطاجنيون تحت قيادة (هانبال) الافريقى لمقاومة الغطوسة الرومانية فى حملة تآخى فيها البربر والقرطاجنيون الفنيقيون ضد المستعمر الاجنبى ، واستمرت الحروب البونيقية تعلن عن الخلاف بين المستعمر والمدافع عن بلاده ، فالانسجام بين البربر والفينيقيين فى الحروب البونيقية حجة اخرى على وحدة الجنس العربى السامى لان الفنيقيين عرب مستعربة كتعانية والبربر من نفس الجنس سامين عرب ولان اللغة متشابهة فى الاصل ، وهى عامل رئيسى فى الاتحاد الفكرى .

لم يلبث الرومان أن انتصروا فى حروبهم بافريقيا ، فقهروا الحضارة الفينيقية واستبدلوها بالحضارة الرومانية

فحولوا معبد (بعل) الى معبد (أبلون) وحطموا (قرطاج)
 ليشيدوا على أنقاضها مدينة جديدة وقد تآزر ماسينا مع روما
 لمحاربة قرطاج أملا في أن يستولى على المغرب الاوسط كله ،
 واتخذ حجة من معاملة القرطاجنيين لسفيريهِ مِسيبا Micipsa
 وغولوسا Gulussa ، وكان الرومان يريدون من مآزرتِه أن
 يكون لهم حليفا للقضاء على قرطاج أولا ثم لمحاربته ثانيا ... ولم
 يدم انتصار روما طويلا في افريقيا ، فقد هاجمهم الوندال واتفوا
 معالم اعمالهم حتى اذا جاء عصر البيزنطيين ظهر الامبراطور
 يوستينياس ليقاوم الغزو الوندالي ويعيد افريقيا الى حظيرة
 الامبراطورية الرومانية .

وحكم الرومانيون (نوميديا) واربوا على القاعِدة
 الجغرافية التي احتضنها (سيفاكس) و (ماسنيسا) الى ناحية
 « تانجيتين » وحولوا الحياة البربرية من التأثير الفينيقي الى
 التأثير بالحياة الرومانية سواء في تفكرها أو نظامها ، وقد حولوا
 الحياة الاقتصادية نفسها يوم ادخلوا الجمل فتغيرت الحياة من
 نظام نوميدى (الرحلة) الى حياة الرعى والانتجاع سيما
 ببلد الشاوية التي معناها (رعاة الغنم من كلمة الشاء) والتي
 كانت تشمل حدود نوميديا الحالية ، ثم انتقلت الى اقليم تانجيتين .

أما عن التأثير الفقهي ففي ازرف بعض أثر الانظمة ذات
 الاصل الرومانى ويظهر ان نظام الجماعة في الحكم تأثر كذلك
 بنظام الحكم النيابى الرومانى كما هو مبسوط فيما كتبه Basset
 في (محاولات في الادب البربرى) وما كتبه (لاوس) في كتابه
 مسميات واسماء بربرية .

المعن والمواصلات :

ظل التأثير بارزا في شبكة خطوط المواصلات التي

انشأها الرومان والتي كانت عبارة عن طريق عريضة مرصفة تربط ما بين طنجة الى سلا مارة بالعرائش ومن طنجة الى وائلي، طرابلس و (تافنة) وقد اقتفى الرومانيون اثر الرحلة الطويلة وبين تلمسان ووليلي عن طريق تازة ، بل هناك طريق تربط بين التي قام بها (ما هون) فاستقروا بالشواطىء المجاورة لتطوان براس (سبارطيل) وبقلعة ليكسوس المشرفة على ميناء العرائش فلا شك ان هذه الشبكة كانت معبدة لحمل البضائع ونقل الصادرات الى العاصمة ألام (روما) وحمل الواردات الى الرؤساء والاثرياء ، ويدل هذا على نشاط تجارى استقسات منه كل الطبقات .

افريقيا في الالب الرومانى :

زار المؤرخ صليست Sallusta افريقيا الشمالية في القرن الاول قبل الميلاد وكتب عن حروب روما ويوغورطة حيث كانت مدينة (الكاف) عاصمة اليوغرطية التي شعارها (افريقيا للافارقة) وظلت (الكاف) تحتضن تمثال (بمينوس عشتروت) وتشرف على الحدود البونيقية .

ثم جاء (فلوروس) المؤرخ المعاصر للحكم الرومانى في المغرب الذى عاصر أحداث عصره ، وحاول ان يستنبط قواعد اجتماعية وتاريخية وقد كتب تاريخ طيطش المعروف بالمعشرات .

وكانت بقراطاج مدرسة فكرية حيث ظهرت المذاهب الفكرية الشرقية والرومانية الغربية ، كالغنوسية ، والأفلاطونية الحديثة ، والتصوف الفلسفى ، وتأملات المدارس الاسكندرية . وعرف المغاربة الاتجاهات المسيحية المختلفة من نسطورية ويعقوبية كما عرفوا (أسلستىوس) ومدرسة أفلوطين وغيرها وبرعوا في الخطابة والجدل والفقه والقانون ، وكان الشاعر منيليوس

خطيبا حماسيا دافع عن مذهب التطهير ومعرفة الغيب عن طريق الطالب كما كان كرنيتوس فيلسوفا رواقيا عين شيخا لمدرسة بروما في عهد نيرون ، وكان سبتيموس خطيبا وجدا لأحد أباطرة روما ، كما كان فلوروس شاعرا يطمح لجائزة الشعر في الكابتول

وكذلك عرف الأدب المغربي (ابلوس) المولود حوالي سنة 125 م وهو كاتب افريقي اشتهر بتناقضاته ومواقفة المتأرجحة بين الجد والطيش والشك والايمان ... كتب قصصا متنوعة منها (المسوخ) أو الحمار الذهبي وقد زار اثينا وأعجب بالافلاطونية المدرسية فتأثر بها طيلة شبابه وتحفظ (الازاهير) بثلاث وعشرين قطعة من خطابه الجميلة .

كما كان بوكليوس Pocolios من اعلام الفكر الافريقي القديم ومن سكان سقةبتونس كان مشهورا بفقهه في اللغة اللاتينية بل كان من اساتذة الامبراطور Marc Avrei عاش في القرن الثاني بعد المسيح (121 — 180) كما كان (ارنوب Amob من اعلام افريقيا في القرن الثالث والرابع الميلادي استاذا للخطابه والبلغة وهما اهم علم يدرس في روما لانهما يشملان سائر فروع المعرفة واعتنق المسيحية وناضل ضد الوثنية بكتابه عن المسيحية .

وكان الافارقة في العصر الروماني من أول من كتب الموسوعات العلمية والادبية ، ففي أوائل القرن الخامس الميلادي ألف (مارتينوس كبيلا) موسوعة نصفها منظوم والآخر منشور ، ثم ألف بعده مطران اشبيلية (ايزيدور) موسوعته المعروفة بالاصول .

الخلاصة :

ازدهرت الفلاحة في المغرب طيلة العصر الروماني ونجحت

غراسه الاشجار وبالاخص الكروم والزيتاين وكان المغرب يعتبر حقلا كبيرا لانتاج الزيوت والحبوب والعنب . ولهذا فان المحدثن الرومانية في الغالب تنقع في المراكز الفلاحية لهذه الغاية . وتبعاً لذلك اهتم المغاربة بتنظيم الري في البلاد بناء على هندسة الري الرومانية فاستغلت مياه الابار والعيون والسواقي والنواصر والمطافى وشيدت القنوات على الانهار وقناطير تحمل قنوات الماء عبر الاودية الى الاراضى الفلاحية .

وتحتفظ اللغة البربرية بكلمة (أكر) المحرفة عن (أكرو) بمعنى ميل وكانت العملة الرومانية مسكوكات من نقود البرونز المفضضة ، ومن جملتها الفلس والصلدى Solidus وقد ظلت هذه الكلمات مستعملة في المغرب الى اليوم .

العمـران :

لم تختلف مباني الرومان في المغرب عنها في باقى اجزاء الامبراطورية من حيث الشكل العام وفي الواقع لم يخلف الرومان أو لم يبق من آثارهم على الاصح ، شئ كثير بالقياس الى المدة الطويلة التى استغرقها حكمهم ، لان الرومانيين لم يكونوا مستقرين وانما كانوا معمرين غزاة ، على أن فيما تبقى من الآثار يظهر انه يمتاز بالمزج بين الفن الرومانى والاغريقى ، في كثرة صوره الجدرانية ، والتمائيل التى تزين ابواب المباني خصوصا الضخمة منها ، وضمن الفن الرومانى وجدت مجموعة من القناديل التى تزدان بصورة حيوانية ونباتية ، وتغطى الفسيفساء صحن المنازل مشتملة على صورة بشرية وحيوانية ونباتية كما تمتاز الجدران بضخامتها ونقوشها النباتية وهذه الآثار ما تزال ماثلة في ولىلى وشالة .

ونشاهد في قصر فرعون (بوليلى) قسوس نصر

مبنيا بالحجارة المتداخلة ومثل ذلك يقال عن اسواق وساحات بناسة وشالة التي شيدت من الحجر المنجور المتجانس ، ونفس الاسلوب يامس بوجه عام في مختلف الاسس والعتبات والاسكفة الرومانية . أما (الجدران) فهي من الحجر غير المنحوت ومن الآجر والطابية . وأما الدور فكانت متعددة الطبقات مغطاة بسطوح من تراب وكلس واحيانا بالقرميد ، كما كانت ارضها مرصعة بالحجارة الا في الحجرات حيث كانت مبطة بالكلس والتراب أو بالفيسفاء المختلف الالوان واستمر الفن الرومانى بالمغرب بارزا في نحت تماثيل المرمر والبرنز كما بقى بارزا بعد الفتح العربى فى الجهاز المادى للحضارة من ازياء وحلى وبنائات وحمامات . وحافظ الذوق المغربى على الجودة والاتقان فى عمل الصناديق الخشبية المنقوشة ، وادوات زينة الأبواب والاقفال والخناجر والسيوف والابازيم والاعماد ، المرصعة بالعاج والحلى المتنوع والخواتم والعقود واليجان والاسورة والخلاخل والسورج وتشبيك النوافذ وغير ذلك .

وبما ان (المدينة) هى معقل الحضارة فقد ظلت مرافقتها تستوعب عطاآتها الثقافية ، وهكذا كانت المدينة الرومانية تضم (الفروم) بساحة البلدية و (قوس النصر) سجل الانتصارات العسكرية و (الحمامات) نادى النخبة الارستقراطية ، ثم المنازل والدور والدكاكين ومعاصر الزيتون والعنب ... وقد كان الرومان مستعمرين متغطرسين لم تكن لهم مع المغاربة علاقات انسانية نظرا لنفور المغاربة منهم ومقاومتهم لسيطرتهم رغم ما كانوا يغرون به من مناصب عليا ، ولذلك لم يستولوا على المغرب كله لشدة المقاومة واكتفائهم بالمراكز التى يجمع فيها الانتاج الفلاحي فاعتبروا المغرب مزرعة كبرى Dépôt de blé وقد استولى الرومان على المغرب لضرورة بناء امبراطورية شاسعة الاطراف ،

عسكرية الاهداف ، كان عليها ان تضم اليها جميع ممالك حوض البحر الابيض المتوسط وتطارد من افريقيا اعظم دولة تنافسها تجارة واسطولا وتقنية وهى دولة الفينيقيين والقرطاجنيين من بعدهم .

وقد تأثر الفن المغربى بالاسلوب الافريقى الرومانى وما يمتاز به من اقواس واعمدة وحمامات وقناطر وقنوات ومخازن للماء وسقايات ، وظل ذلك بارزا فى مختلف اطواره ومراحله التاريخية ولقد كانت الدار الرومانية فى اقليم المغرب كثيرة الشبه بالدار الافريقية حيث تشتمل كما نرى ذلك الى الآن على بناء مربع متصل بالهواء الطلق تحيط به اروقة وله ممر طویل يوصله بالشارع . أما الحجر فهى تقع فى الجهات الاربع للبناء وربما كانت ذات طابقين وحمام وروض صغير .

سلا :

وربما كان اسم (سلا) له صلة باسم القائد الرومانى Sella الذى ظهر فى روما أيام الحكم الجمهورى وكان خازن القائد الرومانى (ماريوس) سنة 107 ق.م فقد جاء الى المغرب ليفاوض بعض ملوك شمال افريقيا ونجح فى سفارته حتى اذا أصبح ماريوس قنصلا فى روما سنة 104 ق.م عينه بين قواد جنده ، ثم دب الخلاف بينهما فزحف سيلا على روما وأكره مجلس الشيوخ على الحكم بنفى ماريوس ثم عاد هذا الاخير الى روما اثناء غيبة سلا فى بعض حروبه ، ولقب نفسه بالسيد ...

التأثير العسكرى :

كان للرومانيين نظام عسكرى محكم ، طبع حياتهم بالنظام

والقسوة والقوة .. وقد تركوا أثرا بارزا في الميادين الحربية والعسكرية حيث اقتبس المغرب منهم اهتمامهم بالقوة العسكرية وتنظيم الحامية واسلوب الحرب ، ووحدة القيادة ، واحكام تنظيم الصفوف وطريقة حفر الخنادق واستعمال الاسطول في الغزوات البحرية وقد ظهر ذلك جليا في حروب طارق بن زياد في الاندلس وتنظيم الكتائب في عهد المرابطين والموحدين ... وبناء القلاع والحصون عبر الاقليم كله في عهد مختلف الدول المتعاقبة على الحكم في المغرب .

اللغة :

ظل الشعب المغربي يتكلم بلغته البربرية ، ويكتب بها رغم كل المحاولات التعسفية لفرض اللغة الرومانية كما ظلت اللغة البونيقية لغة المجتمعات والمحافل الدينية تكتب بجانب اللغة اللاتينية عسى أن تخلفها فلم تستطع الى ذلك سبيلا ، لأن البونيقية قريبة في اصولها من اللغة البربرية، ولانها كانت لغة الشعب فلم تفرض عليه فرضا وانما وجد فيها سهولة التعبير والاداء لتناسبها مع تفكيره .

مقاومة الرومان :

قاوم المغاربة الرومانيين ومن اشهر مقاوميهم — من البربر — القائد البطل يوغرطة حفيد الملك (مسينسا) فقد قاد الثورة ضدهم سنة 110 ق. م وهزم الرومانيين قرب مذيونة قالمة في المعركة الشهيرة بواقعة (سوتول) . ولكثرة الهزائم التي اوقعها بهم هذا البطل (يوغرطة) اغروا صهره (بوكوس) ملك موريطانيا الذي اعتقله سنة 106 ق. م فسلمه اليهم . فذهبوا به الى روما حيث بقى بها حتى مات اسيرا في احدى سجونها

سنة 104 ق.م وقد كافأ الرومان بوكوس بالحقا نوميديا بمملكته الموريطانية ، وظل بوكوس وفيما لروما رغم الهزات العنيفة التي تعرض عرشه حتى مات وتوارث ولداه (بوغود وبوكو الثاني) مملكته : فحكم الاول القسم الغربى من عاصمته تنجيس (طنجة) والثانى ما وراء ملوية شرقا الى حدود افريكا الرومانية . وكان الخلاف بين الاخوين حادا الى درجة جعلت احدهما وهو بوكوس الثانى يقتل بوغود ويضم مملكته الى حكمه . وخلال تلك الاضطرابات ، كان الرومان يقوون نفوذهم ببلاد المغرب حتى فرضوا عليه سيطرتهم وقسموا المغرب الى ثلاث ولايات هي : ١ (افريقيا ونوميديا وموريتانيا) . ولما وضع الامبراطور (كلوديوس) بلاد المغرب تحت الحكم الرومانى المباشر اطلقوا عليه اسم موريطانيا وقسموها الى موريطانيا قيصرية و (تشمل الجزء الشمالى من ارض الجزائر وتونس) وموريطانيا طنجية (وتشمل الاراضى الواقعة بين وادى ملوية والبحر المتوسط) وكانت العاصمة الرومانية الاولى بالمغرب هي (عوثيقة) التى توالى عليها الولاة منذ عهد كلوديوس الى كومود .

الوندال فى المغرب

429 م — 534 م

جاء جنسبريق (1) الذى استقام له الامر من 442 فنظم البلاد وضرب السكة ، (والصورة المنقوشة على النقود تصور امرأة تحمل سنابيل القمح) .. وما كادت ستة قرون تنصرم على الاستعمار الرومانى حتى شعر الرومان بخيبة آمالهم لان

(1) ا. ف. فوثية جنسبريق ملك الوندال .

اللغة الفينيقية لم تمت وظلت لسان الشعب يرثل بها أناشيده الكنيسية ويعبر بلغته في ثورته ضد الاستعمار الرومانى ، فكان الانتصار للفنيقية البونيقية والانهزام للرومانية .. وبانتهاء حكم الرومان يتعرف المغرب على جنود جنسبريق بعد ان مهد له الكونت بونيفاص الطريق ليستولى على افريقيا الرومانية ، وقد شيد هذا القائد مملكته على انقاض المملكة الرومانية في افريقيا وضرب النقود باسمه ونظم المحاكم على غرار ما فعل الرومان من قبله ، وشجع المذهب المنتمى الى (آريوس) ، وبنى المعابد ، كما ظهر ادباء باللغة الوندالية منهم الامير (جاليم) الذى نظم مرثيات في الدولة الوندالية ورغم ان الوندال لم يكونوا مثقفين أو حماة للثقافة فـان دركانسيون Drocontinus الذى الف في قرطاج ملاحم وتبتلات كانت مصدر ملحمة (ملتين) الانجليزى .

البيزنطيون

534 م — 643 م

الروم (البيزنطيون) مزيج من الرومان واليونان والسلاف واللذين احتلوا افريقيا الشمالية ووصلوا الى طنجة وسبتة في أقول بعض المؤرخين ، وقد عين الامبراطور جوستينيان بعد قضائه على القائد الفندالى (سالمون) حاكما على افريقيا الشمالية (أى المغاربة الثلاث) وجعل مقر حكمه قرطاج وحاول تركيز المسيحية الكاثوليكية التى اصحت في عهده المذهب الرسمى للدولة ، وقد قاومه من المغاربة الزعيم البربرى (يابداس) رئيس قبائل الاوراس فانهمز البيزنطيون امامه . وفي سنة 600 م اعتلى عرش روما هرقل الذى عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم ووجهه اليه دعوة الى الاسلام تقبلها قبولاً حسناً وفي هذا العصر

أى بداية القرون الوسطى أخذ العرب يكتسحون الامبراطورية البيزنطية سنة 632 فى عهد الخليفة عمر . واقتطع البطريق (كريكوريوس 2) جرجير المغرب من الحكم البزنطى سنة 607 الذى انتصر عليه العرب وبدأت الفتوح الاسلامية المنتصرة منذ هزيمته فى سبيلطة .

ودام حكم البيزنطيين من (534 الى 643 م) وهم ينتسبون الى بيزانس رئيس الماغريين ومؤسس مدينة بيزنطة التى جدها قسطنطين الكبير واتخذها عاصمة له ، وقد فتحها الاتـراك العثمانيون وسموها (اسلام بول — اسطمبول) والبيزنطيون فى المغرب وبالرغم من عبورهم واستقرارهم فى الجزائر وتونس فلم يثبت لهم وجود بالمغرب الاقصى الا ما ادعاه بعض المؤرخين من كونهم وصلوا الى سبتة .

الحضارة الإسلامية المغربية

القرن الاول الهجرى

(643 م 701 م) (23 هـ 82 هـ)

يطلق العرب على البلاد الممتدة من برقة غربا الى المحيط الاطلسى اسم (المغرب) ، وهكذا نجد هذا الاصطلاح عند المؤرخين والجغرافيين العرب كابن حوقل (فى المسالك) والبكرى (قسم المغرب) والادريسى (فى النزهة) وابن خلدون (فى العبر) ولا شك ان هذا التعميم يشمل بيئات مختلفة ولذلك قسموا المغرب الى (أدنى) أو افريقية ، و (أوسط) و (أقصى) . أما الرومانيون فقسموه الى افريقيا ونوميديا وموريطانيا . (1) وعلى أرض المغرب نشأت قبائل بدوية رحالة وقبائل مستقرة ذات حضارة ، وصحراوية تفاعلت مع البيئة الجغرافية وتوغلت فى الصحراء أو تناءت عنها لعوامل طبيعية كالجفاف، أو لعوامل اقتصادية كالنهب والسلب ، لعوامل اجتماعية ، ولذلك اهتم المؤرخون المعاصرون أمثال جولييان وجوثيه وطراس وغيرهم بحركة القبائل وعلاقتها بالبيئة الجغرافية وتفاعلاتها معها ، وبذلك استطاعوا أن يعطوا بعض التفسيرات المفيدة لحركة تاريخ المغرب وحضارته، اذ ان طبيعة البلاد من اقليم ساحلى وسهلى ذى تربة خصبة ومواسم منتظمة الى أقاليم يسودها الجفاف فى الجنوب ، ويعتمد سكانها على التوسع داخل افريقيا ، الى اقاليم أخرى جبلية فى الاطلس

(1) راجع الموضوع بتفصيل بكتاب قيام دولة المرابطين للدكتور حسن احمد محمود .

وجبال الريف حيث يستوطنها قوم اقوياء تعودوا حياة الرعى والحرب ... والعرب لنشئتهم الصحراوية وبببيتهم القبلية فهموا البلاد المغربية وطبيعة سكانها فلم يقسموا البلاد تقسيمات جغرافية كما فعل الرومان ، وانما قسموها حسب اصولها القبلية وبذلك استطاعوا ان يوحدوا بينهم وبين سكانها الاولين للاستمرار في بناء حضارة متشابهة الاصل وتطورت المدينة من الشكل الرومانى الى الشكل الاسلامى استجابة للتأثيرات العقائدية فاشتملت المدينة على المسجد الاعظم بمرافقة المائىة والدينية والمدرسة التعليمية .. والساعات لضبط الاوقات والدكاكين والاسواق والمنازل والحمامات التى اصبحت شعبية تختلف عن الحمامات الرومانية فهى امكنة للنظافة والطهارة والغسل ومستوصفات علاجية بها (برمة) للماء الطاهر الذى لا يجوز تكديره واروقة ثلاث للتدرج من السخونة الى البرودة وقاعة للاستراحة ..

كما يحيط بالمدينة سور وابراج للدفاع عن سلامة سكانها وحضائر مائىة واجنة وحقول لتموينها وأثرت العقيدة الاسلامية في اظهار فن ابناء الاضرحة والكتابة على رخمات القبور بعبارات ادبية مستوحاة في الموعظة الدينية .. فكانت للاضرحة عناية من السكان بل كانت مجاورة للمساكن والشوارع تخليدا للموتى وتمازجا معهم وتجاوزا للماورائية .

وقد كان الاسلام سببا لوحدة المغرب وهدايته للطريق القويم ، وليست التحليلات التى روجها بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين الا اتهامات ملففة تملئها روح استعمارية فهو لا يرون ان الاسلام (بصفته مذهبا جبريا) كان مسؤولا عن جمود المغرب العربى لعدة قرون أو ما زعمه Degmanbyne ان ما يعلمه المذهب الاسلامى للناس كحقيقة لامراء

ففيها ينكشف أنه مجرد تجمع مبهم لاخطاء تظهر كلما استطاع
 المجهود العنيف للفكر الانساني ان يتخطى سلما في المعرفة ..
 كما ان Goutier يرى ان الفكر الاسلامي يتحمل مسؤولية
 عرقلة معرفة تاريخية نقدية ويستثنى من ذلك (ابن خلدون) كما ان
 (تيراس) يرى ان المغرب العربي تحتله سطحيا حضارة عربية
 أما الاساس الاصيل فهو الحضارة البربرية .. وهو زعم يهدف
 الى ابعاد استعمارية لا أساس لها في الواقع التاريخي والاجتماعي
 بل ان من العسير ان نفرق في العصر الحاضر بين العربي والبربري
 الا بمقتضى التوزيع الجغرافي التاريخي ، فقد تمازج العنصران
 اجتماعيا وسياسيا وعملت الدولة منذ عصر المولى ادریس
 يوم تزوج بكنزة ليمزج بين العنصرين ، وبتعاقب الدول على
 المغرب اصبحت القبلية بصفاتها العرقية محتفظة بعصبيتها فقط ،
 واسدى المولى اسماعيل جهدا كبيرا لاذابة القبائل البربرية من
 القبائل العربية والعكس ، فيما يسمى بسياسة (اللف)
 و (الصف) واصبح من العسير أن نفرق بين البربر والعرب ،
 ولا يصح للمؤرخين اليوم ان يعتمدوا على اللغة في التفريق بين
 العنصرين فقد تعرب بربر (لبييا) و (تونس) تعريبا كاملا ،
 وكذلك لا يصح أن نتخذ اسماء القبائل دليلا على أصلها فقبيلة
 (بنى مطير) ورهونة بربرية ، رغم اسمها العربي و (ادوغل)
 و (مدلس) و (تجاكانت) قبائل عربية رغم صيغتها البربرية .

موقع المغرب حسب الاصطلاح العربي القديم

كان الجغرافيون في القرون الاولى يدرجون المغرب فيما يسمونه بالاقليم الثالث ، أى ما بين خط العرض 27 الى 33 حسب رواية الدمشقى مخرجين منه طنجة وسبتة وجنوب درعة وتافيلالت ولكن الحسن الوزان يقسم افريقيا في القرن العاشر الى أقسام بربريا بشمال الاطلس وتضم فاس ومراكش (نوميديا) وجنوب الاطلس وتضم درعة وسجلماسة وتوات (وليبيا) في الصحراء الشرقية وبلاد السودان أو كناوة ... وقد سمي العرب بلاد المغرب (بجزيرة المغرب) نظرا لميزاتها الحضارية والثقافية ..

ويذكر الحسن الوزان المناجم المغربية وهي الجير (بتادلة ودكالة) والحجارة السوداء (بالاطلس) والخزف والطين (بجنوب فاس) والكلس (قرب فاس) والمرمر الابيض (بالاطلس الكبير) والملح الحى بنواحي فاس ، ومن المعدن المعروفة الأثمد الذى تكتمل به العيون والفضة بتمدالت بسوس، والنحاس بتادلة والحديد بجبل الحديد (منجم الأعوان) .

عصر الولاة (26 هـ)

الثقافة في عصر الولاة :

في الحقبة المريرة من تاريخ المغرب حين كان يعانى

ظلم الوندال أو الفندال (Vandalos) واحتلال الرومان كانت الجزيرة العربية تتمخض عن ثورة كبرى هي ظهور الاسلام الذى جاء ديناً للناس اجمعين ولا شك أن قابلية الشعوب والامم لاعتناق الاسلام دليل على أنه يسائر نزعتها الفطرية مما كان عاملاً على انتشاره بسرعة ووصوله الى بلاد افريقيا وآسيا ، واتاح الوضع الجغرافى لبلاد المغرب ان يكون فى طريق حركة الفتوح الاسلامية والاسلام باعتباره مصدر الثقافة المغربية ومكيفها يعتبر أساساً للثقافة الاسلامية المغربية والحضارة المغربية كذلك لقد حمل الاسلام الى الفرد استقلال شخصيته فلم يربطه بالمعبد أو الكاهن ، ولا بالكنيسة ولا بلاياقونه ، وانما المسلم فرد ، حر ، يتحمل مسؤوليته وحده ويخاطب ربه بدون واسطة فهو فى صلاته يتوجه الى ربه ، وهو فى حجه يطوف ويسعى ، لا يلتمس الغفران من أى شخص ، عليه واجبات ، وله حقوق عليه احترامها وادائها ، وهدى الاسلام الشخص الى الكمال ، فاذا اقتضى المثل العليا السامية التى سنّها الاسلام كان خليقاً ان يصبح (السوبرمان المسلم) ، وفى سيرة الرسول (ص) نموذج الشخصية الاسلامية التى تتفانى فى الخير والصلاح ... والتقوى وحدها هى ميدان المفاضلة بين الناس اجمعين واعطى الاسلام للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ، فلا ترهق النفس على حساب البدن ، ولا يرهق البدن على حساب النفس ، فالازدواج بين الروحية والمادية متوازن فى شخصية المسلم ، وحمل الاسلام الى الفرد العزة والكرامة ، لمخلوقات متساوية عقلاً ونفساً وتتفوق فى ميدان التقوى فقط ، وليس هناك ما لقيصر فيعطى له وما لله فيعطى له ، أى ان السيطرة والهيمنة انما هى لله وحده وجاء الاسلام ليحث الفرد على العمل ، ولا يدعوه الى القنوط والانتكال ، وكان قوله فى القضاء والقدر اعظم حافز للمسلمين فى

صدر الاسلام ان يجتازوا معالم بلادهم الى العالم اجمع وهم يسترخسون نفوسهم في الجهاد ، وما ساء فهم الناس لفكرة القضاء والقدر واصبحت فكرة جامدة حتى فسدت القيم الاسلامية ، واصبحت معانيه تفسر تفسيراً جامداً مشوهاً ، ولم يكن الاسلام دين فرد من الافراد أو طائفة من الناس أو شعبا من الشعوب ، وانما كان دين الناس كافة ، لا يفرق بين الابيض والاسود ، ولا بين السامي والآري والهامي ، ولا بين الاسيوي والافريقي والاوربي ، وانما هو دين المساواة لا يحفل باللونية والجنس وهو بعد هذا دين الحرية فلا يقيم العراقل في وجه الشعوب التي تريد اعتناقه ، وهو دين متسامح ، يحرر الفرد من الخرافة ، ويحرر الشعب من الرق ، ويسامح كل الاديان ، لا يعادي عقيدة من العقائد السماوية وانما ينكر الوثنية ولا يحتمل وجودها لانها عقيدة بدائية لا يؤيدها عقل وتقود الانسان لكل شر ، ثم هو بعد كل هذا نظام تام يتناول العقيدة والمجتمع والاخلاق فيقيم وحدة شاملة بين طبيعة الفرد وسلوكه ونظامه الاجتماعي في تحرر كامل وانعتاق شامل ، لا يمنع الفرد من التطور والتقدم ، هذا هو الاسلام الذي عمت دعوته بلاد المغرب وبالإضافة الى هذا كله فان مواطني المغرب ساميون في الاصل أو أبناء عمومة في السامية مما يستأنس به بعض المؤرخين ويرون ذلك من أسباب اعتناق البربر الاسلام تبنيهم لدعوته ...

الاسلام في المغرب :

في خلافة عثمان بن عفان (سنة 26 هـ - 73 م) استأذن والي مصر عبد الله بن أبي سرح الخليفة في فتح بلاد افريقيا ، فأذن له الخليفة بذلك فكانت بداية الاتصال الحضاري بين المغرب والبلاد العربية وقد وقف السكان أول الامر بجانب البزنطيين

لمقاومة الفتح العربى ولكن لم يلبث الافارقة أن انضموا الى صفوف المسلمين واستمر الغزو طيلة ولاية معاوية بن حديج وعقبة بن نافع ، والمهاجر ابن ابى دينار وحسان بن النعمان .

دعندما بنى عقبة بن نافع جامع القيروان ، أصبح المسجد جامعة اسلامية للرجال وللنساء أيضا ، يدرسون فيها على السواء ، فكان سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات ، يدرسان في جامع القيروان ، وكانت خديجة بنت فاطمة بنت أسد بن فرات تدرس بنفس المسجد أيضا ثم تجاوز المسجد تدريس العلوم الاسلامية وتدرّيس الآداب الى التعليم وتدرّيس العلوم الدخيلة .

لذلك كانت دولة الأغالبة في القيروان في القرنين الثامن والثالث المعاصرة للدولة الرستمية بالجزائر والادريسية بالمغرب الاقصى والاموية بالاندلس ولشّرلمان - الدولة الكرلوسية بفرنسا - تدرس العلم بجامعة القيروان ، وأسّس زيادة الله الثالث الى جانب جامع القيروان ، وعلى خطوات منه بيت (بيت الحكمة) وهو مكتبة للنقل والترجمة كما كانت القرويين بفاس تهتم بالدراسات الفقهية والادبية والعلمية وهكذا تركزت الثقافة الاسلامية في افريقيا الشمالية .

ويذكر بعض المؤرخين ان وفدا من البرابرة ذهبوا الى الجزيرة العربية وتكلموا بلغتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم بلغتهم واسلموا على يده فكانوا في عداد الصحابة ، ولكن المحدثين ينكرون سند هذا الحديث ويستبعدونه وهم يطعنون فيه من الوجهة الحديثية ، والواقع ان مقتنه بعيد ان يتكلف تصنعه لا سيما ونحن نعرف الاتصال القديم بين البربر والروم البيزنطيين وقدرة البربرى على الرحلة والسياحة ، بل يقال هؤلاء رجعوا الى بلادهم مسلمين وماتوا بها حيث دفنوا بالسياظمة في جبال الحديد ..

وهناك من يرى ان هذه القصة ترجع لعهد الخليفة عمر ، فقد نقل « الاستقصا » عن صاحب (كتاب عقد الجمان) انه لما كانت خلافة عمر رضى الله عنه وفتحت مصر — وكان عليها عمرو بن العاص — قدم عليه ستة نفر من البربر محلقي الرؤوس واللحى ، فقال لهم عمرو : من من انتم ؟ وما الذى جاء بكم قالوا رغبتا فى الاسلام فجننا له لان اجدادنا قد أوصونا بذلك فوجههم عمرو الى عمر رضى الله عنه وكتب اليه يخبره فلما قدموا عليه — وهم لا يعرفون لسان العرب — كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم : من انتم ؟ قالوا نحن بنو مازنج ، فقال عمر لجلسائه : هل سمعتم قط بهؤلاء ؟ فقال شيخ من قريش : يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر من قيس بن عيلان، خرج مغاضبا لابيه واخوته فقالوا بربر . اى اخذ البرية ، فقال لهم رضى الله عنه ، ما علامتكم ؟ قالوا : نكرم الخيل ونهين النساء فقال لهم عمر : الكم مدائن ؟ قالوا لا ، قال : الكم اعلام تهتدون بها ؟ قالوا : لا ، قال عمر : والله لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازية ، فنظرت الى قلة الجيش فبكيت ، فقال لى الرسول : يا عمر لا تحزن فان الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا اسواق ولا علامات يهتدون بها فى الطريق ، ثم قال عمر : فالحمد لله الذى من على برؤيتهم ثم اكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم — الجيوش القادمة عليه ، وكتب الى عمرو بن العاص ان يجعلهم على مقدمة المسلمين ، وكانوا من افخاذ شتى ... وفى هذه الحقبة ايضا اتصل المغرب بشعب آخر هو الشعب القوطى ابناء عمومة الوندال من الجرمان ، فقد طارد القوطيون البزنطيين وعبروا بوغاز جبل طارق واحتلوا سبته سنة 547 م . ومن المعلوم ان المسلمين فى عهد عقبة بن نافع لما وصلوا سبته وجدوها تابعة

للقوطيين ولحكام اسبانيا حيث شجعهم حاكمها القوطى على التوغل فى بلاد المغرب والابتعاد عن اسبانيا ، ثم ان حاكمها نسج بعد ذلك موسى بن نصير على حكم اسبانيا بدافع الخلاف الذى كان بينه وبين رديق .

لقد حمل العرب بعد انتشار الاسلام فى جزيرتهم هذا الدين الى العالم اجمع ، وحاول عمرو بن العاص والى مصر ان يقنع الخليفة عمر بفتح افريقيا ، ولكنه ابى وامتنع ، وفى خلافة عثمان بن عفان امر عبد الله بن سعد بن ابى سرح سنة 25 هجرية بفتحها ، فحاول ذلك ولكنها امتنعت عليه من جهتها ، وبعد سنة غزاها مستعينا بمدد من الجزيرة وفيهم جماعة من الصحابة منهم العبادلة ، وفيهم الشاعر الهذلى أول شاعر عربى فى المغرب ، والصحابى عبد الله بن الزبير أول خطيب عربى فى المغرب ولقيهم جرجير البزنطى مع جماعة من البربر كصولات وزمار الزناتى جد الخزرجيين الذى اسلم على يد الخليفة عثمان ، ولكن العرب نزحوا عن افريقيا وتولى أمرها (جناها الهباهيا) فقاتلته بيزنطة واضطر ان يستمد العون من الخليفة معاوية فبعث معه معاوية بن حديج الذى يعتبر أول داعية الى الاسلام بين البربر .

على ان الفاتح العربى الحق وناشر الاسلام فى المغرب هو بلا جدال الصحابى الجليل عقبة بن نافع الفهري ، وقد وصل الى المغرب فى عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر وكان من أسرته ، ولكن غزواته كانت فى هذا العهد (اعنى فى عهد عمرو بن العاص) عبارة عن محاولات تمهيدية ثم وصل الى لواته ومزانة فى سنة 42 ، بل وصل الى تخوم السودان فلما كانت سنة 50 ولاء معاوية على افريقيا لمعرفته وخبرته بهذه البلاد .

والمهم من هذا العرض التاريخي ان نتعرف على طريق الاتصال بين المغرب والحضارة الاسلامية بعد ظهور الاسلام ، لان العرب جاءوا يحملون الثقافة الاسلامية ، وكانت عظيمة التأثير في حياة البربر اذ ان الفتح الاسلامي هو الذي سبر غور العاطفة والعقلية البربرية وطبع هذا الشعب بطابع خاص زاد في تمسكه بالثقافة الشرقية فاتحاد طبيعة الفكر والعاطفة بين البربر والعرب سهل الفتوح الاسلامية في المغرب وحسب تعبير (سديو) الذي يقول (بان البربر والعرب لهم ميول وعواطف ومبادئ متشابهة كحب الفخر والهيام بالحرية واکرام الضيف) ووحدته التاريخ المشترك ووصل عمود نسبهم بالعرب .

وزيادة على وحدة العوائد والاعراف فقد زادهم الدين الجديد ترابطا وتوحيدا وتعاطفا .. ولذلك نرى ان البربر اخضعوا الثقافة الاسلامية وسموا في معارفها ، وبنوا صرحها ، وانسجموا معها اسلوبا وروحا في سائر الميادين ، وظهر في المغرب اساطين الثقافة الاسلامية كالادريسي الجغرافي ، والرحالة ابن بطوطة والفيلسوف الاجتماعي ابن خلدون ، وغير هؤلاء من العلماء والفقهاء والكتاب .

واذا كانت البيئات المختلفة قبل عصر النهضة سادتها تأثيرات دينية ولا يكاد يوجد عالم غير متأثر بالذين فالاسلام كان يسود افريقيا والاندلس بينما كانت المسيحية كانت تسيطر على أوروبا والبلاد الشرقية وكانت بلاد الشرق الاقصى خاضعة لتأثير شتى المذاهب الدينية القديمة ، فكان البشر لا يخرجون عن توجيه الدين والرجوع الى أحكامه المدنية والجنائية وآدابه الاجتماعية ، وقد كانت الديانات تختلف مناهجها في نظام الحكم وتوجيه المجتمعات حسب مبادئها وقيمها وتشريعاتها وقد كان الشرق يعج بالمذاهب والتيارات الاجتماعية

التي تحمل الى المغرب ما جد من الآراء فنجح بعضها ، وكان تأثيره قويا ، وتبعثر بعضها ولم يتمكن من عقلية السكان وعاطفتهم ، وبناء على ذلك كله فقد عرفت بلاد المغرب الديانات الموسوية ، والمسيحية ، بمذاهبها المختلفة كما عرفت كثيرا من ديانات الامم البدائية ، ولكن ذلك لم يتمكن من حياة سكان افريقيا ، مثلما تمكن الاسلام من قلوبهم وعقولهم (1) ، وكانت بداية معرفة الافارقة بالاسلام في عهد عبد الله بن سعيد بن ابي سرح سنة 27 هـ أو 28 هـ أو 29 حسب اختلاف الروايات ، ولكنه رجع عنهم بطلب منهم كما ذكر ابن خلدون (الجزء الرابع من كتاب العبر) ، ثم غزا عقبة بن نافع افريقيا . سنة خمس وأربعين ، وبنى وبنى مسجد القيروان ، المركز الاول للثقافة الاسلامية في افريقيا الشمالية ، وأثنى في البلاد سنة اثنين حتى بلغ الى مدينة آسفى واطل على المحيط الاطلسي ، وبذلك تكون سنة اثنين وستين هي بداية تركز الاسلام في المغرب الأقصى ، ولم يستقر العرب نهائيا ، ويمتزجوا بالبربر الا في عهد حسان بن النعمان منازل الكاهنة ، ثم في عهد عمر بن عبد العزيز . وجاء في كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى انه هو الذي علم اهل افريقيا الحلال والحرام ، وقد بعث عمر بن عبد العزيز الفقهاء التابعين كعبد الرحمن بن نافع وسعيد ابن مسعود ليفقهوا الناس في امور الدين والدنيا .

ويعتقد كثير من المؤرخين خطأ ان الثقافة الاسلامية تركزت في المغرب متأخرة بعد ظهور الادارسة ، والحق ان الحضارة

(1) بما ان موقع المغرب بعيد عن بلاد الاسلام الاخرى ، وفي مواجهة أوروبا المسيحية ايضا ، فقد كان المغاربة يشعرون انهم في ثغر مضاعفوا من تمسكهم بدينهم وجهادهم ضد اعدائه ، ويظهر ذلك في وفرة المساجد والاربية مما نتج عنه ظاهرة (المشاغرة) .

الاسلامية ظهرت في كثير من المدن المغربية المبنية قبل فاس في عهد الاسلام (1) ، ويذكر الزياني ان ادريس بن صالح الحميري اسس مدينة النكور في عهد عبد الملك بن مروان كما اسس باديس واسست مليلية عام (92) على يد امير من امراء بنى يفرن ، كما ان مدنا قديمة آوت الاسلام واحتضنت الثقافة الاسلامية ، كسجلماسة التي اسسها ملوك بنى مدرار ، وكدمنات التي اسسها امراء فطواكة قبل الاسلام زيادة على المدن الكثيرة المعروفة في ذلك الوقت ، والتي حدثنا عنها الزياني في الترجمانة الكبرى وتكلم عليها مؤلف الاستبصار ، والبكري في المسالك والممالك ، كشالة وسلا وانفا بتامسنا واداي بتادلة التي حطمها المرابطون وطيط وازمور بدكالة وآسفي وشيشاوة واعمات وغير ذلك من المدن ، والمهم ان نبحت الوسيلة التلقائية أو المنظمة التي انتشرت فيها الثقافة الاسلامية ببلاد المغرب في سرعة هائلة ، اذ في سنة 51 كان عقبة قد انهى بناء العاصمة الاسلامية (القيروان) ، وفتح السودان وشمال افريقيا ، واعتنق البربر دين الاسلام واخذوا يكونون الحضارة المغربية ذات الطابع الاسلامي .

لقد أوجب الاسلام فريضة الحج فرحل كثير من المغاربة الى الشرق حيث اتصلوا في المدينة برجال المذاهب الاسلامية ونقلوها الى افريقيا الشمالية ، وذكر ابن خلدون في مقدمته ان المذهب المالكي انما انتصر في المغرب والاندلس لان رحلتهم غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار علم ومنها خرج الى العراق .

(1) سمع سمكو المدراري عن عكرمة في نفس الوقت الذي اخذ محمد القيسى من مالك وسفيان ، وعكرمة بربري كما في ابن خالكان .

وقد كان سحنون المتوفى سنة 240 اهم دعامة للمذهب المالكي في المغرب ، وبالأخص بعد تأليفه المدونة التي اعتمد عليها علماء الفقه في المغرب ، وكانت المدونة في نشأتها هي تحرير للفقه على أساس القرآن والحديث ، ولهذا كان طابع الثقافة المغربية هو الاستناد الى النص القرآني والحديث وعدم الأخذ بالرأى على طريقة المذهب الحنفي ، وكانت هذه البيئة التي تدين بهـذه الاعتبارات تستقر في الحجاز ، والبصرة وبلاد افريقيا والاندلس وصقلية والمغرب والسودان ، كما ذكر ابن فرحون في كتاب الديباج المذهب .

على ان المغرب عرف في هذا العهد النحلات والمذاهب والفرق الاسلامية التي ظهرت في الشرق حتى وصف ياقوت الحموي المغاربة لتسرعهم الى اعتناق المذاهب الاسلامية بالطيش والنزوع الى الفتنة ، فقد والوا عدة اتجاهات سنية وشيعية وناصروا عدة دول ، فكانو خوارج واباضية وصفرية في عهد ولاية عبد الله بن الجحباب ، وبلغ عدد الثائرين على عمر بن حفص عامل المنصور الى 40 الف صفريا و 25 الف اباضيا ، كما كانوا شيعة زيدية مع الادارسة وشعرية متصرفة مع الفاطميين في أول عهد دولة بنى زيرى الصنهاجيين التي منها المعز بن باديس أول من حمل الناس بافريقيا على مذهب مالك كما كانوا في عهد العباسيين على مذهب ابي حنيفة ، ويلاحظ القاضي عياض ان مذهب ابي حنيفة ظل في المغرب الى قرب سنة اربعمائة ، ثم انقطع عنها ، وكان للمعز بن باديس اثر كبير في نشر مذهب مالك بعد رجوعه عن المذهب الشيعي والدعوة للعباسيين .

وتحول سكان البلاد الافريقية من بدو جفاة ، (كما يقول ياقوت) الى امة ذات مدنية وحضارة مرتكزة في عدة مدن اهمها القيروان والمهدية وتاهرت وفاس وسجلماسة التي وصف المقدسي

رجالها بالعلم والعقل ، وربما يخطيء المقدسى فى فاس حيث يصفها بأنها كثيرة الغوغاء قليلة العلماء .

كما يصف المقدسى المذهب المغربى بأن المغاربة لا يعرفون الا المذهب المالكى أو الحنفى ولا يعرفون شيئاً عن الشافعى ، ويقول فى كتاب احسن التقاسيم (لا يعرفون الا كتاب الله وموطا مالك ... فان عثروا على حنفى أو شافعى نفوه ، وان عثروا على معتزلى قتلوه) .

وقد عرف المغرب المذهب الحنفى ايضا بواسطة اسد بن عبد الله الذى ذهب الى المدينة ليأخذ علم مالك فوجده عليلاً ، ودله الفقهاء على نظرية فى العلم وهو محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، فروى المذهب الحنفى وادخله الى المغرب . كما عرف مذهب الاوزاعى ومذهب الشافعى على يد أبى جيدة ...

ويذكر المقدسى ايضا ان بالمغرب المذهب الفاطمى الذى لهم فيه تصانيف يدرسونها ، ومن جملتها كتاب (الدعائم) الذى قال عنه بأنه يوافق المعتزلة فى أكثر الاصول ، ويقولون كذلك بمذاهب الادارسة وغلبيتهم بكورة السوس الاقصى (انظر المقدسى ص 236) .

وتوجه كثير من علماء الاندلس الى المشرق ليأخذوا العلم بالرواية من افواه العلماء مثل جودى بن عثمان النحوى المتوفى سنة 198 الذى قابل الكسائى والفراء وادخل الى الاندلس والمغرب كتاب أبى الحسن ، ومثل الغازى بن قيس المتوفى سنة 199 الذى لقي الاصمعى والامام مالك ، وحفظ موطاه وحملها الى المغرب كما قرأ عن أبى النعيم الزبيدى (ص 335) ويعتبر ابن القزاز البربرى من الذى صحت عليهم اللغة بالاندلس كما حمل ابو جيدة الفاسى أوائل القرن الثالث التفاريغ الفقهية الى المغرب . وحمل العرب معهم الى بلاد المغرب نظامهم التربوى

البيداغوجى الذى يرفعى التكوين من الطفولة الى الشيخوخة
فهناك الكتاب لتعليم الصغار والمسجد لتعليم الكبار . وكان الكتاب
الاول فى بلاد المغرب عبارة عن خيمة متنقلة ، كما كان المسجد
مدرسة مختلفة الفصول والاقسام ومستويات الراغبين فى العلم
زيادة على هذا كانت الحلقات العلمية الادبية يؤمها الادباء
والشعراء والعلماء ويحضرها مختلف ابناء الامة ، الشيء
الذى ساعد على انتشار الثقافة الاسلامية فى بلاد المغرب ، غير
ان بعد المسافة بين مختلف البلدان فى بلاد افريقيا ومتاخمتها
لبلاد الفرنج ساعد على تكوين رباطات هى عبارة عن مدرسة
ومسجد وثكنة عسكرية وبناء مساجد كبرى لاحتضان الثقافة
الاسلامية كمسجد عقبة فى القيروان ومسجد موسى بن نصير
فى تلمسان وكانت هذه المراكز للبعثات المكونة من الاعلام
المسلمين والمتمسكين به حيث تركز نشاطهم بها وبشروا بالاسلام
فى الاوساط البربرية .

وجاء فى ابن خلدون ان موسى بن نصير غزا طنجة وفتح
درعة وصحراء تافيلالت وارسل ابنه الى السوس فاذهن البربر
لسلطانه وذلك سنة (88) وولى على طنجة طارق بن زياد الليثى،
وانزل معه سبعة وعشرين الفا من العرب واثنى عشر الفا من
البربر وامرهم ان يعلموا البربر القرآن والفقه ، ويروى مؤلف
الاستقصا عن اب العرب مؤلف طبقات علماء افريقيا ان عمر بن
عبد العزيز رضى الله عنه ارسل بعثة تعليمية الى افريقيا مكونة
فى عشرة من التابعين يفقهون اهل المغرب فى الدين منهم حبان
بن ابي جبلة المتوفى فى افريقيا سنة (122) هجرية .

ولا شك ان هذه البعثة التعليمية كانت تنشر الثقافة
الاسلامية العربية فى بلاد البربر حيث تبدى نشاطها سواء فى
المسجد أو فى الكتاب أو فى الرباط أو فى الاسواق وميادين الحرب

ومحافل الاسلام . غير ان هؤلاء حملوا معهم الخلافات المذهبية،
فما كاد يستقر بهم المقام حتى تعرف البرابرة على الحركة
الشيوعية والخارجية الصفرية والخارجية الاباضية ، وتفرقوا
طرائق قحدا .

وقد تركز التعليم في الرباطات التي ابتدا تكوينها في
عهد هرثمة بن اعين سنة 181 هـ الذي كان من رجال الفكر
والادارة في الدولة العباسية ، وهو مشهور بين زعماء العرب
في هذا العصر وقد ولاه الرشيد على المغرب العربي فوضع الحجر
الاساسي للمدرسة الاسلامية المتطورة على عهد العباسيين ،
ويعتبر أول وزير للتربية والتعليم في بلاد افريقيا ، وجاء في كتاب
الاستقصا ان هرثمة هو الذي بنى القصر الكبير بالمنستير ،
ويقول ياقوت الحموي في معجمه : ان (المنستير) يقع بين المهديّة
وسوسة بافريقيا وموضع فيه خمسة قصور يحيط بها سور واحد
ويسكن هذه القصور قوم من اهل العبادة والعلم ، ويمكن ان
نخلص اهدافه التعليمية والتربوية والسياسية من (عهد الرشيد)
الى هرثمة ويبتدىء العهد بقوله : هذا ما عهد به هارون الرشيد
امير المؤمنين الى هرثمة ابن اعين حين ولاه تغر خراسان واعماله
وخراج امره بتقوى الله وطاعته لاوامر الله ومراقبته ، وان
يجعل كتاب الله اماما له في كل ما هو بسبياه فيحل حلاله ويحرم
حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه اولى الفقه في دين الله
واولى العلم بكتاب الله أو يرده الى امامه ليديه الله عز وجل فيه
راية ويعزم على رشده .

وكلمة الرباط مشتقة من فعل (ربط) المأخوذة من الآية
القرآنية (واعدوا لهم ما استلظتم من قوة ومن رباط الخيل) ،
ومن قوله تعالى (ورابطوا) ثم تطور الى المكان الذي تجتمع
فيه الفرسان للقيام بحملة من الحملات الحربية في ايام الحرب

والتجهيز البريدى فى ايام السلام ، ثم اصبحت عبارة عن منشأة علمية ذات صبغة دينية وحربية ، بل صبغة دفاعية للذود عن حوزة الاسلام ، وقد أخذ المسلمون هذا الاسلوب عن الرومانيين الذين اصطنعوا نفس الاديرة لسكنى الرهبان . وعلى هذا ، فالرباط هو مركز حربى وثقافى معا ، حربى حساب بنائه الذى يشبه القلعة المحصنة ، ثقافى لتعليم المقيمين المرابطين لثقافة الاسلامية والمعارف الدينية .

ويذكر ابن خلكان ان بلاد الشرق شاهدت فيما وراء النهر ما لا يقل عن عشرة آلاف رباط ، ثم عم سائر الشواطىء الاسلامية حتى كانت الرسائل تصل الاسكندرية الى سبتة بطريق الاشارة فى يوم واحد .

وانتقلت الرباطات الى الاندلس وصقلية على يد هرثمة ابن اعين وهو أول منشئ للرباط فى افريقيا كما قلنا ، اذ شيد أول رباط سنة 179 هـ الموافقة 795 م وما بلغ القرن الثالث الهجرى حتى كانت الرباطات تحمل مكانتها الاولى فى التعليم الاسلامى ، ومن الاربطة المشهورة بعد المنستير ، رباط سوسة الذى انشأه زيادة الله الاغلبى عام 206 . ورباط مدينة نكور المغربية ، ورباط أصيلا ورباط سلا (اى الرباط الحالى) الذى بنى ليسهل الغارة على البرغواطيين .

والى الرباط ينسب المرابطون الذين هم قوم متطوعون اتقياء ورعون ، يوجههم شيخ من شيوخ الاسلام .

وكان موقع المغرب الاستراتيجى ، وتعرضه لهجمات الاعداء مساعدا على تكوين عدد وافر من هذه الرباطات فى المغرب الاقصى ، حيث عم البلاد المغربية الى شواطىء السينغال الأدنى ، المعقل الذى تكون فيه رجال لمتونة المرابطين ، والمعروف فى

المغرب القديم بعد الموحدين . (رباط تازة) الذى حصه عبد المؤمن ، ورباط الفتاح (الحالى) ، وحتى الى عهد بنى مرين رباط جنود من المرتزقة فى معقل الرباطات كما ذكر ذلك ابن مرزوق .

ومن الارتبطة المشهورة رباط العباد قرب تلمسان ، ورباط (تمكدلت) قريبا من وهران احياء لذكرى ولى من اولياء بنى يزناسن ، ورباط (تافرطاست) القائم بالقرب من نهر سبو ، والذى يضم قبرى اميرين من امراء المرينيين ، كما ان فى بلاد السوس رباطات متعددة اشهرها رباط ماسة ورباط شاكر ، وكلمة الرباط ما تزال مستعملة فى اللغة الاسبانية Rabato بما يفيد الهجوم المفاجيء وفى اسبانيا عدة حصون قائمة الى اليوم تحمل اسماء مشتقة من الرباط (1) .

فالرباط هو ثكنة عسكرية ومدرسية كما قلنا يحتوى على صحن وعلى غرف للطلبة كما يحتوى على مسجد كبير وصومعة للاذان ولمراقبة السفن والقوافل وللأضياء بالليل لتبادل الاشارات ، وكان رباط الرجال بجانبه رباط للنساء .

أما دوره الثقافى فهو معهد ثانوى للذين اجتازوا مرحلة التعليم الابتدائى فى الكتاب ، حيث يعكف الطالاب فيه على العلم واستنساخ الكتب والمطالعة فى خزائنه ، وكانت الرباطات متعددة يبعد احدهما عن الآخر بستة كياو مترات ولكنها مترات ولكنها فى درجة واحدة حسب اختلاف مكانها الجغرافى .

(1) راجع دائرة المعارف الاسلامية فقد أسهبت فى الكلام على الرباطات كما تكلم عنها الاستاذ عبد الرحمن الجيلالى فى كتابه (تاريخ الجزائر) ، وقد ذكر الاستاذ الكعك ان له كتابا (فى الرباطات) لم يطبع بعد كما ان الرحوم المؤرخ على الدكالى له كتاب فى الرباطات اسمه « تاريخ الرباطات » .

أما الدروس التي كانت تلقى به فهى التفسير والفقه والحديث (والرقائق) اى آداب المواعظ والارشاد ، وكل رباط يحتفظ بأناشيده الخاصة المعبر عنها بالعمل . وقد ساعد الرباط على كثرة الرحلات العامة حيث ينتقل الطلبة من رباط الى آخر ، كما ساعد على رواية الكتب عن أفواه الشيوخ .

ومن السهل ان نتعرف على مدى دراسة الرباطات فى ثقافة اعلامها الذين وصلتنا كتب بعضهم والتي لم تضع فى الغالب لتكرار النسخ ، وذلك نتيجة رغبات الطلبة وتعدد الاربطة ، فمن اعلام الرباطات فى ميدان الثقافة الفقهية الامام سحنون المولود سنة (160) والمتوفى سنة (240) صاحب المدونة الفقهية المشهورة التى بقيت نواة للجدل الفقهى والافتراضات التشيعية والتى كانت نتيجة الجدل المستمر بين علماء المذهب فى الرباطات ، ومن رجال الرباطات احمد بن الجزار ، وهو فقيه وطبيب كان يعلم الفقه ويعالج المرضى .

ومن رجال الرباطات عبد الله بن ياسين معلم الفقه والارشاد ومؤسس نواة الحركة الدينية المرابطية ، فهذه النماذج الثلاثة تعطى صورة عن ثقافة الرباطات التى هى ثقافة دينية صوفية عسكرية .

ولم تكن الثقافة المرابطية مهيمنة على البلاد المغربية كلها فنحن نعرف ان جماعة من الاعلام لم يكونوا ينتسبون الى هذه الرباطات كالخطيب البربرى المفوه طارق بن زياد ، وكالفنسانة البربرى والشاعر الصوفى المشهور سابق المظماطى وكالفقيه الكبير ناشر مذهب مالك فى المغرب يحيى الليثى والشاعر ابوبكر بن حماد ابن سهل الزيانى (كان حيا سنة 217) ، وسعيد بن واسول جد بنى مدرار الذى كان من اعلام الفقهاء حيث ادرك

التابعين واخذ عن عكرمة مولى العباس ، واخذ عنه برابرة
مكناسة ، ومنهم الفقيه (بسمقو) كما في ابن خلدون (ج 6 ص
267) .

ولا ينكر ان ثقافة هؤلاء الاعلام من بلاد البربر كانت
نتيجة احتكاكهم بالعرب ، اذ ان طارق كان من اصفياء موسى
بن نصير وسابق المطماطى قضى مدة طويلة ببلاد الشام وفى
بلاط بنى امية كما فى الاغانى ، ويحيى الليثى لازم الامام مالك
واخذ عنه .

وقد تركزت الثقافة الاسلامية زيادة على الرباطات المشهورة
في عواصم افريقيا في اربعة مدن ، أولا : في سبتة حيث كانت دولة
بنى عاصم الموالية لبنى امية والتي كانت موطن العلماء الكبار
كابن العجوز الذى اخذ منه القيروانى وترجم له ابن فرحون في
الديباج ، وفى (تاهرت) في عهد الرستميين حيث الجامع
المشهور والمدرسة الاباضية ذات الفقه الاباضى المدون باللغة
البربرية ، والمتجلى في مدونة ابن غانم (مكتوبة بالبربرية) أو
المؤلفات العربية المعلق عليها بالبربرية ككتاب بحر الدموع
والقواميس العربية البربرية (وفى القيروان) حيث دولة بنى
الاعلم الموالية للدولة العباسية من بعد (وفى سجلماسة) . واخيرا
تجمعت في فاس بعد مجئ ادريس الاول المغرب حيث اصبحت
العاصمة الجديدة التى بناها المولى ادريس والتى ناصرت الحركة
الشعبية (1) العلوية وحيث بنى مسجد القويين الذى استحال
بعد ذلك الى جامعة اسلامية كبرى تبارى جامعات العالم
الاسلامى .

(1) فى الكامل لابن الاثير : ان الشيعة تسمى فى المغرب المشاركة (انظر
المذكورة التيمورية) .

وكانت المذاهب المختلفة التي تظهر في الشرق سواء السياسية أو الدينية سرعان ما يسرى اثرها الى المغرب عدة مذاهب كمذهب الاباضية الخارجى فى اواسط افريقيا الشمالية وجنوب المغرب ، وكالمذهب الشيعى الذى انتشر بين قبائل كتامة وصنهاجة وفى مدينة ولىلى بصفة خاصة (2) .

انتفاضات قبلية :

يلاحظ المؤرخون وقوع حادثتين بعد دخول الاسلام الى المغرب : (أولهما) انتفاضة كسيلة البربرى على عقبة بن نافع الفهرى (وثانيهما) ثورة مسيرة المضغرى الخارجى ، اما الاولى فلها تفسير بسيكلوجى ذكره المؤرخون العرب ، فقد بالغ عقبة فى اذلال القائد البربرى كسيلة ولاحظ ذلك اصحاب عقبة فنصحوه ولكنه لم ينتصح ، فكانت ثورة كسيلة انتقاما شخصا من قائد يبالغ فى الاستعانة به وليست ثورة عنصرية أو جنسية (اما ثانيهما) واعنى ثورة مسيرة المضغرى فقد كانت الخارجية قد انتشرت فى المغرب بل اسست لها دولة بنى وستم فى سجلماصة وانطوى البربر تحت لوائها ليسترجعوا مكانتهم السياسية وصادف ذلك سوء تصرف الوالى عبيد الله بن الحجاب فانقضت البربر تحت زعامة مسيرة ، ولا يمكن ان نفسر هذه الانتفاضة بانها انتفاضة عنصرية بقدر ما نرى ان المذهب الخارجى كان منتظما لكثير من الذين لم يقرؤا الخلافة فى قریش

(2) انتشرت الشيعة فى اقمات والروافض بالاطلس الكبير (كما فى ابى حول) وانباغ على البيجلى (البجليون بسوس) الذى حمل الى المغرب وثائق شائعة بالاضافة الى تضلعه فى المذهب المالكى .

سواء من العرب أو من العجم أو من البربر ، كما يدل على ذلك تاريخ الحركة الخارجية . ويدل على بطلان هذه الدعوى نقضى الحركة الشيعية في المغرب تلك الحركة التي امتد الفاطميون بعنصر قوى من الرجال والافكار حتى تسنى لدولتهم ان تقيم خلافة كبرى حلت محل خلافة بغداد فوجود الحركة الخارجية والحركة الشيعية في المغرب دليل قوى على تمركز الاسلام والعربية فيه ، مما مكن للمذاهب الكلامية والسياسية المنبتقة عن التفكير الاسلامي المحض ان تعمل عملها في بلاد البربر التي اصبحت بعد الفتح بلادا اسلامية تعيش كل معطيات الفكر الاسلامي ، والاحزاب الاسلامية كذلك ، ولهذا لابد ان نجد دولة الادارسة في المغرب يؤسسها رجل من آل البيت ، وهو المولى ادريس الذي يمم جهة المغرب لاقامة دولة اسلامية اعصصفت حولها القبائل البربرية ، وبالاخص قبيلة عبد الحميد (والغالب عبد المجيد بدليل وجود هذه القبيلة الى يومنا هذا) ولعب البربر دورا هاما في تأسيس هذه المملكة وكان للمرأة البربرية المسلمة أثر في تأسيس هذه الدولة كما في كتاب (الدرر السنية) ولم تكن الدولة الادريسية في الواقع الا محاولة موفقة لتركيز الاسلام والعربية والتهيء لقيام امبراطورية مغربية .

الخوارج في المغرب :

عندما ثار الأزارقة في الاهواز والبصرة استباحوا دماء المسلمين الذين لم يكونوا من حزبهم ، فلما انهزموا انشق عنهم الصفرية الذين أباحوا التعامل مع المسلمين رغم أنهم من غير نحلتهم ، ووفدوا على المغرب وشقوا عصا الطاعة على بنى أمية في

الاندلس معلنين الثورة سنة 121 هـ باقليم طنجة وتسربوا الى الصحراء فأسسوا سنة 140 سجلماسة التي أصبحت عاصمة بني مدرار ، ونظرا لمركز هذه العاصمة الاقتصادية وثروتها الذهبية جاء العبيديون اليها لتأسيس الدولة الفاطمية معتمدين على ثروتها الذهبية المطلوبة من أوروبا ليتمكنوا لانفسهم في البلاد العربية ، ثم انهزم الحكم الشيعي وانهار في المغرب وانتصرت السنة المالكية .

الاقتصاد :

ظهرت أول عملة مغربية اسلامية في عهد موسى بن نصير الذي حاول أن يضرب النقود باسم الدولة الاسلامية الجديدة ليظهر المغرب من كل علاقات رومانية تجارية واقتصادية ، لا سيما وقد خرج الاقتصاد المغربي منهوكا بعد حروب الوندال واستغلال البيزنطيين للافتتاح الافلاحي وارهاق الشعب بالضرائب الجائرة.

وتحتفظ خزانة العلامة التونسي المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب بنموذج للعملة الاسلامية وعليها صورة موسى بن نصير .

ويذكر ابن خرداذية في القرن الثالث الهجري ان التجار الصقالبة كانوا يملون في وجهتهم نحو الشرق عن طريق سوس الأدنى (أى طنجة) ومنها الى افريقيا ومصر .

وقد عرف القدماء المغاربة توأمة المدن ، ولهذا توجد « بصرة » بالمغرب وحمص بالاندلس ، وتدمر في الاندلس والشام في الريف كما جاء ذلك في الانسكلوبيدية الاسلامية .

أما عن النشاط التجارى فقد راجت تجارة مواد جديدة ذرت الارباح على الاقتصاد المغربى ، فقد دخلت للمغرب نباتات شرقية كالقطن وقصب السكر والزعفران شجرة الزيتون (1) ، وأصبحت سجل ماسة التى أسسها المدراريون مدخلا لبلاد السينغال ، كما عبد الطريق البحرى بين الاسكندرية وسبته بأبراج المراقبة فاصبح الخبر ينتقل فى يوم واحد بين هاتين المدينتين المتباعدتين ، كما أصبحت السكة المغربية من أهم العملات المتداولة فى البحر الابيض المتوسط .

الديبلوماسية :

يرى كثير من المؤرخين المعاصرين ان المغرب عاش منكمشا على نفسه ويبررون هذا الانكماش بأنه نتيجة لموقعه الجغرافى، حيث يحاصره جبال الاطلس جنوبا ، والبحر الاطلسى غربا والبحر المتوسط شمالا ، وفيافى الصحراء جنوبا .

ويرى آخرون أن المغرب امتداد للموجات المتدفقة عليه من الشرق ، والتى تتلاشى فى رحابه تلاشيا ركوديا .. والواقع أن موقع المغرب الجغرافى اتاح له فرصة الاتصال بالشرق والغرب معا فقد عبر المغربى البحر والصحراء وعرف امريكا قبل كرسثوف كلومب ، ووصل الفينيقيون والمصريون القدماء عن طريق المغرب الى امريكا .. وكذلك عرف منذ عهد الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان صلات مع مختلف بلاد العالم القديم .. كما تحدى الصحراء جنوبا الى ادغال افريقيا فكان نهر النيجر مأوى المرابطين ، ومقام عبد الله بن ياسين دفن ضواحي الرباط ،

(1) ادخل الفينيقيون شجرة الزيتون الى المغرب ونمى غراستها الفينيقيون واستغلها الرومانيون . وبذلك ظهرت فى المغرب تجارة الزيتون ومشتقاته وتطورت صناعة الارحى . و (الانارة بزيت الزيتون) .

وتنقلت جماعة من قبائل رجراجة الى جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر ، فلم يكن المغرب منعزلا بقدر ما كان شديد الاتصال بالعالم القديم ويتحدث المؤرخون عن سفير شرلمان لدولة الادارسة (بفوسنيوم) التى ربما كانت تعنى فاسا ... وهذه أول محاولة سفارية بين المغرب واوروبا في عهد الاسلام ..

العمران (المدن) :

مدينة سبتة :

نقل شكيب ارسلان في الحل عن الشريف الادريسي مؤلف نزهة المشتاق ان سبتة هي سبعة أجبل صغار معروفة بقصب السكر وفواكهها كثيرة ويأبها من جهة المشرق جبل عال يسمى جبل المنبه وعلى أعلاه سور بناء محمد ابن عامر ولم يتمه وعجز السكان عن الانتقال الى هذا المبنى الجديد المسمى بالمنبه .

ويتوفر ساحلها الحوت حيث يصاد التتين اى (الطون) وبها شجر المرجان وبها سوق لصنعه وثقبه حيث يحمل منها الى غانة وجميع بلاد السودان اما المكان الذى يجمع جبال سبتة فاسمه (بليونش) ويقول ابن عذارى فى وصفها (وهى على ما قيل مجمع البحرين وقاعدة البر والبحر واللؤلؤة الحالة من الدنيا بين السحر والبحر وفى سنة (319) احتلها الامويين فى عصر الناصر الاموى ويعتقد بعض المؤرخين العرب انها اقدم مدينة مغربية فقد قال الحجارى فى المسهب : أول من سكن فى العدو وبرر الاندلس من ولد نوح بعد الطوفان ابن يافت بن نوح فنزل فى آخر المعمور فى بر العدو وبني له منزلا فى موضوع سبتة فسميت باسمه وكان مكانها بربر فلما جاء الاسلام اصبحت من مدنه الكبرى وفيها يقول مالك بن الرحل .

سلام على سبتة المغرب اخية مكة أو يثرب
وقد استولى عليها البرتغال سنة 819 ثم تحولت الى يد
الاسبان سنة 1578 . وارشد المطلاع الى المعادر الاتية عن
تاريخ سبتة (1) .

(سبلماسة) :

ومن المدن المشهورة في العصر الاسلامي (سبلماسة) التي
كانت مركزا سياسيا واقتصاديا في هذا العصر ولم يذكر البكري
ولا ياقوت الحموي اصل هذه الكلمة ويقال أن أصلها اسم لقائد
رومانى خططها وخصها الزبيدي بكتاب سماه (الحاجة الماسة في
تحقيق لفظ سبلماسة) وموقعها كما يقول الادريسي والبكري
في أول الصحراء ويقول ياقوت في منقطع جبل درن ... ويصفها
البكري بالتجارة كما يصف أهلها بالغنى وسعة الحال لأنها كانت
مدينة التجارة في الذهب ولأنها محطة الى طريق غانة التي كانت
من اعظم مدن الاسلام في افريقيا ويرجع تاريخ تأسيس سبلماسة
الى سنة 757 كما يقول كوتى ... ويزعم يوفيل أن سبلماسة
بنيت ايام القرطاجنيين ويرى البكري أنها أسست سنة 140 هـ ...
وقد عانت سبلماسة في الاسلام الخلاف بين الامويين اصحاب
قرطبة والشيعة الفاطمية كما كانت قبل ذلك من عواصم الخوارج
في المغرب وكان بها بنو مدرار وكان يسكنها البربر السود وهم
الجيتوليان السود المعروفون في تاريخ الرومان كتابعين للبربر .
والذين يقيمون بجدالة والتي منها القائد البربرى سيفاكس في
القرن الثالث قبل الميلاد . وجدالة كانت تصل الى السودان
جنوبا .

(1) (انظر) - البكري - ابن خلدون - وتيراس ، وكوتى .

الحضارة المغربية الإسلامية

في القرن الثاني والثالث الهجريين

788 م — 985 م

172 هـ — 375 هـ

الادارسة

لم يأل العرب جهدا في تعريب المغرب الاسلامي فمن عهد عقبة بن نافع الى عهد موسى بن نصير الى اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الى عبيد الله بن الحبحاب ، وحبيب بن أبي عبيدة وحنظلة بن صفوان الى أن قامت في المغرب دويلات مستقلة عازلة Tampon كامارة صنهاجة في بجاية وهوارة في طرابلس، ونفوسة في قابس ، وبنو واسول في سجلماسة الى عهد عبد الرحمان بن حبيب الذي وحد المغرب من جديد في تبعية لمراكز الخلافة ، واخيرا الى عهد الادارسة الذين حاولوا وحدة المغرب مستقلا ، فأيدتهم قبائل المغرب المتنافرة ولأعموا بين القبائل المتباعدة ، وأقاموا حكومة مركزية مزدوجة الادارة بين البربر والعرب ، وأعلنوا الجهاد المقدس لاستئصال الانحرافات اليهودية والنصرانية والبرغواطية من أنحاء المغرب .. كما وصلوا رسالتهم المقدسة الى أن تصدى لهم موسى بن أبي العافية فقل شوكتهم ، فتأرجح المغرب بين المرwanيين في الاندلس والعبيديين في تونس ، والادارسة مهدوا في دخولهم للمغرب بدراسة أوضاعه ثم وجه المولى ادريس الاول الذي كان شيعيا معتدلا ، رسالة تتضمن دعوته والتزاماته وجاء في كتاب المرجع الشافعي للامام عبد الله بن حمزة نص هذه الرسالة وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى جعل النصر لمن
عصاه ، ولا اله الا الله المتفرد بالوحدانية ، الدال على ذلك بما
أظهر من عجيب حكمته ، ولطف تدبيره الذى لا يدرك الا اعلامه
وصلى الله على محمد عبده ورسوله وخيرته من خلقه ، أحبه
واصطفاه واختاره وارفضاه صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين .
أما بعد : فأنى

1 — ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم .

2 — والى العدل فى الرعية والقسم بالسوية ورفع المظالم
والاخذ بيد المظلوم .

3 — واحياء السنة وامانة البدعة وانفاذ حكم الكتاب على
القريب والبعيد .

4 — واذكروا الله فى ملوك غيروا وللامان خفروا ولعهد
الله وميثاقه نقضوا ولبنى بيته قتلوا .

5 — واذكركم الله فى أرامل احتقرت وحدود عطالت وفى
دماء بغير حق سفكت .

6 — فقد نبذوا الكتاب والاسلام ، فلم يبق من الاسلام
الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه .

7 — واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته،
المجاهرة لأهل عدواته ومعصيته ، باليد وباللسان :

أ — فباللسان الدعاء الى الله بالموعظة الحسنة والنصيحة
والحرص على طاعة الله ، والتوبة عن الذنوب بعد الانابة
والاقلع ، والنزوع عما يكرهه الله ، والتواصى بالحق والصدق

والصبر والرحمة والرفق والتناهي عن معاصي الله كلها والتعليم والتقديم لمن استجاب لله ورسوله حتى تنفذ بصائرهم وتكمل ، وتجتمع كلمتهم وتنظم .

ب — فاذا اجتمع منهم من يكون للفساد دافعا ، وللظالمين مقاوما وعلى البغي والعدوان قاهرا . أظهروا دعوتهم وندبوا العباد الى طاعة ربهم ودافعوا أهل الجور على ارتكاب ما حرم الله عليهم وحالوا بين أهل المعاصي وبين العمل بها ، فان في معصية الله تلفة لمن ركبها ، واهلاكا لمن عمل بها .

ج — ولا يؤيسنكم من علو الحق وا ضطهاده ، قلة انصاره فان في ما بدا من وحدة النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء الداعين الى الله قبله ، وتكثيره اياهم بعد القلة ، واعزازهم بعد الذلة دليلا بينا ، وبرهانا واضحا ، قال الله عز وجل : ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » وقال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » فنصر الله نبيه وكثر جنده ، وأظهر حزبه ، وأنجز وعده ، جزاء من الله سبحانه ، وتوابا لفضله وصبره ، وايثارة لطاعة ربه ورأفته بعباده ، ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط في تربية ومجاهدة أعدائهم وزهده فيما زهده فيهم ، ورغبته فيما يريد الله ومواساته أصحابه ، وسعة اخلاقه كما أدبه الله ، وأمر العباد باتباعه وسلوك سليم والاعتداء لهديته . واقتفاء أثره ، فاذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم . كما قال عز وجل : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

وقال : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

وكما مدحهم وأثنى عليهم ، كما يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وقال عز وجل : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإضافة إلى الإيمان والاقرار لمعرفته وأمر بالجهاد عليه ، والدعاء إليه ، قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق » .

وفرض قتال المعاندين على الحق ، والمعتدين عليه وعلى من آمن به ، وصدق بكتابه حتى يعود إليه ويفيء كما فرض قتال من كفر به ، وصد عنه حتى يؤمن به ، ويعترف بشرائعه ، قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله

هـ — فهذا عهد الله إليكم ، وميثاقه عليكم بالتعاون على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان فرضا من الله واجبا وحكما لازما فأين عن الله تذهبون ؟ وأنى توفكون ؟

و — وقد خانت جبابرة الافاق شرقا وغربا ، وأظهروا الفساد وامتلات الارض ظلما وجورا ، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء ، فعسى أن تكونوا معاصر اخواننا من البربر اليد الحاصدة للظلم والجور وأنصار الكتاب والبنية ، القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيئين فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين ، ونصر الله مع النبيئين .

8 — واعلموا معاصر البربر أنى انيتكم ، وأنا المظلوم

المهوف ، الطريد الشريد ، الخائف الموتور الذى كثر واتره وقل ناصره وقتل اخوته وأبوه وجده وأهلوه فأجبيوا داعى الله فقد دعاكم الى الله ، فان الله عز وجل يقول : « ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء » ؟ أعاذنا الله وإياكم من الضلال ، وهدانا وإياكم الى سبيل الرشاد .

9 — وانا ادريس بن عبد الله ، بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله وعلى بن أبى طالب جدائ وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار فى الجنة عماى ، وخديجة الصديقة وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدتائ وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة بنت الحسين سيد ذرارى النبيئين أماى ، والحسن والحسين ابناء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواى ، ومحمد وابراهيم ابناء عبد الله المهدي والزاكى اخواى .

10 — هذه دعوتى العادلة غير الجائرة فمن أجابنى فله مالى ، وعليه ما على ، ومن أبى فحظه اخطاء وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة انى لم اسفك له دما ولا استحللت محرما ولا مالا واستشهدك يا أكبر الشاهدين واستشهد جبريل وميكائيل انى أول من أجاب وأتاب فليبك اللهم ليبيك مزجى السحاب ، وهازم الاحزاب مصير الجبال سرايا بعد ان كانت صما صلابا ، أسألك النصر لولد نبيك انك على كل شىء قدير والسلام وصلى الله على محمد وآله ..

واستجاب المغاربة لدعوته وتأسست الدولة الادريسية محفظ الحكم فى عصر الادارسة التوازن السياسى بين مختلف العشائر ، واعتمد نظاما قارا يركز على الحكومة أو ما يعبر عنه (بالمخزن) فى تسيير بلاد ذات سيادة ومؤسسات شعبية، وكانت

البلاد تتكون من البدو الرحل ، والمتحضرين والاشراف والمرابطين والقبائل التي تخضع جميعها لسلطة تعتمد على العصبية كما كان لهذه الحكومة مخطط تربوى واجتماعى واقتصادى ... ورغم ان المغرب لم يعرف الاستقرار ولا الوحدة طيلة حكم الادارسة فان أثرهم كان قويا فى ابراز شخصيته ، ويهما أن تلاحظ التحول الكبير فى الاطار الحضارى فقد جاء ادريس الاول وبنى مدينة فاس لتكون مركزا للدولة الجديدة . فأصبحت مركزا علميا زاوجت بين ثقافة القيروان ، التى حماها القيروانيون الذين وفدوا على المولى ادريس وعمرى العدو القروية (المنسوبة اليهم على غير قياس) وبين الثقافة الاندلسية التى حملها اليهم الفقهاء والعلماء الذين طردهم الحكم من قرطبة (وهى من عواصم الحضارة الاسلامية) فلجأوا الى فاس حيث عمرو العدو (المنسوبة اليهم) وحيث بنت السيدة مريم اخت السيدة فاطمة مسجد الاندلس الذى استحال فيما بعد الى معهد دراسى كبير فاخذت الثقافة المغربية طابعا جديدا بعد ظهور هذه الجامعة فازدهرت الدراسة الاسلامية فيها وظهرت حركة علمية نشيطة فى تصانيف ومؤلفات وشروح جديدة ، وكان طابع هذا الاستقلال يظهر جليا فى استقلال علماء المغرب بالاخذ بالآراء والمذاهب التى توافق البيئة المغربية الجديدة فاختراروا من المذاهب الفقهية المذهب (المالكى) والعقيدة (الاشعرية) وتصوف الجنيد ... » وأسست مدينة فاس لتكون دار علم وصلاح فنزلها عدد من الفقهاء والصلحاء والادباء والشعراء والاطباء « كما جاء فى القرطاس (ص 47 ج 1) ، وذكر المراكشى فى المعجب وهو من مؤرخى المغرب فى القرن السادس وأوائل القرن السابع ان فاسا جمعت علم قرطبة والقيروان ، حيث دخل اليها علماء هذين العاصمتين وبالاخص القرطبيين بعد وقعة الربض فى ايام الحكم ثم بعد موت

محمد بن ابي عامر في القرن الرابع الهجري حيث اضطرب شأن السياسة في الاندلس فهاجرها العلماء الى فاس ، ويذكر مؤلف مفاخر البربر (ص 76) ان بفاس من الفقهاء الاجلة اعيان الانام ما ليس بغيرها .

وكانت سجلماسة حاضرة علم قبل فاس بكثير وفي الجزء الاول من كتاب الدرر البهية والجواهر النبوية ص 63 لآبو العلاء العلوي عن القاضي عياض في مداركه في أن اعلام سجلماسة من أخذ عن الامام مالك بالمدينة ورجع اليها ودرس العلوم بها وبقيت مأوى الصالحين والعلماء والامراء ، ويقول بعد هذا النقل ان سجلماسة قاعدة بلاد المغرب قبل فاس ودار الملك منذ عمرت قبل حلول الادارسة الحسينيين بهذا القطر المغربي بقريب من أربعين سنة وذلك عام اربعين ومائة (140) ولم يتقدم لأهلها كفر ولم تنزل من ذلك الوقت أهلة بالعلماء والصلحاء ، وهي أول بلاد درس العلم بها في المغرب .

ونستطيع أن نتعرف من خلال تراجم العلماء المشهورين في هذا العصر على الثقافة الاسلامية ومكانتها ، فمن العلماء أبو جيدة اليزغيني امام المذهب ومؤلف وثائق الشافعية المتوفى سنة 360 ، وجاء في جذوة الاقتباس (ص 121) وفي نيل الابتهاج وفي الغرباء ان أبا ميمونة دراس نسبة (لكثرة الدرس) من علماء مدينة فاس أخذ عن أبي بكر اللباد ورحل الى المشرق وحج ولقى على بن ابي مطر بالاسكندرية ورجع الى مسقط رأسه فاسا حيث توفي سنة سبعة وخمسين وثلاثمائة (357) وقد شد اليه الرحلة ابوزيد صاحب الرسالة الملقب بمالك الصغير وأخذ عنه ودراس هو الذي أدخل فقه مالك الى المغرب الذي كان الغالب على أهله مذهب الاوزاعي ، وأنا اعتقد ان دراس انما دعم المذهب

الحقبة ابو عمران الفاسى المتوفى سنة 430 هجرية ، ومن اعلامها أيضا عبد الله بن محمد بن ابراهيم الاصلى المنسوب الى (اصيلا) وهو أحد أفراد أسرة علمية مشهورة ، مالكي المذهب ، له كتاب في اختلاف الاثمة (أى مالك والشافعى وابى حنيفة) سماه (الدلائل على امهات المسائل) توفى سنة 392 كما ذكر ابن الفرضى في تاريخ علماء الاندلس (ج الاول ص 208) ، وفي الغرباء ونقلها ياقوت الحموى في معجم البلدان (ص 278) الجزء الاول .

كما أدخل المذهب المالكي الى المغرب ابو عبد الله محمد بن محمود الهوارى قاضى فاس المعلق على المدونة المتوفى سنة 401 هـ .

ولقد كانت الشخصية العلمية المغربية بارزة في القرويين في العصر الادريسي كما كان العلماء الذين يدرسون بالمغرب يرحلون الى المشرق ليعطوا وليأخذوا ، كما كان المذهب الفقهي وهو المذهب الاجتماعي في البلاد وقد تبلور فيما كتبه اعلامه الذين احتفظوا بالاعراف والعوائد المكونة لشخصية البلاد في كتب النوازل والاحكام ، وفي كتاب القاضي عياض (ازهار الرياض) ما يدل على ان مدرسة فاس الفقهية كان لها اسلوب خاص في تحليل المدونة على طريقة خاصة تعتمد على المناقشات اللفظية وتضبط الروايات وتصحيحها وشاهد العصر الادريسي ازدهارا ادبيا كبيرا وكان ادريس الثانى من شعراء عصره ويذكر ابن الآبار آثار ادبية للقاسم ابن ادريس كما يذكر البكرى قصائد لشعراء برابرة طوعوا اللغة العربية لتعابيرهم الشعرية وفي كتاب (المسالك والممالك) قصائد للنكورى وسعيد بن هشام المصمودى وبكر ابن حماد وغيرهم .

ونبغ في هذا العصر شاعر ملحمى افريقى وهو ابن هانسى
الاندلسى الافريقى الاصل وكذلك مقداد بن الحسن الكتامى ،
واجتمع بباب المعز بن باديس من الشعراء ما لم يجتمع الا بباب
الصاحب بن عباد كما يقول ابن خلدون ، ومنهم المنشىء ، الكبير
على بن ابى الرجال الذى الف له (ابن رشيق) كتاب العمدة والف
له ابن شرف رسائله المشهورة . ومن نقاد هذا العصر أبو الحسن
الحصرى وعبد الكريم النهشلى :

العقائد في عصر الادارسة :

كان الادارسة في أول امرهم شيعة زيدية وكان عبد الله
والد المولى ادريس الاول يعتبر من الطبقة الثالثة من طبقات
المعتزلة كما في اليعقوبى (كتاب البلدان ص 28 والبكرى دى
سلان ص 188) ثم غلبت السنة المالكية عندما انتشر مذهب
الامام مالك بالمغرب .

اما الدراسة اللغوية

فقد نشأت أول مدرسة نحوية منظمة في الاندلس بعد وفود
القالى على بلاد الاندلس سنة 1350 ، حيث اخذ يقرئ كتاب
الامالى ويتخذ نصوصه مجالا ليعلم اللغة والنحو كما فعل المبرد
في الشرق ثم الف المقصور والممدود وفعلت وافعلت في علوم
النحو ، وعاصره ابوبكر محمد بن القوطية المتوفى سنة 367 فألف
المقصود والممدود وتصاريف الافعال في اللغة ، وقد روى كتبه
بن القطاع وظهرت في هذا العهد كتب كثيرة في النحو منها
(الواضح في النحو) وابنية الاسماء ، ولحن العوام ، ومختصر
المعين في اللغة .

وقد عرف المغاربة النحو على أساس المذهب الكوفى نظرا

لعطفهم على علماء الكوفة الشيعة بالمفهوم الاسرى لسلالة
النبي ، ولأن بغداد عاصمة الخلافة ، كانت أول الامر تعطف على
مدرسة الكسائي ، ولنفس السبب انتشر بها مذهب ابي حنيفة
وأول من ادخل كتاب الكسائي الكوفى ، الى المغرب والاندلس
جودى بن عثمان الطليطلى (198) كما فى البغية) ثم شرحه
مفرح بن مالك ، ثم دخل كتاب سيبويه بعد ذلك الى المغرب واقدم
من اهتم بحفظه حمدون بن اسماعيل ، وصرف المغاربة
والاندلسيون اهتمامهم لدراسة كتاب سيبويه والاخفش والكسائي
حتى كونوا مدرسة نحوية مغربية اندلسية استفادت من المدرسة
البصرية والمدرسة الكوفية والاختبارات البغدادية . وذكر الزبيدي
فى الطبقات (ص 335) انه لم يكن لدى مؤلفى العربية وغيرهم
اعتناء بالنحو حتى ورد محمد بن يحيى عليهم ، وذلك لان المؤدبين
انما كانوا يعلمون تلاميذهم العوامل وما شاكلها وتقريب المعانى
لهم فى ذلك ولم ياخذوا انفسهم بعلم ذخائر العربية وغوامضها
والاهتمام بمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون فى امالة ولا ادغام
ولا تصريف ولا ابنية الفعل ولا يجيبون فى شىء منها حتى نهج
لهم سبيل النظر واعامهم بما عليه اهل الشأن فى المشرق وذلك
استقصاء الفن بوجوهه واستيفائه على حدوده ، وقد ظهر متأخرا
فى عصر الموحدين ابن مضاء الاندلسى (552) احد دعاة تطوير
النحو العربى وتحريره من نظرية العامل والاسس التى بنى
عليها سيبويه مؤلفه النحوى .

والحق أن أول حركة علمية منظمة فى المغرب وبالاخص فى
فاس من وفود الاندلسيين القرطبيين الواردين على المولى ادريس
بعد وقعة الربض مع الحكم بن هشام وينقل مؤلف النقص
المهصور عن (سديو) فى كتابه خلاصة تاريخ العرب ، ما اشار
اليه من ان الحركة العلمية والمدارس والكتبخانات كانت معروفة

في القرويين في عصر الادارسة وان تلك الحركة هي التي كان يحث عليها العباسيون بالممالك الشرقية ، ويظهر ان ذلك من آثار نزول الاندلسيين بفاس ، ولا سيما اهل قرطبة دار العلوم والخزائن العلمية ، حيث وفد على المولى ادريس علماء من جملتهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي الذي سمع عن مالك وسفيان الثوري وابو الحسن عبد الله الخزرجي ، ويذكر المراكشي في المعجب انه انه رحل الى المولى ادريس من القيروان وقرطبة من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة لما حدث فيهما من الفتن والاضطراب ونزل اكثرهم مدينة فاس .

ولا شك ان الحضارة المغربية ازدهرت ازدهارا عظيما في عصر الادارسة ، اذا كان المؤرخون يقارنون بين الاغالبية في تونس والادارسة في فاس فان التنافس كان مستمرا بين الدولتين ، الكتب الادبية والعلمية وانشىء بالقيروان معهد لدراسة الرياضة والطب والصيدلية وترجمة الكتب اللاتينية وسمى هذا المعهد ببيت الحكمة ، وعرف هذا العصر مشاهير الرجال كالقاضي اسد بن الفرات المتوفى سنة 213 ، والقاضي سحنون المتوفى سنة 240 ، والطبيب احمد ابن الجزار ، وكانت القيروان وارثة قرطاجنة وروما فيما خلفت من ثرات فكري وعلمي وازدهرت الزراعة كما كانت في عصر الرومان وانتظمت وسائل الري في البوادي وتقدمت الصناعات وخاصة صناعة النسيج الصوفى والحريري وعنيت الدولة بالمناجم ، فاستخرجت منها المعادن ، وقويت التجارة مع العواصم الاوربية .

وكانت الثقافة المغربية منبثقة من وعى شعبي وكانت كما ذكر (سديو) عن الاندلس قائلا : (لقد كانت الحضارة الاندلسية من صميم الشعب لم تفرض عليه فرضا ، وانما كان الخلفاء

يدارون الرأى العام فيحثون على الآداب والتجارة والصناعة ،
ويقابل ذلك بالشكر قوم يقدرون هذه المقومات ، ولم تبلغ عظمة
العرب فى الاندلس الا عن هذه الاستجابة وحب الثقافة المشاع
فى جميع الطبقات وكما قال (سديو) ايضا ، كنت ترى الشعر
يسمو بالنفوس وترى اتصاف القضاة بغزارة العلم اتصافا جالبا
لاحترام احكامهم ، وكنت ترى تنافسا كريما حافزا . وكان يؤذن
لمن يشيد المباني فى كتابة اسمائهم عليها ، وأما المذاهب التى
نشأت فى الاندلس خاصة بالاخلاق والفلسفة ، فقد قال (سديو
ص 293) : لقد ظهر فيها اناس منطرفو الافكار ولكن لم تخرج
مباحثهم عن الحذر الشديد ، وكان سادة الاندلس من أهل السنة
فلم تعد المناقشات حدود مشاكل التفسير وكان الفقهاء على
مذهبين متنافسين : مذهب مالك والاوزاعى ، ورغم الخلاف
الشديد بينهما لم ينقلب قط الى انفصال .

المذاهب الفقهية فى هذا العصر :

كانت فاس ملتقى المذاهب السنية ، فقد عرفت مذهب
الامام الاوزاعى الذى انتشر مذهب في الشام طيلة قرنين كما فى
(خطط الشام لكردي على) ، وعرف مذهب أبى حنيفة الذى
ظهر فقهاء فى أفريقيا أواخر القرن الرابع ومنها دخل الى فاس
والاندلس .

وعرف المغاربة كذلك المذهب الشافعى الذى ادخل بعض
آرائه الفقهية ابو جيدة الفاسى المتوفى سنة 360 هجرية (كما
فى السلو) وهو الذى ادخل المذهب المالكى أيضا الى المغرب أما
المذهب الحنبلى فلم يشتهر فى المغرب ، ومن الخطأ ما ذكره
الزركلى فى الاعلام (ج الاول ص 192) والحاقلانى فى شعراء

بغداد (ج 1 ص 386) في ان مذهب احمد بن حنبل وصل الى المغرب .

والواقع ان المذهب المالكي انتشر في المغرب كله ، وفي حوض البحر المتوسط وافريقيا السوداء ، نظرا لان الحجاج الفقهاء حملوه الى المغرب عن طريق زيارتهم للحجاز ، وكان الامام يحيى الليثي من تلامذة الامام مالك وساعدت دواعي سياسة على انتشار مذهب مالك ، واهمها موقف الامام مالك من بيعة العلويين ، ومنها تردد المغاربة على مكة والمدينة معقل المذهب المالكي ، وايضا لمرونته الاصولية المقررة للمصالح المرسله ، ولصلابته في الاحوال الشخصية .. وقد ركز الادارسة هذا المذهب وعززوه في المغرب بتولييتهم لتلميذ مالك وسفيان الثوري ، محمد بن سعيد القيسي المالكي ، كما ركزه في الاندلس يحيى الليثي حين ولي القضا بها .

واستمر عصر الادارسة نحو قرنين تقريبا ولم تستقر البلاد أثناءه لعدم تركز الحكومة مع اتساع رقعتها مما احدث تضعضا اقتصاديا .. وكانت حدود الدولة تمتد حينها الى بلاد السنغال ، وتتقلص احيانا في قلعة حجر النسر ونواحي البصرة وطنجة .. زيادة على الفتن المتوالية التي يوقدها أعداء الدولة من البرغواطيين والعبديين والخوارج والامويين والانداسيين ، ولهذا عانت دولة المولى ادريس الثاني أزمة مالية ، ومع ذلك لم ترهق السكان بنفقات غير شرعية ، واكتفت بالنصيب الشرعي ، وعمل اليهود على اضعاف الخزينة بأساليبهم لانهم كانوا يؤيدون الخلافة في بغداد ويعملون على تشويه سمعة الادارسة ... وقد طبع المولى ادريس عمله شرعية ضربت في مدينة فاس تحتفظ باريس بقطعة منها في قسم المسكوكات بمعهد الآثار ...

وقل المسلمون في هذا العصر عن الصين تربية دودة القز

فانتشر الحرير في افريقيا الشمالية والانداس وامتازت صناعة الثياب الحريرية في افريقيا بجمالها ورونقها ..

وفي القرن العاشر الميلادي ظهر في المغرب قصب السكر والقطن وزرع الارز والزعفران في املاك مثلما نشطت مع بلاد البحر المتوسط ، وقد فرض نائب المغرب من بنى زيرى ضرائب باهضة وتتبع قطاع الطرق .. ونجحت هذه السياسة فعلا في تنشيط الاقتصاد فوفدت قوافل السودان ، وفيها فيلة وزرافات هدية لامراء بنى زيرى (ص 33 من كتاب القوى البحرية والتجارية) ، وعندما خضعت سجلماسة للامويين تحولات طريق السودان بطبيعة الحال الى المغرب الاقصى ، وكان ذهب السودان يرد على الاندلس عبر المغرب الاقصى عن طريق سبتة .

وان طبع عملة مغربية في عهد المولى ادريس الاول بزرهون وفي عهد داود (1) دليل على استقلال اقتصاد المغرب سيما بعد ان تساعد مع الاقتصاد الاندلسي . وقد ضمت فاس بعد زرهون جماعة من الاغنياء المترفين الوافدين عليها من الاندلس والقيروان وسجلماسة فكونوا قوة اقتصادية كانت من عوامل ازدهار العملة المغربية ، ويقول لفي بروفينصال في كتابه تأسيس مدينة فاس : ان مدينة فاس كانت مركزا اداريا وزراعيا في القرن الثامن (م) ولكنها لم تكن مركزا للتجارة وهي كذلك مدينة داخلية بعيدة عن البحر كمعظم العواصم الاسلامية في ذلك الحين ، ويقول (ارشبالدر . لويس) : ان قيام مدينة فاس يؤكد الطبيعة الزراعية التي اتصف بها القسم الغربى من بلاد المغرب .

وعم الازدهار الفلاحى والاقتصادى هذا الجزء من المغرب

(1) راجع ما كتبه بروفينصال عن بناء مدينة فاس .. وبالاخص
Fragment, historique sur l'Histoire de Berbers au moyen âge.

غير ان الثورات التى استمرت حتى سنة (800 م) فى قبائل البربر ، وتورات الخوارج دهورت الاحوال الاقتصادية ، ويلاحظ من خلال عرض ابن الاثير (157) ان الخمسين سنة التى سبقت استقلال الاغالبية هبط فيها مستوى الرخاء حتى اصبحت الاعانة السنوية مستمرة لتغطية نفقات الحكومة من الاعانة السنوية المرسلة من مصر (ص 93 هـ) .

البحرية :

اسست فى هذا العصر دور للصناعة البحرية و جهزت بالعتاد والرجال ، واشرف عليها خبراء من ذوى الشجاعة والدراية وخاضوا معارك احرزوا فيها على انتصارات قضت على آمال البزنطيين الذى كانوا يطمعون فى العودة الى افريقيا الشمالية ...

وظهرت وظيفة أمير البحر فى الدولة الاموية ، ولا شك ان المغرب عرف هذه الوظيفة ايضا لوحدة النظام الادارى وكان أمير احد الاربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الدولة ، بل كان يقال عنه انه قسيم الخليفة فى السلطان ... و جهزت الاساطيل البحرية بالنار الاغريقية ، واستخدم الاغالبية المعاصرون للدارسة قرب قرب صقلية سنة 835 م . سفنا قاذفات وبذلك نافسوا القوة البحرية البزنطية وقضوا عليها ، وكان للعالم الاسلامى مراكز ثلاث للقوة البحرية الاولى فى الغرب والثانية فى الوسط والثالثة فى الشرق ، ويظهر ان قوة الوسط كانت قوية ، وقد تناوبت السيطرة عليها قبائل مغربية من زناتة وصنهاجة ، ويذكر ابن الاثير ان زناتة قاومت رغبة المعز بن باديس فى السيطرة على طرابلس فدفع ذلك الى بناء اسطول كبير للاغارة عليها سنة 1025 م .

الطرب والغناء :

وفى عهد عبد الرحمن الاوسط دخل الى الاندلس زرياب المعنى فحمل الى القصور الاندلسية الطرب ، واستبدل حياتهم الخشنة بحياة مترفة وغير الآداب الاجتماعية والملابس الوطنية، والهندم العام ، وبذلك أشاع فى الحياة الاجتماعية رقة وانحلال ، ولاشك ان القليل منها وصل الى المغرب ورده معظمها الفقهاء الذين قاومهم الحكم فى قرطبة ، وهم الذين اعتصموا فى المغرب ليناضلوا ضد البدع والانحلال الاجتماعى ، ولذلك فما كانت الحياة الاجتماعية فى المغرب تتسرب اليها عوامل اللهو والطرب حتى كان الفقهاء والحكام يقاومون ذلك ما استطعوا الى ذلك سبيلا .

الدبلوماسية :

بعث المولى ادريس الازهر الى الامبراطور شارلمان سنة 801 سفيرا .. واذا كان المؤرخون يتحدثون عن سفير هارون الرشيد الى شارلمان فهم لا يذكرون ان الوثائق الملكية بفرنسا تذكر أن سفيرا جاء من (فوساتوم) (أى فاس) فى عهد شارلمان ، وقد يرى بعض المؤرخين ان هذا السفير ورد على الامير ابراهيم ، وهو لا يوجد بين امراء الادارسة وكان الادارسة يلقنون بالسلطين . (بالخلفاء) بما فى كتاب الخلافة لرشيد رضا ص 24 كما وجه المولى ادريس الاول رسالة الى أهل مصر يدعوهم للدخول فى طاعته .

المرأة فى العصر الاديسى :

كانت كنزة أم ادريس الثانى أول امرأة مغربية مسلمة ساست البلاد ووحدها ونظمتها كما كانت (الحسنى) ، زوجة

المولى ادريس الازهر أعظم امرأة في عصرها فكان لا يقدم على امر الا اذا استشارها ... ومن نساء العصر الادريسي فاطمة القيروانية مؤسسة أقدم كلية في العالم المتمدن والتي بنيت القرويين سنة 245 ... واختها مريم مؤسسة جامع الاندلس بفاس .

المغرب والاندلس في العصر الادريسي :

عندما توفي المولى ادريس الثاني سنة 213 عن ست وثلاثين سنة خلف اثني عشر ولدا كان اكبرهم محمد بن ادريس غير ان جدتهم كنزة وكانت نفوذ عليهم ضعفت امام طفيان عواطفها ، فدعت الى تقسيم المغرب بين هؤلاء الابناء جميعا ... وبذلك وقعت في غلط طالما هدم الدول ولم تمنع الفتن المستمرة بين هؤلاء الاخوة من توفر بلاد المغرب على اقتصاد واستقرار اجتماعي ، فهاجر كثير من الاندلسيين والافارقة الى فاس (كما ذكر ابن ابي زرع) في دولة يحيى بن محمد بن ادريس ، ولا بعد ان يكون سبب ذلك ما عرف في الاندلس في هذه الحقبة من غلاء ، ففي سنة ستين ومائتين عم الاندلس قحط ووباء وفتنة وحروب ، كما ذكر ذلك الناصري في الاستقصا ، واخذ الامويون الاندلسيون يتدخلون في شؤون المغرب بعد ضعف الدولة الادريسية ، وتأسيس دولة العبيديين الفاطمية التي اخذت تتازعهم السلطان بواسطة القائد مصالة ابن حبوس المكناسي صاحب تاهرت سنة خمس وثلاثمائة ، وأخيرا قضت عليهم بواسطة موسى بن العافية المكناسي ، الذي لم يلبث ان تنكر للعبيديين وولى وجهه شطر الاندلس ، وعاش المغرب فترة مسرحا لحروب دامية بين الاندلسيين والعبيديين ظهرت من خلالها دويلة صغيرة للدارسة في جبال الريف . كانت مهمتها درء الخطر عن الامويين

ضد زحف العبيديين الذى كان من المحقق أنه سيصيبهم بعد استيلائهم على الشرق الأدنى ، وقد نجح الناصر المروانى فبايعه أهل المغرب ، وخطبوا له على المنابر وبعد نهاية الادارسة كانت دولة زناتة من مغراوة تعمل تحت نظر الامويين بالاندلس ، فكانوا يتأرجحون بين طاعة العبيديين وطاعة الامويين الاندلسيين، وقد وفد منهم سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة زيرى بن عطية عطية مؤسس مدينة وجدة على المنصور بن ابي عامر الاندلسى ، ولم تلبث هذه العلاقات ان حلت محلها الجفوة وبعث المنصور الاندلسى مولاه واضحا وامده بما كان معه فى الاندلس من رؤساء البربر ، وانتصر على زيرى حيث دخل ولده عبد المالك المظفر الى فاس وساسها بقوة وحزم غير ان ثورة ابي الكمال تميم ابن زيرى اليفرنى واهزام جماعة المغراوى ثم انتصار المغراوين فى عهد دوناس وفتوح بن دوناس لم يساعد كل ذلك على الاستقرار ، اللهم الا فى فترة دوناس سنة خمس وثلاثين واربعمئة حيث عرفت فاس استقرارا وعمرانا اشاد به المؤرخون .

نشر الكتب :

وأهتم المغاربة كما اهتم المسلمون جميعا بوسائل الكتابة وأدواتها ، فجلبوا الكاغد من الصين ، وانتشر فى المغرب ، تحقيقا لعدالة التعليم ونشره واذاعته بكل الاوساط ، لان ورق البردى أو ورق الغزال كان يكلف غاليا ، وكانت معامل صنع الكاغد بفاس والقيوان وشاطبة وسبتة وكذلك ما يتبع ذلك من فن تجليد الكتب . وتزويقها ونجارة الخزانات وغير ذلك .

الارقام العربية :

وفى افريقيا الشمالية استتبط تميم بن خريف الأرقام

العربية التي تعتمد أولا على الزوايا ، وقيمة الرقم ، (وهى كم فيه من الزوايا) ، فاذا كانت فيه زاوية واحدة فهو واحد . أو زوايتان فهو اثنان ، وهكذا الى تسع . ففى التسعة تسع زوايا ، اما اذا كان الرقم خاليا من الزوايا فهو دائرة مستديرة لا زاوية فيها .

المدن الجديدة فى العصر الادريسي :

وبجانب هذا النشاط الفكرى فى ميدان العلم والثقافة الاسلامية شاهد العصر الادريسي ازدهارا معماريا ذا طابع خاص ظهر فى بناء مدن ادريسية أسسها حفدة المولى ادريس بعد ان اجلاهم موسى بن العافية عن فاس كمدينة حجر النسر فى غمارة قرب تلبوط كما ورد ذلك فى الجزء الثانى من الدرر البهية ، وكمدينة البصرة الموجودة بين طنجة والعرائش والمشهورة بكتانها وجلودها ، وقد أسسها ابراهيم بن القاسم بن ادريس ، وكمدينة اقلام التى أسسها عبد الله بن ادريس ، حصن سوق عكاشة قرب ورغة أسسه محمد ابن الحسن بن ادريس ومدينة جراوة التى أسسها عيسى بن ادريس بن القاسم بن ادريس ومدينة نكور التى أسسها سعيّد ابن ادريس بن صالح فى عصر الادارسة ، على ان عدة مدن وبالاخص فى شمال المغرب قد انقرض معظمها كقصر مضمودة المعروف بمدينة الكتان وهى مدينة (ارجل) كما فى كتاب التحفة القادرية وكمدينة تشميس على نهر سفدد ، وكمدينة باب اقلام السالفة الذكر ومدينة ماسنة على نهر سبو ومدينة تطوان التى كان يسكنها قديما البرابرة المعروفون بمجكسة ، ثم اعيد بناؤها وكمرسى انزلان فى غمارة وهى اصيلا وكتقساس قرب ازيلا وكقصر تاركا وكحصن مسيكانة وحصن الكركال ومدينة بادريس نكور ومدينة

المزمة ، وكرت وقد بسط الكلام عن هذه المدن الشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق .

كان مؤسس الدولة الاموية من اعقاب الامويين ، فلا غرو ان يتسلل التأثير الفنيقي القديم في العرب للشاميين ثم يحملونه من جديد الى افريقيا الشمالية والاندلس ثم تمذهبه الانداسيون لمذهب مالك ، فكان قضاتها واصحاب الوضائف السامية بها من المالكيين ، ومن خصائص المذهب المالكي عداؤه للتجديد (أو بالبدع) لذلك وكان عاملا في اذكاء حماس الشعب واثارة الفتن والقتال في مختلف الاتجاهات السياسية كفتنة النصارى (في قرطبة) ووقعة الحفرة في طليطلح و (هيج الربض) في قرطبة حيث كان موقف الفقهاء المتشدد من الحكم موقفا صارما اضطره ان يشردهم من الاندلس .

الفلسفة والطب :

أما الفلسفة والطب فذكر ابن ابي عمير أن اسحاق ابن عمران البغدادي دخل افريقيا في دولة زيادة الله ابن الاغلب ، وبه ظهر الطب في المغرب كما شاعت الفلسفة بواسطة تلميذه اسحاق الاسرائيلي المتوفى سنة 320 وابن الجزار القيرواني .

الحركة الصوفية :

بدأت الخانقات والرباطات الصوفية تظهر في العالم الاسلامي قبل نهاية القرن الثاني الهجري ، وأول خانقات أسس لمتصوفة الاسلام كان بالرملة (كما في النفحات ص 34) ، وتأثر المغرب بذلك في هذا العصر وجاء في الانيس (ج 2 ص 13) في ترجمة عبد الله بن ياسين انه دخل الى جزيرة قرب الساحل مع سبعة نفر من كدالة وابتنى بها رابطة وتضاعف عدد تلاميذه حتى

بلغ ألفا ، ويرى بعض المؤرخين أن وجاج اللمطى هو الذى أسس دار المرابطين فى مدينة نفيس ، وجاء فى زهرة الآس للجزنائى أنه كانت فى القرن الثانى حركة رهبانية قرب فاس فى القرن الثانى . ويؤيد هذا ما جاء فى (القرطاس ج 1 ص 49) من أن المولى ادريس وجد راهبا فى صومعة قريبة من المكان الذى أسس فيه فاسا ، كما كانت فى جبال (زلاغ) حركة اباضية (أنظر تاريخ الاباضيين) .

القرويين مركز دراسى (1) :

وكانت هذه التيارات الداخلية تتجاوب اصداؤها فى القرويين باعتبارها المركز الذى يمحس العناصر الفكرية الدخيلة ، ولذلك شاهدت القرويين عدة حركات اصلاحية مذهبية ومقاومة للتيارات الدخيلة .

الهندسة الجديدة لبناء المساجد :

حقق عبد الرحمن الداخل تقدما فنيا عظيما حين بنى جامع قرطبة (170 هـ) (789 م) الذى تبلور فيه الفن العربى الجديد المطعم بالفن اليونانى والرومانى والبنظى وخصائص الفن المغربى ، وقد استمد المسجد اداته ومواده المرمرية وسوارية من بقايا الآثار الرومانية كما اقتبس الرسوم من جامع دمشق وبغداد والقدس وهذا المسجد مربع تقريبا طوله 180 مترا وعرضه 131 م ثلثاه اروقة وثلثه صحن ، محاط بسور مدعم فتحت فى اضلاعه ابواب يضم سقائف للنساء وحوضا للماء

1، كان جامع القرويين نفسه مكانا لدروس كبار العلماء بالاضافة الى حلقات أخرى فى باقى المدارس والمدارس والمساجد ، كما كانت بالمغرب معاهد لنشر العلم والدين والمعرفة كمعهد وجلج زلو فى السوس .

ومنارة في الصف المقابل للمحراب في اساقيف متناسقة عليها
 قبيب جوفاء مطرزة بالمرمر المنحوت والفسيفساء ، والماء يجري
 الى نافورته في قنوات من حجر منقنة البناء اودع جوفها انابيب
 من الرصاص ، وقد بسط الادريسي في النزهة وصف هذا المسجد
 (حقق المستشرق هراي هذا الجزء من الكتاب) ، ولا شك ان
 هذا المسجد (ظل النموذج المحتدى) في بناء مساجد المغرب
 الاقصى المتأثرة بالفن الاندلسي الى حد بعيد ملحقة بروائع الفن
 القيرواني مفروشة ارضها ببلاط ابيض ، مصنوع محرابها من
 اخشاب الابنوس والصندل والنبغ والبقم ، واستدير المسجد
 بطاقات على عدد ايام السنة حتى تدخل الشمس كل يوم من طابق
 وقد استشار الحكم الفقهاء في تحريف قبلته الى الشرق ولكن لم
 يوافقوه ابو ابراهيم ، كما وقع في محراب القرويين .

ولا شك ان المغاربة نقلوا روائع الفن الاندلسي الى بلادهم
 في مستهل العصر الادريسي ، ويظهر ان طبيعة المغاربة
 الديمقراطية ابت عليهم ان يسكنوا في القصور والمنازل فلم
 يحفلوا بالمعمارات الشخصية وانما افرغوا عظمة فنهم في المساجد
 والقناطر والمدارس والمؤسسات الخيرية (واهم هذه المساجد)
 في هذه الحقبة (القرويين) التي تشبه جامع قرطبة الى حد كبير
 والتي شرع في بنائها بعد بناء (فاس) .

العمران في عهد الادارسة (فاس) :

يظهر أن فاس بناها المولى ادريس بقرب قرية قديمة ،
 ويستأنس بذاك بما ذكره الجزنائي في كتابه (زهرة الآس) أن
 ديرا للربان كان بقرب فاس . سيما وكلمة فاس لها أصل بربري
 مأخوذ من (أفوس) أى اليد ، والجمع (أفاسن) وأسياف النهر ،
 جمع أسافى ...

وربما كان هذا مبررا لما يذكره بعض المؤرخين العرب ان فاسا اصلها ساف مقلوبة ، ويستأنس له بمجاورتها للانهار ، كما يستأنس له بوجود مدينة أخرى تسمى أسفى ، فاللفظة من حيث مادة حروفها متقاربة ودالة على اصلها البربرى القديم ، ويرى بعض اللغويين ان اللغة البربرية تغير في الجمع شكل الكلمة وتزيد النون في الآخر في جمع المذكر وجمع التكبير معا ، ويمثلون بذلك بأفوس الذى يجمع على افاسن كما ان بعض المؤرخين العرب يرون ان للكلمة اصلا اسلاميا ويرون في ذلك حديثا لا مصدر لصحته وهو ما ذكره الجزنائى (جنى زهرة الآس) ص 20 وابى القاضى فى الجذوة « أن النبى حين أسرى به رأى نجمة تلمع فى الارض فسأل عنها جبريل فقال له انها مدينة تسمى (ساف) فقال اللهم أجعل العلم ينبع من صدورهم كما ينبع الماء من حيوطهم » .

وأصبحت فاس فى هذا العصر كما وصفها المراكشى « حاضرة المغرب وموقع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان و علم قرطبة .. وحل من هذه وهذه من فيهما من العلماء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم فاس فهى اليوم على غاية الحضارة واهلها فى غاية الكيس والظرف ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الاقليم وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب ... وعرفت فاس فى عصورها الاولى مئات المساجد والمدارس والسقايات العمومية والحمامات ودور الضوء ... , كما فى زهرة الآس ص (33) .

وذكر كوستاف ليون أن مدينة فاس كانت تزاخم بغداد فى القرن العاشر الميلادى فكان بها نصف مليون نسمة و 800 مسجد وخزانة حافلة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية ويذكر (هولوى روسو) و أنه اشترى من فاس نسخا مخطوطة نادرة من عشاريات

تتليف حول التاريخ الرومانى . وقد ذكر دلفان (ص 81) ان هذه الخزانة كانت تحتوى على 30.000 مجلد ، وذكر كودار (المغرب 2 ص 376) ان يعقوب المرينى استرجع من المسيحيين عددا من المصنفات العربية واهداها الى القرويين وذكر ميلى (الموحدين ، ص 101) ان يعقوب الموحدى كانت له خزانة تضاهى مكتبة الخليفة الاموى الحكم الثانى ، وفى عهد المولى زيدان السعدى اختلس قنصل فرنسى اربعة آلاف مخطوط عربى وباعها لاسبانيا فكانت من نواة الاسكوريال .

ووصف كابريرال شارم مدينة فاس بانها أول مدينة مقدسة بعد مكة وانها كانت مركز القوة العربية فى عنفوان ازدهارها والعاصمة الفكرية والروحية للمغرب الاسلامى ، بفضل معاهدها الخالدة ومساجدها الماجدة ، وذكر مارسى أن افريقية نفسها وهى الوطن العتيق لعلماء الاسلام أصبحت تتلمذ لبرابرة المغرب، وشبهه على العباسى باى العباسى هذه المدينة (بأثينا) لوفرة علمائها ، ومعاهدها ، ويؤكد قوتى فضل فاس التى ورثت مكانة وليلى ، بما فيها من مياه تحتاجه المدن الشرقية ، لأن هذه المدن لا يعرف أهلها كيف يجلبون الماء من بعيد .. ويلاحظ أن كوتى نقل الطابع العام للمدن الاسلامية التى تحتاج الى غزارة المياه ... فى أرض لورثة هواريين شرع فى بناء القرويين (فاتح رمضان 245 ، 30 نونبر 859 م) وعثر أخيرا على لوحة نحت عليها داود بن ادريس كمؤسس للقرويين بينما تذكر المصادر التاريخية ان المؤسس هى فاطمة الفهرية أو فاطمة الهوارية .. وتآلف المسجد أول الامر من اربعة بلاطات ابتداء من القبلة ، ولكل بلاط 12 قوسا من الشرق الى الغرب ، ثم فى عهد الامير احمد بن ابى بكر الزناتى وباعانة مالية من الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث زيد فى بناء القرويين فبلغت ثلاثة عشر اسكوبا وثمانية عشر بلاطا ، ونقلت

الخطبة اليها . وفي عهد يوسف المرابطى أضاف القاضي عبد الحق بن معيشة زيادات أخرى فاصبحت القرويين تتألف من (16) اسكوبا و (11) بلاطا .. ومنذ بنائها وهى مركز دراسى يشرف على التعليم فيها قاضى العاصمة كما يشرف المفتى على القضايا الاحسانية والشرعية ، وبنيت بجانب القرويين مدارس لايواء الطلبة ومن اقدمها فى عهد المرابطين مدرسة الحفاويين ومدرسة الصهريج ثم مدرسة العطارين ، ومدرسة الوادى ومدرسة الخصة والمدرسة البوعنانية (المرينية) كما بنيت بها خزائن علمية .. وقد شابهت القرويين فى بنائها مسجد قرطبة لذلك كانت القبلة على السمى ، ثم ظهر بعد تقدم علم الفلك ميل القبلة ، فرسمت القبلة الصغيرة تشير الى الانحراف ووسع الزناتيون للقرويين فزادوا بها ، ونقلوا الخطبة اليها وهدموا الصومعة الاولى وبنوا مكانها اخرى ، ذات مائة درجة ، وغشوا بابها الكبير الصومعة الاولى وبنوا مكانها اخرى ، ذات مائة درجة ، وغشوا بابها الكبير بصفائح النحاس الاصر سنة 345 ، وجعلوا فى أعلى الباب قبة صغيرة وضع فى ذروتها تفافيح مموهة بالذهب فى زج من حديد أثبت فيه سيف المولى ادريس ، وتحت هذه قبة أخرى أكبر منها للمؤذنين وفى المنارة بيت للمؤقت ورخامة شمسية وساعات رملية وفى سنة 388 صنع المظفر بن المنصور الى عامر منبرا للقرويين من عود الابنوس والعناب .

وعلى غرار جامع القرويين بنى جامع الاندلسيين ، وكان فيه 6 بلاطات وصحن صغيرة ، وزاد فيه عامل الناصر الصومعة سنة 354 ثم زيدت فيه اضافات اخرى ... وما يزال البناء القديم فى القرويين يحتفظ بالطابع القيروانى ، وما تزال الصومعة القروية التى بنيت فى عهد الزناتيين سنة 340 تحتفظ بالشكل القيروانى أيضا .

وبدون شك فقد كان يوجد فن رقيق كما يتجلى ذلك في منبر المولى ادريس الثانى المحتفظ به الى نهاية القرن السادس الهجرى والذى شاهده مؤلف المقياس ونقل وصفه صاحب جذوة الاقتباس .

وقد استمد الادارسة التصميمات الهندسية من الفن الاندلسى الذى يرجع للتأثير البزنطى والقيروانى المتأثر بالقرطاجى ، فكانت المدن تحاط بأسوار والمواد الاساسية فى البناء من الاجر والجبس والطوب والمرمر ويوجد بتونس سور جراوي بالطوب يرجع لسنة 257 ، (أنظر) كتاب الفن الاسلامى (338 ج 1) كما أن رقادة المبنية سنة 294 بنيت كذلك بالطوب أما جامع القيروان محى بالجبس والمرمر والآجر سنة 252 وبعد قيام الفتنة بين اعقاب الادارسة وبين الاندلسيين والفاطميين تزايد عدد الابراج والاسوار المحيطة بالمدن ...

وليس ببعيد بعد تشبع المغاربة بالحضارة العربية والثقافة الاسلامية أن يظهر انحراف عقيدى تدور فى بعض المظاهر الشاذة التى برزت فى ظهور انبياء كذبة كطريف الذى ابتدع ديانة خرقاء تكتل تحت شعارها البرغواطيون وكحاميم بن بن عبد الله المتنبى (سنة 313) بجبل حاميم بقرب تطوان الذى انضمت اليه قبائل غمارة ، وكعاصم بن جميل المتنبى بغمارة ايضا ، وربما كانت النعرة القبلية والعصبية هى العامل فى ظهور هؤلاء المتنبئين الكذبة الذين يصطنعون هذه الوسيلة للزعامة القبلية .

صلات تجارية :

لقد وجدت صلات تجارية بين دولتى الخوارج والادارسة ، فكانت العلاقات التجارية بين تاهرت وفاس فى نطاق محدود ،

ويشير (ابن حوقل) الى انتظام القوافل بين سجلماسة وفاس . وقد توجه كثيرون من صفرية فاس الى سجلماسة عاصمة صفرية المغرب طلبا للعلم والتجارة ، كما كان للتجارة المدراريين نشاط في أسواق مدينة فاس ، وكان طبيعيا أن تتوثق الصلات التجارية الصلات التجارية بين دولتي الخوارج والدولة الاموية بالاندلس لما كان بينهما من علاقات سياسية ودية ، تبادل بنو مدرار مع مع أموى الاندلس السلع والمتاجر فكانوا يصدرون القمح والسكر والكرم والتمر في مقابل الثياب والقطنية والثياب الكتانية والحريرية التي اشتهرت بها قرطبة ، وكثيرا ما أثر بعض التجار والحرفيين الاندلسيين الاقامة بتاهرت والعمل في اسواقها ، بينما كان البعض الآخر يعمل في نقل المتاجر بين الدولتين . أما عن تجار الخوارج مع بلاد السودان ، فقد شكلت حجر الزاوية في نشاطهم الاقتصادي . وكانت شعوب السودان أخلاطا شتى من العناصر الزنجية القاطنة بين البحر الاحمر شرقا والمحيط غربا ، وبين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال وبين نطاقات الغابات الاستوائية في الجنوب . ويصف صاعد الاندلسي في (طبقات الامم) هذه الشعوب بالفوضى على الرغم من (وجود سياسة ملوكية) تضبطهم ، وناموس الهى يحكمهم . وكانت هذه الشعوب تعيش في شكل جماعات يرأسها أكبر الرجال سنا .

القرن الخامس والسادس الهجريان

1038 م — 1147 م

420 هـ — 542 هـ

المرابطون

تستوطن قبيلة المصامدة أرضا واسعة في المغرب ، ومنها قبائل صنهاجة وغمارة في الشمال ، وقبائل صنهاجة في الجنوب الاطلس الكبير والصغير ومعظمهم فلاحون مستقرون .

وكانت صنهاجة تعتبر أعظم قبيلة مغربية بلغ عدد فصائلها نحو السبعين ، ورغم ادعاء (جوتيه) عدم وحدة قبائل صنهاجة ، فإن المؤرخين العرب وجدوا في وحدة العوائد واللهجات دليلا على وحدة اصل هذه القبيلة العظمى . ومن هذه القبيلة دولة المرابطين الذين جاؤوا وحدوا المغرب ، وأنقذوا الحضارة الاسلامية في الاندلس ، وقوضوا حلف زناتة ، وقضوا على مملكة غانة الزنجية المستولية على اقتصاد افريقيا الجنوبية .. ومن أشهر قبائل مسمودة ، لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وترغة ، وجزولة .

وقد سيطرت قبيلة صنهاجة على أجزاء المغرب في بداية الحكم الاسلامي وكانت تنقسم الى (صنهاجة شمالية) و (صنهاجة جنوبية) كما كان التنافس على أشده بينهما وكلاهما شعر بدوره في توحيد المغرب تحت شعار امبراطورية اسلامية مغربية حيث تم انصهار العنصر العربي والبربري في بوتقة الوحدة المغربية الاسلامية ، وكلاهما تنافس كاشد ما يكون التنافس

على توحيد المغرب تحت امرته ، وقد شاهد العصر الادريسي هذا الصراع الذي تمت فيه الغلبة للصنهاجيين على يد عاملهم باديس الزيري مؤسس مدينة (اشير) غير ان انقسام الزيريين عاجل دولتهم ، ولذلك لم يمكن لهم من المغرب الاقصى ، بينما كان عبد الله بن ياسين يغرس في تخوم الصحراء نواة الدولة المرابطية واذا كان المؤرخون يذكرون تعريب بنى زيري الذين كان فيهم الكتاب والشعراء والفقهاء وبالاخص في عهد (تميم بن المعز) احد ملوكهم ، فان عبد الله بن ياسين كان زعيما روحيا وسياسيا لدولة المثلثين ، وكانت نظريته الدينية في تأسيس دولتهم (المرابطين) الذين كانوا نموذجا للعمل المتواصل لسيادة المغرب المسلم ، وقد اعتمد عبد الله بن ياسين نظام الرباطات الذي أسس في عهد هرثمة بن اعين سنة 181 . كما حقق دعوته ان عمران الفاسي لبناء دولة اسلامية مالكية المذهب .

الثقافة المرابطية :

ولم يكد المرابطون يمسكون زمام قيادة البلاد المغربية حتى سعوا الى توحيد افريقيا الشمالية ، فعلا وفقوا في تنظيم البلاد واعطائها مددا روحيا جديدا ، واستعانوا لتحقيق اهدافهم التربوية بجماعة من العلماء الواردين عليهم من الاندلس والقيروان .. اذ أن اشتغال ملوك الطوائف بتوافه الامور أضعف ثقة العلماء بهم ، فتوجهوا الى المغرب لتدعيم الدولة الفتية كما اعانهم على ذلك وفود من علماء القيروان الذين اموا المغرب الاقصى بعد ان قضى بنو هلال على القيروان وهدموا معالمها وخربوا مملكة بنى زيري الصنهاجية فهاجر العلماء الى المغرب الاقصى ناجين بأنفسهم ، وحسب ما ذكره النويري في نهاية الارب ، فان مدارس القيروان اقفرت بعد غزوات عرب بنى

هلال ... وهكذا كان القرن الرابع نهاية مجد القيروان وبداية ازدهار الثقافة الفقهية في المغرب . ويقول المراكشي في المعجب « انقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرة بنى العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له بدولته من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة » . وفي التكملة ، والاحاطة والمعجب وصلة الصلة لابن الزبير وقلائد العقيان وكتاب الفصيح ، والجذوة ، ذكر لعدة مشاهير الادب والعلم في هذا العصر الوافدين على المغرب ... ولم يحفل المرابطون بالعلماء والادباء والفلاسفة والكتاب فحسب ، بل استقدموا الفنانين والصناع من الاندلس ، وكان الخلفاء المرابطون يجالسون العلماء والادباء والفقهاء بصفة خاصة حيث يشاورنهم في أمور الدنيا ومشاكل الحكم ولا ييرون امرا الا على اعتبارات شرعية .

وقد ضاقت رحاب القرويين بمن يؤمها من الطلاب ورجال العلم حتى اذا كان اوائل القرن السادس للهجرة اجتمع العلماء وقرروا ان يتكلف القاضي عبد الحق بن معيشة باصلاح القرويين وتوسيعها ، وقد شجعه على بن يوسف المرابطي على هذا الاصلاح ، فقام القاضي المذكور بشراء كثير من الاملاك المجاورة ، فتوسعت القرويين وزيدت فيها بلاطات وابواب وزخرفت بعض قبب اساكيبها ... وبدون شك فقد نمت فيها الحركة الدراسية اكثر من أى عهد مضى ، وكان المشرف على تسيير النظام بها عادة هو القاضي الذي يقيم بجانبها ويسهر على الدراسة بها ويعطى الكراسي للمستحقين من اعلام الفقه والفتيا وباقي العلوم ، وكان يجرى على الطلبة امتحانا لتخريج المبرزين على شكل نظام الاجازة ، كما كان بها « مفتى » همه أن يرشد الناس الى دينهم ويوجههم في الدفاع عن حقوقهم وكان يسند اليه جانب من الاوقاف يصرفه باجتهاده في المشاريع الاسلامية .

وعندما ازدهرت الدراسة المركزية بفاس ومراكش ومكناس، بنيت عدة مدارس ملحقة بالمساجد لايواء الطلبة تحتوى على مرافق للسكنى والدراسة والمطالعة والصلاة مع اعطيات وارغفة للتشجيع على طلب العلم ومرتببات فى كل شهر ، ولم يكن ابن مرزوق مصيبا حين زعم ان ابا يوسف يعقوب المرينى أول من اسس بفاس (مدرسة الحلفاويين) سنة 670 ، اذ الواقع ان بناء المدارس كان معروفا قبل هذا الوقت بكثير وان كان يظهر انه اعتمد على ما ذكره المؤرخون من ان المفضل العذرى صاحب الشرطة والحسبة هو أول من سن بناء المدارس وعلى يديه بنى يعقوب المرينى المدرسة المذكورة . وذكر مؤلف القرطاس ان أول مدرسة عرفت بفاس هى مدرسة المرابطين ، بناها واجاج بن زلو اللمطى .

وقد ادى هذا التشجيع للحركة العلمية ان توفرت البلاد على عدد كبير من المدارس وتقدمت حركة التأليف والتدريس تقدما مدهشا رفع المغاربة الى مصاف رجال الفكر فى العالم الاسلامى ، وابانوا عن ذكائهم وتفننهم فى سائر الفنون والمعاريف من فلسفة وطب وعلوم لسانية ودينية كما شجعوا الدراسة فى بلادهم .

ومن المعروف ان يوسف بن تاشفين المرابطى اسس بفاس مدرسة (الصابرين) المسماة من بعد بمدرسة بومدين كما جاء فى كتاب « الاخوان ، فى شرفاء وزان » للمؤرخ القادرى ، وكان تأسيسها فى اوائل القرن الخامس الذى شاهد انتصارات يوسف بن تاشفين المرابطى .

ومن ابرز مدارس المغرب فى عهد المرابطين ، كلية القرويين بفاس ، ومدارس سبتة ، ويذكر ابن الابار عدة مدارس أخرى

كانت بطنجة واغمات وسجلماصة وتلمسان ومراكش ، وكانت هذه المدارس تأوى علم القيروان وثقافة الاندلس المشهورة ، حيث نبغ فيها اعلام كبار ، منهم فى علم الفقه والحديث ابو على كما نبغ منها القاضى عياض وابو الوليد ابن رشد مؤلف كتاب المقدمات الاوائل للمدونة والبيان والتحصيل الى آخر كتبه القيمة.

وكذلك آوت قرطبة عددا من الكتاب والادباء ترجم لمعظمهم ابو جعفر ابن ابراهيم المعافى المعروف بالفتح ابن خاقان ، وكان جلهم يحذقون لغات النصرى المجاورين ويترجمون عنهم فتم النقل والترجمة من الحضارة المسيحية واللاتينية الى اللغة العربية .

كما اشتهر فى ميدان الشعر العربى فحول القريض كابراهيم بن خفاجة الذى تغنى بأمجاد المرابطين فى قصائده وظهر فى ميدان الشعر العامى المعبر عنه بالزجل ابن قزمان المشهور بأغانيه الزجلية كما ذاع فى فن التوشيح اسم الشاعر الاعمى التطيلى ، وابو بكر ابن الابيض .

وتألق فى عالم الفلسفة نجم مالك بن وهيب وزير على بن يوسف ونجم الفيلسوف ابى بكر ابن باجة (ابن الصائغ) الذى مزج مذهب الشك اليونانى بالفلسفة الاسلامية .

أما الطب فقد اشتهر من بين رجاله أبو العلاء ابن زهر بن عبد الملك مؤلف كتاب الاقتصاد .. واذا كان جل هؤلاء الاعلام ممن درس بالاندلس ووفدوا على المغرب ، فان عبقريتهم عبت فى ربوعه ، وتفتحت الهاماتهم تحت سمائه ... بل ان كثيرا من علماء المغرب وادبائه استوطن الاندلس فى عصر المرابطيين والموحدين من بعد ، وكان حجة فى بابيه ، كزاوى بن مناد بن عطية الصنهاجى وخلوف بن خلف الله الصنهاجى قاضى غرناطة ،

وموسى بن حماد الصنهاجى وكعبد الملك ابن مروان اللامتونى ،
وابى شعيب ايوب بن سعيد الصنهاجى وابى محمد عبد الجليل
بن ويجلان كما فى (التشوف لابن الزيات) .

ويذكر الدكتور حسن احمد محمود ان امراء المرابطيين
اقبلوا على الثقافة كما اقبل عليها عامة المثلثين كعمر بن الامام
الصنهاجى أمير المرية ، وكالمنصور بن محمد بن الحاج داود
الصنهاجى اللامتونى ، وميمون بن ياسين الصنهاجى الذى رحل الى
مكة وحدث بالاندلس ، وكأبى بكر سير الصنهاجى ، وكتيممة
بنت يوسف الشاعر . ولعل دوزى كان مخطئا حين اتهم المرابطيين
(فى كتابه مباحث فى تاريخ الادب الاسبانى فى القرون الوسطى)
بالجمود والتعصب واعطاء السلطة التامة للفقهاء ، ذلك لان
المرابطيين شغلتهم فى أول امرهم فكرة الجهاد فلم يحفلوا بالفرن
والادب والطرب ، ولكن لم يلبثوا ان شجعوا الادب والعلوم بعد
استقرار النظام واستثبات الامن .

وقد نبغ فى هذا العصر اعلام كبار بفاس كمحمد ابن احمد
بن ابراهيم بن عيسى بن هشام من علماء أواخر القرن الخامس ،
وكان يلقى درسه بجامع القرويين وتوفى بها سنة 546 ، كما فى
الذيل والتكملة لابن عبد الملك (الجزء الرابع) ، ومنهم احمد
بن عبد الصمد ابن عبيدة القرطبى المولود سنة 519 والمتوفى
سنة 582 (كما فى الديباج المذهب ص 1) كان من اعلام الدراسة
بالقرويين ، ومنهم محمد ابن قاسم التميمى ، مؤلف البرهان فى
ذكر حنين النفوس الى الاحبة والاطوان ، واللمحة فى ازواج النبی
واولاده ، وتوفى سنة 593 . ومنهم محمد بن حكم الجدامى عالم
واديب وله شرح على الايضاح مات سنة 538 . ومنهم خير الله
الاندلسى ، الفقيه الذى أدخل فقه مالك الى فاس (من رجال

القرن الرابع) . ومنهم ابوبكر خلف المواق قاضى فاس مؤلف كتاب المكايل والاوزان مات سنة 599 ، ومنهم أبو حسن على الكتانى محدث وحافظ وتلميذ للغزالي ولد سنة 476 ومات سنة 569 . ومنهم المقدمات الاوائل للمدونة والبيان والتحصيل الى 569 . ومنهم أبو خزر الاوربى حافظ وفقه ومدرس مات سنة 572 ، ومنهم ابن الرمانه محمد بن على القلعى قاضى فاس كان يميل الى المذهب الشيعى ولد سنة 478 وتوفى سنة 567 . ومنهم الفيلسوف ابن الصائغ الذى شبهه ابو حيان بابن سينا مات سنة 533 . ومنهم يوسف بن عبد الصمد بن يوسف بن على كان مؤرخا واصوليا ودرس بالقرويين سنة 613 بفاس ، كما فى الجذوة (والذخيرة السنية ص 83) .

وشاهدت فاس فى القرن الرابع الهجرى نشاطا ثقافيا وعلميا وكانت زيادة على الدراسة الاسلامية مشهورة بالدراسة العلمية ، فقد جاء فى كتاب طب الانسان بالمغرب (لجورج ألو) ان فى القرن الرابع الهجرى كانت بفاس مدرسة طبية زاهرة .

التعليم :

أما عن (التعليم الاولى) فقد ترك لنا القابسى المتوفى سنة 403 هـ . دراسة مهمة هى رسالته المفصلة لاحوال المعلمين والمتعلمين التى تعتبر وثيقة فريدة من نوعها ، وتوضح لنا المناهج والاساليب التعليمية فى افريقيا ، وقد اخرجها الدكتور الاهوانى (سنة 1955) فى كتابه عن (التربية فى الاسلام) ومنها نعرف حالة الثقافة الاسلامية ومدى ازدهارها فى عهد القابسى ، أول من اعتنى جديا بدراسة موضوع بيداغوجى فى الاسلام ، فابن مسكويه والغزالي وابن العربى وابن خلدون الذين يعتبرون من رواد البيداغوجية العربية الاسلامية متأخرون عن القابسى

ولم يسبقه الا محمد بن سحنون المتوفى سنة 256 برسالتة الصغيرة عن آداب المعلمين التي اعتمدها القابسي ونقل فصولها في كتابه ، والمهم ان القابسي افادنا كثيرا عن التعليم الاسلامى العربى فى عصره ، وما قبله ، لأن ما ذكره كان امتدادا لما سبقه ، ونستنتج من هذه الرسالة ان الطفل كان يذهب الى الكتاب فى السابعة من عمره غالبا بعد أن يكون تعلم قايلا عن ابيه فى المنزل، ويرى الدكتور الاهوانى ان السن لم تكن معينة بدقة بدليل قول بدليل قول ابن العربى فى احكام القرآن : (وللقوم فى التعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى الكتاب) ، وتنتهى حياة الطفل فى الكتاب اذا بلغ سن الاحتلام فى الغالب ، ثم تبدىء فى حلقات المسجد كما ذكر احمد أمين فى ضحى الاسلام، او الى مدارس منظمة ، وجاء فى كتاب التربية عند العرب لخاليل طوطوح ان التعليم عند العرب يمر فى المراحل الآتية : المكتب ، والجامع ، ومجلس العلم والادب ، والمدرسة أو الكلية ..

ولخص الدكتور الاهوانى رسالة القابسي التى تصور حالة التعليم الاولى فى القرن الرابع الهجرى ، حيث كان الصبى يبعث الى الكتاب اذا عقل وكانت هذه الكتاتيب منتشرة فى انحاء المدن والقرى ، وقد تكون جوار المساجد حيث يقوم عليها معلم يستأجر مكانا للتعليم ، وقد يشترك معلم أو أكثر فى تعليم الكتاب حيث يعلمون الصبيان مقابل اجر زهيد اسبوعيا أو شهريا أو سنويا ولا تخضع هذه الكتاتيب لاية سلطة ادارية أو تفتيشية .

ويذهب الصبى مبكرا الى الكتاب فيبدأ بحفظ القرآن ثم يتعلم الكتابة ثم يعود الى المنزل ويرجع بعد الظهر ، ويظل به الى آخر النهار ويختلف الاطفال الى الكتاب طيلة ايام الاسبوع الا يوم الخميس ظهرا ، وسحابة يوم الجمعة ، وربما قرأوا يوم

الجمعة مساء في بعض المدن ليطوفوا مع الفقيه على المساجد
لقراءة القرآن ...

ويتعلم الصبي اثناء الدراسة القرآن والكتابة والنحو
والعربية ، وقد يتعلم الحساب والشعر واخبار العرب اذا تطوع
المعلم بذلك ، على ان اهم ما يدرس هو حفظ القرآن على الطريقة
الفردية أو الجماعية ، ولكل صبي لوح يكتب فيه ما يحفظه
ويعاقب الصبيان الكسالى أو المتلاعبون بالانصح والتهديد ،
والضرب ، وتنتهى مرحلة الحفظ بالختمة (الحدقة) في بعض
المدن ، وعندئذ اما ان ينتقل عن التعاليم ويتجه الى الصناعة ،
اما ان ينصرف الى المسجد والمدرسة للتبحر في التعلم .

والقابسى انما يصف حالة التعليم في عصره فيقر المستحسن
منها على أساس شرعى وينهى على العوائد المذمومة ويبين مدى
عدم جدواها ، والجديد في رأى القابسى هو دعوته الى التعليم
الالزامى حسب التوجيه الاسلامى حيث اوجب تعليم الصبى
من مال ابيه أو وصيه أو احد اقاربه أو من مال المحسين .

ولعل الصورة التى قدمها القابسى عن التعليم في القرن
الرابع لم تختلف كثيرا عما بعدها من القرون ، اللهم الا في مظاهر
شكلية حيث ثم تطويرها نسبيا ، واصبح المحتسب سلطان عليها
وواقفت الاوقاف على بعضها .

وهذه الصورة التى يعرضها القابسى هي المتبعة في شمال
افريقيا مع تغيير محلى تحدث عنه ابن خلدون باسهاب ، وكان
هناك من رجال التربية من لا يرى ذلك ، وينقل مؤلف الديباج في
ترجمة القاضى ابى الوليد الباجى عن ابن العربى قوله في وصف
التعاليم بالاندلس .

« فكان الصبى عندهم اذا عقل ، فان سلكوا به امثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فاذا حذقه نقلوه الى الادب ، فاذا نهض منه حفظوه الموطأ ، فاذا اتقنه نقله الى الدونة ، وفي كتاب الاحكام يصف حالة التعليم في شرق فيرى رأى المشاركة في الاخذ بعدم حفظ القرآن حيث انهم . اى المشاركة (يؤخرون حفظه ويبدأون باللغة والحديث ، فربما كان الرجل اماما وهو لا يحفظه وذلك لتعلموا ان المقصود حدوده لا حروفه » .

على ان ابن العربى كان منتقدا لطرق التعليم في عصره ، كابن التوام الذى نادى بتعليم الحساب قبل الكتاب والواقع ان المشاركة كالمغاربة كانوا يبدأون تعليمهم بحفظ القرآن كما ذكر ابن حزم فى الملل والنحل ونقل ذلك الدكتور الاهوانى فى كتابه عن القابسى .

وكان التعليم الاول منتشرا فى انحاء المغرب كله ، وكاد ان يكون الزاميا عملا بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وكما كان الكتاب يأوى الاطفال ، كان يأوى الطفلات ما دمن صغيرات ، وقال سحنون : « اكره للمعلم ان يعلم الجوارى ويخلطنهن مع الغلمان لان ذلك فساد لهن » ، وكان من المعلم من يعلم النساء على حدة ، وجاء فى ترتيب المدارك للقاضى عياض ان : « من سيرة عيسى ابن مسكين فى غير مدة قضائه انه كان اذا اصبح قرأ حزبا من القرآن ثم جلس للطلبة الى العصر ، فاذا كان القابسى يرى » (ان سلامتها من تعلم الخط انجى لها) ، واهتم رجال التربية الاسلامية بالمعلم كثيرا ، فاشتراطوا فيه شروطا كثيرة من حفظ للقرآن وسلوك مستقيم حتى يكون نموذجا خليقا بتربية جيل مهذب .

أما منهاج الكتاب القرآنى فكان مستمدا من التيارات

الفكرية السائدة في مجتمعه ، وكانت هذه التيارات دينية خالصة، تهدف الى السعادة الاخرية من طريق السلوك المستقيم في الدنيا ... وذكر القابسي القيرواني منهاج التعليم في عصره ، وهو ينقسم الى قسمين : الى مواد اجبارية كالقرآن والصلاة والدعاء وبعض النحو والعربية والقرآن والكتابة ، والى منهاج اختياري كالحساب والشعر وايام العرب والنحو ، والعربية ، وكان هذا المنهاج هو المتبع في القرن الثالث كما في آداب المعلمين لمحمد بن سحنون ، وكان الاسلوب التعليمي يركز على استظهار القرآن عن ظهر قلب أو ما يعرف اليوم بالتعليم اللفظي ، وهو يعتمد على الحافظة فقط ، فكان الطفل يستظهر القرآن ضبطا وشكلا وحفظا أو احيانا اذ تخصص في حفظ القرآن يتلوه بالروايات السبع .

وكان المعلم يتقاضى على التعليم اجرا حدده عاماء التربية القدماء ، ويذكر ، القابسي (أن الاجر ضروري لانه لو اعتمد على التطوع لضاع كثير من الصبيان ، ولما تعلم القرآن كثير من الناس فتكون هي الضرورة القائدة الى السقوط في فقد القرآن من الصدور) والداعية التي تثبت اطفال المسلمين على الجهاد .

ولدينا وثيقة اخرى على العلوم المتداولة في عصر المرابطين بالمغرب والاندلس كتبها ابن حزم في رسالته مراتب العاوم ، ففي هذه الوثيقة محاولة لحصر العلوم وذكر امهات بعضها ...

بدا ابن حزم مراتب العاوم ، فذكر ان من ذلك علوم درس رسمها كعلم السحر والطلاسم وعلم تأليف الموسيقى واللحون ، وعلم الكيمياء .

أما العلوم التي تكتب فتكون بالتلقين عندما يفهمون ما يحصلون به فيعلمون أولا الخط وتأليف الحروف والهجاء ،

ثم يعلم القرآن فيحفظ لانه فيه تدريب وتمارين اللسان على التلاوة وتربية الفضائل ثم بعدها يعلم النحو واللغة وذلك بكتاب (الواضح) للزبيدي و (الموجز) لابى السراج المتوفى سنة 316 ، وابن حزم ضد التعمق في دراسة النحو الا للمختصين .. وتدرس اللغة (بالغريب لمؤلفه ابى عبيد) و (مختصر العين) للزبيدي فاذا توغل في دراستها فكتاب (خلق الانسان) لثابت و (الفرق) له أيضا و (المذكر والمؤنث) لابن الانباري ، و (الممدود والمقصود والمهموز) لابى على القالى ، و (النبات) لابى حنيفة ، ويحفظ شعر الحكم ، كقصائد حسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وصالح بن عبد القدوس ، وينهى ابن حزم عن الاكثار من رواية الشعر ، وبعد تعليم النحو واللغة ينتقل الى علم العدد فيحكم التلميذ الضرب والقسمة والجمع والطرح ، ثم يتعلم المساحة والارثماطى ويدرس بعد هذا الكتاب اقليدس ، ويطالع المجسطى ، وينصح ابن حزم من الاستغال بأحكام النجوم ثم يدرس علم المنطق ، وعلم الاجناس ، والانواع ، والاسماء المفردة والقضايا والمقدمات والقرائن والبراهين ، ويدرس الطبيعيات وعوارض الجو ، وتركيب العناصر في الحيوان والنباتات والمعادن ، ويدرس التشريح ثم اخبار الامم السالفة والخالفة والتواريخ القديمة والحديثة ، وهذه العلوم اذا درست باتقان فانما تقضى الى طلب البرهان من العلوم الضرورية لمعرفة التوحيد والاسلام ، وبعد توجيهات حزمية لطالب العلم ينتقل الى دراسة علم شريعة الاسلام فيقسمه الى أربعة : علم القرآن وعلم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم الكلام .

فعلم القرآن ينقسم الى معرفة القرآن ومعانيه ، وعلم الحديث ينقسم الى معرفة متنه ، ومعرفة روايته ، وعلم الفقه ينقسم الى احكام القرآن ، واحكام الحديث ، وما اجمع المسلمون

عليه ، وما اختلفوا فيه ومعرفة وجوه الدلالة وما صح منها وما لا يصح ، وعلم الكلام ينقسم الى معرفة مقالاتهم ومعرفة حججهم ، وما يصح منها بالبرهان وما لا يصح ، وعلم النحو ينقسم الى مسموعه القديم وعلاؤه المدثه ، وعلم اللغة مسموع كله ، وعلم الاخبار ينقسم الى مراتب ، أما علم الممالك أو علم السنين ، وأما علم البلاد وأما علم الطبقات ، وعلم النسب جزء من علم الخبر ، وعلم النجوم يشمل الهيئة والتعديل وعلم الطب ينقسم الى طب النفوس وطب الاجسام ، وهو اما عمل باليد أو يقوى الادوية وينقسم الطب كذلك الى قسمين : حفظ الصحة أو معاناة المرض ، وعلم الشعر ينقسم الى روايته ومعانيه ومحاسنه واقسامه ووزنه ونظمه . وهناك علمان يكونان نتيجة العلوم اذا اجتمعت أو من نتيجة اجتماع علمين منها فصاعدا وهما البلاغة وعلم العبارة .

ثم يزيد ابن حزم : ان كل ما علم فهو علم ويدخل في ذلك النجارة والخياطة والحياسة وتدبير السفن وفلاحة الارض وتدبير الشجر والبناء وغير ذلك .

ويلاحظ ابن حزم ان هذه العلوم يتعلق بعضها ببعض هذا ومن الجدير بالذكر ان تكون تعاليم ابن حزم وآرائه الاصلاحية ودعوته للتحرر من الجمود الفقهي تجد آذانا مصغية في المغرب ويتبنى المهدي ابن تومرت الكثير منها فيذيعه وينشره في تعاليمه وآرائه ، ويلمس في كتاب اعز ما يطلب هذا الاثر من تفكير العلامة ابن حزم ، بل كان جل مفكرى الموحدين من اتباع مذهب ابن حزم .

وانتقلت الدراسة الادبية والفقهية والعلمية التي ازدهرت في طلبا مساعدة العلماء لابرار مقاصدهما فساعدوهما على تدوين

الفقه كاملا وحرراه طبق ما يوافق بلادهم ولذاك نرى احكام القوانين والقضاء لا تزال رديئة وسيئة في العدو الشمالية ... ويذكر بعض المؤرخين المغاربة بعد نقله لهذا النص ان (هربرت) هذا هو (البابا سلفستر الثانى) الذى يقال انه درس بالقرويين غير أنى أشك في هذا الزعم ، لأن (سلفستر) مشهور بأنه ادخل (الصفر) في العدد ولم يدخل (القانون) الفقهى ، وربما كان سلفستر هو الاسقف جريبير Gerbet d'Auillac الذى تحدث عنه (كريستوفيتش) بأنه وصل الى القرويين بفاس ايام كانت اوربا تعيش في عصورها الوسطى ، والحقيقة ان الازدهار الثقافى في المغرب الى ربوع اوربا عن طريق الاندلس مما اظن مؤرخو الاندلس في ذكره ، ويجدر ان ننقل مانقله ابو الوليد محمد بن عبد الله بن خيره في تعليقاته على (النهاية شرح الهداية) في أن طلبة العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيرا بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصا في المائتين الرابعة والخامسة من الهجرة ... وهؤلاء (هربرت) و (البرت) اللذان المغرب طيلة العصر المرابطى مهد لنشاط فكرى كبير في المغرب عم العاصمتين (فاس) في الشمال (مراكش) في الجنوب وانتهى الى أوربا ..

من اعلام الفكر في عصر المرابطين المؤسسين لجامعة القرويين :

ومن اعلام الفكريين عبد الله ابن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش الكناسى كان يأخذ العلم بفاس لما هاجمها الموحدون اواخر العهد المرابطى ، وممن رحل لفاس — آنذاك من تلمسان — حسن بن ابراهيم بن عبد الله ابن ابى سهل التلمسانى المعروف بابن زكون والمتوفى عام 553 — 1158 : كتب بها عن عيسى بن

يوسف بن الملقوم الفاسي المتوفى عام 543 -

ومنهم عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الرحمن ابن صقبر الانصارى البلبسى ثم المرى المتوفى بمراكش عام 523 - 1128 ومنهم عبد الله بن يوسف بن غالب الانصارى البلبسى ، ومنهم ابراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الاوسى المالقي المتوفى عام 611 - 1214 روى بفاس عن ابي الحسن بن جبير وابى الحسن على بن اسماعيل ابن حرزهم الفاسي المتوفى عام 559 - 1163 قال في الجذوة حدث عنهما بالموطأ .

واصبح جامع القرويين جامعة علمية تشد الرحلة اليه ويدل بذلك ما جاء في ترجمة ابي حرزهم الفاسي الآنف الذكر : انه كان يقصد من البلدان للقراءة عليه ، ودليل آخر على مركز فاس العلمى بالمغرب حينئذ (في صدر المائة الخامسة) ما ذكره احد علماء الاندلس الواردين على المغرب وهو ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابراهيم بن عيسى بن هشام بن جامع الانصارى الخزرجى الجياني المعروف بالبغدادي لطول سكناه بها ، (والذي وصفه في (الذيل والتكملة) بأنه كان فقيها ، حافظا ، مشاورا ، عارفا بأصول الفقه) من أنه لما قفل من المشرق في حدود سنة 515 : نزل أول قدومه مدينة فاس وقعد بغربى جامع القرويين منها يدرس الفقه مدة ، ثم تحول الى بلده جيان الى عام 539 هـ فخرج من بلده وقصد مدينة فاس ونزلها عام 544 - وأقام بها يدرس الفقه وأصوله ومسائل الخلاف ، ولم يزل بها مقبلا على نشر العلم وافادته الى أن توفى يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة عام 546 .

أما المساجد المعروفة بالدراسة العلمية في هذا العصر فهي المسجد المنسوب لابن حنين وكان يقرئ به أبو الحسن على بن

أحمد بن أبى بكر الكتانى القرطبى المعروف بابن حنين ومسجد زقاق الماء بعدوة القرويين ، وقد كان يدرس فيه أبوبكر بن عثمان بن مالك ، من شيوخ أبى الحسن ابن حرزهم ومسجد الحوراء الذى تصدر للاقراء به أبوبكر محمد بن محمد بن عبد الله بن مغاور اللخمى الاشبيللى الملتوفى سنة 503 الموافق 1109 ، ومسجد طريانة ، وهو الذى كان المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية نزل به مدة اقامته بفاس فى السنين الاولى لدعوته وجامع فاس الذى كان يلقي فيه العلم الشيخ ابو مدين . وقد ورد ذكر هذا المركز الدراسى فى (التشوف) و (أنس الفقير) كما جاء فى عبارة التشوف فى الحكاية عن أبى مدين : (فقيل لى ان رأيت ان تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس ، فتوجهت اليها ، ولزمت جامعها وتعلمت الوضوء والصلاة ، وكنت أجلس الى طلق الفقهاء والمذكرين ، فلا أثبت على شىء من كلامهم الى ان جلست الى شيخ ثبت كلامه فى قلبى ، فسألت من هو ؟ فقيل لى : أبو الحسن ابن حرزهم .

ولا يمكن ان نفل فى هذا العصر ما اسداه المغاربة والاندلسيون الى اللغة العربية ، حيث عملوا على تطوير النحو وبرزت تآليف فى هذا الفن آراء مستقلة . وكان من أشهر المؤلفين فى هذا الميدان ابو الحجاج يوسف بن عيسى المتوفى سنة 475 الذى شرح كتاب سيبويه ، وعبد الله بن محمد البطليوسى المتوفى سنة 521 الذى شرح جمل الزجاجى فى كتاب الحسل فى شرح ابيات الجمل ، واصلاح الخلل الواقع فى الجمل ، والمسائل المنشورة فى النحو وقواعده ، كما ألف ابن سيده الضرير المتوفى سنة 458 كتاب العالم والمتعلم فى النحو ، وشرح كتاب الاخضر فى النحو ايضا ، والف ابن هشام كتابا فى الرد على الزبيدى وابن المكى فيما زعماه من لحن العامة ، واقتفى اثره ابن هانىء فألف

ابن هانيء فآلف كتاب (ارشاد الضوال) فى لحن العامة .

الحركة الصوفية :

لقد كانت حركة التصوف فى الشرق تتجاوب اصداؤها فى المغرب والاندلس وكان الفقهاء ينكرون هذه البدعة فيتصدون لمهاجمتها ورد المبتدعين ، وقد كان لعلى بن يوسف بن تاشفين موقف من الصوفية البارزين فى عصره من امثال ابنى العباس ابن العريف وابن الحكم بن برجان ، ويذكر بشكوال ان الامير المرابطى امر بأشخاص محمد بن الحسين الميروقى من غرناطة وابن العريف من المرية وابن برجان من اشبيلية الى مراكش لتراقب نزعتهم ، وما لبث ابن العريف ان قتل مسموما سنة 536 بمؤامرة قاضى المرية الاسود الذى ضايقته انتقادات ابن العريف ، فطارده من الاندلس وتتبعه بمراكش .. ولكن الامير انتقم لابن العريف بنفى القاضى ابن الاسود الى (سوس الاقصى) وسمه أيضا ...

وكان الامير المرابطى على بن يوسف يتضايق من دعاوى المتصوفة ، لذلك قرر سجن المتصوف الاندلسى اللخمى بمراكش ، حيث كتب هذا بسجنه مجموعا فى التصوف ولا بدع ان نرى على بن يوسف يأمر باحراق كتب الغزالى (1) ، ولذلك تصدى المتصوفة لحربه ، وكان منهم احمد بن قسى الذى جمع انصاره بشلب ودعا الى خلع المثلثين وظاهره بعض الافرنج على هذه الحرب ... ولم يمنع هذا كله ان يكون رجال المرابطين من الصلحاء ... فيوسف بن تاشفين كان من الزهاد ، والامير ابو يوسف لما جاوز الى الاندلس كان بركبه جماعة من صلحاء المغرب ، كما جاء فى

(1) للقاضى عياض : نقد علمى لكتاب الاحياء للغزالى (الشفاء ص 267 ج 2) .

(الذخيرة السنية ص 29) ، وبنى بها عدة زوايا حتى وصفه ابن الخطيب في اللوحة البدرية بأنه اشبه بالشيخ منه بالملك .

ووالى المرابطون بناء الربط في القرن الخامس والسادس ، وأهم هذا الربط أو معقل الصوفية رباط اولاد امغار في تيط ، ورباط مولاي بوشعيب بأزمور ، ورباط محمد صالح بأسفى ورباط شاكر ، ورباط تيملل ، ورباط اتسمطت ، ورباط ماسة (كما في التشوف) ، وكانت هذه الربط تسمى بالزاوية في بعض المدن كزاوية ابي النور المشتركى وزاوية تلميذه ابي شعيب ايوب بن سعيد ، وزاوية صالح بن حرزهم تلميذ الغزالي ، وقد ناهض بعض العلماء السنيين الحركة الصوفية واتهموا اصحابها بالنفاق ومن هؤلاء سليمان الدارنى .

وأهم مرجع للتصوف في هذا العصر ، فهرست القاضى عياض وهى فهرست علمية صوفية ، فيها ذكر لمن لقيهم من علماء وصلحاء فاس وسبتة وهى لا تختاف كثيرا عن المدارك الذى به فصل مهم عن دقائق الوعاظ ومناهج العلماء والزهاد ، كما الف عبد الكريم الفندلاوى كتابا فى الموضوع (المستفاد فى مناقب العباد) .

العمران فى هذا العصر :

ورث المرابطون ملك المغرب والاندلس وبنوا عاصمتهم الجديدة على باب الصحراء وسموها (مراكش) ، وهكذا تأسست هذه الدولة أولا فى المغرب وانتقلت الى اسبانيا ، فعمت الصلات الثقافية اقصى البلاد المغربية واطراف البلاد الاندلسية كما لا حظ مارسى (فى كتاب الفن الاسلامى ج 1 ص 301) .

والواقع ان المغرب قد استفاد من تلاحمه مع الاندلس ادبيا

وعلميا وفنيا ، فقد ورد عليه صناع قرطبيون لبناء مؤسسات بفاس كما زهرة الجزنائي ، ولبناء قنطرة تانسفت بمراكش كما تردد عليه المهندسون والعلماء والفنانون فضلا عن الشعراء والكتاب .

وشاهد العصر المرابطي عهدا حافلا بالمآثر الفنية الرائعة كمسجد جزائر بنى مزغنة ومدرسة اليوسفية بمراكش وقبة البردعين بها وكتوسيعات جامعة القرويين بفاس والفن الجميل الذي كان يزين المحراب والاسكوب المقابل له الى العنزة ، وكبناء جامع تلمسان . كما بنوا قلاعاً متعددة كقلعة بنى تودة بفاس .

كان المرابطون في أول أمرهم لا يحصنون المدن بالاسوار ويرون في ذلك ضعفا عن الدفاع ثم لم يابثوا ان اخذوا ببنائها بعد اتصالهم بالاندلس وادراكهم لفائدة ذلك في الدفاع عن المدن .

ومن مآثرهم الخطارات الممدودة في باطن الارض في الجهات الصحراوية كمراكش مثلا وحفر الآبار ونقل مياهها بأسلوب حيلى الى حدائق المسرة ، وهى منقولة عن (الفكاترات) المعروفة في الصحراء .

وترك المرابطون آثارا عمرانية شاهدة على ما بذلوا من جهد اذ استخدموا الصخر المرصوص الكبير في بنائهم ليظل بناؤهم قويا يقاوم الانهيار ، ومن آثارهم قصر الامة (1) بمراكش الذى تحدث عنه بعض المؤرخين ولم تكشف آثاره الى اليوم وقاعة السفراء بقرطبة ودار الحجر التى أسسها على بن يوسف وقصر تكرارت وجزء من حصن الودايا والزيادات في بناء القرويين وبناء (المقصورات ، في المساجد التى أخذها عنه الموحدون) .

(1) الاستبصار

ومن أثارهم المشهورة مساجد الكتبية القديم ، والمئارة ،
وباب الرواح ، ومارستان مراکش قبل المارستان الموحدى .

ورغم تنقيص دوزى الهولاندى ، واشباح الالمانى
وبروفنصال الفرنسى من اعمال المباطين بل رغم ادعاءات
الشقندى صاحب المعتمد بن عباد فى رسالته للتنقيص من امرهم ،
فان المرابطين كانوا من مشيدى الحضارة المغربية كما يؤكد
ذلك جوستاف ليون فى رده على دوزى . وكما تشهد على ذلك .

المـدن (مراكش) :

أسس المرابطون مدينة مراكش 454 هـ 1072 ويرجع اصل
التسمية للآبار التى كانت توجد فى موقعها القديم ... وكانت
بجوارها آثار قديمة لمدينة (بوكاتوم هيو ميروم) الرومانية
حسب رأى بعض المؤرخين . ومراكش اختطها يوسف بن تاشفين
وبنى بها مسجده وبجانبه قصبته فاصبحت نواة للعمران ثم
زاد فى توسيعها ولده واحيطت بسور منيع ساعدها على الامن
والاستقرار ، حيث أخذت تقتبل وفود السكان من الجنوب
والنواحى المجاورة ، ومن الاندلس بصفة خاصة . كما ظلت قاعدة
للعلماء والفقهاء حيث تتطلق منها حملات المرابطين ضد البدع ،
كما ظلت ثغر الاطلس الكبير المتحسس لأصداء الصحراء (1) ...
واعتبرت مراكش مجالا حيويا للصناعة الاندلسية ، حتى اذا
سقطت الاندلس أمام الهجوم الصليبي تدهورت ثقافيا واقتصاديا
ولكنها ظلت الى عصر بنى مرين عاصمة كبرى ، وقال عنها ليون
الافريقى انها من اعظم مدن العالم فى عصره . ويحيط بمدينة
مراكش سور مبنى بالطابية ، ولها سبعة أبواب (والطابية وهى

(1) اندرى جوليان تاريخ افريقيا الشمالية ص 31 ترجمة محمد المزالى
البشير بن سلامة .

التراب المخلوط بالتبن ، ومنها الطابية المركبة من الجير والصلصال، وصغير الحصى) .. ومن أهم مساجدها (الكتبية) الذي اشرف على بنائها المهندس الاندلسي (جبير) ويذكر الوزان الفاسي انه كان بجانب الكتبية سوق لبيع الكتب به مائتا دكان وكانت بمراكش مصانع للسكر ومعامل لتنظيف القطن ومخازن للحبوب ، وبها عشرات الحمامات وسجون للمتمردين والمجرمين ، وكان السجن عبارة عن مكان للإقامة تختلف الحياة فيه حسب وضعية السجين ودرجة اجرامه ، فقد يكون في تقاف ، وقد يشد بالسلاسل أو الاطواق ، ومن العادة ان ينفق عن السجناء ذووهم .

القوى الحربية :

أمتاز الجنود المرابطون بقوة جيشهم ، وحسن تنظيمه ، وكانت فرق الجيش تتألف من اللثونيين أو الجداليين وباقي القبائل البربرية والعربية بعد قبائلهم ، ولكل فرقة علمها وبندها الخاص واستعانوا بفرق سودانية واستعملوا الصقليين بقلّة . وقد اتخذوا الابل في الحروب وارهبوا بها الافرنج ، ولم يلبسوا الا أسلحة خفيفة ، وهي درق اللط واستعملوا القناة والطوال والمزاريق المسنونة كما استخدموا الطبول .. وكانت امارّة الجيش تخضع لما كان مألوفاً من قبلهم من اسنادها الى القبيلة الغالبة .. وقد شيد المرابطون سلسلة من الربط والحصون في المغرب كله تمكينا لقوتهم الحربية .

خطوط المواصلات :

اعتمد المرابطون شبكة مواصلات تربط اجزاء المغرب ، وهي :

أولا — من فاس الى مليلية عن طريق تازة .

ثانيا — من فاس الى باديس : ذكر دوكاسترى أنها طريق الواردات
الاوربية طوال ثلاثة قرون وتمتد هذه الطريق عن
تافراوت .

تطور الفن المراتى فى القرويين :

كشف فى القرويين عن الفن الاندلسى الذى كان يزين
القرويين من جص مقربص ونقش بورقة الذهب ، واللازورد ،
والاصبغة المتعددة من أزرق وأحمر ومغرة صفراء من مح الببيض
الذهبى ، وأشكال الزجاج المبلط بدهان كامد للتخفيف من حدة
انعكاسات الاشعاع ، كما كانت أشكال الزجاج فى
الشماسات التى بجوانب القبلة ، ويذكر ابن أبى زرع (ص 88
ج 1) أن الفقهاء والاشياخ خشوا أن ينتقد الموحدون هذا الفن
فيحطموه فنصب (الحمامون) على النقش والتذهيب الذى فوق
المحراب وحوله بالكاغد ، ثم لبسوا عليه بالجص وطلأ بالبياض .

وجهر المسجد (بمستودعات) لاموال الجامع وأمانات
الناس ، وحصنت بخشب الارز ، وصفحت بصفائح حديدية ،
و (بدار للوضوء) خمسة عشر بيتا مع طاق فى سقف كل
بيت للانارة وأنبوب نحاسى لصب الماء فى نفير محفور من حجر .

وفى وسط الصحن صنع عامل سجلامسى بيلة حمراء ذات
ثقوب نحاسية مموهة بالذهب ، وأقيمت العنزة سنة 688 هـ .
وهى محراب خشبى فى الصحن تجلت فيها آيات الفن من دقة
الخرط والنقش ، كما صنعت السقاية المنمقة بالجص والحجر
المنجور وأنواع الصبغة وبجانب المحراب مقصورة بابها من خشب
الارز .

وبمسجد القرويين 300 سارية ، عشرة منها من مرمر

مجزع ملون وثلاث تحت الثريا الكبرى ، ونصبت بدقة بحيث ينظر منها جميع أبواب الجامع ، وبه 21 بلاطا و 130 ثريا مختلفة الالوان والصناعات والمصادر .

وهكذا زخر المغرب والاندلس بروائع الفن المزدوج الذي بلغت ذروته في القرن الخامس الهجري ، فيه رقة ورشاقة الفن الاندلسي وهيبة الدولة الصحراوية .. وقد جاز دوزي في حكمه على الفن المرابطي بانه حطم معالم الفن الاندلسي ... ورد عليه (كديرا) و (طيراس) .

الموسيقى :

استخدم المرابطون الطبول في زحفهم متأثرين بالتقايد السودانية ، (يذكر دوزي) أن طبول المرابطين كانت اذا ضربت اهتزت لها الارض وتجاوزت الافاق ، وتحدث عنها أهل الاندلس لانهم لم يكونوا قد اعتادوا أن يروا في جيوشهم استخدام مثل هذه العادة ، (أنظر ص 383 قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود) .

أما الموسيقى أو ما يعبر عنه (بالآلة) فقد كانت ذاتعة بسائر الامصار المغربية كما يستفاد من محاولات المهدي بن تومرت للقضاء على اللهو وتكسير آلات الطرب المعروضة في الدكاكين ، واشتهرت آلات كثيرة للطرب (كقوال) و « اليرا » و (أبو قرون) كما في رسالة الشنقدي . ومن أشهر المغنيين حسن بن عمر المغني السبتي الذي كان قوالا كما في (الاعلام) ، وفي رسالة الشنقدي انتقاد للطرب المغربي والموسيقى المغربية ، ونعرف من خلالها آلات الطرب المعروفة في المغرب وآلاتها

المعروفة بالاندلس ، الا أنه لا يعول على احكامه نظرا لانه كان همه أن يحط من قيمة المغاربة .

الاقتصاد المرباطى :

أصل المثلثين من قبائل الصحراء التى لم تكن تعرف طلاوة الحضر ، وانما كانت تهتم بتربية الانعام والمواشى والابل .. ولهذا فقد كانت دولة متقشفة كما تشهد بذلك حياة أمرائها الذين كانوا يعيشون حياة الزهد والتقشف

وقد بدأ المرباطون عصرهم بتطهير بيت المال من الضرائب غير الشرعية فاكتمى عبد الله بن ياسين بالزكوات والاعشار وأسقط كل ما عدا ذلك من جبايات ومغارم وسار على خطته المرباطون من بعده . وعندما فتح المرباطون مدينة فاس عام 462 طوروا اقتصادها وبنوا الحمامات والفنادق والارحاء على الاودية . ولم يعرف المغاربة الا الارحاء الحجرية بينما ظهرت فى الاندلس الارحاء الهوائية والارحاء المتحركة على خشبات فوق سطح الماء ، وعمل المرباطون على التكامل بين الاقتصاد الاندلسى والاقتصاد المغربى . وقد طبع يوسف بن تاشفين نقودا ذهبية عثر على نوع منها بأغمات وهى مربعة الشكل مكتوب على الوجه الاول لا اله الا الله محمد رسول الله وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة .

وبدأت تجارة النخاسة نشاطها مستجلبة الربع الى العواصم الشرقية وبالأخص فى بغداد رغم انتقاد الفقهاء لها . ووجد التجار فى نشاط الاسطول المرباطى المتكون من نحو أربعمئة قطعة ونشاط الاسطول العربى فى الخليج والبحر الهندى ما يساعد الحركة التجارية على النمو ، ويلاحظ البكرى كيف استعيز عن استجلاب الصقالبة (وكلمة Esclave أصلها من كلمة سلاف) بالزنوج

وبالاحص في افريقيا الشمالية . ونشاط التجار العرب في خلق اقتصاد متبادل مع بلاد الشرق وبالاحص بعد استيطان الباطنية والزيدية وكذلك بالقرامطة الهلالين وبنو سليم الذين وفد على المغرب مائتا ألف منهم حيث زج بهم الفاطميون الى افريقيا انتقاما من دولة الزبيريين ، وقد كان القرامطة يخربون الطرق ويمنعون على الناس أداء الحج ولكن وقف في وجههم بنو هذيل الذين جاءوا الى المغرب في عهد المنصور الموحدى بدعوة منه لاداء نفس الدور ضد القرامطة .

وكانت البصرة (في بلاد العراق) مدينة اقتصادية عظمى ، فأسس المغاربة قرب مدينة القصر الكبير مدينة (البصرة) أيضا ، وكانت مركزا تجاريا هاما لصنع الكتان . ثم هدمها أبو الفتوح سنة 368 هـ كما في البيان المغرب لابن عذارى . وكما ازدهرت البصرة في الشمال ازدهرت سجلماسة المؤسنة سنة 140 هـ في الجنوب بسبب صلتها بافريقيا السمراء . وقد لاحظ بن حوقل في المسالك والممالك (ص 70) أنه رأى صكا في حق رجل من أهل سجلماسة لرجل من أهلها بأربعين ألف دينار .. ويذكر ياقوت الحموى في المعجم أن مصانع نسجها بزت مصانع مصر .

واعتمد المرابطون في الوزن القيروط 197 اgrama والاقية 33 غراما (160 ملغرام والرطل يعادل 12 أوقية في ايطالية ومصر و 168 أوقية في السوس وفاس أو 090 غراما . والقنطار يساوى أزيد من 59 كيلو كذلك في مصر وايطاليا) .

وفي كيل المد النبوى يزن 860 غرام للوسق 24 مدا ، و 192 كيلو والصفحة 120 مدا . وفي المساحة الذراع ويساوى ما بين 24 و 32 أصبعا ، والقامة أربعة أذرع أو متر وستون ، والقصابة 192 أصبعا والبريد أحد عشر ميلا ونصف ميل .

وحدة المغرب :

استطاع المرابطون لأول مرة في تاريخ المغرب توحيد المناطق الساحلية المتأثرة بالحضارة الاندلسية مع المناطق الفلاحية بداخل البلاد ، ونشروا المعطيات الحضارية في المغرب كله ، بسهله وجبله ، وقد ضمت كل المؤثرات الحضارية والقروية لتتصهر في وحدة بين الشمال والجنوب ، بين الاندلس وافريقيا الشمالية وافريقيا الوسطى كالسينغال والنيجر وما حواليهما .

الفلاحة :

بدا العصر المثلثى بتدهور اقتصادي ، لان المثلثين انحدروا من قبائل صحراوية لا تعرف الفلاحة ، وانما تكتفى بتربية الانعام ، لذلك عانى المغرب سنة 415 أزمة اقتصادية 4نتيجة لعدة عوامل أهمها ما ذكرناه ، وثانيها تكس الاموال عند بعض الاقطاعيين كمسعود بن وانودين دون استثمارها على أن هذا لم يمنع بعض الاطراف المغربية من ازدهار اقتصادي كفاس وأغمات .

وبعد أن وصل المرابطون الى الاندلس ساهموا في نهضة الفلاحة وغرس الاشجار ، ويذكر (رينو) أن المغاربة استثمروا شجرة البلوط وما تزال في بروفانس غابة تسمى بغابة المغاربة . الاقتصادي ومعطيته ، واستعمل يوسف بن تاشفين الروم فبي جباية الضرائب (الجمارك) اقتداء بالاندلسيين . ولاحظ ابن خلدون ضالة حسابات بيت المال بعد وفاة يوسف بن تاشفين الذي لم يفرض مكوسا ولا خراجا وانما اكتفى بالرسوم الشرعية، ولم تتضج الميزانية الا في عهد الامير على المرابطي على أن الامن هيا للبلاد رخاء عاما والعملة قوة اقتنائية . وكانت العملة المغربية

تعتمد على الدينار والدرهم والاقوية ... ووضع الحكام المسلمون في الاندلس والمغرب قواعد دقيقة لتنظيم الصناعة والاشراف عليها ، وكان للدولة نوع في الاحتكار على نحو ما كان بمصر .

وتطورت الاساليب المصرفية وعمال البنوك ، واتسع استخدام الصكوك المغربية ، وعن ابن حوقل (المسالك ص 42 و 70) أن الحوالات المسحوبة على رجال المصارف من أهل الشرق والقابلة للصرف ببلاد المغرب قامت مقام النقود في السودان ، وتنقل رجال المال بين جدة وسجلماسة وطرابلس وبيروت ومصر ، وهذا دال على وحدة اقتصادية بين العالم الاسلامي

التجارة :

لقد كان توحيد المغرب والاندلس والسودان ذا أثر قوى في نشاط التجارة المغربية ، فأصبح في الامكان أن تنتقل القوافل من أقصى السودان الى أقصى الاندلس ، ثم الى العالم العربي شرقا والعالم الاوربي شمالا ، ونشطت مراكز جديدة في المغرب كسجلماسة ومدينة أودغشت (طراس - تاريخ المغرب ص 203) ، ومدينة نول المتوفرة على التبر الخالص ، ودار سكة النقود ، ولا ينافس هذه المدن في أقصى الشمال الا مدينة (مرسية) في الاندلس وأصبح الطريق التجارى ، هو طريق البحر الاطلسي والمتوسط نظرا لظهور بنى هلال في المغرب وما أثاروه من فزع وخوف .

كما كان لسيطرة المسلمين على حوض البحر الابيض المتوسط أثر في الازدهار الاقتصادي والتجارى ، بعد أن كان المغرب في عهد الرومان والبيزنطيين قطرا فلاحيا فقط ، واستفاد

من هذه السيطرة سكان صقلية وشمال افريقيا بصفة خاصة ، فقد أصبح الافارقة وسطاء في هذا البحر ، وهكذا تحكموا في نقل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت سفنهم دائبة الحركة الى سورية لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرق الى شمال افريقيا ، وقد عم الرخاء جميع بلاد المغرب بفضل هذه السيطرة (انظر ص 225 من كتاب القوى البحرية والتجارية).

وتفوق المغاربة على التجار الشرقيين نظرا لاشتغالهم بنقل تجارة الاجانب فاستحالت بذلك الاسكندرية الى مخزن كبير لتجارة غرب البحر المتوسط ، وازدهمت بكثير من تجارة المغرب والبندقية والقسطنطينية .

وكان لانفصام الزيريين عن الفاطميين تأثير على اقتصاد أواسط المغرب فاستفاد الحماديون في بجاية من ذلك بسبب المرسوم الذى أصدره أمراء القيروان في شأن تحريم تداول العملة الفاطمية ، فأصبح النفوذ الاقتصادى مركزا في بجاية وقصدها التجار من العراق ومصر والمغرب ، غير أن مقاطعة الزيريين للفاطميين كان له تأثير على التدهور الاقتصادى ، وزاد الحالة تدهورا غزو بنى هلال الذين نكبوا الفلاحة والتجارة معا . وخرجوا كل ما بناء القرطاجنيون والرومان والعرب من أنظمة دقيقة في الرى والزراعة فقد قطع غزو بنى هلال طريق القوافل بين السودان والنيجير عن طريق غدامس فقل الذهب بالمغرب ، كما توقفت الربط في طريقها المتصل بالاسكندرية الى آخر بلاد المغرب ، وانتقلت التجارة البحرية من يد الافارقة الى يد الايطاليين وسعى المرابطون الى توفير الرخاء الزراعى والاقتصادى في المغرب فاستولوا على سجلماسة وهى مركز التعامل مع السودان وظلوا يتعاملون بدينارهم الذهبى المشهور ونقلوا هذا

الرخاء الى الاندلس وبذلك توسع الاقتصاد بين ممتلكات المرابطين
وسائر البلاد الاوربية .

لقد امتد الاسلام داخل افريقيا من عهد عقبة بن نافع
فقد كان المرابطون ينشرون الاسلام في امتداد افريقيا ، وفي
عصر دولة غانا التي سبقت دولة مالي كان الاسلام دين هذه
الدولة منذ القرن الاول والثاني بل قبل ذلك اذ أنها كانت موجودة
في القرن السابع الميلادي على ان اهم دولة اسلامية ظهرت في
افريقيا كانت في عهد السلطان موسى الذي أسس دولة مالي
وكانت تستوعب قبائل متعددة منها (سونتي) و (اليميرا)
و (اليوسو) .

وقد سلكت الدعوة الاسلامية الى افريقيا عدة طرق تجارية
تكلم عنها البكري والادريسي وكانت الطرق تجمع جنوب
الصحراء بليبيا ومصر يربطوا بين الطريق الساحلي والطريق
الصحراوي وكانوا يعلنون على افريقيا الغرب السودان الغربي
ويشمل الارض الافريقية الواقعة شمال نيجيريا والشرق
الاسلامي الى المحيط الاطلسي على شاطئ الاطلس .

ويشهد تاريخ المرابطين ان القيروان كانت مركز
اشعاع اسلامي سلبه فاس ، ثم مراكش ثم (تمبكنو) بعد ذلك
في عهد بني مرين .

وأهم عواصم الاسلام في السودان الغربي (تمبكنو)
(كوندكتو) و (جاو) و (جنى) .

ويحتفظ المؤرخون بذكرى حج سلطان مالي ورحلته في مصر
حيث قابل السلطان (محمد بن قلاوون) واشترى كتباً اسلامية
الى مصر .

كما ان فى مراسلة المنصور السعدى لسلطان (مالى) ما يدل على اطلاعه وثقافته .

الاسطول والبحرية :

استقلت دولة الزييريين بمصر ولكنها أصبحت فريسة لغزو بنى هلال بتسليط الفاطميين المنتقمين منها . وتولدت فى المغرب دولة المرابطين لتنتشل الاندلس من المسيحيين (الشماليين) ، واستطاعت هذه الدولة الفتية أن تتقذ العالم الاسلامى من الدمار بعد أن حصل النورمان والبنادقة والبيزانطييين والجنوبيين واقطاعية فرنسا على مكاسب جديدة ، بينما وهت وحدة افريقيا الشمالية بقيام دول صغرى فى طرابلس وتونس والجزائر وصقلية ، فجاء المرابطون موحدين للصفوف . وفى سنة (1052 م .) استولوا على فاس ووصلوا الى الجزائر وأقاموا أكبر حكومة اسلامية منظمة (ص 365 القوى البحرية والتجارية) وفى سنة 976 م . بدأ الزييريون فى بناء أسطول جديد ، وفى عهد المعز بن باديس سنة 1016 م . كانوا يتوفرون على أسطول عظيم ، وقد ورثوا مجد الاغالبية فى السيطرة على ساحلهم كما كان أنتقال الفاطميين الى مصر أكبر داع للتخفيف من الاسطول الاموى فى الاندلس الذى لا يظهر أنه ضعف نهائيا ، وانما استمر على حالته يغالب المغرب الاقصى فى المعارك ضد الادارسة والاستيلاء على الشاطئ المغربى والتوغل فى أرضه ، وفى عصر ملوك الطوائف ضعف الاسطول الاندلسى لعدم وجود حكومة مركزية قوية ، وأتاح هذا الضعف الفرصة لظهور البحرية الاوربية والنرومانية فى البحر الابيض المتوسط ، ثم تطور الاسطول المرابطى وأصبح ينافس أسطول الجمهوريات الايطالية وينافس أسطول النرمان ، وقد سيطر هذا الاسطول على موانئ

شرق الاندلس وجزر ميورقة ومنورقة ، وأمن تجارة المغرب ضد القرصنة .

اللغة المستعملة في عصر المرابطين :

كان المرابطون والموحدون من بعدهم يتكلمون اللغة العربية واللغة البربرية ، وهذه الازدواجية تعتمد الفصحى في الدراسات والقضايا الدينية والمراسلات والمعاملات ، واللغة البربرية بلهجاتها في الشؤون الخاصة والتعبير في الحياة المنزلية والقبلية .

القرن السادس والسابع الهجريان

(1147 م — 1262 م)

(542 هـ — 662 هـ)

قوض الموحدون دولة المرابطين حيث اتهموهم بالانحراف، والجمود ، والتجسيم ، والانحلال ، والعجز عن تحرير الاندلس من هجمات المسيحيين ... فجاءوا يحملون روحا ثائرة ضد الصوفية والمدارس الفقهية ، والمذهبية المالكية ، التي جاء بها عبد الله بن ياسين وذلك ليدعموا مذهباً جديداً فيه آراء حزمية ، وصوفية غزالية ، ونزعة شيعية وثورة اصلاحية شاملة تأخذ من كل المذاهب الاسلامية المعروفة آنذاك ...

ورث الموحدون عن المرابطين امبراطورية تمتد من حدود مصر الى حدود نيجيريا ، والى نهر (ايبرو) عند مصب الوادي الكبير بالاندلس ، تضم مواطنين ينعمون بازدهار اقتصادي لم تفرض فيه مكوس وضرائب ترهق الشعب كما شهد بذلك المؤرخ (اشيخ ص 120 ج 1) فلا غرو أن تصبح مراكش الموحدية في سرعة — حاضرة الفكر الموحدى حيث لمع في بلاد المنصور أشهر الفلاسفة كابن رشد شارح أرسطو وابن الطفيل وحتى أصبح المغرب حسب تعبير (أوجين كيرنى) معهد المعقول الفلسفى .

والموحدون مصامدة حيث يؤكد الباحثون أن لهم قبل الاسلام شفوفا وحضارة ، وكان منهم في عهد الفتح الاسلامي

جوليان الغمارى الذى حكم جزءا من بلاد المغرب والذى كان مفكرا ومؤلفا ... وقد عاش المصامدة حياة السهول والجبال مما ساعد على ظهور حضارة بين قبائلهم ، ربما كانت أسمى من حضارة المرابطين القبلية ...

وكان من أثر انتشار الفلسفة فى عهد الموحدين أن طبعت حضارتهم بالماورائية والبحث عن حياة خلقية أفضل وأسمى ، وتحقيق مكانة للعقل على الطريقة الرشيدية مما جعل الفقهاء يخشون من اندلاع حرية الاختيار ، وانحسار المذهب الاشعرى الذى أعطى للسلفية الحجة والدعم بين القدرية الجبرية والاعتزالية ..

وظهرت نزعة الثقافة الموحدية فى محاربة فقهاء المرابطين الذين كانوا سلفيين مالكية يكرهون المتكلمين وينفرون من رأى والتأويل ، والخوض فى مسائل التوحيد ، وعوضوا ذلك بتوجيه جديد يعتمد تأويل النصوص ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق ، فاتهم الموحدون المرابطين بالتجسيم لأنهم يقرون الصفات بخلاف الموحدين الذين كانوا يفهمون معنى التوحيد الخالص لذات الله ، كما كان المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، واتجه التعليم الموحدى الى عدم التقيد بأراء المذهب المالكي على طريقة ابن حزم الذى ركز المذهب الظاهري فى المغرب معتمدا حرية الاجتهاد فى مسائل الفقه بشرط أن يستند الى حجج القرآن والسنة ، وما جرى به العمل ، وقد منع المنصور الموحدى دراسة مدونة سحنون وكتاب ابن يوسف ونوادير ابن زيد ومختصر البرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وأثر المغرب الموحدى فى الاندلس ، حتى قال (أندرى جوليان) : ان الحضارة الاندلسية اصطبغت بصبغة مغربية وازدادت لمعانا عند ما ذهب

الموحدون لمساعدة السلطة القائمة في الاندلس ... وكان هدف الموحدين توحيد العالم الاسلامي سياسيا واجتماعيا ولتحقيق هذا الهدف وجهوا اهتماما خاصا الى الجيل الناشئ ، ولهذا انصرفوا الى توحيد التعليم وتنشئة جيل متكامل المشارب ، فأسسوا مدرسة لتعليم صبيان بالاقاليم التابعة لهم ، وفي هذا يقول ابن القطان : « ومن مكارم عبد المؤمن حض الناس على هذا التعليم كما في المعجب (ص 254) ، ونشطت الحركة الفكرية في عهد الموحدين نشاطا منقطع النظير في مختلف بحزمة القرآن الكريم بالمغرب الى أن ظهرت قراءة نافع ، وكان الميادين سواء كانت علمية أو أدبية أم فنية ، ذلك لانهم لم يكونوا حديثي عهد بالثقافة العربية كالمرابطين ، وانما كانوا علماء وأدباء وشعراء وأطباء كما أن الاندلس كانت أغدقت على المغرب من معارفها ورجالها ، ولذلك فإن عصر الموحدين كان عصر علم وأدب .

التعليم :

وكذلك أسس الموحدون معاهد التعليم بمراكش ، كما وردت تفاصيل ذلك في الحلل الموشية ، حيث كان عبد المؤمن أمر أن يربى في مدرسته صغار الطلبة تربية خاصة ، فكانوا يحفظون الموطأ الذي ألفه المهدي الى آخر ما ورد في كتاب الحلل الموشية ، وألزموا الناس بتعليم العقائد الزاما لم يفرقوا في ذلك بين الرجال والنساء والصبيان والفتيان والاحرار والعبيد واشتهرت قراءة الناس يقرأون المرشدة في التوحيد ، كما كان بجانب ذلك تعليم عام وشعبي في كلية القرويين وجامع أبي يوسف بمراكش وجامع سبتة .

ويلاحظ أن التعليم كان يبتدىء في سن مبكرة لذلك ، فنوابغ هذا العصر وعلماءه من الشباب ، كالمراكشي والمزدغى ، وابن

عطية ، وابن رشد ، وابن زهر ، وابن غالب البنسسى .. وتعدد اختصاص المدارس ، فكانت هناك مدرسة للملاحة في سلا وقرب فاس لحاجة الموحدين الى أسطول عظيم ، وتأسست مدرسة (أكلو) بضواحي تيزنيت في أول القرن الخامس ، وهى أول مدرسة معروفة هناك ، على أنه لا يبعد أن يكون هناك مدرسة أقدم منها ترجع لوجاج المتوفى سنة 445 الذى تخرج من القيروان وتتلّمذ لابی عمران الفاسى .

واتسع التفكير الموحدى لكل أنواع المعارف ، منكرا جمود الفقهاء المرابطين وجاء في شرح الحل أن ابن تومرت كان ينكر كتب الرأى والتقليد كما شجع الموحدون الموحدون الحركة الفلسفية والترجمة عن اليونانية وأصبح علماء أوربا يفرعون الى المغرب لحل المشاكل الفلسفية كما فعل ابن سبعين في الاجوبة الصقلية ، وسهلت الكتابة العربية في المغرب لاشاعة الثقافة فوضعت بعلامات ظاهرة ، فمثلا ينقط القاف من فوق وينقط حرف الفاء من تحت ، وتعطف الياء بياء الالف كالمصطفى وتختصر الحركات ، فالشدة المضمومة تنقل بصورة رقم (٨) فوق الحرف المشدد المضموم وتمثل بصورة رقم (٧) من تحت في الحرف المشدد المفتوح وتمثل بصورة رقم (٨) تحت الكسرة المشددة .

واشتهر في هذا العصر كثير من العلماء منهم : محمد بن ابراهيم ابن عيسى المتوفى سنة (546) ، والعلامة الصوفى ابن حرزهم المتوفى سنة (550) وأحمد بن عبد الصمد القرطبى المتوفى سنة (582) ، ويوسف بن عبد الصمد بن يوسف المتوفى سنة (613) ، والمفسر المحدث ابن القصرى المتوفى سنة (615) ، والملاحظ أن هؤلاء العلماء أنهم كانوا يعلمون ويدرسون عدة كتب ، كما أنهم كانوا يؤلفون كتباً للدراسة ويشرحون كتباً كغيرهم ويعلقون على مؤلفات متعددة .

أما تأليفهم في علوم الدين فقد كان طابعها ما وصفه أبو العباس المقرئ في روضة الإخوان (من كتابه ازهار الرياض في ترجمة القاضي عياض) من أن في تدريس المدونة اصطلاحين : اصطلاحا عراقيا واصطلاحا قرويا ، فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالاساس ، وبنوا عليها فصول المذاهب بالادلة والقياس ، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ومناقشة الالفاظ ودأبهم القصد الى افراد المسائل وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الاصوليين ، وأما الاصطلاح القروي فهو البحث عن ألفاظ الكتاب مع التحقيق في بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان فصول الاحتمالات ، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات ، وما انضاف الى ذلك من تتبع سياق الآثار وترتيب أساليب الاختيار ، وضبط الحروف على حساب ما وقع في السماع ووافق عوامل الاعراب أو خالفها (أنظر أزهار الرياض) .

ويزيد المقرئ في التدليل على ذلك بقوله : ويحقق ما قلناه تصرف التونسي في تعليقاته الطيفة المنزع واللخمى في تبصرته البارعة الختام والمطلع ، الى غير ذلك من تأليف القرويين (نسبة الى القيروان) وتعليق المحققين من شيوخ الافريقيين ، وقد سلك القاضي عياض في تنبيهاته طريقة جمع فيها بين الطريقتين والمذهبين ، وذلك لقوة عارضته ، وذكر المقرئ في نفس الكتاب في موضع المقارنة بين التأليف الشرقي والتأليف المغربي بعد ما لاحظ لاحظ أن أغاب تأليف المشاركة متصفة بالايجاز لتمكن ملكتهم من التصرف ، مثل كتاب ابن الحاجب في فروعه وأصوله ، كما لاحظ أن الغالب على جل أئمة المشاركة الاطناب مثل الغزالي والامام الفخر وغيرهما . وأما أهل الاندلس فغالبا عليهم فيهقة الالفاظ في حسن وصف الكلام وانتقائه مثل عبارة القاضي عياض في

تأليفه التى لا تسمح القرائح بالاتيان بمثلها والنسج على منوالها ، وانتهت صناعة التأليف فى علماء المغرب على صناعة أهل المشرق لشيخ شيوخ العلماء فى وقته ابن البناء الازدى المراكشى فى جميع تصانيفه ويقصد المقرئ بابن البناء الذى خصه بابا السودانى فى نيل الابتهاج بترجمة مطولة ، والمولود سنة ، (654) .

وتتجلى خصائص التعليم المغربى فى التكوين الاولى ، وما يسمى بالتعليم الابتدائى ، والاهتمام باصلاح مناهج التعليم وأساليبه وقد اشتغل بذلك مفكرو المغرب والاندلس ، وقلما تخلو كتب رجال الفكر المغربى والاندلسى من ملاحظات فى ميدان التعليم والتربية .

ولعل من أهم ما ظهر من آراء تعليمية فى هذا العصر نظرية ابن العربى المولود سنة 468 والمتوفى سنة 541 ، وفى كلامه عن نفسه يبين لنا نظام التعليم فى عصره فقد ذكر أنه حذق القرآن وهو ابن تسع سنين ، ثم قضى ثلاث سنوات لضبط القرآن والعربية والحساب ، ولما باخ الى سن العاشرة كان قد قرأ من الاحرف (أى القرآن) نحواً من العشرة بما يتبعها من اظهار وادغام ونحوه ، وتمرن فى الغريب والشعر واللغة (أنظر ترجمة حياته فى مقدمة كتابه ، العواصم من القواصم) وفى كتابه (قانون التأويل) الذى ينقل عنه ابن غازى فى التكميل والرهونى فى شرحه على خليل ، والمقرئ فى أزهار الرياض ... ونستفيد أن ابن العربى كان وهو فتى يافعاً يمارس الكتابة ينقد الشعر مع بداهة القول كما احذق اللعب بالشطرنج فى صغره ويحلل ابن خلدون مذهب ابن العربى فى مقدمته ، فابن العربى يرى أن المذاهب المعروفة فى التعليم الابتدائى لا تكفى ، بل هى عقيمة بالنظر الى شيوخ

العجمة ، ويرى أن يقتصر المتعلم في التعليم الاول على البلاغة والنحو وعلوم العربية كلها ، ويقدم اليه من نصوص الادب البليغ ما يقوم به ادراك الطالب ويربى ملكته ، فاذا أخذت ثقافته الادبية تقوى وتتأصل ينقل الى الحساب والرياضيات ، فاذا تمت الملكة الرياضية فيه وتمكنت الدراسة من فكره فيكون قادرا على ادراك معانى القرآن والتخلق بهديه ، وينعى ابن العربى على قومه تلقينهم القرآن في أول الامر قائلا : (ياغفلة أهل بلدنا في أن يؤخذ الصبى بكتاب الله من أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب فيهما غيره أهم .. ولعل ابن العربى تأثر بالمذهب الشرقى فأراد أن ينقله الى بلاده ولكن (العوائد لا تساعد عليه وهى وهى أملك بالاحوال) حسب تعبير ابن خلدون ، وربما كان الكتاب في القرن السادس يلقي الرسالة وفنونا من الادب والمعرفة كما يستفاد من ترجمة الشيخ ابن عبد الله الفخار السبتي التطوانى .

ونعرف كذلك برنامج التعليم الابتدائى في عصر الموحدين من خلال انتقاد ابن خلدون لحالته ، وقد كتب (جورج مارسى) بحثا قيما حول رأى ابن خلدون في التعليم ، وعرب بمجاة رسالة المغرب ، (العدد الاول من السنة الاولى) جاء فيه : أن تلقين العلوم لا يكون مفيدا في رأى ابن خلدون الا اذا كان بالتدريج ، ولذلك يجب أن يقسم برنامج التعاليم الى ثلاثة مراحل : (الاولى) تلقين أصول الفن مع مراعاة عقل التلميذ واستعداده لادراك هذه المسائل ، فالطريق المثلى في نظر ابن خلدون أن نقيم وزنا لعقل التلميذ وقدرته على استساغة المبادئ التعليمية التى يراد تلقينها وبعد حصول الملكة الجزئية يصل الى (الدور الثانى) حيث يستأنف النظر في الفن نفسه ويحسن أن يخرج بالتلميذ من الاجمال الى التفصيل مع عرض بعض المسائل الخلافية ، وبعد هذه المرحلة ينتقل الى (الدور الثالث) حيث يعود الى الفن نفسه

فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا الا وضحه ، وعندئذ لا يخلص التلميذ من الفنون الا وقد استولى على ماكته ، ويلاحظ ابن خلدون عدم ضرورة التنقل بين الادوار الثلاثة وكذلك لا ينبغي للاستاذ أن يغفل قيمة مواهب الطفل فلا يميز بين ما يجب أن يكون غاية وما يجب أن يكون مبدأ ، فالتدريج أساس لا يستقيم التعليم الا به ، ويجب ألا يفرض على التلميذ استظهار جميع الشروح والحواشي والتنبيهات والمقدمات لتتسنى الاحاطة بالمادة ، كما لا يحتاج الى التمييز بين الطرق الفقهية كالطريقة القبروانية والقرطبية والبغدادية والمصرية ليستحق منصب الفتيا.

وينتقد ابن خلدون دراسة فنون مختلفة في وقت واحد ، ويرى أن من الواجب أن يلقن فنا واحدا ولا ينتقل الى غيره الا بعد أن يأنس منه الحصول على الملكة التامة في الفن الاول . كما يرى ابن خلدون أن تكون معارف الطفل واضحة في فكره فيتلقاها من الاساتذة الكثرين بدل استيفائها من الكتب والتصانيف لان الطلبة أسرع ما يكونون الى الوعي والحفظ وأبطأ ما يكونون من الادراك العميق .

والمتعلم الذى يتلقى أصول الفن من أساتذة متعددين يطلع على مصطلحات كل معلم وأساليبه في التبيين ولا يلبث أن يجرد العلم عن الاصطلاحات ويعلم أنه (طريق توصيل)

وابن خلدون يريد أن يجعل من فكر الاساتذة أداة مرنة يتصرف فيها فلا فائدة في معرفة النحو اذا كانت معرفته لا تقي من اللحن والخطأ ، كما يرى أن العلم النظرى لا تنتم منه الفائدة الا اذا كان صاحبه جامعا بينه وبين الخبرة العلمية ، والغاية هي تكوين رجال عالمين بأحوال الحياة ، وقلة المبالاة بالجانب العملى هي التى تجعل العلماء أبعد الناس عن السياسة ، اذ

المناهج التي يستعملها معلموهم لا تؤهلهم لتدبير البلاد .

أما وسائل التعليم فلا تكون بالعنف والقهر ، لان الارهاق في التأديب يحمل المتعام على الخبث والكذب ويعلم المكر والخديعة ويذهب بنشاط النفس ، ويختصر (جورج مارسى) رأى ابن خلدون في أن المثل الاعلى الذى يجب أن يسعى اليه كل معلم هو تهذيب الفكر والارادة ، ولا يمكن هذا لكل معلم ، الا اذا كانت

ويعطينا ابن خلدون عرضا موجزا في مقدمته عن مذاهب التعليم العربى فيما قبل عصره بصفة عامة . وفي عصره بصفة خاصة ، فيقسمها الى مذهب أندلسى ومذهب تونسى ، ومذهب شرقى ولا شك أن الشرق كان متعدد المذاهب واكن ابن خلدون يتحدث عن وسطه ومذاهب بلاده ، أما المذهب الاول وهو الاندلسى ، فهو منهج يقوم على ثقافة أدبية تعتبر القرآن نفسه أداة للبلاغة وترسيخ ملكتها ويعنون بالشعر العربى ، وروائع النثر مع عناية بتحسين الخط ولذلك كان مظهر الثقافة الاندلسية حسب تعبير ابن خلدون يبدو (في التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر) .

أما المذهب المغربى فهو يفرض على المتعام في أول الامر اتقان القرآن ورسمه واختلاف القراءات ثم التدرج في مبادئ العلوم ، ويلاحظ ابن خلدون أن المغاربة تفوقوا في حفظ القرآن تفوقا تاما ، ولكن كان حفظ الطلاب جمودا في العبارات وقصر التصرف في الكلام ، والمتخرجون عن هذه الطريقة تجددهم سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون ، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل ، وتطول مدة الدراسة عندهم حتى تصل الى ستة شرة سنة بينما لا يتجاوز في تونس خمسة سنوات .

أما المذهب التونسى فكان وسطا بين هذين المذهبين :

(الاندلسى والمغربى) وهو يعتبر القرآن وحدة مستقلة في التعليم وحفظه وتحويده غاية في نفسها ، والحفظ وسيلة لا غاية ، ويعمل المقرئ ذلك بأن الناس يقرأون العلم لا للاجر والمال ولذلك يلاحظ أن الاهتمام بتقويم ثقافة الطفل على أسس دراسية الادبية غير منتقاة في جملتها فيكون أن تتخرج طبقة من الطلاب تعوزها ملكة في اللسان العربى وجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام ، أما المذهب الشرقى فيدرس القرآن كغاية مع عناية بالحديث والفقه والنحو والخط .

وبعد المرحلة الابتدائية يتعرض ابن خلدون للتعليم الثانوى والعالى فينتقد بشدة طريقة التعليم بفاس ، ويرى أن الهمم مقصورة على تحصيل القرآن ودرس التهذيب مع الاخذ بنصيب من مبادئ العربية التى تعلموها عن السبطين حتى لم يتصدر منهم أحد ليقرى كتاب سيبويه ، ويؤيد المقرئ في أزهار الرياض انتقاد ابن خلدون ، فيروى قصة أبى عنان والشيخ الصرصى حيث تصدى هذا في المتوكلية لتدريس التهذيب ثم انقطع انقطاعا فاحشا بعد أن ناقشه العلماء بتحقيق ما أورده من المسائل على ظهر قباب حتى انصرف عن درسه ، وآنسه أبو عنان بعد ذلك منبها اياه الا يتكل على حفظه (الى آخر ما ورد في تاريخ القيسى ولخصه المقرئ) . على أن المقرئ لم يشايح ابن خلدون في انتقاداته الصارمة ، بل يلاحظ أن علماء فاس كانوا أهل صلاح وورع في طاب الفقه وتفننوا في مروياته لان (باب الفتيا) في الفقه هو باب احتياط ، فلا بد لامفتى من مباشرة الكتب المروية والامهات الاصلية ولا يجوز له الاقتصار على الوساطة في الكتب ، ويرى المقرئ أيضا أن العجز عن التأليف لا يقدر في علم العلماء بل أن علماء فاس شغلهم تحرى الحلال عن تتبع موارد التحقيق الذى أدى الى فقد الملكة النظرية عندهم ، ولقد اعترف علماء تونس

بغزارة علم الشيخ ابن عبد السلام الذى أبدى ضلعة فى الفقه ، سلم له بها زعيم فقهاء المغرب أبو عبد الله السطى ، وقد اعترف الفقيه القباب لاهل تونس بالملكة والتصرف ، وانتقد طريقة المغاربة الفاسيين التى قوامها حفظ النصوص ، وابقاؤها على ما هى عليه .

والذى يهمننا من خلال هذا العرض هو معرفة المنهج والاسلوب المنتقد وهو منهج يقوم على الحفظ وعدم تكوين الملكة بل ان ابن خلدون يذكر فى الفصل الثانى من الباب السادس المعنون بأن (تعليم العلم من جملة الصنائع) فيذكر بأن الحق فى العلم والتقنن فيه انما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمادته وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله ، وان سند تعليم العلم (فى عهد ابن خلدون) كاد أن ينقطع عن أهل المغرب لان أيسر طرق تكوين الملكة هى فتق اللسان بالمحارة والمنظارة فى المسائل العلمية ، أما أهل المغرب (فى عهده) فعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل وتنقصهم ملكة التصرف فى العلم والتعليم .

كما يلاحظ أن المدة المعينة لسكنى طلبة العام بالمدارس فى المغرب ست عشرة سنة وهى فى تونس خمس سنين وانما طال أمدها فى المغرب بسبب عدم الجودة فى التعليم خاصة لا ما سوى ذلك ، ويعرض ابن خلدون أثناء ملاحظاته لاساتذة البيداغوجيا فى تاريخ المغرب ، فيذكر أبا القاسم ابن زيتون فى أواسط المائة السابعة الذى نقل أسلوب التعليم فى الشرق الى تونس وبعده أبو عبد الله بن شعيب الدكالى الذى نقل الاسلوب الشرقى الى تونس كما ذكر أبو على ناصر الدين المشدالى الزواوى من رجالات المغرب فى أواخر المائة السابعة الذى حمل الى المغرب

أساليب التعليم الشرقية ، أما في فاس فذكر ابن خلدون أنها مع سائر أقطار المغرب بقيت خلوا من حسن التعليم ويتصل سند التعليم فيها وعسر عليها حصول الملكة والحذق في العاوم ولذلك كثرت عنايتهم بالحفظ وقلت في ميدان المفاوضة والجدل ، وعلّة ذلك في نظر ابن خلدون هي فساد التعليم لا ما يلاحظه بعض رحالة أهل المغرب في طلب العلم من أن عقول المشاركة على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وانهم أشد نباهة وأعظم كيسا منهم . ورغم انتقادات ابن خلدون وابن العربي فان الكتاب والتعليم المغربي ظل جامدا الى عصور متأخرة ، فبقى الكتاب وسيلة لحفظ القرآن بدون فهم آياته كما بقى التعليم بصفة عامة يعتمد على الحافظة فقط ، ولذلك لم تزدهر علوم الآلة المبنية على المنطق والعقل فقد ظلت جامدة غير متطورة كما شرح ذلك المقرئ في أزهار الرياض .

والواقع أن مناهج التعليم المغربي كانت مقتبسة أو متأثرة بالاسلوب الاندلسي والمقرئ يذكر في نفح الطيب لدى حديثه عن حال الاندلس في فنون العام بأن العالم والمتعلم كانت له حظوة في المجتمع الاندلسي ، وان كان من المفروض أن تكون هناك مدارس متعددة لتأوى الطلاب فان المدارس لم تكن منتشرة، وانما العالم عادة يكون بارعا في فنه لانه يطلب العلم بباعث من نفسه فلذلك ينقطع اليه ويصرف اليه همهته .

وشاعت العلوم الاسلامية في الاندلس والمغرب وبالاخص الفلسفة والتنجيم ، فكان حظهما عظيما عند الخاصة ، أما العامة فكانت تسمى المشتغل بالفلسفة فقط ، بالزنديق ، وكان بعض الامراء يحرقون كتب الفلسفة تقريبا للعامة حتى أن المنصور ابن عامر أحرق كتب الفلسفة مع أنه كان مهتما بهذا العام ، أما

العلوم المهتم بدراستها فهي قراءة القرآن بالروايات السبع ورواية علم الحديث ودراسة الفقه على المذهب المالكي ، وكانوا يحترمون لقب الفقيه فيسبغونه على من يقدرون من الناس ، وربما حلوا بها أسماء الملوك أما علم الاصول فهو متوسط الحال لا يقبلون عليه بلهفة ورغبة بخلاف النحو الذي يهتمون بدراسته كثيرا ، ويدرسون مذاهبه وكتبه القديمة ويحفظون مذاهب وهو علم لا يستغنى عنه عالم ولا يجوز أن يخوض في غيره من المعارف الا اذا برز فيه ، ويلاحظ المقرئ في الاندلسيين أنهم كانوا يدرسون النحو كفن ، أما التطبيق فهو أبعد ما يكون عنهم ، ويمثل لذلك بالنحوى الكبير (الشلوبيين) المشهور في الشرق والغرب بتأليفه مع أنه كثير الغلط واللعن ، بل ان الاندلسيين يستنتقلون من يعرب كلامه ويجارى قواعد النحو ، كما كانوا يهتمون بعلم الادب من نثر وشعر ، ويهتمون بالتاريخ ورواية الحكايات ليملاوا المجلس نكتا ونقلا ، ولا شك أن هذه الصورة التي نقلها الينا المقرئ تطابق الصورة التعليمية في المغرب الى حد ما ، وكما اعتمدوا على الكتاب اعتمدوا على الشيخ أيضا ، لان العلم انما يؤخذ من أفواه الرجال حسب التعبير القديم ، وكان هذا الشيخ وهذا الكتاب يختلفان باختلاف المواد المدرسية ، وذلك لان قدماء المغاربة كانوا يميلون الى التخصص في العلم على أنهم يقدرون المشاركة فيه اذا كانت مشاركة تعتمد على ملكة تساند العلوم بعضها مع بعض .

ولقد تبلورت الثقافة الاسلامية في عدة علوم انتشرت في العالم الاسلامي كله ، وتركز على القرآن والحديث وما يوصل لفهمها ، وهذه العلوم كانت مجال الدراسة في مراكز الثقافة الاسلامية في العالم الاسلامي كله ، وقد حل ابن خلدون قواعدها وتحديداتها بما لا مزيد عليها ، وانما المهم أن نذكرها لنرى أثر

المغاربة فيها وهذه العلوم هى القراءات والتفسير والحديث
والسيرة وعلوم الحديث والنحو والتصريف واللغة والبيان
والاصول وعلم الكلام والفقه والفرائض والحساب والهيئة
والمنطق والعروض والطب والفهارس والاسانيد والادب ، وكان
هناك علم آخر اضافى لا يدرس بصفة رسمية وانما يؤخذ عن
بعض المختصين وهو علم الجدل ...

ودرسوا التفسير بعدة شروح ، وألف فيه من المغاربة
الحر الى مؤلف كتاب (مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن
المنزل) . والمزدغى المتوفى سنة 655 كما ألف فيه ابن
فرتون السلمى الفاسى سنة 660 .

وراجت دراسة التفسير فى الصقع السوسى راجا كبيرا
وذلك لحاجتهم الى تفهم كلام الله نظرا لان لغتهم ليست بعربية ،
ونبع من علماء التفسير أبو يحيى الكرسقى من أهل القرن
السابع وهو متخرج من الاندلس توفى سنة 683 وانتشر اعراب
القرآن من هذه الناحية ، وألف فيه زيد الجشتمى كتاب (اعراب
القرآن) فى مجلدين وكان من عادة الطلبة أن يحلقوا حول الاستاذ
ويعربوا مقدار الوقت الاول من الحزب الراتب مع الاستدلال
من المتن فى تطبيق القواعد (أنظر كتاب سوس العالمية ص 34) .

ودرسوا كتب الحديث الخمسة ومؤطا مالك ، وأشهر
المؤلفين فى الحديث نابغة المغرب القاضى عياض مؤلف المدارك
والشفاء ، وألف فيه كثير من المغاربة فى القديم والحديث وأشهرهم
العراقى من المتأخرين (1) .

ويذكر مؤلف قصة الادب فى الاندلس ص 102 أن الافارقة

(1) راجع بحثا فى الموضوع للمؤلف بمجلة (دعوة الحق — 1974) وهو
دراسة أعدت بمناسبة ذكرى الامام البخارى بسمرقند ..

كانوا يفضلون كتاب مسلم على البخارى وشرحه للمازرى الصقلى ، ونقل أبو عمران ابن سعادة نسخة البخارى (الشيخة) عن نسخة أبى على الصدقى واعتمدت منذ القرن السادس بالاندلس والمغرب ، واشتهرت دراسة الحديث فى سوس كما كتاب سوس العالة (ص 36) ، كما درسوا السيرة بقصيدة أبى عبد الله الشقراطيسى المسماة بالشنقراطنية .

أما علوم القرآن من تجويد وقراءات ورسم ، فقد اهتموا بهذا العلم وأسسوا للدراسة بفاس مدرسة السبعين أى القراءة بالروايات السبع ، وهى بازاء مدرسة الاندلسيين ، وألف فى هذا الفن محمود بن الحسن الفاسى المتوفى سنة 656 شرحا على الشاطبية ، ويذكر ابن خلدون أن أبا القاسم ابن ميرة أول من لخص هذا الفن ورتبه ليكون سهلا للحفظ والفهم فاعتنى الناس بحفظها وتلقيها للولدان فى المغرب ، كما ألف فيها ميمون الفخار صاحب التحفة والدررة المتوفى سنة 716 وابن (برى) صاحب الدرر اللوامع المتوفى سنة 818 . أما الفقه فقد درسوه بعدة كتب أهمها النوادر لابن أبى زيد وكتاب ابن يونس وتهذيب البرادعى ورسالة أبى زيد القيروانى الى آخر ما ألفوه فى هذا الفن مما تعرض له المؤرخون بالتفصيل ، ودرسوا الاصول بالبرهان لامام الحرمين والمحلى فيما بعد ، وفى العصور المتأخرة ألف المهدي بن سودة حاشية على المحلى .

أما النحو فقد درسوه بكتاب سيبويه ، وبكتاب الجمل ، ثم الالفية بعد نظم ابن مالك لها ، حيث أصبحت محور الدراسة النحوية بالنسبة للثانويين كما كان كتاب ابن أجروم المتوفى سنة 723 كتاب النحو المعطل بالنسبة للمبتدئين ، ومن مشاهير رجال النحو أبو زيد المكودى المتوفى سنة 807 وأبو العباس القدومى المتوفى سنة 992 .

ودرسوا اللغة بشرح أبى ذر على الغريب وشرح أبى الطيب الشرقى على القاموس فى (أربع مجلدات) فى العصور المتأخرة .

ودرسوا الادب بكتاب الحماسة وبمقصورة ابن دريد ، وبصفوة الاديب للجراوى وشرح ابن زاكور للحماسة فى العصور المتأخرة ، وقد حافظ المغاربة على قوة التعبير باللغة العربية وسلامة الاسلوب العربى ، ويقول (بىرم) فى صفوة الاعتبار : أن صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على مراكش ، وجاء فى كتاب التعاشيب الصفحة 95 : أن المغرب نبغ فيه أدباء كبار مثل الاديب الشاعر يحيى ابن زيدون فى بلاط ابن عباد ومثل ابن حبوس ومثل ابن رقية وابن اللجوم الفاسى سليل المهلب بن أبى صفرة ، وله كتاب فى الشعر توفى سنة 690 .

ودرسوا العروض بالخزرجية وعليها تعاليق متعددة ولابن زاكور حاشية عليها . ودرسوا التوقيات والتنجيم والتعديل أيضا ، وكان بمراكش مرصد للنجوم وبفاس مرصد لمراقبة الاهلة بباب عجيسة يسمى (برج الكوكب) كانت به نوافذ على عدد الشهور حيث يراقب كل شهر من واحدة منها ، كما ذكر ذلك ابن الأبار فى « القسم المفقود من التكملة » .

ودرسوا الطب بكتب ابن سينا وابن زهر والانطاكى والمجوسى ، كما درسوا البلاغة بكتاب التلخيص وبمنظومة الشيخ الطيب بن كيران من المتأخرين وشرحها للبورى وأقصبى ، أما التاريخ فلم يحفلوا به كثيرا ، وانما كان يدخل فى نطاق المطالعات ، واشتهر فى الجغرافيا بكتاب النزهة ، للادريسى والاستبصار لمؤلف مجهول مراكشى الاصل ، فاسى الوظيفة ، من رجالات أواخر القرن

السادس توفي سنة 587 وكتاب المعجب للمراكشي المتوفى
سنة 581 .

نقد الدراسات :

وشاهد المغرب والاندلس في مطلع عصر الموحدين ثورة نقدية للثقافة الشرقية سواء في المذاهب الفقهية حيث تصدى الفقهاء لمحاربة المذهب المالكي ، والاخذ بالمذهب الظاهري ، أو في العلوم اللسانية حيث ألف القاضي أبو العباس أحمد بن مضاء القرطبي المتوفى سنة 592 الذي كان قاضيا بمراكش في عهد المنصور الموحدي كتاب المشرق في النحو ، وتنزية القرآن عما لا يليق بالبيان ، والرد على النحاة وقد سائر مذهب ابن حزم في الاخذ بظاهر النص والابتعاد عن القياس والفلسفة فقرر إلغاء نظرية العامل والإلغاء القياس ، والكتاب حملة قوية ضد نحاة البصرة والواقع أنه تأثر بنقد الشرقيين للنحو وبالاخص بآراء ابن جنى في هذا الموضوع كما ظهر نحاة مدرسون كبار كأبى على الشلوبيين صاحب التوطئة المتوفى سنة 561 ومحمد بن هشام المغربي المتوفى سنة 570 مؤلف الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل ، وشرح فصيح ثعلب ، وقد تمخضت دراسة الاندلس والمغرب للنحو على تقدير كامل لنحاة الاندلس من طرف الشرقيين وكما من أعلام النحو جمال الدين محمد بن مالك المتوفى سنة 672 صاحب الالفية المشهور وله منهاج يعتمد على السماع والاحتجاج بالقراءات وروايات الحديث والقراءات ، ولذلك كان كتابه لتسهيل والمقصود والممدود والفوائد والكافية والالفية من أمهات كتب النحو العربي ، كما تألق اسم أبى حيان الجياني الذي اتصل في الشرق بأبى النحاس وأخذ عنه وكان من المذهب البصري في عصره بل نقد ابن تيمية للاخذ عن كتاب سيبويه،

ومن أشهر مؤلفاته كتاب في شرح التسهيل والتجويد والمبدع ونحاة الاندلس ، و (الشذا في مسألة كذا) الذي يقع في نحو ثمان مجلدات ، بل يعتبر أصل جمع الجوامع للسيوطي ، وكذا اشتهر أبو موسى الجزولي المغربي المتوفى سنة 607 بكتبه النحوية الاصلية التي منها املاءاته على جمل الزجاج ، واشتهر ابن خروف الاشبيلي المتوفى سنة 602 بشرحه على كتاب سيبويه وجمل الزجاج .

وحرر الامام السهيلي دفين مراكش أبحاثا مهمة في تطور دلالة كثير من المفردات العربية بكتابة الروض الانف ... كما حرر أبحاثا تماثل ذلك أبو القاسم الشريف شارح مقصورة حازم ، وأثر المذهب الظاهري الذي نادى به ابن حزم في الاندلس والمغرب تأثيرا واضحا في مختلف مجالات الدراسات الفقهية والادبية مما ساعد على بروز مدرسة نحوية مغربية تعتمد الرواية والحديث ولا تقول بالقساس كأساس للقاعدة .

ويرى ابن حزم في (التقريب) لحد المنطق أن علم النحو يرجع الى مقدمات محفوظة عن العرب الذين يريدون معرفة تفهمهم للمعاني ، بلغتهم ، والعلل فيه فاسدة جدا ، ويريد ابن حزم بذلك عدم فائدة (القياس) ..

ويعتبر ابن مضاء من أكبر نحاة الاندلس تأثرا بالحزميه لصياغة نحو جديد ولذلك اقترح حذف العوامل ومعلقات المجزورات والتنازع والاستغلال والقياس .

الدراسات الفقهية :

ولا شك أن اشتغالهم بالفروع الفقهية كان سائدا على باقي الفنون ، وأهم ما كان شائعا كتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي

زيد وكتاب التهذيب للبرادعي وكتاب ابن حبيب ، كما كانت مدونة سحنون من أهم الكتب التي جعلوها محورا لباحثهم قبل أن يظهر مختصر الشيخ خايل ، حيث تفننوا في شرحه فيما بعد .

ويدل اشتغالهم بالفروع والجدل الفقهي ما جاء في كتاب المعجب للمراكشي بالرواية عن أبي يعقوب بن الجذ الذي يقول : دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول ما دخلت عليه ووجدت كتاب ابن يوسف فقال لي : يا أبا بكر ، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، في أي هذه الأقوال هو الحق ؟ وأنها يجب أن يؤخذ به المقلد ؟ فأخذت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي وقطع كلامي ، أبا بكر ليس الا هذا وأشار الى كتاب السنن لأبي دوار وكان على يمينه ، أو السيف ، وجاء في القرطاس والاستقصاء (ج 1 ص 150) أن عبد المؤمن الموحدى أمر سنة 555 بحرق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث وكتب أمره بذلك الى طلبة المغرب والاندلس والعدوة .

على أن يعقوب المنصور انقطع في عهده علم الفروع وخلاف الفقهاء بعد أن أمر باحراق كتب الفقه وبعد أن حذف ما فيها من حديث رسول الله والقرن فأحرق مدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر أبي زيد وكتاب التهذيب للبرادعي وموضحة ابن حبيب وما جانس ذلك ، وذكر المراكشي أنه شاهد بفاس أحمالا من هذه الكتب توضع وتطلق فيها النار .

وقد نجح الموحدون في حركتهم التحريرية من المذهبية وظهر أعلام مجتهدون نذكر منهم من ترجم له صاحب التكملة والجذوة والذخيرة السنينة وهو أبو الحسن على بن محمد بن خيار

الاندلسى الاصل الفاسى السكنى المتوفى سنة 605 وما ذكره صاحب الجذوة وهو أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن هارون المرادى الفاسى المعروف بابن الكماد المتوفى سنة 633 كما فى ابن خلكان وابن القطان نقيب الطلبة بمراكش وصاحب كتاب بيان الوهم والايهام الواقعين فى كتاب الاحكام . ولكن ذلك لم يمنع حركة الفروع من الاستمرار طيلة عهد الموحدين ثم الانتصار لها فيما بعد حيث أصبحت القرويين مركز الدراسة الفروعية الجدلية ومن أعلام الفروع ما ذكره ابن قنفذ فى الوفيات من أن محمدا يشكر بن موسى الجوزاء الفاسى المتوفى سنة 598 ألف حواشى على المدونة واسحاق بن ابراهيم الغمارى قاضى فاس وسبته وشلب المتوفى سنة 609 ، وفى الابتهاج والجذوة قائم على المدونة ويستظهرها ، وذكر ابن خلدون فى مقدمته أن القيروانى عكف فى دراسة الفقه على مدونة سحنون وأهل الاندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبى زيد المدونة ولخصها البرادعى القيروانى وكتب أهل افريقيا كثيرا على المدونة كما كتب الاندلسيون كثيرا على العتبية ، ثم جمع ابن أبى زيد أمهات المسائل والاقوال فى كتابه النوادر ، وبعد انقراض دولة قرطبة والقيروان تمسك أهل المغرب بكل ذلك الى أن جاء ابن الحاجب الذى لخص طرق المذهب فى كل باب ووضع للمذهب برنامجا ولم تكن المدونة منتشرة فى أمهات المدن فقط بل كانت منتشرة انتشارا كبيرا فى سائر الاصقاع المغربية ، وبالاخص فى بلاد سوس ، وقد نقل مؤلف (سوس العالمية ص 18) عن كتاب مخطوط (الجرسيفيون) انه كان شائعا فى السوس مدافن لكذا من البنات يحفظن المدونة فضلا عن الرجال ، وروى أيضا أن سيدى وشاى وأن أبناء الركاكى هم من أوائل من زاولوا شرح المدونة فى سوس ، أما خليل فقد انتشر فى سوس بعد انتشاره

في فاس وترجم شارحه الدردير الى (الشلحة) للحاجة الماسة
لكي يتعرف الجميع على الشريعة وأحكام الدين .

وشاهدت سوس نهضة فقهية في عهد محمد وجاج الذي
وصفه أبو عمران الفاسي بالفقيه الحاذق والجزولي شارح
الرسالة والمختصر الحاجبي وكعبد الواحد الرجراجي شارح
المدونة وداود التملی (سوس العالة ص 45)

ويذكر مؤلف الكتاب أيضا ص 44 عدة مؤلفات وأساتذة
لعلم الكلام في بلاد سوس ، وأشهرهم عبد الرحمن الكرامی من
القرن التاسع صاحب الشرح على البرهانية للسلالجي ، ومنهم
سعيد بن النعمان سنة 650 ، والجزولي صاحب الشروح على
الرسالة المتوفى سنة 741 وغيرهم كثير .

اللفة والأداب :

أما علوم الآلة من لغة ونحو وبيان ، فقد كانت ذا مكان
بارز في هذا العصر وبرز لغويون كبار أشهرهم أبو القاسم على
ابن حمزة البصري المتوفى سنة 586 ، وفي نيل الابتهاج ترجمة
لابن المناصف المتوفى سنة 620 ، مؤلف الارجوزة اللغوية .

وأشهر علماء النحو في المغرب أبو موسى عيسى ابن عبد
العزيز الجزولي المراكشي المتوفى سنة 607 مؤلف المقدمة
الجزولية الذائعة الصيت كما في ابن خلكان ، وأبو القاسم المتوفى
سنة 619 المترجم له في بغية الوعاة ، ومن مشاهير علماء العربية
أبو ذر الخشنی الجباني المتوفى سنة 604 كما في التكملة ، والذي
استوطن فاسا وعلم بها ، واعتنى السوسيون باللغة والنحو
اعتناء كبيرا ، وقد ترك أبو فارس الرسومكى حاشية على الصحاح
للجوهری ، وتوجد شروح للقصائد الادبية دالة على تمكنهم من

ناصية هذا الفن كشرح المقصورة المكودية للتازلتى التملى ،
وشرح مقصورة ابن دريد للهشتوكى وشرح الشمقمقية لابن
فارس الادوزى وشرح العبدونية لموسى الودريمى الى غير ذلك
من الشروح .

ونذكر من أعلام النحو المتأخرين (استكمالا للموضوع)
أبى زكرى شارح الفريدة والشيخ الطيب بن كيران المحشى على
التوضيح والمكودى شارح الالفية والطرنباطى شارحها أيضا
وعمر الفاسى شارح المغنى ، ولا شك أن كتاب الاجرومية
المغربية كان أعظم كتاب بيداغوجى ظهر فى العالم العربى حيث
شغل المعلمين وأفاد التلاميذ المبتدئين ، كما أن كتاب الالفية كان
كتاب التعليم الثانوى الذى اهتم به الشراح والمعلقون فأفادوا
كثيرا وجمعوا على نظمه الشارد من القواعد والامثلة ، ويذكر
(مؤلف سوس العالمية ص 38) أن للسوسيين طريقة معبودة
منظمة فى تعلم اللغة والنحو والتصريف ، وقد انتقنوا هذه الفنون
الثلاثة اتقاننا تاما لشدة حرصهم عليها ولانها كل شىء فى الميدان
العلمى ، وأثنى الحسن اليوسى على الطريقة التى يسلكونها فى
التصريف فى فهرسته عند ما ذكر شيخه أبا فارس الرسمى
(وهم يقرأون الالفية فى الصفوف العليا بالاشمونى والصبان
والموضح بحواشيه تتبعا وتكون الشواهد على السنة الاساتذة
بدون مراجعة) .

الرياضيات :

وفى القرن السادس ظهرت الارقام العربية المسماة
بالغبارى التى لها شكلان كما يقول ابن الياسمين أحدهما الرقم
بالغبارى التى لها شكلان كما يقول ابن الياسمين أحدهما الرقم
العربى والثانى المسمى بالهندي المستعمل بالشرق .

وقد اهتم المغاربة بعلم الحساب لانه كما قال ابن خلدون في المقدمة براهين منتظمة ينشأ عنها في الغالب عقل مضى وكانوا يعلمونه في البداية ، لهذا كانت كتبه تقريبا ابتدائية ككتاب الحصار الصغير الذي يحدثنا ابن خلدون أنه كان منتشرا في المغرب وتلخيص ابن البناء المراكشي ، وكذلك برع المغاربة في الجبر حسب شهادة ابن خلدون ، وكان من أعلام الحساب بفاس أبو الحسن علي بن فرحون الذي كان يعلم هذا الفن بفاس والمتوفى سنة 601 ، وهو مؤلف الباب في مسائل الحساب وأبو عبد الله محمد العابد الانصاري الفاسي المتوفى سنة 662 كما في الجذوة ، وابن الياسمين الفاسي المتوفى سنة 601 صاحب منظومة الجبر والمقابلة سنة 587 ، وابن القطان المتوفى سنة 628 ، ثم القلصادي بشروحه فيما بعد ، وشاع عند الموثقين استعمال القلم الفاسي وهو عبارة عن أرقام حسابية استعملها الموثقون بفاس في تقييد التركات والفرضيون كذلك في تقدير النفقات وهي من أصل روماني انتقلت من ويلي الى فاس ثم نسبت اليها . ومن علماء الرياضيات في المغرب يوسف بن سمعون وهو قرين موسى بن ميمون وصاحبه في مصر ، وزميله محمد بن أفلح الاندلسي وهو من سكان فاس قرأ بها كما ذكر ذلك ابن القفطي ، واشتهر بالهندسة في فاس أبو عمران بن شامة المشار اليه في القرطاس علاوة على المهندس الشهير حسان القضاء المتوفى سنة 598 المنسوب اليه جامع حسان والمدفون بالرباط ، والمهندس الاحوص صانع مقصورة المنصورة الموحدى ، واشتهر من الفلكيين الشريف الادريسي المولود بسبته سنة 494 ، وأبو علي حسن المراكشي المتوفى سنة 660 المنسوب اليه وضع اللوغاريتم ، وابن السكك الفاسي المتوفى سنة 500 كما في الجذوة وغيرهم كثير في فاس ومراكش ورد ذكرهم في السلاوة والاعلام

والقرطاس ، وفي الجذوة أن من أشهر المؤلفين في الكيمياء ابن التقرات الذي درس بفاس والمولود سنة 515 مؤلف جذور الذهب في الاكسير وكان خطيبا بجامع القرويين ، ومن مؤلفات المتأخرين في هذه العلوم روضة الازهار للقادرى المتوفى سنة 818 ورجز عبد الرحمن الفاسى في الاسطرلاب وأرجوزة ابن زاكور ، وآلف الوزير الغسانى حديقة الازهار في ماهية العشب والعقار ، كان حيا سنة 994 وتوفى عام 1019 (1) كما في مبادئ شرح التحفة ، وعلق ادراق على نزهة الشيخ داود ، ومنهم العالم الرياضى المتفنن ابن ابى الربيع اللجائى المتوفى سنة 721 ، وأبو القاسم الغول مؤلف حافظ المزاج المتوفى سنة 1059 وابن حميدة المطرفى صاحب المقرب في الهيئة المتوفى سنة 1061 والرودانى المشهور المتوفى سنة 1095 ، وفي علوم العقليات يذكر من أعلام المنطق أبو جعفر الخزرجى القرطبى المتوفى سنة 582 بفاس ، واشتغل المتأخرون المهتمون بهذا الفن كالعادة بالشرح والتعليق ، ولم يتعمقوا في فروع الجدل وغيره من أساليب المنطق ، وأشهر الكتب التى وصلتنا شرح السلم لبنانى وحاشية قصارة عليه وشرح محمد بن حمدون لخريدة والده كما نبغ في علم الرياضيات أبو الحسن المراكشى فكان راصدا بصيرا جاب في أوائل القرن الثالث عشر المسيحى جنوب اسبانيا وقسما كبيرا من افريقيا الشمالية فأبان ارتفاع القطب في احدى وأربعين مدينة واقعة بين افران على المحيط الاطلنטיكى وعاصمة مصر ، أى ما تعادل مساحته تسعمائة من الشرق الى الغرب كما ألف أبو الحسن كتاب المبادئ والغايات ونشر (مانويل سديو) ترجمته سنة 1834 ونال بنشرها احدى الجوائز الكبرى ، كما تكلم سديو على ازدهار العلوم الرياضية في هذا العصر وذكر في تاريخه ما

(1) نذكر كثيرا من المتأخرين جمعا للنظائر .

مؤداد : « لم تبق افريقيا الغربية كسلى فى ذلك الدور الذى انتهى بانتهاء القرون الوسطى ، فقد نافست سبتة وطنجة وفاس ومراكش فيه قرطبة واشبيلية وغرناطة ، فمن مدارسها ظهر أساتذة بارعون تشهد مؤلفاتهم الكثيرة فى مختلف فروع العلوم بعلو كعبهم ونعرف البطروجى وأبا الحسن وحدهما بمؤلفاتهما فأما البطروجى ، فرصد فى ذلك الحين ميل سمت الشمس وقرأ البطروجى كتاب بطليمس فثار على التعقيد الذى فى نظرية دور ان المدار البعيد عن المركز والدائرة التى وسطها على محيط دائرة أكبر منها حول مركز صفرة متحركة بذاتها فعرض طريقة جديدة سدل عليها ستار من النسيان العميق تنطوى على ميل مبارك الى التحرر من نظريات الاقدمين المختلفة .

الطب :

وكان الطب المغربى وهو جزء من الطب الاندلسى يعتمد زيادة على الدراسة العربية فى الطب على الدراسة الافريقية الطبية ، كما كان أغلب الاطباء يتقنون اللغة اللاتينية كأبى عبد الله الصقلى الذى كان يتكلم الاغريقية وغيره ، وتوصلوا الى معرفة جميع الادوية المفردة المذكورة فى ديوس فورديس ، وقد نبغ أطباء مغاربة علموا المشرق ودبروا المستشفيات كما جاء فى نفح الطيب للمقرئ (ج 1 ص 244) ، كما عرفوا أوروبا بالطب وقد اشتهر قسنطين التونسى فى القرن الرابع كطبيب ترجم عشرات الكتب الى اللاتينية .

ويذكر الكانونى فى كتابه (شهيرات النساء) نقلا عن كتاب فن الاسنان فى المغرب الاقصى أنه كان بفاس فى القرن الرابع الهجرى مدرسة طبية ، ويذكر (الدكتور رينو) فى بحث نشره (معهد الدروس العليا ص 42) ، أنه لا يمكن الفصل بين دراسة

الطب في المغرب ودراسة حياة العلماء الذين أنجبتهم الاندلس أو
أو تكونوا في مدارسها ثم صاروا في أعقاب ملوك المغرب من
اثبيلية أو قرطبة أو فاس أو مراكش أو أغمات ، فللمغرب
الحق اذا تبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد .

ولعل أشهر طبيب مغربي هو أبو العلاء بن زهر المتوفى
سنة 503 ذلك العبقري الكبير الذي ألف كتباً خالدة في الطب
واكتشف عدة علاجات لكثير من الامراض ، ومن أشهرهم أيضا
أبو جعفر الذهبي نقيب الطلبة ثم نقيب الاطباء في عهد الموحدين
وأبو بكر بن بقى السلامي وأبو الحجاج يوسف بن فتوح القرشي
المتوفى سنة 561 كما في الصلة ومعاصره أبو العباس أحمد
القيسي الاثبيلي وتطور علم الطب في المغرب سواء في الجراحات
أو في التمريض والمستشفيات أو في الصيدلية ، وكان هناك
اختصاصيون في المستشفيات سواء في الجراحة أو في الجبر أو
في التمريض ، كما كانت تقسم يمين (بقراط) يحلفها الاطباء
ويلتزمون بالاخلاص للمهنة وحفظ أسرارها .

وكان علم الطب مشاعا بين طبقة من الفقهاء والمحدثين
والادباء وذكر مؤلف نيل الابتهاج ص 353 أن الامام السنوسي
شارح البخاري له شرح على رجز ابن سينا في الطب ، وله شرح
كبير على الكوفية في الفرائض والحساب وكتب الطفيل أرجوزة
طويلة في الطب توجد نسخة منها خطية بخزانة القرويين بفاس .

ومن خلال هذه الارجوزة نتعرف على مدى سعة ابن الطفيل
بعلم الطب وعلى معرفته بلغة الاغريق ، وذكر (رينو) في كتابه
(الطب القديم بالمغرب) أن علم الطب كان يدرس في جامعة
القرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس ولم يكن يدرس
الطب رسميا الا دروس يلقياها بعض الاطباء في جوامع العاصمة ،

وفي بعض مدن المغرب كسلا التي كانت بها مدرسة يدرس بها الطب .

علم الكلام :

أما علم الكلام فلم يكن دأب المغاربة الاشتغال بالجدليات الا أن الفواطم هم أول من مزج العقائد بالفلسفة فاشتغل المغاربة في عهدهم بذلك ، ولما نقلوا حاضرة ملكهم الى القاهرة نسخ مذهب الشيعة من المغرب ثم لما جاء الموحدون أذاعوا مذهب الاشعرى لان ابن تومرت كان يغترف من معينه ويسلم أكثره وترك ابن تومرت (المرشدة) المشهورة ككتاب دراسى وكان من أعلام هذا الفن أبو الحسن على ابن أحمد خليف الاندلسى الاشبيلي المتوفى سنة 567 ، وجاء في الصلة أنه علم الاصول والكلام بفاس ، كما أن من مشاهير هذا العلم أبو عثمان السلاجى الذى يلقب بمنقذ أهل فاس من التجسيم كما في الجذوة ، ومن أعلام علم الكلام أبو الحسن على ابن محمد الخزرجى الفاسى المعروف بابن الحصار المتوفى سنة 611 مؤلف البيان فى تنقيح البرهان المترجم له فى الكلمة ، ومنهم أبو الحجاج يوسف عبد الصمد الفاسى المعروف بابن غنى المتوفى سنة 614 ، ودرسوا هذا الفن من بعد كتاب شعب الايمان للقصرى كما فى التكملة ، وقد تابع علماء فاس دراسة التوحيد والعقائد على المذهب الاشعرى فنظّموا وشرحوا كثيرا فى هذا الميدان .

مراكز الثقافة المغربية :

كانت الدراسة مركزة بجامع القرويين فى العصر الموحدى بدليل ما ورد فى ترجمة أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة الانصارى الخزرجى القرطبى ثم الفاسى مستوطنها المتوفى سنة 582 قال

في الديباج : « ولما قدم مدينة فاس الزم أسمع الحديث والتكلم على معانيه بجامع القرويين واستمر على ذلك صابرا محتسبا ونفع الله به خلقا كثيرا » أما النص الثاني فتقرأه عن أبي الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن يوسف الفاسي الذي جاء في أثناء ترجمته من الجذوة (ثم عاد الى بلده عام ثلاثة عشر وقعد للاقراء بعد عوده في شرقي جامع القرويين الى أن توفي في الثاني من شهر رجب عام أربعة عشر وستمئة) .

ومن مظاهر جامعية فاس الموحدية ارتفاع عدد الرحالين اليها لاخذ العلم بها عما كان عليه الحال في العهد المرابطي . ففي ترجمة عبد الله بن محمد بن علي الحجري المري المتوفى سنة 589 : أنه خرج من المرية بعد تغلب الروم عليها وأجاز البحر الى مدينة فاس وأقام بها مدة ، وبعد صيته وعلا ذكره فكان الناس يرحلون للسمع عليه وفي ترجمة عبد الرحمان بن يوسف بن الحسن الفاسي المتوفى عام 612 كانت تشد اليه الرحال لاخذ مذهب مالك .

ومن الاندلسيين الراحلين للدراسة بفاس الموحدية : عبد الحق بن خليل بن اسماعيل السكوني ، أخذ النحو بها عن أبي بكر بن طاهر وعلم الكلام وأصول الفقه عن أبي عمر وعثمان بن عبد الله السلاجي ثم عاد الى الاندلس وعبد الرحمان بن بن القاسم بن عفير الاموي الاشبيلي المتوفى 580 سمع بها (كتاب الشهاب) على أبي الحسن بن حنين سنة 568 .

وعبد الله بن باديس بن عبد الله اليحصبي الشقري المتوفى سنة 522 لقي بها أبي الجاج من أهل علم الكلام وأصول الفقه فأخذ عنه .

وأحمد بن عمر بن ابراهيم من عمر الانصاري القرطبي

المتوفى عام 626 لقي بها أبا القاسم عبد الرحمن بن عيسى بن الملقوم الأزدي وسمع الحديث .

ومحمد بن علي بن يوسف الانصاري الغرناطي المعروف بالطراز المتوفى عام 645 ، سمي في الجدوة ستة من بينهم اثنان انتفع بهم في الكلام وأصول الفقه .

وذكر في المعجب أنه انقطع الى أمير المؤمنين يوسف من الجزيرة من أهل كل علم فحولته حتى اشتبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفارسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ، وذكر في أيام ابنه علي أنه لم يزل أول امارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبي القاسم بن الجد أحد رجال البلاغة وأبي بكر محمد بن المعروف بابن القبطرنة وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان وأبي محمد بن عبد المجيد بن عبدون وغيرهم كثير .

الا أن الحظوة عنده كانت لعلم الفروع حتى نسي النظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ودان أهل ذلك الزمان بنقد من ظر منه الخوض في علم الكلام ، ولعل هذا هو السبب في اهمال العلوم النظرية ، كما أنه من الاسباب في عدم تأثير أهل المغرب بالثقافة الأندلسية كما يجب ، حتى أن المهدي لما قدم الى المغرب وجده خاليا من العلم النظرية ولم يقدر علماء فاس ولا علماء مراكش على مناظرته ، ولم يكن فيهم من يعرف ما يقول الا مالك بن وهيب الفاسي كما ذكر في المعجب ، ولكنه لما استقرت أقدام الدولة الموحدية شجع ملوكها العلوم وكان على باب عبد المومن طائفة من الشعراء المجيدين فيهم محمد بن

حبوس الفاسى ، وكان هو نفسه من المجيدين وقد أورد له في المعجب أبياتا قيمة في استتفار المجاهدين وكان ولده يوسف من الطامحين الى دراسة الفلسفة وجمع كتبها ، واتصل بأبى بكر ابن الطفيل وابن رشد كما هو معروف وكان ابنه يعقوب يحمل الناس على الاجتهاد المطلق والاستقلال بالنظر فى الكتاب والسنة ويأمر باحراق كتب الفروع ، وكان ابنه المامون علامة أدبيا بايعا الى آخر ما هو معلوم فى شأنهم .

المرأة فى عصر الموحدين :

ان أقدم رأى فى تقييم عقل المرأة هو رأى الفيلسوف المغربى ابن رشد الذى قال فى تعليقه على جمهورية أفلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء فى الطبع وانما هو اختلاف فى الحكم .. أى أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال فهذا الرأى الفيلسوفى الذى أعلنه مغربى هو أقدم رأى علمى علمى فى الموضوع ينادى بالمساواة بين الرجل والمرأة .

وفى العصر المرابطى ظهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف بن تاشفين التى بنى لها زوجها يوسف مدينة مراكش تقديرا لذكائها وحسن تدبيرها وابنة يوسف بن تاشفين تميمية التى جمعت ثروة مادية أشرفت على ادارتها بنفسها وأعانت بها فى أوجة الخير والبر ..

وكانت السيدة قمر زوجة على بن يوسف تدبر سياسة الدولة ولا يعقد الامير الا اذا استشارها فى كل الشؤون الادارية والسياسية ..

وفانون بنت عمر عذراء المرابطين التى دافعت عن دولتها ضد هجمات الموحدين فاستبسلت فى الدفاع مشهورة سيفها

مناظلة طيلة نصف يوم قبل استسلام اسحاق بن على المرابطى
ويذكر تاريخ المرابطين أن امرأة وقفت أمام غزو الصنهاجيين
لابناء أعمامهم ونوهت بالقرابة القائمة بين الفرعيين فردوها الى
بلدها مكرمة .

.. ويذكر ابن القاضى فى جذوة الاقتباس أن تميمية بنت
يوسف بن تاشفين كانت تحفظ الشعر وتطلب العلم وكان لها
موكلون عن قضاياها وكتاب لشؤونها كما كانت تناقشهم
أعمالهم وتبرز اليهم للمذاكرة غير خجلة .. وقد كان لها كاتب
بهت عندما نظرت اليه مذكرة بالبيت العربى القديم :

هى الشمس مسكنها فى السماء ..

فعز الفؤاد عزاء جميلا

وكانت احدى أخوات الطبيب ابن زهر من ممرضات القصر
الموحدى ، ممتازة بمعرفتها لفنها وماهرة فى الطب النظرى
والعلمى .. واشتدت حظوة المرأة فى البلاط المثلثى والموحدى
حتى كان الشعراء يقصدون الاميرات ويلتمسون منهم الوساطة
كما فعل ذلك الشاعر ابن خفاجة حين استشفع بالاميرة
مريم بنت ابراهيم ..

التسامح الدينى :

يذكر المؤرخون لهذا العصر عدة مواقف للدولة والعلماء ازاء
المسيحيين دالة على التسامح الدينى فمن ذلك أن أبا الحسين بن
بن عتيق المرسى السبتي الذى انتقل الى مدينة فاس لما استكتبه
السلطان المرىنى أبو يعقوب ناظر القسيسى والرهبان بمدينة
مرسيه فى موضوع اعجاز القرآن وكذلك تخصص مغاربة
والاندلسيون فى الجدل الدينى ووضع أكثرهم رسائل فى المناقشات

الدينية ومن هؤلاء أبو جعفر بن أبي عبيدة القرطبي المتوفى سنة 582 هـ الذي ألف مطامع هامات الصلبان وقد امتحن هذا الكاتب بالاسر سنة أربعين وخمسمائة وحمل الى طليطلة ، وبها ألف كتابه المذكور ليرد به على القسيسين بطليطلة وتركه بأيدي جماعة من المسلمين الذين كانوا مأسورين هناك ، ومنهم عبد الحق الاسلامي السبتي الذي ترك اليهودية الى الاسلام ثم وضع في أواخر القرن الثامن رسالة « السيف الممدود في الرد على أخبار اليهود ، ومنهم محمد الانصارى مؤلف كتاب رسالة السائل والعجيب ، وروضة الاديب لابي زكرياء يحيى ابن زياد وزير عبد الحق المرينى ومنهم من المتأخرين سيدي رضوان بن عبد الله الجنوبي دفين فاس من علماء القرن العاشر وكان يقول خرجت من بيت فرث ودعم يعنى أصل والده من مسيحي جنده وأمه كانت يهودية أسلمت وقد ولد بفاس سنة 912 وتوفى بها سنة 963 وترجم له الرهونى في مقدمة كتابه كما ترجم له مؤلف السلوة ومنهم شهاب الدين أحمد الشهير بأفوغاى ، استوطن مدينة مراكش من أواخر عام 1007 هـ وقد كانت له مناقشات دينية في كل من فرنسا وهولاندا ، مع القسيسين من النصار والاحبار واليهود ، ومع الذين اجتمع بهم خلال سفارته الى فرنسا وكان في الرد عليهم جميعا يحتج بالانجيل والتوراة ، بعد ما درس ترجمتها لهذه الغاية ويذكر أنه وفق مرارا عديدة ، وقد ألف كتابه « ناصر الدين على القوم الكافرين » باقتراح من على الاجهورى لما اتصل به في القاهرة

ومنهم يوسف بن عبد الله الاسلامي الذي ترك اليهودية وكان من أحبار اليهود وذلك بعد عام 1020 وألف « النور الباهر » وساق فيه عن التوراة 51 نصوصا بصحة الدين الاسلامي ، وبما أنه لم يكن يحسن العربية فقد هذب لغته عبد الرحمن التامانارتى

ومنهم حم بن عبد الوهاب الوزير الغساني الاندلسي المتوفى عام 1119 هـ — 1703 م فقد ناظر الرهبان الاسبان في مدريد أثناء سفارته لاسبانيا عام 1102 هـ — 1690 م .

ولا ينكر تاريخ اليهودية ازدهار الفكر اليهودي في ظلال حكم الاسلام سواء في المشرق أو في الاندلس ، وقد كانت أيام اليهود تحت حكم العرب بها من ازهى العصور الذهبية .. حيث برز يهود ابن هليفي الطليطلى في ميدان الشعر وكتب مؤلف (كتابه الحجة) المشهور في الآداب اليهودية .. كما ألف اسحاق الفاسي 1012 كتابه الفلسفي وحقق ابن ميمون (مايموندس) كتب الفلسفة اليونانية .. ومن ألمع شخصيات الفكر اليهودي في حكم الاسلام قاشداين بن شيروت 961 وشاموئيل هانا جيد معلم (ابن غايبرول) .

وفي كتاب (طبقات الامم) لصاعد الاندلسي وكتاب (ابن العبري) وكتاب (الملل والنحل) لابن حزم تفاصيل عن الثقافة اليهودية وازدهار علومها وآدابها تحت الحكم الاسلامي وليس من هدف الموضوع الحديث عن التفكير اليهودي والآداب اليهودية في عهود الحكم الاسلامي وانما الالمام الى التأثير الحضاري للاسلام في العقلية اليهودية التي استفادت من ديمقراطية المسلمين ونزاهتهم وعدالة حكمهم سواء في المشرق في عهد بنى أمية أو عهد العباسيين أو عهد الفاطميين أو في الاندلس والمغرب وقد أصبحت القسطنطينة عاصمة اليهودية بعد اضطهادات أوروبا ، وتتحدث اليهودية عن (اليهودي التائه) اخذا من (المهدي المنتظر) وشاعت في أوروبا بعد عودة الفوج الاول من الصليبيين الذين رجعوا من القدس .

وتأثر كتاب اليهود الاسبان في القرنين الثاني عشر والثالث

عشر بالادب العربى وبالاخص فى الكتابة الادبية والمقامات وترجموا الى العربية مقامات شبيهة بها تماما تتخللها أبيات من الشعر ذات طابع دينى أو أخلاقى وظهر ذلك جليا فى الادب العبرى فى اسبانيا وفى مقاطعة قطلونيا بصفة خاصة ومن كتاب اليهود الاسبان المشهورين فى هذا الميدان ، يوسف بن مائى بن سابر ، الذى ألف بمدينة برشلونة قبيل سنة 591 هـ - 1194 م كتابه المشهور باسم : صفر ثا اثنوايم . أى كتاب التعاليم المفرحة ، وهو عبارة عن مقامات تشف عن مقدرة صاحبها فى الادب وقد عاصر يوسف هذا أديب آخر اسمه يهود ابن سايماى الحريرى ، كان يتقن اللغتين العربية والعبرية ، وترجم سنة 602 هـ 1205 م مقامات الحريرى وسماها (مخبروت أتيل) وقد سافر يهودا الحريرى بعد ذلك الى المشرق حيث طاف بأرجائه ثم عاد أخيرا الى اسبانيا وألف كتابه المشهور (تحكمنى) أى الشخص العاقل عارض به مقامات الحريرى وسار على منهجه ، وكذلك قلد الحريرى سليمان بن صقيل فى قصته الهجائية المعروفة باسم (شرين يهودا) والتى مزجها بأبيات شعرية تحض على التمسك بأهذاب الدين ، وقلده أيضا ابراهيم بن صمويل حالبى بن حسداى 638 هـ 1240 م من برلام ويوسافات أو اسنطورة بودا فى كتابة قصته العبرية المسماة : (ابن حاملك دوى خنازير) أى ابن الدرويش ، وكتبها على شكل مقامات تتخللها أشعار وعظات أخلاقية . ومنهم يعقوب بن العزار (أوائل القرن السابع الهجرى) الذى كتب مقاماته العربية وترجم أيضا الى اللغة العبرية . ومنهم طوب بن يوسف بن فالاقيرا الذى امتاز برقة احساسه وقوة ملكته الشعرية ولا سيما فى مقامته المسماة (صفرحا مبقيش) أى الكتاب الذى يبحث عن الحقيقة .

وكما تأثر الادب العبرى فى المقامات وأسلوبها تأثر

الادب المسيحي بها أيضا . ويرجع بلايو Menoze Peayan ومومثالث Gonzales Palemia وجود هذا التأثير في القصة الاسبانية المعروفة باسم القصة البيكارسية ويسمىها البعض بقصيدة الجوع La nueva Picaressa التي انتشرت من القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي أى في العصر الذهبي الاسباني ، ففيها ذلك النوع من القصص الذي تربط حوادث شخصية رجل ذكي خفيف الظل ، من طبقة اجتماعية وضعيفة ، خادم ، شحاذ ، لص متسول .. الخ وهو المعبر عنه باسم (بيكرو) Picaro وهناك تشابه بين أسفار أبى السروجي بطل المقامات الحيرية ، وبين مغامرات (1) الاثر ليهودي تورمس Manager وقزمان الفراتشى) .

لقد استظل اليهود في الاندلس بنظام الاسلام وأتيح لهم أن يدرسوا العبرية دراسة صحيحة متأثرين بالتوجيه الاسلامي وحرية الفكرية . بل ظهرت دراسات للتلموذ في قرطبة على يد وزير عبد الرحمن الناصر يوسف بن حسداى بن عزرا بن شبروط 333 — 359 و 945 — 970 حيث ظهر موسى بن حانوك كما ألف يهودا بن دورد أول كتاب في النحو العبرى وألف ابن جناح 384 — 441 كتاب التنقيح باللغة العربية .

ثم ظهر ابن جبيرول الذى تأثر بالفكر الاسلامي وسماه المسلمون أبا أيوب سليمان بن يحيى وألف ينبوع الحياة باللغة العربية كما ألف معاصره يحيى بن يوسف فاخوذا كتاب الهداية الى فرائض القلوب ، باللغة العربية متأثرا فيه بالغزالي .

وظهر بعد هؤلاء موسى بن عزرا ، 532 والشاعر يهودا

(1) راجع دعوة الحق بحثا للدكتور مختار العبادى .

ابن ليفى 477 وابراهيم بن داود الطليطلى 503 الذى حاول
أن يوفق الفلسفة واليهودية ..

.. وعرف القرن العاشر الميلادى نشاطا يهوديا فى ترجمة
الفكر الاسلامى الى العبرية ونذكر من أنبغ المؤلفين اليهود ،
فى هذه الحقبة ابراهيم بن صمويل مترجم (ميزان العمل)
للغزالي الى اللغة العبرية ، وموسى بن ميمون الذى نقل الى
اللغة اللاتينية كتابه الحائرين .

تمتع اليهود فى المغرب بما يتمتع به المواطن المغربى رغم
شعورهم الدائم أنهم جالية عابرة ، ولقد وردوا على المغرب فى
فترات عريقة فى التاريخ ثم فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه
بعد أن أجلاهم عن خير (راجع اسحاق ولنفسون) وعبروا من
برقة وطنجة وعند ما عبر طارق بن زياد الى الاندلس كان فى جيشه
بعض اليهود حسب رواية (طليدانو) وان كان مؤرخو العرب
لا يذكرون شيئا من ذلك لان اليهود لم يعملوا فى الجيوش كمحاربين
فى صفوف الاسلام أو فى صفوف المسيحية ، وعندما ورد المولى
ادريس الاول الى المغرب وأسس الدولة الادريسية كان اليهود
مصدر مشاكل عديدة فقد ظلوا على الولاء للدولة العباسية حسب
اعتراف حبر الجزائر ، ولا يستبعد أن يكون ما أشاعوه عن الامير
الادريسى (الذى اتهم بالدخول على امرأة يهودية لحمام عمومى)
مجرد قصة ملفقة يراد بها تحطيم شخصيات الدولة ، ولم ينتبه
مؤرخو المغرب فرووا القصة فى كتبهم رغم أنها تتنافى مع طبيعة
المجتمع الاسلامى ومظهر الامارة الاسلامية ، وعند ما ظهر
الرابطون ظل اليهود يتمتعون فى عهدهم بحرية فكرية وسياسية
حتى اذا جاء الموحدون قاوموا دساتهم فى الحملة التى أعلنوها
لمتابعة العابثين بحقوق المواطنة بدليل مسالمتهم لسكان يهود طنجة

وكذلك على ازدهار المجتمع اليهودى نذكر حركته الفكرية الماثلة فى ألمع رجالات اليهود فى المغرب موسى بن ميمون مؤلف (دليل الحائرین) والسراج ، ورسالة العزاء والذى أقام بفاس مدة طويلة قبل أن يهاجر ، من المغرب الى الشرق — كما كان خلوف المغيلي ممن أخذ عنه الابلى ، معارف رياضية وفلكية وكانت الثقافة المغربية ذا أثر كبير فى تطوير الفكر اليهودى ، كما يبدو ذلك فى فلسفة موسى بن ميمون ، واستعمل المثقفون اليهود فى افريقيا الشمالية اللغة العربية أداة للتعبير ، وفى كتاب تاريخ المغرب (لكودار) أن اليهود كانوا يستعملون اللغة العربية فى كتاباتهم وتأليفهم كما يذكر ما سينيون فى (مجموعة البحوث والمحاضرات) ان كتاب سيبويه كان أساس تجديد النحو العبرى فى فاس فى القرن الرابع ، ولهذا تطورت اللغة العبرية بفضل العربية فطورت فقه التلمود وشروحه والآداب اليهودية بصفة عامة وكان مناجم بن سروق الاندلسى ويحيى بن داود حيوج من دعاة احياء لغة العهد القديم بينما كان دنوش من يهود فاس ينادى بفتح المجال للعربية والخضوع لاصولها فى فهم اللغة ، واستطاع أبو الوليد مروان بن جناح القرطبى أن يؤلف فى : تأثير العربية فى اللغة العبرية معتمدا على معاجم اللغة العربية . وتأثرت بذلك اللغة العبرية فى أول القرن الحادى عشر وممن غريب الصدف أن يؤلف داود بن ابراهيم الفاسى قاموسه المسمى (أجرون) بينما وضع أبى اجرام كتابه فى النحو العربى المسمى (بالاجرومية) على أن يحيى اسحاق بن يعقوب الكوهى المولود سنة 404 شرح التلمود وعلق عليه بفتاوى مكتوبة باللغة العربية ، وترجم أبو سعيد بن يوسف (العهد القديم) الى (اللغة العربية) مضيفا اليه تفاصيل فى الارث عن الفقه الاسلامى ، ومن أشهر الاحبار يهودا بن نسيم المغربى صاحب (أنس الغريب) المتوفى

سنة 1365 ميلادية وشرح اليهودى أبو طبول (القرآن الكريم) معتمدا على مفاهيمه التلمودية . ومع الاسف فقد تنكر كثير من اليهود للتسامح الاسلامى فى المغرب وكانوا يستغلون نفوذهم للعبث بالمسؤولية كما وقع فى عصر الوطاسيين (أنظر الاستقصا فى عصر بنى مرين) كما أسسوا الاقطاعات المالية التى ظهرت فى المغرب فى عصر السعديين والتى قضى عليها المولى الرشيد حين حارب اليهودى (ابن مشعل) فى اقطاعيته قرب تازة ، وذكر اليوسى فى محاضراته أن يهوديا ورد لسجل ماسة وتظاهر بالصلاح فغرر بخلق كثير مدعيا الولاية والصلاح والاسلام ، ثم ظهر أخيرا تلاعبه .

الصناعات :

يذكر ابن زرع أنه كان بفاس فى عهد المنصور وولده محمد الناصر 116 معملا لصنع الصابون و 12 معملا لتسيبك الحديد والنحاس و 11 معملا لصنع الزجاج و 135 كوثة لتضير الجير و 400 حجرة لصنع الورق و 170 فرانا للخبز .. أما عدد المنشآت العمرانية كالمساجد والحمامات وغيرها فقد بلغ عدد المساجد 785 وأرحية الماء 472 ودور السكنى 89236 والمصريات 17041 والفنادق 4367 وحوانيت التجارة 9082 وسقايات الماء العمومية 80 وعدد دور الوضوء 42 وعدد الحمامات 93 وهذا العدد يعطى فكرة عن العمران ووفرة المتساكنين .

وقد تطورت الصناعات التقنية والهندسية فى هذا العصر . ويذكر المراكشى أن عبد المومن صنع مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع وتتحرك بصورة آلية ، ترتفع عند خروج عبد المومن وتنسدل عند دخوله ، وكانت البسط ترفع عن موضع المقصورة

فترتفع الاضلاع فى نفس الوقت وكان باب بيت المنبر مقفلا
فاذا قام الخطيب انفتح الباب وخرج المنبر وحده . وكانت هذه
المقصورة موجودة أيضا أيام المنصور (القرطاس) وقد وصفها
الشاعر يحيى بن مجير :

فاذا أحست بالامام يزورها
فى قومه قامت الى الزوار
بيدو فتبدو ثم تخفى بعده
كتكون الهالات للاقمار

ومن شغف الموحدين بالاختراعات الميكانيكية ما اخترعه
لهم أحد المهندسين فى عهد يوسف ، وهو قوس بعيدة المدى
تحمل على أحد عشر بغلا .. وصنع أحد المهندسين لتاجر جنوى
شجرة مموهة بالذهاب عليها أطيّار تصوت بحركة هندسية ،
وأهداها الى السلطان يوسف كما صنعت فى عهده ثريا كبرى
من النحاس تزن 32 قنطارا وبها 512 مصباحا علقت فى مسجد
تازا الذى انتهى بناؤه سنة 693 .

الفلاحة :

اهتم الموحدون بغرس الاشجار وأجروا الماء الى
البساتين والدور وذكر الشريف الادريسي (جزء افريقية
والاندلس ص 67) أن الماء الذى تسقى به هذه البساتين
استخرجه بصفة هندسية المهندس عبيد الله بن يونس الذى
قصد الى أعلى الارض فاحتقر بئرا مربعة كبيرة التربع وشق
منها ساقية متصلة بالحفر على وجه الارض تجرى متدرجة
من أرفع الى أخفض متدرجة الى أسفله بميزان حتى وصل
الماء الى البستان وانسكب على وجه الارض .

وذكر ابن عذارى في البيان المغرب أن أول من أنشأ المسرة (جنان المنارة الحالية) عبد المومن وكان طول البستان ثلاثئة أميال أو قريب منها ، وفيه جميع أنواع الفواكه وقد جاب اليه الماء من أغمات في جداول هندسية .

ودخلت عادة العنصرة (أو اللامة بالنسبة لاشمال) التى كان أهل الاندلس يحتفلون بها في 24 يونيو في كل عام . وقد وصف هذا المهرجان الفلاحى ابن عذارى صاحب البيان ج 3 ص 84 وما يزال المغاربة يحتفلون (بالعنصرة) وبالاخص في المراكز الفلاحية التى اتصل بها المهاجرون الاندلسيون كناحية سلا.

كما عرف المغرب أسماء الشهور الاعجمية التى كانت تستعمل بالاندلس منذ العصر الرومانى وهى الشهور المثبتة في يومية يولييان التى تطبق في التقاليد الفلاحية كما ذكر (ليفى برفانصال) في كتابه اسبانيا الاسلامية في القرن العاشر ص 172.

وذكر صاحب الاستبصار في عجائب الامصار ، والمراكشى في المعجب أنه كانت في أيام يعقوب المنصور قنطرة بين سلا والرباط مركبة على ثلاث وعشرين معدية عليها قطع خشبية صلبت عليها الالواح وتجاوز عليها عتائدها والعساكر والمسافرون وحولها يجلس الصيادون لصيد السمك والشابل وبمد البحر ترتفع القنطرة فتعطي الجسر وتعوم عليه المراكب .

اجتماعيات :

واستعمل المغاربة بطائق الزيارة ويذكر ابن رشد في ترجمته لابن بكر بن حبيش ادى قوله :

كتبت له بالباب خاء خديمه يصنفها بالفضل جاء حبيب ما جرت به عادة الافارقة (أى المغرب الاوسط) من

أن الزائر اذا جاء منزل المزور فلم يجد حاضرا خط على الباب حرفا مفردا من اسمه ليعرف به .

الفن الموحدى :

يقول (ماسى) فى كتابه الفن الاسلامى ج 1 ص 305 : أن الموحدين ركزوا للمرة الاولى وحدة الاسلام السياسية من حدود قشتالة الى ليبيا وساهموا فى تركيز نوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامى الذى تساوت فيه معطيات الفن القيروانى والشرقى والبنطى .

والعجيب أن الدولة الموحدية قامت على أساس التقشف ومحاربة الفن وبالأخص فى مواقف المهدى ضد الزخارف والنقوش والموسيقى والسماع والرقص ، ولم تلبث أن أصبحت أعظم حامية للفن المغربى فى عهد عبد المؤمن بن على ، وهكذا ذهب الفن المرباطى فى قبب القرويين ضحية الخوف والقلق وترك عبد المؤمن آثاره المعمارية فى مسجد تازة وتتملك وترك خلفاؤه آثارهم فى مسجد الكتبية كما ترك المنصور أعظم مآثر العمرانية المتجلية فى مراكش واشبيلية والرباط . ففى منار الكتبية طبقات متوالية من الغرف المقوسة السقف منعرج بدون رددج ، والجدران مطلية بالجبس الكلسى وهو رمادى ضارب الى الصفرة وبه نقوش تعتمد على تسميطيرات زهرية ونخلية (هسبيرس مجلة 6 ص 186) ، وفى داخل المسجد قبب مخروطية ، وأفخم قببة ثمانية الهندام مضلعة ومقربصة وأساطين رخامية منها ما جلب من الاندلس ، والجديد فى الكتبية هو ضخامة برج المؤذنة وقبتها ، ويمتاز بعظمة الاساكيب والاروقة وصفاء رسوم الاقواس وتجانس الصحن المركزى والصحن الجانبية فى وحدة المقربصات وقوة الخشب وتناسق الفسيفساء .

وبالكعبة منبر جميل يرجع الى عهد عبد المؤمن بن عالى فيه خشب متين منقوش بأروع الخطوط ويرى بأسى (الهندسة المعمارية الاسلامية ص 220) أن منبر الكتبية أجمل منبر فى العالم الاسلامى .

ومن آثار الموحدين مدينة الرباط حيث تجاوز سورها خمسة كياومترات من باب القصية ، وعدد أبراجها 74 .

وتقدمت هندسة الرى فى عصر الموحدين ولا سيما السواقي وجلب المياه ، ففى مدينة الرباط آثار قنوات لنقل ماء عين غبولة الى سلا والرباط .

وأسس المنصور عدة منارات وقناطر وحفر عدة مطافىء وأسس الملاجىء من سوس الى بنى مكدود بطرابلس ، ولعل اهم منجزاته العمرانية مارستان مراکش الذى كان جنة الدنيا حسب اوصاف للمراكشى فى المعجب .

وشيدت مدينة الرباط بحجارة المعابد الرومانية القديمة وعمل فى بنائها اربعون الف من الاسرى مقابل تحريرهم — وتجمعوا بعد بناء الرباط قرب شمال مدينة فاس حيث حافظوا تخليدا لانتصاراته العسكرية فى اسبانيا ، وكان الغرض بناء مدينة عصرية على غرار الاسكندرية فى مصر ، ويذكر الوزان انفسى ان المنصور بنى مدينة الرباط فى مدة وجيزة وكانت بالغة الجمال بمنازلها وقبابها ومدارسها واسواقها ومستودعاتها ومستشفياتها .

ونتصف آثار عبد المؤمن بعظمتها ونشاطاتها مع قلعة الزخارف ، واعتمادها على خطوط مترنة توحى بالوقار ، فكانت مؤسستهم ضخمة لا صغيرة وجميلة وفى آخر عصر الموحدين

عادوا الى اقتباس روائع المرابطين ، فقد امر الناصر الموحدى ببناء باب كبير فى مسجد الاندلس ذى درج بأسفلها شبك رائع من خشب الارز ذى ثلاث خوخات ، وبعده بياة من الحجر الاصفر ينفجر منها ماء واد مصمودة، وبأعلى الباب قبتان . الاولى مقربة بالجص ، والثانية خشبية ، وبجانب الباب سقاية ومدخل لمصلى النساء ودار للوضوء على غرار مسجد القرويين ، أما مسجد حسان فمرتفع على البحر ب 30 متر ، والمنارة عرضها وطولها 24 مترا ، وكان المسجد مربع المساحة متساوى السورى ومحرا به مربع الشكل ، ومن اشهر المهندسين المعماريين فى عصر الموحدىين حسان بانى الصومعة والمدفون بالرباط وابن جبير بانى صومعة اشبيلية .

الاقتصاد :

تدارك الموحدون الاخطاء الاقتصادية التى عاجلت دولة المرابطين فسعوا الى تطوير الفلاحة واقاموا منشآت صناعية سواء فى الاندلس أو المغرب كانشاء صناعة الحرير فى المرية والورق فى سبتة وشاطبة ، وبنوا بفاس دارا لصناعة السفن فى الجبالا ت ، كما فى زهرة الآس . وذكر أندرى جوليان فى كتابه تاريخ افريقيا الشمالية (ص 410) أن خلفاء الدولة الموحدية جعلوا حدا للاختلال المالى السنوى الذى كان يعانى به ملوك الطوائف فاعتنوا بالفلاحة والصناعات وكانت مدينة المرية تنتج الحرير وأوانى النحاس والحديد كما كانت مدينة سبتة مشهورة بورقها كمدينة شاطبة .

وكانت الأندلس تمتد المغرب بالخشب والزرع والمنتجات الصناعية والواردات الشرقية أما فى التجارة الخارجية فقد تبادل المغرب مع تونس وبجاية وقسطينة ووهران وتلمسان كما تبادلت

سبئة مع بيزة وجنوة والبندقية ومرسيايا كما بنيت دار للصناعة في سلا على يد مهندس اشبيلي عربى ، وكان في فاس في زمن المنصور 116 معملا للصابون و 12 لسبك الذهب والنحاس و 11 لصنع الزجاج وغير ذلك من المنشآت . وتكلم الادريسي عن تجربة زراعة القطن في تادلة ، وذكر ابن غازى ان محمدا بن واجاج غرس ايام الموحدين بفاس وتازة ومكناس بحيرات الزيتون ، كما ذكر ابن عذارى ان عبد المؤمن انشأ اجنة نموذجية وهى

القوى العسكرية (الاسطول الموحدى)

لقد انتهى الصراع بين دول غرب اوربا ودول البحر الابيض المتوسط الاخرى الى انتصارها على القوى البحرية الاسلامية وقضائها على البيزانطيين ، ولكن انتفاضة المغرب في عهد المرابطين والموحدين اعاد للاسلام هبة بناء اسطول عظيم في الاندلس والمغرب والجزائر ، وبذلك تحرر شمال افريقيا من غزو الرمان كما تخلصت منه جزر البليار ، ولما صدع المذهب الفاطمى الوحدة الاسلامية ونشأت في افريقيا دولة مستقلة في القيروان ثم دولة مستقلة في المغرب هى دولة الموحدين التى رات نفسها مضطرة ازاء هذا الخلاف المستعير في صفوف المسلمين الى اعلان انفصامها عن بغداد ، ثم لم تلبث ان اكتسحت دولة القيروان وحاولت الاستيلاء على مصر بعد حملات دعائية موجهة كما في البيدق معتمدة على اسطولها العظيم .

وقد عظم الاسطول المغربى في عهد الموحدين باتفاق المؤرخين واستنجد به صلاح الدين الايوبى ليرد عدوان الصليبيين ، وتوفر الموحدون على اسطول عظيم لا شك انه من انتاج المغرب حيث كانت دار الصناعة بسلا والرباط ، وكان هذا الاسطول

يسيطر على البحار بل كان أول اسطول عظيم فى حوض البحر المتوسط .

ويذكر ابن ابي زرع فى الانيس (ص 160 ج 2) ان عبد المؤمن اسس عام 557 اسطولا له قطع متعددة ، منها 400 فى حلق المعمورة (أى المهدية) و 120 فى مرسى معمورة ، وفى شاطئ الشمال الغربى 100 وفى شاطئ الشرقى 100 وبلاد الاندلس 80 .

القوى البرية :

سار الموحدون على غرار اساليب التنظيمات العسكرية المرابطة التى اعتمدت الجمل فى حرب الصحراء والفرس فى غيرها والقتال الجماعى وارهاب العدو فى حركة السير المنتظمة التى تسير على نغمات الطبول المدوية وكأنها طبول غابات افريقيا توحى الى النفس بالرهبة .

وكان الجيش الموحدى يعتمد على القبائل البربرية وبالاخص المصامدة الذين هم عصبية الموحدين وتذكر كتب التاريخ احصاءات عن الجيش المرابطى وقوته وعدده وأساليبه ومعاركه التاريخية كمعركة العقاب .. وغيرها ..

الديبلوماسية :

كانت الاندلس فى هذه الحقبة وهى تتأخم البلاد الأوربية تبعث بسفرائها الى عدة عواصم غربية من أهمها سفارة الشاعر الاندلسى (الغزال) الى البلاد الانجليزية ، حيث يروى فى مذكراته التى تناقلتها كتب الادب والتاريخ الاندلسى كثيرا من غزلياته فى اميرات شقروات اعجب بحسنهن واعجبن بذكائهن

ودمائه اخلاقه .. أما في المغرب فان المرابطين طبعوا سياستهم في الداخل والخارج بكثير من جدية الفقهاء ولذلك فقد اختاروا سفراءهم من اعلام الفقه كابن العربي المعافري ، وجاء الموحدون الذين ورثوا رسالة المرابطين ، فتلقوا سفراء من المشرق في عهد صلاح الدين الايوبي الذي استنجد بأسطول المنصور الموحدى لمقاومة الغزو الصليبي ولا نتعرض بتفصيل لهذا الموضوع الذي يحتاج الى كثير من الشرح لتبيان وجهة نظر المغرب في هذه القضية بالضبط .. كما بعثوا الى بلاط (فردناند) بالسفير ابن الوزير وابى العلاء بن زعرون ، والى البابا (انوصانت) بسفير آخر اليه .. وقد كانت الممالك الاوربية تنظر الى المغرب بكثير من التقدير بعد انتصارات المرابطين والموحدين في الاندلس وفي تاريخ صقلية نجد (روجار) يقدر الجغرافى المغربى الشريف الادريسي ، ويطلب منه الاقامة بعاصمته استفادة من علمه وخبرته ، ونجد (جون ملك الانجائز) يتسابق ليخطب ود الموحدين الذين كانت سياستهم الخارجية ترمى الى اضعاف سلطة (البابا) والتحالف مع الامارات المسيحية حتى يخف الضغط عن المسلمين في المشرق الذين كانوا يكابدون عناء الحروب الصليبية .. وقد تحدث لنا المؤرخون المغاربة وبالاخص « ابن ابى زرع » عن محاولة ملك (بيونة) وهى مملكة (بايون) التى كانت مقتطعة من فرنسا وتابعة لفرنسا ، عن قدومه على الناصر وهو يستعد لمعركة العقاب التى تعتبر بداية انهزام دولة الموحدين في الاندلس .. فقد جاء في القرطاسى لدى ذكره لدولة الناصر الموحدى ان ملك بيونة جاءه مستسلما خاضعا مستغفرا يطلب صلحه ونيل عفوه وصفحه وانه لما سمع بدخول امير المؤمنين الى اشبيلية ادركه الخوف ، فبادر الى الادارة عن نفسه وبلاده وبعث رسوله اليه يستأذنه في القدوم عليه ، فأذن له أمير المؤمنين في

الوصول وكتب الى كل بلد من بلاد الاندلس هى عن طريق هذا اللعين اذا مر بهم ان يضيفوه ثلاثة أيام ، فاذا عزم على الرحيل فى اليوم الرابع يحسبون عندهم من جيشه الف فارس فخرج هذا اللعين من قاعدة ملكه (بيونة) قاصدا أمير المؤمنين ، وهكذا كان كلما وصل الى مدينة اسلامية استقبل احسن استقبال وانتقى من جنوده الف فارس فتخلى عنها ليسير تحت ظلال سيوف الموحدين ، وكانت من هداياه الى الناصر كتاب الرسول الى هرقل محفوظا فى حلة خضراء فى وسط صندوق مملوء مسكا) وقد تلقاه الملك الموحدى فى موكب فاخر من (قرمونة الى اشبيلية) وتولى ابو الجيوش عساكر الترجمة ، واقتضى البرتكول ان يدخل الملك يوحنا من باب والامير الموحدى من باب آخر حتى لا يقوم الملك الموحدى من أجله .. ودخل معه فى حفلة كبرى مدينة اشبيلية وكانت نتيجة المحادثات ان الامير الموحدى صالح جون صلحا مؤيدا ما دامت دولة الموحدين .. ويروى الناصرى فى الاستقصاء نفس القصة بعد ذكره لغزوة العقاب وقد تصرف فى الرواية حيث جعل (بنبلنة) بدل (بيونة) ولكن ذكره لكتاب هرقل ونتيجة المباحثات لا يترك مجالا للشك فى ان المراد يملك (بنبلونة) هو ملك بيونة وقد يكون حرف الكلمة فى النسخ أو حرفها لانه وجد ذكر (بنبلونة) ولم يجد (بيونة) .. وكيفما كان الامر فإن المؤرخين المغاربة لم يذكروا اسم الملك ولا اسم سفيره ، وانما اهتموا بوصف الاستقبال ومظاهر الحفاوة وتركوا التفاصيل للمؤرخين الغربيين الذين اتموا الاطار لهذه السفارة وأسبابها ونتائجها ، وعرضوها فى اطار نقدى لهذا المسيحي الذى يتنازل أمام ملك مسلم والمؤرخون المغاربة يرون صراحة الملك جاء بنفسه ليحظى باستقباله الامير الموحدى ، كما يذكرون انه مهد لذلك بمبعوث خاص . أما فى تاريخ الانجليز فيذكرون ان (يوحنا جان

بدون ارض) ولد بأكسفورد . وملك بلاد الانجليز من سنة 1199م الى 1216 م .. وهو الولد الخامس لهزى الثانى ، وقد تصدى منذ شببيته الاولى للثورة على ابيه بمساندة ملك فرنسا بعد موت اخيه رشارد قلب الاسد المعاصر لصلاح الدين الايوبى فى الحروب الصليبية ، وقد خاض مع فرنسا وكانت احدى مقاطعة هذه الاخيرة تابعة لانجلترا وهذه المقاطعة هى (بايونة) التى جاءت السفارة منها الى الاندلس .

عصر بنى مرين

(القرن السابع الهجرى – التاسع الهجرى)
 (القرن الثالث عشر – الخامس عشر الميلادى)
 669 هـ – 870 هـ 1270 م – 1465 م

ينتمى بنو مرين الى قبائل زناتة البربرية وموطنهم الاصلى بين تلمسان وفكيك فى المغرب الشرقى ، حيث كانوا قبائل رحالا يمتازون على عادة الرحل فى أماكن الرعى أو يغيرون على قبائل أخرى غير متحالفة معهم ابان الجفاف والقحط .

واستعان بهم المرابطون والموحدون فى الخدمات الحربية حيث كانوا يجيزونهم الى الجهاد فى بلاد الاندلس ، ولما انهزم الموحدون فى معركة العقاب وضعفت دولتهم بدأوا يشنون هجماتهم على نواحي تازة الى أن تمت لهم السيطرة على المغرب بعد عجز الموحدين عن مقاومتهم .

كانت زعامتهم فى أول امرهم لعبد الحق بن محيو فلما توفى توارثها ابناؤه الاربع من بعده، وكان أشهرهم يعقوب بن عبد الحق الذى كان احد رجالات بنى مرين المشهورين وأول من تلقب بأمر المسلمين وفى عهده بنيت فاس الجديد 674 هجرية وكانت عاصمة بن مرين بعد ان كانت مراكش عاصمة الموحدين، وامتاز عهده بمحاولة استرجاع الاندلس بالاتفاق مع ملوك بنى النصر حيث تعاونت حكومته معهم وأقام بينهم وحدة عسكرية لمقاومة المسيحيين الذى كانوا يهودون غرناطة آخر معقل للمسلمين بالاندلس ، وقاوم ماوك بنى زيان العبد الواديين فى تلمسان ، وظلت الحرب بين المغرب وبينهم زهاء ثلاثمائة سنة .

كما ظهر بين ملوك بنى مرين يوسف بن يعقوب بانى مدينة المنصورة قرب تلمسان ، والسلطان أبو الحسن المريني (752 هـ - 1351 م) وابنه أبو عنان الذى كان أحد بناء الحضارة المرينية التى ما تزال آثارها واضحة فى المدرسة البوعنانية وساعتها المائية وعدة مدارس للطلاب فى فاس ومكناس وشالة ، وسلا .

وقد نمت مدينة مكناس فى عهدهم لأنها كانت مقر وزرائهم ، كما جعلوا من شالة مقبرة للوكهم لأنهم التزموا بالجهاد فى الأندلس وجعلوا من مدينة الرباط مقرا ستراتيجيا لبناء الأسطول كما كان الموحدون من قبلهم ، ومقرا للتجمع العسكرى للجهاد فى الأندلس ، ومهما عانت دولتهم من صنوف الفتن والقلق فقد استطاعوا ان يسيطروا سيطرتهم على المغرب العربى كله وان ينتصروا على المسيحيين فى معارك فاصلة ولكن خلافاتهم السياسية قوضت وحدة البلاد فخلفهم أبناء عمومتهم (بنو وطاس) الذين كان عهدهم كثير الفتن والفوضى مما عرض المغرب لأطماع البرتغاليين والاسبانيين فتقاسموا الشاطئ المغربى ، واستولى المسيحيون على غرناطة وطردها المسلمين نهائيا من الأندلس فلجأ أبو عبد الله بن الأحمر الى المغرب وكان محمد الشيخ الوطاسى ملكا على المغرب فلما توفى سنة (910 هـ - 1505 م) خلفه ابنه محمد المعروف بالبرتغالى .

وقد نتجت عن الفوضى فى عهد الوطاسيين تهديد المغرب بالأتراك الذين كانوا مستقرين بالجزائر والذين احتلوا فاس ولم ينقذ المغرب من أزماته الا بعد معركة (واد المخازن) التى اسفرت عن استيلاء السعديين على بلاد المغرب .

ورغم الاضطرابات السياسية فى عهد بنى مرين فقد كان

قمة عصر الادب والفن بعد. أن كان عصر الموحدين عهد الفلسفة والفقه ويعتبر ان نتتبع بالذكر مشاهير هذا العصر ولكي يكفى ان نذكر منهم عبد العزيز الملوزي وفيلسوف التاريخ الاسلامي ابن خلدون ، والموسوعي ابن الخطيب ، والفقيه أبو الحسن الصغير والخطيب ابن مرزوق والقاضي محمد المقرئ والرحالة ابن بطوطة ، وغيرهم كثير .

الثقافة الاسلامية في العصر المريني

كان هدف بنو مرين الى انشاء امبراطورية اسلامية على غرار الموحدين ، واستعانوا على تحقيق هدفهم بواسطة الزوايا الصوفية ، فازدهرت الشاذلية الجبرية في عهدهم ، وتفرعت عنها كثير من الطرق بسبب كثرة المرابطين ذوى النفوذ الروحي مما أدى الى تكوين اقطاعات صوفية جهوية ، وساعد انهماك المسلمين في الاندلس على تكوين روح الجبر والاستسلام كما ظهرت الطريقة الجزولية والتبعية من امتدادات الشاذلية فتحقق للدولة غايتها السياسية على انه بجانب هذا الاتجاه الصوفي كان هناك عمل منظم لاهياء المذهب السني على الطريقة المالكية لتحقيق تكوين مناعة ذاية لمقاومة التفسخ الاجتماعي الى احياء مذهب مالك بجانب الحركة الصوفية ، ولذلك اسسوا لتحقيق هذه الدعوة عدة مدارس علمية ، واشرفوا على سير التعليم بها حسب توجيههم الفقهي، وشجعوا الطلبة على الاقامة بعاصمة فاس ليرتووا من معين معين المذهبية الموجهة ، وزاد في تمكينهم للاقرويين ان كانوا يتسارعون الى الاحتفاظ بما تبقى من تراث الاندلس وايواء خزائنها ، فنقلوا الكتب من الاندلس الى فاس ، ويروى المؤرخون ان ثلاثة عشر حملا من نفائس المخطوطات نقلت الى فاس ، وكما اوت العاصمة الكتب آوت العلماء الواردين على

المغرب ، ومنهم ابن الخطيب وابن خلدون وغيرهما من فطاحل الفكر في المغرب العربي الذين سعوا الى تحصين الثقافة في مدن مغربية في يد العدو ومنها سبتة التي استولى عليها البرتغال سنة (1415 ميلادية) لاذ علماءها بالقرويين فأصبحت هي مركز الاشعاع الثقافي في العالم الاسلامي ، وتعددت بها كراسي العلوم خصوصا التي تعتنى بالدراسة الدينية حفظا وفهما مع الايثار الايثار للحفظ ، وتعددت المدارس حيث زاد المرينيون على ما بقى منها في عهد المرابطين والموحدين ، وكان لكل مدرسة استاذان يراجعان مع التلاميذ ، كما تعددت الخزائن الكتبية بها ولذلك ازدهرت القرويين في عصر بنى مرين ازدهارا كبيرا ، ويقول ليفي بروفنسال : ان بفضل ملوك بنى مرين لم تكن عاصمة فاس في القرن الرابع عشر لتحسد العواصم الاسلامية الاخرى .

بل ان (باديا ليلبيش) المعروف بعلى العباسي اعتبر فاسا بمثابة ائينا افريقيا ، وذكر مثل قوله الدكتور رينو في كتابه « الطب القديم بالمغرب » : حيث اصبحت القرويين ملتقى الاجانب من مختلف الجنسيات والديار كما قال دو كمبو . وذكر كابريل شارمس في كتاب « سفارة المغرب » ان مدارس فاس كانت طوال مدة مديدة أولى مدارس العالم ، ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة العربية التي شمع نورها في اسبانيا فأضاء جوانب اوربا ، وشجعت الحركة التعليمية تشجيعا منقطع النظير، وكان الاساتذة يتقاضون علاوات وكل ما يحتاجون اليه طوال السنة ويتمتعون بحق السكنى مجانا كما ورد ذلك عن الحرشاوي احد علماء الجزائر الذين درسوا بفاس في القرن التاسع عشر م ، فقد روى عنه دلفار زيادة على ما ذكر ان الاساتذة كانوا ملزمين بالكلث في فاس ، وبنى ابو يوسف المدارس والمعاهد ورتب لها « اجري المرتبات على العلماء ، والطلبة في كل شهر كما بنى

المدارس والمعاهد ورتب لها الاوقاف واجرى المرتبات على العلماء .
والطلبة في كل شهر كما بنى الزوايا في الفلوات النائية واقف عليها
الاقواق ، وسار المينيون على منواله فأنشأ ابو الحسن في كل بلد
من بلاد المغرب الاقصى والايوسط (مدرسة) سواء في فاس وتازة
ومكناس وسبتة وطنجة وآنفا وأزمور وأسفى ومراكش والقصر
الكبير وتلمسان كما جاء في (المسند الصحيح لابن مزوق ص 35
من مجلة هيسبيرس عام 1952) ، وقد وقف محمد الابلى
العبدري استاذ ابن خلدون ضد بناء المدارس ، ولاحظ ان العلم
اذهبه بناء المدارس ، وايده احمد بابا السودانى الذى ذكر بأنه
أصبح يتعاطى القراءة على الكراسى من لا يحسن العلم حيث
صار ذلك بالتوارث (نيل الابتهاج ص 246) . وقد حبست
اوقاف على تشجيع بعض العلوم . ففى نشر المئانى ان من
احباس جامع الاندلس قراءة التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن
كراسى العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب
وصغرى السنوسى والرسالة ونظم ابن زكرى لها احباس خاصة ،
وفى نيل الابتهاج ان من احباس فاس وقف على استيفاء ابن حجر
على الصحيح .

وكان الطلبة يقيمون فى احدى المدارس الاربع عشرة
ويتقاضون خبزة فى اليوم ، ولاحظ ابن مزوق ان انشاء المدارس
كان فى المغرب غير معروف حتى بنيت مدرسة الحلفائين بفاس
وهى الصغارين المؤسسة عام (670) .

ثم انشا ابو سعيد مدرسة العطارين ، والبيضاء والصهريج
والوادى والمصباحية ، ويظهر ان المقصود من ملاحظة ابن مزوق
هو انتشار المدارس ، والا فقد ذكر عبد السلام القادري أن يوسف
بن تاشفين اسس مدرسة الصابرين بفاس ، وفى الجذوة ان مفضل
العذرى صاحب الشرطة والحسبة بفاس هو أول من سن بناء

المدارس ويظهر ان أول مدرسة بنيت بالمغرب قبل هذا العهد يرجع تاريخها القرن الخامس حيث أسس وجاج ابن زلو اللمطي تلميذ ابن عمران الفاسي دار المرابطين لطلبة العلم كما ذكر صاحب الانيس المطرب .

التعليم في العصر المريني :

لقد جمد اسلوب التعليم في أول العصر المريني واصبح كما عبر عنه ابن خلدون بقوله : « وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين ، وانما تصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها .

وخمدت الحركة الفكرية والحررة التي بثها الموحدون ولم ولم تبق منها الا بقايا ضئيلة محفوظة عند بعض العلماء المبتوثين في عدة مدن من الذين تسلسل فيهم النبوغ المغربي كالحضرمي وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم ، على انهم بلغوا القمة في الشروح والحواشي الفقهية ، وكان من نبغاء علماء الاسلام في هذا العصر العبدوسي وابن الصباغ الذي املى في حديث ابى عمير اربعمئة فائدة ، وصرف العلماء في هذا العصر همتهم الى (التلخيصات والاختصارات) وقد وفقوا في بعضها ولم يوفقوا في بعضها الآخر ، ولعل من اهم المحاولات ما كتبه ابن آجروم في ذلك المختصر الصغير لدراسة النحو العربى ، وكتابه يعتبر تجربة للتبسيط والاختصار والاخذ بمختلف المذاهب النحوية ، فلم ينتقيد بمدرسة البصرة أو الكوفة فهو يرى الاعراب معنويا على عادة الكوفيين وقسمه الى اربعة اقسام منها الجزم على طريقة البصريين .

على ان اهم علم نبغ فيه المغاربة هو علم القراءات فقد

اشتغلوا به واتقنوه ، ويقول عنه الدكتور العزيز الاهواني بأن هذا هو الميدان الوحيد الذى سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة .

ولعل عناية العلماء المغاربة بالفقه فاقت العناية بأى علم آخر واصبح مختصر خليل هو المدونة الجديدة التى يعذب الكلام فى حل رموزه ، وقد ادخل مختصر خليل ابن اسحاق المالكى المتوفى سنة 767 هـ . الى فاس الفقيه محمد الفتوح التلمسانى المتوفى سنة 818 بمكناس ، وكتبت عليه عشرات الشروح والحواشى والتعليقات واستنبطت منه الفتاوى والاحكام ، كما يبدو فى تأليف المفتين بهذا العصر ، واصبح كتاب (العمل الفاسى) للزقاق الفقه الرسمى فى افريقيا الشمالية كلها ، واخذ القرشى نفس الطريقة عن الزقاق ، ورغم ان الثقافة المغربية الاسلامية اجتازت عدة قرون فلا نجد محاولات فى تغيير الاساليب والمناهج الا ما يلاحظ من شدة الاقبال على العلم ونشاط بعض فروع المعرفة ، ولدينا وثيقة مهمة جدا عن سير الدراسة وبرامج التعليم ومناهجه فى القرويين على عهد الوطاسيين وهى (الرسالة المجازة فى معرفة الاجازة) التى ألفها الصوفى المغربى الكبير أبو الحسن على بن ميمون المولود سنة (854) الذى درس بفاس سنة (887) ، ويذكر المؤلف انه اقام بفاس ايام الوطاسيين ذاكرا انه اقام بفاس بقصد الدراسة فى القرويين طيلة اربعة عشرة سنة حيث اقام فى بعض مدارسها ثم خرج قاصدا الحجاز وجال فى الشام واستوطن فى الاخير مدينة بورصة بتركيا وكان صوفيا سنيا واشتهر بهذه السيرة وهذا المذهب وتصدى للرد على خصومه فى عصره ، ثم رجع الى الشام حيث توفى بها سنة (917) وترك عدة مؤلفات اهمها « الرسالة المجازة » وكتاب

(1) مجلة معهد المخطوطات العربية ، الجزء الاول المجلد الاول .

« بيان غربة الاسلام » وهى فى الرد على مفتقرة اهل مصر والشام .

ويظهر من هذه الرسالة ان العلوم الشائعة فى هذا العهد بالقرويين هى الفقه المالكى والحديث والتفسير والنحو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وباقى العلوم العقلية ، وان الدراسة كانت تعتمد على حفظ النصوص ، ولا يقدر من الطلبة والاساتذة من لا يحفظ النصوص ، وكان شعارهم (من لم يحفظ النص فهو لص) ، ويروى مؤلف السلاوة عن هذه الرسالة التى اقتطف شذرات منها بأن مؤلفها ابن ميمون جال فى تلمسان وبجاية وتونس والحجاز ومصر فلم ير فى علماء هذه المدن واشياخها من يصل الى درجة علماء (مدينة فاس) ، ويستفاد من هذه الرسالة بأن التلميذ قبل الدخول الى القرويين كان الابد ان يكون حافظا للقرآن والرسم والتجويد وحافظا المصنفات والمنظومات وهى ذلك منظومة فى الفرائض والحساب ورسالة ابى زيد القيروانى .

وكان الشروع فى الدراسة يبتدىء من الفجر الى ما بعد العشاء ، ويذكر ابى ميمون انه كان يشرع فى وقت مبكر ولا يستطيع العودة الى المدرسة لتناول الغذاء ، بل لا يتناول الا وجبة العشاء فقط ، وكان الاسلوب المتبع فى درس الحديث هو النقل الغزير ودراسة رواية العلماء وانسابهم مع ضبط المتن لغويا ونحويا وفقها واشتهر كتاب الجزولى على الرسالة فى الفقه اما المدونة فكانت تدرس بالنقل الكثير من كلام مشايخ المدونة من اولهم الى آخرهم ، وكان التجويد بالمدخل للامام الجرومى المصمودى والفقيه ابن مالك .

وقبل وقت العصر كان الطلاب ينصرفون عادة الى خزانة

الكتب (1) حيث يطالعون الكتب التى يوزعها عليهم الوكيل ، ويذكر المؤلف ان الخزائن بفاس لدى عهد كانت ثلاثة تشتمل على كتب كثيرة لا تكاد تحصى .

أما الحساب والفرائض فكانا يعلمان يوم الخميس والجمعة ، وهكذا يقضى الطلبة ايامهم الدراسية الى ان يحصلوا على العلم الوافر ويصبحوا فى عداد الاساتذة (2) .

ويتكلم الوزان الفاسى المعروف بليون الافريقى الذى كان حيا سنة (964) فى كتابه وصف افريقيا عن كيفية التعليم بفاس ذاكر انه توجد بفاس (فى عصره) مائتا مدرسة لتعليم الاطفال وهى عبارة عن قاعات واسعة داخلها محاط بالدكاكين لجلوس التلاميذ ، والمعلم يعلم القراءة والكتابة على الواح واسعة يكتب التلاميذ فيها جزءا من القرآن فى كل يوم ويسيرون على ذلك فيختمون القرآن فى سنتين أو ثلاثة ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظونه عن ظهر قلب واقصى ما يقضون فى ذلك سبع سنين ويتعلمون مع ذلك مبادئ قواعد الرسم ، ويدرسون هذا الفن بسائر المدارس العلمية مع النحو وله نظامه واجرة المعلم طفيفة واذا ختمه اقام الاب حفلة لابنه حيث يأتى راكبا على جواد رفيع (يعيره من عامل المدينة) بسلاحه الثمين (الى آخر ما وصفه من حفلات الكتاب كحفلة عيد المولد مثلا) ، والتعليم الثانوى يكون فى المسجد ويمكث الطلبة الافاقيون

(1) اسس ابو عنان المرنى خزانة كبرى فى القرويين جاء وصفها الجزئالى قائلا : اودمها من الكتب المحتوية على انواع من علوم الابدان والاديان واللسان والاذهان وذلك سنة 750 هـ

(2) كان علماء القرويين يؤدون علوم الآلة من نحو وصرف وبلاغة فى الصباح والمساء داخل القرويين ر أما الرياضيات والطب والادب والتاريخ فيؤدونها فى المدارس ، أما يوم علوم الطب والموسيقى ففى منازلهم .. وفى جامعة ليدن بهولندا تقليد من هذا النوع .

في المدارس ولم لهم في عصره جرايات وانما يتعيشون مما يتصدق عليهم به اهل البلد واهل نواحيها .

وكانوا من قبل يقيمون سبعة اعوام سكنى واكلا وكسوة ولكن حروب ابي سعيد عثمان ابي العباس آخر ملوك بني مرين قبل ولده عبد الحق اتت على مداخل المدارس بينما كان الطلبة في عهد ابي عنان من اعز الناس واكثرهم عددا ورزقا كما ذكر صاحب نيل الابتهاج .

وينتقد المقرئ في ازهار الرياض التأليف المكتوبة بعاصمة المغرب (فاس) بهذا العصر بأنها ضئيلة سواء في في التلخيصات أو الارتجال ، وانما تظهر تأليف فاس في النسخ فقط وبقي التأليف على ما هو عليه كما في مدونة ابن الحسن الزرويلـي الصغير المتوفى سنة (719) وكما في الديباج ، ثم جاء طلبة الجزولي الذي نسبت اليه تقاييد في الفقه وان كانت في الواقع من تقاييد تلامذته ، على ان المقرئ يتأثر بأراء ابن خلدون في كون صناعة التعليم أو ما يسمى اليوم بالبيداغوجية لم تبلغ الى فاس ، وانما رسخت اقدامها في تونس ، ويذكر بعد ذلك السلسلة العلمية الفقهية المبتدئة من الامام المازري ، أما العلوم النظرية فلاحظ للتونسيين ولا للمغاربة فيها على السواء الى أواخر القرن السابع حيث رحل ابن زيتون وحملها الى تلمسان .

ويروى لسان الدين ان الصبيان كانوا يدربون على حمل السلاح كما يحفظون القرآن ، وهذا يدخل في الوعي الوطني بهذا العصر وكذلك شاعت المحاضرات في العصر المريني ، فقد سافر عبد القادر بن سوار المحاربي الى غرناطة سنة 757 والقى بها عدة محاضرات .

وفي الاعلام بمن حل بمراكش واغامت من الاعلام لابن ابراهيم

(الجزء الثانى صفحة 22) ، ان أبا عبد الله محمد الملقب بجار الله خروف التونسى شيخ الامام القصار كان قرا فى تونس ومصر وغيرهما ، واقام بفاس يعلم المنطق والاصلين والبيان ، فهو مجدد تعليمها ، وتوفى بفاس سنة 966 .

الفن فى عهد بنى مرين (الموسيقى)

فى اوائل عصر بنى مرين ولد على بن عبد الله النميرى التشتري اللواتى سنة (610) حيث عاش متنقلا بين فاس ومكناس ومراكش وتوفى بدمياط وترك ديوانا ضمنه ازجاله وموشحات من انتاجه فى حلقات الصوفية ، والتشتري تأثر فى فنه بأبى قزمان وفى صوفيته بابن سبعين المتوفى سنة 660 . ومن ازجاله نوبات المؤلف الاربع عشرة نوبة الموضوع على نغمات الحجاز أو العشاق والسيكة والحسن والدوكاه والحجاز واست والشاركة والعراق . وترك تلحينا لقصيدة الامام البوصيرى وما تزال ازجاله وموشحاته تردد فى حلقات الذكر فى الزوايا بتونس والمغرب وبالاخص فى زاوية محمد بن عيسى دفين مكناس .

ويعرف له فى تونس أثر واضح فى الاغنى الشعبية ، بل ان تلاحين الششتري تعتبر مدخلا وتمهيدا لحفظ وصلات (المؤلف) فى تونس ، ويعتبر الششتري من رواد (الفنون المحببة) اى الفن الشعبى الفولكلورى وله اثر فى الرقص والموسيقى الافريقية (انظر ما كتبه البارون دو لانجى مؤلف المؤلف والفولكلور الاندلسى) .

واصل الموسيقى المغربية عربى صميم ، تمت تحت تأثيرات فارسية ورومية مكنتها من الاسس العلمية التى ارتكزت عليها ،

وعندما حملها زرياب الى الاندلس تأثر بالطابع المغربى واثرت فى الموسيقى الكنيسية الكريكورية .

وقد اشتهرت الموسيقى الاندلسية فى تونس باسم (المالموف) وفى الجزائر باسم (غرناطى) اما فى المغرب فنظرا لوحده مع الاندلس اعتبرت الموسيقى الاندلسية وليدة فيهما معا وهى تتألف من مجموع وحدات موسيقية تسمى كل واحدة (بالنوبة) ويكون لها نغمة خاصة تسمى بالطبع وعدد الطبوع 366 ، وعدد ميازينها اربعة : البسيط ، والقائم ونصف ، والبايحى والقدام وزاد المغاربة الذرج .

سكان المغرب فى عهد بنى مرين

يلاحظ ابن خلدون تقهقر نمو بلاد البربر واثـر الطاعون فى القضاء على تزايد السكان ويقول فى مقدمته :

وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة ، فقد انقلبـت احوال المغرب الذى نحن نشاهده ، وتبدلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من اجيال العرب لما كسروهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان ، وشاركوهم فيما بقى من البلدان لملكهم ، هذا الى ما نزل بالعالم شرقا وغربا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف وذهب بأهل الجيل ...

الاقتصاد :

كان الدينار المغربى فى عهد بنى مرين يعادل وزن الدينار الموحدى ، أما شكله فكان مدورا بينما كان الدينار الموحدى مربعا ويساوى الدينار المرينى 15 درهما و 400 حندوسا ... وكانت

العملات الرائجة في هذا العصر هي (الدوبل) رواجه بهسكورة و (السكودو) بفاس ، و (الدوكا) بتتسيغت . والدرهم (بسجلماسة و (الحندوس) المربع بفاس وسوس .

وذكر ابن بطوطة (1792) في رحلته ان دراهم المغرب صغيرة وان فوائدها كثيرة اى ان لها قوة شرائية كبرى ... وقارن المؤرخون اسعار المغرب باسعار مصر في هذا العصر فلاحظوا ان الدرهم الفضى بمصر كان يشاوى ستة دراهم من دراهم المغرب .. اى ان الاسعار بمصر بلغت ثلاثة أضعاف اسعار المغرب .

الفن المعماري :

اهتم المرينيون اهتماما كبيرا بالفن العمرانى فشكل الفن المرينى مدرسة قائمة الذات تمتاز بهندسة معمارية دقيقة وهندسة فنية ، ففي المدرسة بيوت للطلبة موزعة توزيعا هندسيا ، والفن يمتاز بدقة النحت والنقش والنخر والاعتناء بالساعات المائية (كالبغناية) ويمتاز بتزيين الحائط بالفسيفساء والزليج واشتغال الخشب ونحته وتصفيفه ، وقد قل الاقتباس والتقليد القديم ، واعتمد على المدارس الفنية (الاندلسية) النحت على الخشب والرخام بالتلوين والتذهيب ، واعانهم الخط العربى بجمال أشكاله وبساطتها على جمال النقش كما اعتمدوا على (الكايزات) فى البناء لان الواحها تريح الجزء السفلى فى البناء وتحمل العلوى لئلا ينكسر الحائط .

المرأة المغربية فى العصر المرينى :

نبغت فى العصر المرينى عدة نساء من اشهرهن الادبية الشاعرة صبح المشهورة فى أدب الشاعر الجزناتى والمحدثة

الشاعرة ام هانىء العبدوية والشاعرة سارة الطيبة والعالمة صفية العزفية .

الاسطول المغربى :

. ضعف الاسطول المغربى فى أوائل العهد المرينى بالنسبة لها كان عليه أيام الموحدين (400 قطعة) حتى لم يكن يربط فى سلا وانفا سوى (15) سفينة بينما كان لابی حاتم العوفى أمير سبتة (45 قطعة بحرية) .. ولم يلبث السلطان يعقوب أن قوى الاسطول بعد حروبه مع (الاسبان) فى شواطئ سلا والمهدية كما حصن المراسى الساحلية ، وبنى بسلا السور المغربى المقابل للوادی .. وقد كان الاسطول المغربى ينافس الاسطول الاسبانى المسيطر على البحر الابيض المتوسط والبحر الاطلى واذا كان اكتشاف امريكا ساعد على تطور بناء الاساطيل وتطوير الملاحة البحرية فقد كان للمغاربة أثر فى هذا الفتح نظرا لتجربة المغامرين فى البحر من قدماء العرب والانديسيين كالاخوة المغرورين الذين اعتمد على تجربتهم رجال البحرية الاوربية .

ولم يلبث الاسطول المغربى فى عهد بنى مرين أن اصبح قويا . وذكر المقرئ فى نفح الطيب أن أبا الحسن المرينى رحل الى تونس فى اسطول تبلغ وحداته 600 قطعة وقد غرقت كلها فى كارثة بحرية وهلك فيه كثير من رجالات الدولة والعلماء والنفائس والاعلاق والكتب .

وتوفقت دار صناعة السفن التى بناها الموحدون فى سلا فى أول العصر المرينى ، وكان الخشب يجلب اليها من غابة المعمورة على حلق الوادى ، ويذكر ابن القاضى أن الذى بناها هو مهندس اشبيلى عربى ماهر فى علم الحيل ، ونقل الانتقال بالطرق

الميكانيكية . وكانت بسلا جداول لاستقبال السفن وارجاعها الى المرسى تعمل بطريقة هندسية تعتمد المد والجزر البحرى وما تزال معالمها واضحة ليومنا هذا ولم يخل أسطول المكتشفين لأمريكا من عناصر مغربية . ولا شك أن اكتشاف أمريكا كان ذا اثر عظيم على حياة حوض البحر الابيض المتوسط . فالصراع المستمر بين الشرق والغرب حول هذا الحوض فتح للغرب طريقا جديدا وعالما آخر ... واذا كانت القوى العالمية اليوم تتسابق لارتقاء الفضاء فقد كانت القوى العالمية آنذاك تتسابق لارتقاء عالم المحيطات وكان عمل المغرب تطبيقا وتنفيذا لما ذكره الملاحون المغاربة والاندلسون .. ولهذا فان علماء المغرب سبقوا الى اعطاء معلومات حول اكتشاف أمريكا ، ومن المعروف قديما ان الفينيقيين طافوا حول العالم ووصلوا الى البرازيل التى ما تزال تحتفظ بحجارات منقوشة باللغة البونيقية وهى لغة افريقيا الشمالية فى عهد الفينيقين والقرطاجنيين .. كما يظهر أن قدماء المصريين أو من تأثر بحضارتهم عبروا من اسفى الى أمريكا على قارب مبنى بجبال البردى ، وأيدتها تجربة المكتشف النرويجى فى رحلة (رع) التى انطلقت من أسفى الى أمريكا الجنوبية .

الاختراعات الحربية :

يذكر المؤرخون ان الامير يعقوب حاصر ثوار مدينة المهديّة سنة 1205 م ضرب اسوارها بمختلف الآلات والقنابل ، وبالات لم يرها الناس من قبل ، فكانت كل واحدة منها ترمى قذائف كبيرة من الحجارة وقنابل مع الحديد فتسقط فى وسط المدينة ويقول (جوانفيل) مؤرخ الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع (949 — 950) : « وذات ليلة تقدم الممالك بكآلة من الآت فظيعة ... ووضعوها قبالة قاذفات القنابل .. ولقد أطلقوا

من هذه الآلة كميات هائلة من النار ... وهذه النار كانت كالبراميل المشتعلة ومن خلفها ذيل طويل ، وأما الصوت الذى كانت تحدثه عند انطلاقها فكأنه الرعد .. ويذكر ابن خلدون فى وصف معركة استعملت فيها المدافع : وعند ما عزم السلطان أبو يوسف فتح سجلماسة سنة 973 من ايدى بنى عبد الواد نصب عليها الات الحصار من المجانيق . وفى تاريخ (الازفونش 1) . أن مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثيرا من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير ، وذلك الى مسافة بعيدة من المدينة فيمر بعضها من فوق الجيش ويسقط بعضها عليه وكان بالمعركة كونت درجى وكونت ساسبرى الانكليزيان وشاهدا نتائج استعمال قوة البارود المتفجر ، ونقلنا هذا الاختراع الى بلادهم ، وبعد أربع سنوات من هاته الواقعة استعمله الانكليز فى معركة كريس التى حدثت سنة 1346 . ويعقب المؤرخون الاوربيون بأن هذه الواقعة هى الاولى من نوعها فى اوربا التى استعمل فيها البارود لغاية الحرب ... وقد استعمل العرب الاندلسيون (البارود) فى حروبهم ضد حركة الاسترجاع توفى بيزا باسبانيا سنة 1323 م ، ولا تزال المدافع التى استعملوها محفوظة فى أحد متاحف اسبانيا الى اليوم ، وأول كتاب وصف المدفع وتحدث عن كيفية استعماله مخطوط عربى يرجع تاريخه الى سنة 1304 م ، وظل المدفع مستعملا فى اوربا الى أن اخترع ريتشارد جاتلنج الأمريكى فى سنة 1861 المدفع السريع الطلقات . كما أن العرب هم أول من استعمل القنابل من الزجاجات المملوءة بالنفط سنة 934 م وقد استعملوا اسطوانات نحاسية لقذف المواد المتفجرة وقذائف البارود .

المواصلات :

اهتم المرينيون بالمواصلات وساروا على غرار الموحدين ، وجعلوا من جبل طارق قاعدة عسكرية مهمة ، وقد سلف ان حصنه عبد المؤمن بن علي سنة 555 هـ ، واستغله بنو مرين كنقطة للمواصلات مع الاندلس بطريق الحمام الزاجل ، وكانت فاس تتصل شرقا بتلمسان على طريق تازة ، وهى الطريق التى دخل منها العرب والفاطميون ، وطريق الفجيج (فكيك) ، ومنها الى سجلماسة مارا بصفرو ، وطريق يصل مراكش بفاس عن طريق الجبل ، وطريق بين اغمات واسفى ، ومراكش ودرعة وبين مراكش وأكادير وبين سجلماسة وتمكتو على فجيج (فكيك) .

الضرائب :

أما الضرائب فقد فرض أبوسعيد عثمان بن عبد الحق على من أطاعه من الناس قدرا من الخراج ، ومن امتنع فرض عليه الضريبة كاملة ، ثم فرض على امصار المغرب كفاس ومكناس وتازة ضريبة سنوية فى مقابل اصلاح طريقها وتأمينها .

وقد توفر لبنى مرين (رصيد مالى) وازدهار اقتصادى ، ويظهر من الهدايا التى كانوا يبعثونها الى جيرانهم وحلفائهم مدى غناهم وثروتهم .

التسامح الدينى :

اليهود فى عصر بنى مرين

كان اليهود يمثلون جالية كبيرة فى عواصم المغرب سيما بعد طردهم من اسبانيا على يد (ايزابيلا) وقد أحسن المغاربة استقبالهم ولكنهم مع ذلك كانوا يستغلون نفوذهم للعبث

بالمسؤولية ، كما وقع في عصر الوطاسيين (انظر الاستقصاء
عصر بنى مرين) وكانت لهم (اقطاعات) كالتى ظهرت في
عصر الوطاسيين والسعديين ، التى قضى عليها المولى الرشيد حين
حارب اليهودى (ابن مشعل) قسرب تازة ، وذكر اليوسى في
محاضراته ان يهوديا ورد لسجل ماسة وتظاهر بالاصلاح فغرر
بخلق كثير وادعى الولاية والاسلام ، ثم ظهر أخيرا تلاعبه
بخلق الله ، وفي تاريخ اليهود لاسحاق ولنفسون ذكر لمآت
العائلة اليهودية التى اندمجت في المجتمع الاسلامى ، والتى
بقيت محتفظة بطابعها الخاص ... كما يذكر من قبله البكرى في
المسالك والممالك (ص 115) ان فاسا كان يسكن فيها خلق كبير
من اليهود ، وشاهد المغرب بعض المدن التى تجمعت فيها
الجاليات وكونت بها كثرة ساحقة . كدبدو وصفرو ، والصويرة .
وميسور .

وكان الاسلام ذا أثر كبير في تطوير الفكر الفلسفى اليهودى ،
كما يبدو ذلك في فلسفة موسى بن ميمون ، واستعمل المثقفون
اليهود في افريقيا الشمالية اللغة العربية أداة للتعبير ، وفي كتاب
تاريخ المغرب لكودار ، أن اليهود كانوا يستعملون اللغة العربية
في كتابهم وتآليفهم ، ويذكر (ماسينيون) في مجموعة البحوث
والمحاضرات ان كتاب سيبويه كان أساس تجديد النحو العبرى
في فاس في القرن الرابع ، ولهذا تطورت اللغة العبرية بفضل العربية
فطورت معه التلموذ وشروحه والآداب اليهودية بصفة عامة ،
وكان مناحم بن سروق الاندلسى ويحيى بن داود حيوج من دعاة
احياء لغة العهد القديم ، بينما كان دنوثى من يهود فاس
ينادى بفتح المجال للعربية والخضوع لاصولها في فهم لغة
العهد القديم ، واستطاع أبو الوليد مروان بن جناح ان يؤلف في
تأثير العربية في اللغة العبرية معتمدا على معاجم اللغة العربية .

العربية والثقافة اليهودية وكان ابو زكريا حيوج الفاسى من مؤسسى فقه اللغة بالعبرية فى أول القرن الحادى عشر ثم مروان بن جناح من بعده الذى الف فى قرطبة (التقريب والتسهيل) ومن غريب الصدف أن يؤاف يهوذا بن ابراهيم الفاسى قاموسه المسمى (أجرون) بينما وضع المغربى ابن ابن اجروم كتابه فى النحو العربى المسمى (بالجرومية) . على ان يحى اسحاق بن يعقوب الكوهن المولود سنة 404 هـ شرح التلموذ وعلق بفتاوى مكتوبة باللغة العربية وترجم أبو سعيد بن يوسف (العهد القديم) الى اللغة العربية مضيفا اليه تفاصيل عن الارث فى الفقه الاسلامى ، ومن اشهر الاحبار يهوذا بن نسيم المغربى صاحب (انس الغريب) المتوفى سنة 1365 ميلادية وشرح ابو طبول (القرآن) معتمدا على مفاهيمه النورانية ، ومع الاسف فقد تنكر كثير من اليهود للتسامح الاسلامى فى المغرب .

ومن اشهر علماء فاس فى هذا العصر الجنوى الذى اشتهر ضريحه بها مزارا معروفا ، وهو متولد عن أب مسيحي وأم يهودية، فكان كالحليب خرج من بين فرث ودم (حسب تعبيره) وعندما تكالبت محاكم التفتيش على اليهود فى أوروبا وردت جاليات منهم سواء من ايطاليا أو انجلترا أو هولاندا أو فرنسا على المغرب فأواهم واحسن اليهم فنشروا بين اقوامهم معاهد العلوم الدينية التلموزية واعتاد اليهود أن يسكنوا فى احياء خاصة بهم تسمى (بالملاح) .. واشتغلوا بحرف خاصة بهم كذلك .

النظام القبائلى :

النظام القبائلى نظام عضوى يشد الافراد بعضهم ببعضهم بوهائج الدم والعادات والتقاليد ليجعل منهم مجموعة متماسكة تخضع للوحدات أكثر من خضوعها للعقل والمصالح

العامة .. وهو نظام يجعل السلطة في يد شيخ القبيلة الذى يتمتع بنفوذ واسع لا يقبل المناقشة والرفض ... وقد عرف نظام القبيلة في عدة أمم في أولية نشأتها قبل الانتقال الى الحالة الحضرية وسكنى المدن حيث تظهر أسباب أخرى للتكتل .

وكانت القبائل المغربية في القديم منتمية الى العنصر البربرى الذى يرجع فى أصله الى الجنس العربى القديم ربما كان من العرب البائدة التى سكنت باليمن وهاجر بعضها الى الشام وآخرون الى مصر ، ومنها عبروا الى المغرب .

ولهذا تجد وحدة فى نظام القبائل واحلافها بين العرب والبربر .

ودعت الضرورة فى النظام القبائلى الى استمرار التآزر مع القبائل بعضها ببعض ولذلك اعتمدت القبائل على نظام الاحلاف أو الحلف الذى عرفه العرب قبل الاسلام ، كحلف الفضول مثلا وعرفته القبائل البربرية فى المغرب قبل الاسلام ، ثم تحالفت هذه القبائل مع العرب استعادة لما عرفوا فى تاريخهم ، ولعل اقدم حلف مكتوب فيما نعرف هو حلف زناتة والعرب الذى وقع فى عهد الولاة فقد استمرت الاحلاف بين القبائل حفظا للتوازن وجاء عهد المرابطين ليعيد السيادة لصنهاجة ولمتة فتحالفت قبائلها لمقاومة حلف زناتة كما جاء عهد الموحيدين ليعيد السيادة لممودة ، ثم تحالفت قبائل زناتة فى عهد المرينيين للقضاء على وحدة الصنهاجيين ، ولاغراض سياسية واجتماعية تحالفت قبائل فى جنوب المغرب على اسس جديدة اجتماعية ودفاعية نذكر من هذه الاحلاف حلف آيت عطا فى الصحراء . فقد كان استيطان آيت عطا محدودا فى الشمال بخط دادس وتودغا ، وفركلا ، وغريس ، اما فى الشرق فبنتفيلالت،

وداعورة ، وفي الغرب بدرعة ، بينما نجد في الجنوب القبائل الصحراوية حيث يسود داخل البلاد سلسلة جبل سارغو ونخيل تازارت . وايت عطا في اغلبهم برابرة من صنهاجة التي تسكن بعض العناصر العربية من بنى معقل ، التي تبربرت لغويا وجد ايت عطا الذين يلقبون به هو (دادة عطا) وهو شخصية بارزة في القرن السادس عشر نجح في تكتل العناصر البربرية الرحل التي كادت ان تضعف بسبب غزو عرب معقل الذين كانوا يعتبرونهم اتباعا (1)... ونظام المحالفة لا يكون جديا الا عندما يكون تهديد ، وقد برزت احلاف في بداية القرن الثامن عشر عندما كان العلويون يحاربون في درعة وتافيلالت لتوحيد الجنوب « وللمحالفة نظامها الخاص » فهي تجدد في كل سنة بانتخاب « شيخ » عليها يكون اختياره حسب النظام في كل « خمس سنوات » وللشيخ سلطة تنفيذية كما ان وظيفته ان يكون حكما في المنازعات بين القبائل وفي تحديد الرحلة في طلب الكلا ، وهو الذي يدير السياسة الخارجية للحلفاء مستعينا بجماعة من الاعيان لترشده ولتراقبه أيضا ولديه اعوان تنفيذه يدعون (مزرج) ج (مزواج) يمثلونه في القبائل ، اما نفقات الحلفاء فتؤخذ من الغرامات وللحلفاء نظام قانوني مستمد من العرف يعتمد على المحكمة العليا التي يكون مركزها في « اغرم ايمازدر » حيث تحتفظ هناك بالرسوم القديمة للاتحاد (وبقانون (العرف القديم) وفي بعض النواحي بالواح خاصة ، وكل حكم تقضى به الجماعات أو المحكمون قابل للاستئناف ، وتذكر من هذه الاحلاف حلف (التكننا) وهو اتحاد عربى بربرى ، بين قبائل

(1) اعتمدت في هذا الفصل على ما كتبه ذ آدم في محاضراته بالمدرسة الادارية . وهو بحث في النظام القبائلى البربرى بصفة عامة . ولا يخلو من هفوات .

مستقرة واخرى رحل في الجنوب الغربى للمغرب وللصحراء ،
ولهذه الجماعة المتحالفة أفراها في جنوب الاطلس الصغير بوادى
نون ، وبالواحات الغربية لجبل بانى ، وبين وادى نون ووادى
درعة الاسفل ، وخيامها تنتقل بين حدود قرآها في الشمال ، والى
ما بعد الساقية الحمراء في الجنوب وتحد بالمحيط في الغرب
وبجنوب خط عرض تيندوف في الشرق وكانت تسكن هذه البلاد
في الاول قبائل رحل بربرية هي امثة التى اعتمد عليها عبد الله بن
ياسين ، وقد اتحدن في القرن الرابع الهجرى مع صنهاجة
موريطنيا الذين توسعوا في الشمال باسم (المرابطين) -
وانهزموا فيما بعد على يد الموحيدين واصبحوا عاجزين عن ان
يواجهوا فيما بعد غزو بنى معقل الذين توصلوا اليهم سنة 1218
وقد اختلطت لحظة مع قبيلة معقل ، وبنى حسن ، واصبحت عربية
واخذ هذا الاتحاد فيما بعد اسم (تكتا) التى تتكون من قبائل
الرعى وفلاحين ، وتجار ، ومن رحل اليهم له وكانوا يحافظون
على امن القوافل ويحمون الواحات ، ويجدر ان نلاحظ وجود
طبقات اجتماعية ، ففى المقدمة بنى حسن المنحدرين من محاربى
معقل ثم « الزوايا » من اهل صنهاجة الذين
يدفعون الجبايا ، ثم المعلمين وكذلك من (الحراطين)
الذين يمكن ان يكونوا بقايا سكان الصحراء السود القدماء أو
(الاحباش) كما في رحلة (هانون) البحرية أو العبيد السود
القدماء المستجلبين من الجنوب وتخضع هذه القبائل لرئيس
يتولى الحكم عن طريق التوارث . أو بمجلس اعيان ، وفي بعض
الاحيان يوجد المجلسان معا الامر الذى يدل على اصل تكتا
المزدوج المتألف من (عرب وبربر) وكان الرؤساء في غالب الاحيان
يوجد المجلسان معا الامر الذى يدل على اصل تكتا

المزدوج المتألف من (عرب وبربر) وكان الروساء في غالب الأحيان مقيمين أو رحلا صغارا .

واتحاد هذه القبائل ليس له نظام خاص بل هو عبارة عن دائرة تضم قبيلتين كبيرتين وهما قبيلة آيت جمل وآيت عثمان (آيت يلة) اللتين تتافستا على السيادة حيث ظل هذا التنافس يسود كل حياة تكنا السياسية وربما كان أصل الاصطدام الذي وقع بين الغزاة والرحل (آيت جمل اصحاب الجمال) وبالمخيمين الذين لم يخضعوا لهم ولتحقيق الترابط والتحالف توجد عادة الذبيحة) وهي عادة تربط به القبائل بعضها ببعض .

التنظيم الاجتماعي والسياسي :

تحتاج القبائل الرحل الى تجمع ، ومن يعيش حياة الرحل يجد في عزله قساوة تقضى على الحياة ولضرورة المحافظة على سلامة القبيلة وضرورة توفير قوتها فمن الضروري ان تتحالف مع جيرانها متى امكن ذلك لتوفير حماية كافية ضد الغزو ، والغزاة والغزو عبارة عن حملة للنهب والسلب ، غايتها الانقضاض على قطعان القبيلة المجاورة كما كان ذلك شائعا في البلاد العربية في العصر الجاهلي وترجع هذه الحملة في طبيعتها الى البحث عن العيش ولذلك يتجنب ، كلما امكن ، اسالة الدماء ولقد اصبح للغزو وضع له مزاياه الخاصة كالفرسية والشجاعة والمروءة فالغازي منضبط وملتزم في فرقة منظمة على أهبة الاستعداد والحذر يحمي المراعى والخيام ، وقد توالد عن هذا النظام الحاجة الى رئيس أو شيخ لتنظيم هجرة القبيلة وتحسين المرعى واسلوب استخدام مختلف انواع المراعى حسب ما يتفق والفصول السنوية .

(الوحدات الاجتماعية) :

(الخلية الاجتماعية) الاسرة هي الخلية الاجتماعية وليست هي العائلة التي تكون في المنطقة معسكرا من خمسة أو ستة خيام متدرجة في صف (المكثر) ومرتبة حسب اصحابها والاسرة هي المعتمدة على القرابة اي « ابناء العم » اصحابها والاسرة هي المعتمدة على الغرابة اي « ابناء العم » الذين يتألف معسكرهم من عدة خطوط لخيام متوازية وتكون منحدره من جد مشترك ويمكن ان تضم ايضا لاجئين اليها ، وفي هذه الاسرة تظهر قوة الرجال واضحة بينما يتفق الجميع على حماية المرأة ، والدفاع عنها وحفظ كرامتها .

أما الفخدة فهي اصغر وحدة سياسية ويمكن ان تعرفها بأنها جماعة تقبل ان يكون لها رئيس عام ، لان الفخدة التي تفقد رئيسها تتلاشى وتتفرض وتحمل جمال كل فخدة علامة واحدة مشتركة ، وتنتقل كل الخيام التي تتكون منها الفخدة في وقت واحد ، وكل اعضائها يعتبرون انفسهم اقارب على الرغم من ان بينهم عناصر اجنبية عنهم تكون جزءا منهم أما القبيلة فعبارة عن اتحاد فخذات (اي من 6 الى 10) تتحدر في جد واحد ، يهتف باسمه في حرب القبيلة ، ويعتبر الاصل الذي تتكون منه عناصر القبيلة اشد اختلافا من اصل الفخذات وتتخذ القبيلة في السعادة رئيسا (شيخا) من احدى الفخذات الذي يكون له نوع من السلطة نظرا لغناه أو لشجاعته أو لدهائه ، ويتسع نفوذه أو يضيّق بحسب السلطة الشخصية التي يملكها على غيره من بقية رؤساء الفخذات الاخرى .

واهم ما يميز القبيلة عن غيرها من الوحدات الاصغر منها هو استطاعتها ان تنقسم الى فرقتين أو الى حلفين الذي يسمى

في جزيرة العرب اليوم «شنيك» وفي بلاد المغرب «الصف» أو (الف) وقد اكتسبت هذه الظاهرة في تاريخ العرب والبربر صفات واضحة متميزة مثل «الصفان» الكبيران في بلاد العرب وهما اليمن وقيس اللذان انتشرا في الاندلس والمغرب والصفان البربريان ، صنهاجة وزناتة ومن هناك نشأت أهمية النسايين وشجرات علماء النسب للبحث عن الاصول في الواقع ذات اعتبار أدبي بل اقتصادي أيضا ، وذلك للبحث عن المرامي ومكانها واين يقيم «الاقارب واولاد العم» ولو تمادوا في البعد في النسب ، ليكون حظهم منها شرعيا (1) .

الاتحاد القبائلي :

الاتحاد أو الحلف ليس له وضعيات قانونية ، خاصة ، متميزة ، فهو في بلاد الشمال يعتمد في الغالب على عاطفة اتحاد جنس (مثلا الذين يدعون انهم كانوا من اصل واحد) ، أو على اتحاد ذكرى ، بطولية سابقة وعلى العكس من ذلك في شمال افريقيا بالمحالفات الكبرى ظلت قائمة رغم قدمها وقد امكن ان يستمر حلف القائل رعاة الاغنام وان ينتقلوا من حياة اصحاب الجمال الى حياة اصحاب الاغنام من غير ان يفقدوا قوة اتحادهم رغم الرقعة الواسعة التي انتقلوا فيها .

(النظام القبلي في الاطلس المتوسط) ولقد ظل الاطلس المتوسط الى عهد متأخر مسرحا للاستيطان ، وقد عرفت القبائل التي كانت تقسم به من اصل القبائل الرحل في اقصى الجنوب ، وهم في اغاب الاحيان جبليون ، وقد ترك بنو مطير وآيت

(1) محاضرات . د. آدم بالمدرسة الادارية المغربية .

يوسى جانباً منهم فى وادى زيز الاعلى ، وتركت آيت واراين جانباً منها كذلك فى قصر السوق ، وارتحلت زايان الى سهل « ايخلف امان » نحو سنة 1000 م واستوطنت كروان تافيلالت والمرج قبل القرن العاشر وهذا يفسر جوانب خاصة فى نوعية (حياة القبائل) ذات الرحلات القصيرة فى الاطلس المتوسط .

أما من الناحية اللغوية فنحن نجد بعض القبائل لها لغة تمت الى لغات زناتية كآيت سغرشن وآيت واراين ، ولغة بعضها الآخر يتصل بصنهاجة كبنى مجليد ، وآيت يوسى ، وزايان .

(الإقامة والسكنى) يعيش اغلبية قبائل الرحل حياة الخيام لكنها تملك ايضا منازل أو « قصبة » حيث توجد مخازن للفحم واسطبلات للماشية ، واسم الخيمة عند البربر مأخوذ من (اخام جمع اخامن) واتعشوت وهى خيمة صغيرة خاصة بالرعاى (واعششبو) وهى خيمة كبيرة خاصة بالاغنياء والاثرياء وهذه كلمات عربية الاصل بخلاف اسماء المعدات المتعلقة بداخل الخيمة فهى من اصل بربرى ، والحقيقة ان الخيمة عربية اخذا البرابر من العرب ايام الفتوح الاسلامية بواسطة زناتة ولكن مع استعمالهم طريقة اخرى فى سكنها اذ لم ينسوا تماما ابنتهم القديمة ...

أما الدوار ، فلم تعرفه القبائل ذات الرحلة المحدودة فهى تستعمل لفظتين « سون جمع ايسون وايساون » (وهو مشتق من مصدر يعنى الدو ران) وتستعمل على الخصوص لفظه « تيجمى » جمع تيجوما « وهى التى يراد بها المنزل ، والشكل المعتاد فى الدوار وفى الدار هو الشكل الدائرى وتصطف الخيام فى الربيع على خط أو خطين متوازيين أو تتعزل فى المناطق الزراعية الفلاحية فى بعض الاحيان ، وسمى

وسط الدار اسم « تادار أسون » ولفظ « تادار » بشق من « دار » الذى كان مستعملا عند العرب الجاهلى وكان معناه « المركز » وجاء فى شعر امرئ القيس (دارة جاجل) ، ويكون بجانب الدار فى المغرب الاسلامى وبلاد البربر « تيمزجيدا » من كلمة « مسجد » أو « الجامع » وهو لفظ عربى كذلك ... واذا فان القبائل الرحل ذات الرحلة المحدودة عندما ترجع تعود الى محل اقامتها « تادارت » .

أما الايغرم فهو عندما تكون المنازل مجتمعة تولف قرية (وهى ايغرم) جمع ايغرم من تصغير تيغرمينت جمع (تيغرماتين) ولها شكل مربع محاط بسور (يكون مضعفا فى بعض الاحيان) تبنى فيه ابراج فى كل زاوية ، وله باب محصنة ، والسور من اللبن وتمتد المنازل « الايغرم » الخاص بالقبائل المقيمة على طول زقاق محورى محاط بأزقة جانبية « وايغرم » القبائل ذات الرحلة المحدودة يتكون من ساحة مركزية تصطف حولها المساكن . والقرى المحصنة عبارة عن قصور حربية يستوطنها الايمازيغن لكن توجد ايضا قرى مفتوحة (كازرو وعين اللوح) التى يقيم فيها تقريبا الاجانب عن القبيلة من الواردين من الجنوب والذين يعيشون من استغلال الغابات كالفحامين والخطابين أو من الزراعة والرعى (كالخماسة والرعاة) ومع التطور نحو الاستقرار والاقامة وانتشار المناطق الفلاحية قلت الاراضى المختصة بالرحلات وقد استغنى كثير من الافخاذ التى لديها وفرة علف لتقدمه الى اغنامها فى الشتاء .

(التنظيم العرفى للأسرة) .

تعتبر الاسرة الخاية الاجتماعية التى تعيش تحت الخيمة ، وهى تتألف من الاب والام والابناء والاحفاد وتتألف كذلك من

اعضاء اجانب فى بعض الاحيان كالخدم أو الضيوف .

والاب أو الجد هو رئيس العائلة ، وهو عضو من « الجماعة » التى يمثل عندها العائلة .

ويستطيع الابناء متى تزوجوا ان ينفصلوا عن آبائهم ، ينقلون عندئذ نصيبهم وحقهم الارثى وينصبون خيمتهم بجانب الاب فى نفس « التيجمى » ولا يخرج البنات من الخيمة الابوية الا عندما يتزوجن ، ويكون الزواج من نفس « التيجمى » أو فى دائرتها ، وقلماء يكون من الجار أو من قبيلة اخرى .

والمرأة تعيش وضعا حسنا اذ ان على الابوين ان يزوجا ابنتهما فاذا رفضت هذا الزواج فالعادة ان تفر من منزل الزوج ، وهذا مما يسبب المس بشرف العائلة ولهذا فكان الاباء يتحرون فى تزويج بناتهن حتى يكون وفق رغبتهن .

والمرأة المتزوجة تتحمل مسؤولية العائلة فاعمالها شاقة فى الغالب وهذا لا يمنع من تقديرها واحترامها ، وكانت المرأة حرة فى منزلها ولها نفوذ قوى وسلطة واسعة فى تدبير شؤون الخيمة ، وليس من حق الرجل ان يعاقب زوجته الا اذا ارتكبت خطأ ما ، أما اذا تعمدت خيانتته فليس امام الرجل سوى ان يطلقها حفظا لشرفه وكرامته . والابناء دائما تحت رعاية الاب ، والبنات لاثرت ، فالتبعية الاسروية هى دائما ابوية .

وقد تكون العائلة تضم بعض العناصر الاجنبية عنها وذلك مثل الولاء عند العرب اما فى البلاد البربرية فيسمى الاجانب « الأمحارس » جمع (ايمحوراس) ولا تتضمن هذه العناصر الا بالاتفاق مع الجماعة ، ويزوجه رئيس العائلة باحدى قريباته ويمكنه ان يفوز بنصيبه من الاراضى المشتركة ، ويحارب دائما

الى جانب أولئك الذين ربوه ، وهناك أيضا الادجير (جمع ادجارن) من اصل عربى (الجار) وهو اجنبى يحتوى بعائلة قوية فيقدم (ذبيحة) ويبنى خيمته بجانب خيمة حامية ، ولا يساهم فى الحرب بخلاف (الاعراس) الذى يساهم فى الحروب وأعلى من الاسرة (الريف) الذى يضم عائلات تصعد بقرابتها الى جيلين او ثلاثة ، ويمثله « امازاي » ولفظ الريف ليس مستعملا لدى كل القبائل فى الاطلس المتوسط ، وله شخصية اقتصادية ، وهو ايضا اصغر الوحدات السياسية ، وله « جماعة » الخاصة به وعرفه وتقاليده وهذه الوحدة هى التى نجدها فى أساس النظام السياسى لدى كل البربر والتى تطلق عليها اسم دوار أو قرية .

(نظام الجماعة فى تاريخ القبائل) .

تحكم مختلف الوحدات فى وقت السلم بنظام جماعى وهذا النظام ليس ديموقراطيا ، غير انه حكم اغلبية يطلق عليها اسم الجماعة ، أو مجلس الاعيان (أخاطر جمع اخاطارن) وهى اتحاد جماعة من الرجال من ذوى الحيثيات للتعبير عن آرائهم ، وانواع الجماعة المهمة هى التى تكون فى « التيجمى » أو فى التاقبيلت ، وجماعة التيجمى هى التى تجتمع كثيرا وتختص بالنظر فى اكبر عدد من الحالات ، كما انها التى تنظر فى مختلف القضايا وتشرف على ابرام بعض العقود كالسلفيات والمبيعات وعقود الزواج الخ . ولها دور قضائى فهمى التى تقوم بدور المصالحة اما مباشرة واما بتعيين حكم .

وكانت جماعة التاقبيلت هى الهيئة الحكومية القبلية الصغيرة التى تكون مؤلفة من مندوبى جماعات (الايخص) السياسية الداخلية والخارجية للقبيلة .

وتعتمد الجماعة على (الایمازیان) ، وهو بمثابة ضامن مسؤول ويوجد واحد في كل « ريف » وتختارهم الجماعة بين اغنى العائلات وارقاها فيكونون المتكلمون بلسان مواطنيهم ويضمنون تنفيذ قرارات الجماعة كما يكونون أيام الحرب الوسطاء المسؤولين بين امغار والافراد .

ووظيفة الامغار تظهر في وقت الحرب وهي وظيفة يعين مساعديه الضامنين المسؤولين لكل طائفة (وهو الذي يعين واجبات كل منهم والعقوبات اللازمة ، وعندما يتفقون عليه يجمع كل نفر من الحاضرين حفنة من الحشائش الخضراء (تويا) ويرميها بها ، ومن هنا اخذ اسم رئيس الحرب (امغارن — تونا) .

وينتخب عادة اما لعام ، أو لمدة الحروب ولا اجرة له على عمله لكن له الحق في السخرة ، وفي الغرامات المحصلة من أولئك الذين لا يطيعونه ، أو الذين يخالفون العرف ، ويعين امغار « امزيا » على رأس كل ايخص ، وهذا الامازان الخاص بالحرب يمكنه اما الاحتفاظ « بالامازيا » الخاصين بالتيجمى واما تبديلهم ، اذا رآهم ليسو نشيطين في تادية اعمالهم .

القبائل المقيمة

القبائل المتكلمة باللغة البربرية (الشلحة) بسوس تقيم في البلاد التي يطلق عليها المخزن والمورخون العرب دائما يطلقون (سوس) على مجموعة المناطق الجبلية التي بالاطلس الاعلى والاطلس الصغير ، (وسيروا) بين درعة والمحيط ، بما في هذا السهل الداخلى وتتفاوت حياة الانسان بهذه المناطق باختلاف المناخ ، فقربها من الصحراء يجعلها منطقة حارة وجافة ، والامطار ضعيفة وغير منتظمة السقوط ومحصولها ضعيف في الغالب ، مما

يجعل (المجاعات) تظهر كل خمس سنوات أو عشر سنوات ... ولا يخفى أن ذلك يسبب في تشجيع الرحلات القبائلية ومع ذلك فهو لا يصلح لحياة القبائل الرحل ، إذ لا يتوفر على المسافات الشاسعة الصالحة لحياة الرعى ، ولم يستطيع السكان القادمون من الصحراء أبدا أن يحافظوا في هذا المجال على حياة القبائل الرحل .

ويمتاز الأطلس الكبير الذى يطلق عليه (ادران — ديرن) (جبل الجبال) بسبب قممه العالية بالامطار الغزيرة وذوبان الثلوج التى تحدر سيولا تستمر حتى الخريف ، ويكون الأطلس الصغير ، ذو السطح الأكثر قدما واستهلاكا ، مساحات زراعية أوسع ، لكن الأطلس الكبير يحصر الامطار في شمال هضبة سوس ، واغنى المناطق هى هضبة سوس ، ودادس ، ووادي درعا العليا ، حيث يلاحظ وجود شريط الحدائق والاجنة .

ويلاحظ ظهور الجفاف والمجاعات في فترات من التاريخ والتى دفعت سكان سوس الى الشمال .

ثم كان من نتيجة الاختلاط ان ضعف الرباط الذى كان قويا في القديم والف بين قبائل مصمودة وصنهاجة العظيمة ، وتلاشت الكراهية بين القبيلتين ، ولم يعد اسم (مصمودة) بارزا ضد (صنهاجة) .

(الاقامة والسكنى) ان المراكز المهمة الوحيدة البربرية هى القرى الكبيرة وتظهر على سفح الأطلس على طول خط العيون ، أو باعلى مدخل الطرق الكبرى التى تؤدى الى شعاب (امزميز) ، (ايمن — تانوت) منيزله ، بوالعجلات ، تالجونت .

وهى اسواق تقع عند نقطة الاتصال بين السهول والجبال ، كما انها مولفة في الغالب من دشور متفرقة كانت تمثل قديما

وحدات سياسية صغيرة متعارضة بعضها مع بعض وفي هضاب الاطلس يتفرق السكان بين دشور مكونة من 10 الى 20 منزلا وينحدرون مع خط السيل ، وقلما يسكنون اماكن دفاعية طبيعية على قمة الجبل مثل قبائل (جرجورة) .

والوحدة السكنية هي الدشر الذى يسكن به جماعة تربطهم القرابة ... اما القرية الكبيرة ، فهي عبارة عن اجتماع عدة « دشور » .

وتسمى القرية في الاطلس الكبير « تادشرت » (من العربية دشر) وفي الاطلس الصغير « اموضع » (اسم عربى ايضا الموضع) ان المدشر مؤلف من منازل يسمى المنزل فى تاشليحت تيجمى (من تجمع العربية) وهو على اشكال مختلفة ، وهو مبنى اما بالحجر الصلب والثراب الملتك ، أو الحجر والمرطوب (والتجميت) ، هو بيت الاعيان ويبنى من الثراب الملتك ففي زواياه ابراج اربعة وبه غرف وقاعة الاستقبال (تامصريت) من العربية المصر فى الاعلى اما منزل « الفقير » فيسمى « تادارت » وهو عبارة عن عشة بدون طبقة عليا ويبنى من الحجر الصلب ، وتوجد فى بعض مناطق الاطلس الصغير منازل بادوار عليا ذات شكل هندسى معقد يشبه المنزل الرومانى .

وتعتبر (القرية) اصل الوحدة السياسية وتولف عدد من القرى « تاقبيلت » اى القبيلة الصغيرة التى كانت تولف فيما مضى مركز حكم مستقل ويوجد كذلك نظام التكتلات (حاما ايداوتنانت الخ ..) الذى يجمع اما قبائل واما اقاليم ، لكن هذه التكتلات فقدت قيمتها منذ زمن قديم ، ولم تعد الا ذكرى تاريخية . على ان انشط وحدة سياسية

هى « تاقبيلات » وكانت فى وقت « السبية » دولة صغيرة ، ومنطقتها ذات مسافة كافية فمساحتها فى اغلب الاحيان تشمل 20 الى 50 كيلومترا مربعا ، وهى المسافة التى تتيح لاجزاء « الجماعة » ان يجتمعوا فى مدة يوم واحد .

وتنقسم البلاد الى حلفين كبيرين أو (اللف) جمع « لفوف » الاسم البربرى هو « امكون » بحيث يولف قسمين من قسوة متساوية وكل تاقبيلت تنخرط فى هذا أو ذاك من (الليفس) التى التى تختلف اسماءه بحسب المناطق (مثلا) : فى الاطلس الصغير ايجيزولين ضد اهو جوة ، وفى الاطلس الاكبر الغربى اندعريت ضد امسيفرن) وتدل خريطة (الليفس) على اهتمامهم بايجاد توازن بين الاقاليم ، ولقد كانت بمثابة نوع من الضمان ضد اعتداء (تاقبيلت) على غيرها ، ففى حالة الحرب تسرع تاقبيلت المهاجمة الى ارسال « تامانارت » اى علامة الانذار ، المتفق عليها فيقدم حلفاوها (اللف) الى نجدتها ، وقد لعب الليفس دورا مهما فى تثبيت اركان السلطة الشخصية كما ان الدولة كانت تحسب لهم حسابا (1) .

ويجب ان يستقر الذين يريدون اقامة طويلة فى تاقبيلت بصفة (سكان) فيضعون انفسهم تحت حماية رجل غنى وهو بصفته الشخصية المسؤول عن التصرفات السيئة التى يمكن ان تبدو من جانب الضيف ، ويظل هؤلاء اجانب مدة طويلة فى عرف سكان الجبل اما فى السهل فنجد السكان اكثر امكانات فيمكن لهؤلاء الضيوف ان يسكنوا فى المدينة بعد اقامة قصيرة ويتصادف احيانا ان يتقدم الاجانب فى جماعة من حدود تاقبيلت ويكونون عبارة عن مطرودين من الحروب الداخلية ، فاذا غلبتهم الجماعة

(1) المصدر المذكور .

فانهم يستقرون في قسم الهضبة ، ويبنون كفرا لكنهم ولا يساهمون في حكومة تاقبيلت .

واعيان تاقبيلت هم الذين يقومون بعمل الشرطة ولا يتقاضون اجرا على ذلك وهناك أسواق أهم من هذه على الطرق الكبرى للمرور أو على حافة الجبل عند اشجار الغابات الخاصة بالزيتون ، وهي محلات المبادلات بين الاقتصاد الجبلي واقتصاد السهل وهي غالبا محاطة بسور ، وتشمل في بعض الاحيان على بضع مئات من الدكاكين مفسمة الى أحياء (الرحبة) وتكون فيها ومخازن ودكاكين مستمرة في بعض الاحيان ومسجد على الدوام حيث ينصب لاداء اليمين في حالة عدم التصديق . وقد تكلم ابن خلدون عن هذه الاسواق التي كانت منتشرة في المغرب وذكر بعض امكتتها كما ان نصوص القانون العرفي هي التي تعين الغرمات التي تقع على السارقين وقطاع الطرق ، والمحصلون الذين يحصلون حقوق الاسواق يستقرون دائما بديكان ويحكمون في الحال في الجرائم التي يرجع أمرها اليهم ويعتمد في أغلب الاحيان على رجل غنى وذى نفوذ ويهيء وجود سوق كبير على هذا النحو ، وتقام المعارض الكبرى في الربيع والخريف بجانب الأضرحة المقدسة وهي (موجار) وأهمها (موجار) سيدى احمد وموسى ولى سوس الكبير في تازروالت الذى يجلب السكان من القبائل الكائنة على بعد عدة أيام من الطريق .

وتوجد (اجادير) أرحب حيث ان قرية بأكملها أو حتى تاقبيلت تضع حبوبها في مخزن واحد ، وهي تحصينات حصينة تثبت فيها أبراج في الزوايا ، وتضم مسجدا وديكان الجماعة ، وديكان الفقراء ، وغرفة للحراسة ومنزلا مخصصا لمذاكرة الاعيان ، ويتسم (الاجادير) الى شوارع صغيرة ضيقة يفتح عليها صفان من الحجرات اقيمت على 3 أو 4 أو حتى 5 طبقات

فاذا قامت الحرب جاء كل واحد يبحث عن ملجأ في هذا الاجادير بصحبة عائلته في حالة الخطر ويكون بها صهريج واسع الماء الامطار يخزن الماء وللاجادير دور جماعى ، لكن له دور اقتصادى ايضا وهو دور مهم تدل عليه أوضاع الحياة ، فلا يمكن الخزن الا لدى جمع الاحتياطات في سنة الانتاج الجيد التى هى قليلة بالنسبة لسنوات الجفاف ويقام في بعض الاحيان سوق ببابه ، وكانت اجادير تقوم بدور شبيه بدور (الابناك) فالاعراف تقر الرهونات والسلفيات على المحصول ويعتبر عمل اجادير منظما بقانون حقيقى هو (اللوح) الذى يشتمل احيانا على 200 أو 300 بند وهناك موظفون خصوصيون مكلفون بتطبيقه منهم (امين) (حاجب) (ومجلس اعيان) وهم (حكام) اجادير وهؤلاء الحكام الذين يتكونون من رؤساء العائلات التى هى مقاما غيرها ، كانوا يتمتعون بتأثيرهم على حياة القبيلة وكانوا يطبقون في مجلسهم قاعدة الاغلبية التى نجدها غير معروفة في الاعراف البربرية بالمناطق الاخرى ، وكان يحدث في بعض الاحيان ان يعتبر اللوح و (الاجادير) حكمهم الخاص ويديرون من هذه الناحية كل حياة القبيلة .

وقد أخذت وضعية الاجادير في الانعراض منذ ظهور الحكم الفردى وقد بدأ هذا الانعراض يحدث قبل خضوع القبائل لسلطة مركزية ولهذا بعض الاسباب السياسية التى أهمها ضرورة الوحدة الوطنية وبعض الاسباب الاقتصادية أيضا .

ويعتبر (الاجادير) امتدادا لعصر قديم حيث كان السكان المقيمون محافظين على حياة الرحلة ، فيجعلون منه مركزهم القارة (1) .

(1) ملخص (علم الاجتماع والسلالات المغربية) (القسم المتوسط الثانى) منشورات المدرسة الادارية المغربية .

الحضارة المغربية

في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين

القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين

916 هـ — 1070 هـ

1510 م — 1659 م

السعديون

تقديم :

ظهرت دولة السعديين على يد أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله في بلاد سوس ، وذلك عندما استفحل نفوذ البرتغاليين على الشاطئ الغربي المغربي ، وعجز الوطاسيون عن مقاومتهم .. اجتمعت قبائل سوس واتفقت على بيعه أبي عبد الله القائم بأمر الله بتوجيه محمد الاقاوى .. فجاء الى درعة سنة 916 وأقام في (تيدسى) قرب تارودانت .. ثم ظهرت دعوته وبايعته القبائل الوافدة عليه .. ويرجع نسب السعديين الى ذرية الامام على (رضى الله عنه) ويروى المقرئ في نفح الطيب أنهم عرب من بنى سعد بن بكر ، ومنهم من يرى أن أصاهم ينحدر من قبائل غير عربية .. وايا ما كان فان ظهور السعديين في الجنوب

كان عودة لظهور صنهاجة المرابطية المزوج مع الصحراء (1) بالقبائل العربية المتساكنة معها جنوبا .

(1) ذكر الجغرافيون القدامى كابن سعيد في كتابه (بسط الارض في الطول والعرض) ، والادريسي في كتابه (النزهة) ، لدى كلاهما عن وصف افريقيا ، ان موقع الصحراء لا تعنى المنطقة الرملية ، وانما يراد بها شبه الصحراء التى يسقط فيها مطر ضئيل لا يتيح للسكان زراعة منظمة ، وانما يتيح لهم حياة بدوية قائمة على التنقل والترحال ، وكذلك يقصد بالصحراء المناطق الزراعية الواقعة على حافة هذا الاقليم شمالا وجنوبا ، فيبدأ الحد الشمالى للصحراء عند النهاية الجنوبية للمغرب والجزائر وتونس ، والحد الجنوبى للمنطقة الواقعة شمالى نطاق الغابات الوسطى الممتدة من مصب نهر السنغال الى اقليم برنو في غربى حوض النيل ، والحد الغربى هو ساحل المحيط الاطلسى . اما الحد الشرقى فهو ساحل البحر الاحمر ، لان هذا الاقليم يتخطى وادى النيل الى الصحراء الشرقية ، وكذلك السودان .

والصحراء المغربية وهى المدخل الى بلاد السودان التى يراد بها (السنغال ومالى) لان الجغرافيين المغاربة اطلقوا على بلاد السود او افريقيا (السمراء) كما نسميها اليوم بلاد السودان . وقد تكلم ابن بطوطة في رحلته الى مالى عن الطريق الصحراوى وحدود بلاد الزوج . كما تكلم ابن فاطمة الذى زار كدالة ، وبلاد الزوج عن عادة هؤلاء السكان . وكانت (السنغال) و (مالى) موطن القبائل صنهاجية ، وبالاخص لقبائل (مسوفة) . وفي كتاب الماضى المغربى لمورينانيا للكاتبة (لاوديت دونو يغودو) وصف جغرافى لطرق الصحراء وممرات القوافل .

وعندما نحاول معرفة توزيع القبائل في هذه المنطقة ، فان صنهاجة كانت في الصحراء الساحلية التى تسمى اليوم الساقية الحمراء وكانت ملتونة متوغلة الى نهر النيجر وذكر ابن خلدون ان رباط عبد الله بن ياسين كان لبحر النيل ويعنى به نهر (النيجر) الذى كان يختلط عند الجغرافيين العرب بنهر (النيل) ظنا منهم ان نهر النيجر فرع من النيل بدليل (وحدة الاسم) .

ونقل طيراس عن دولاشابيل الذى درس تاريخ المرابطين دراسة ميدانية ان الجزيرة التى اوى اليها بن ياسين تقع ساحليا مواجهة للساقية الحمراء . ويرى الدكتور حسين مؤنس ان رباط عبد الله بن ياسين يقع على حدود الصحراء في تارودانت ، وهو يعتمد على البكرى ومؤلف الاستبصار بينما يستبعد بعض المؤرخين ان يكون رباط عبد الله بن ياسين على ساحل المحيط الاطلسى اعتبارا ان يحيى بن عمر لا يمكن ان يختار جزيرة قريبة عن قبيلته جدالة التى كانت متمركزة في القبيلة المطلة على المحيط ، والتى ثارت على عبد الله بن ياسين حين دعاها

الى التذهب السنى ، والاتلاع عن الفهم السطحي البسيط للاسلام ، وكان ذلك سببا في هجرته للبحث عن رباط يأوى اليه ويشير تابير هيرمنخيلدو الاسبى فى مجلة A.D.E. (عدد 4 السنة 4 — 1946) ان عبد الله بن ياسين اتخذ (الداخلة) رباطا لاقامته ، معتمدا على وصف هيرودوت لتاريخ القرطاجنيين الذين وصلوا جزيرة سيرانيس Ciranis الواقعة ببلاد جيزنة (جزولة) . ونقل نص وصفه لهذه الجزيرة .

ويقول تابير : ان هذه الجزيرة التى يتحدث عنها هيرودوت تتطابق مع جزيرة الداخلة التى يباغ طولها 30 كلم ، وعرضها 3 او 4 كلم . وهى تتصل بالقارة ببرزخ رملى منخفض هو « المزوك » الذى يصل الى حد الاختفاء فى اوقات المد كما يلاحظ وجود منخفض بداخل الجزيرة يبلغ طوله 1 كلم ، وعرضه 50 ، 1 م وقعره ما بين 2 و 5 ، 2م ويمكن ان يكون هذا المنخفض هو البحيرة التى تحدث عنها هيرودوت ، وفى وسط المنخفض يقع بئر يسمى « تهاويرت » أى بئر الذئبة مما يشير الى ان الحكاية لا تعدم صلة مع الحقيقة .

ويتساءل تابير : كيف يمكن تصور بلد مكسو باشجار الزيتون والكرم فى حين انه قحل وجاف ؟ ويرد على ذلك بان الحروب المتوالية وغارات أهل (الجزر الخالدات) اطلقت كل معالم تلك الثروة الطبيعية التى فقدت مناعتها بسبب التخريب التى توالى عليها وجعلها أضعف من أن تصمد أمام تيارات الريح القوى الذى عصف بمعالمها .

وتذكر الحكايات ، والتاريخ يؤكد جزئيا ما تذهب اليه ، ان عبد الله بن يس الجزولى ، انتبه الى اللامبالاة التى كان بلقاها من صنهاجة ، فقرر هجرتهم والتوجه الى السودان الا ان الامر يحى بـ ابراهيم لم يقبل هذا الانفصال . واقترح على فقيمه ان يلتحقا معا بـ منغل ، وقال : « فى شواطئنا هذه توجد جزيرة يجتاز لها على الاقدام فى اوقات الجزر ، وبالمركب فى اوقات المد . وليس فيها الا الاكل الحلال من الاشجار وغواكه وطيور وزواحف واسماك لنذهب اليها ونعيش فيها نتعبد الله الى ان يحين اجلنا » . وقبل الفقيه ذلك ، وانتقلا الى هناك ، يتبعهما سبعة من اهل كذالة ، وابتنوا هناك رباطا اعتكفوا فيه .

وبعد مدة قليلة انتشرت فى الصحراء اخبار صلاح الفقيه وتقواه ، ومن كل صوب قصد الناس الجزيرة لسماع تعليماته ساهمت صنهاجة بما لا يقل عن 1000 مريد التحقوا بالرباط وسماهم عبد الله بن ياسين بالمرايطين هؤلاء الذين كتبوا صفحات مشهورة فى التاريخ . والذى امل اليه ان عبد الله بن ياسين اتخذ رباطه فى (سان لوى) بالسنگال وان النهر الذى كانوا يلجأون اليه للصيد هو نهر النيجر الذى يعتبر اقصى حدود صنهاجة .. كما ذكرت ذلك بتفصيل فى كتابى الحضارة المغربية عبر التاريخ . « تاريخ قيام دولة المرابطيين » وابن خلدون .

التعليم الاولى والتعليم العام .

كان الاطفال فى الكتاتيب يحفظون القرآن والمتون ، ويتعلمون الصناعات اليدوية بالنسبة لبعض الأقاليم ، وكان من عادة سكان تطوان وبقي ذلك الى وقت متأخر ، ان يعفى الطفل بعد حفظ القرآن من مزاولة الدرس ليتعلم حرفة من الحرف، ويرجع القرآن من مزاولة الدرس ليتعلم حرفة من الحرف ، ويرجع ذلك لاسباب اجتماعية اثار اليها مؤرخ تطوان محمد داود فى كتابه (تاريخ تطوان) اما التعليم العام المهتم بالدراسة الدينية فكان يلقي بالمساجد فى حلقات تجمع الطابة والعمال والصناع ليرفعوا عن أنفسهم عار الجهالة بأمور الدنيا والدين ، وكان بالقرويين كرسى خاص بذلك ويعتبر ولاية كبرى ، زيادة على الحلقات المتعددة لتعليم مختلف العلوم وكان من أصحاب هذا الكرسى الونشريسي قاضى فاس ومفتيها وصاحب التدريس بالقرويين المتوفى سنة 955 ، كما كان من هؤلاء محمد ابن ادريس العراقى الذى انتصب أيضا لتدريس كتاب سيبويه على الكرسى الخاص بمن يدرس النحو (توفى سنة 1142) وقد ألف رسائل كثيرة فى النحو . واعتمد المربون فى تعليمهم على الذاكرة ، فكان التعليم يركز على الحفظ . ولذلك اشتهر العلماء بقوة الحافظة ومن هؤلاء محمد الرقادى بن أحمد المدعو القيوم بن عمر الكنتى الذى كان يحفظ ألف مجلد ، وكان الجزولى يحفظ فرعى ابن الحاجب والمدونة ، وقد رحل فى القرن العاشر على بن ميمون لتلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز وقال مقارنا بين علماء القرويين وعلماء غيرها :

« ما رأيت فى سائر المغرب لا فى مدينة تلمسان ولا بجاية ، ولا تونس ولا اقليم الشام بأسره ، ولا بلاد الحجاز ، فانى (رأيت ذلك كله بالمشاهدة) ولا بمصر على ما تقرر عندي من

العلم اليقين بمشاهدة اناس من أهلها ، وبرؤيتي لبعض كتب ارباب الوقت ، ما رأيت مثل فاس ، ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل ، وهذا الحفظ لنصوص أمامهم الامام مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة ، من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والتوقيت ، والتعديل والتوحيد والمنطق ، والبيان والطب ، وسائر العلوم العقلية ، ثم لا بد فيه عندهم من حفظ نص ذلك الفن ، ومن لم يستحضر النص عن مسألة ما في علم العلوم لا يلتفت الى كلامه ، ولا يعبا به . ولا يحسبونه من طلبة العام ويحدثنا (اكييسار) وهو بلجيكي زار فاس سنة 1540 م . (في عهد السلطان أحمد الأعرج السعدى الذى حكم سنة 548 هـ) ، وكتب مذكرات عن وصف فاس ، والقرويين التى أمها ، وقرأ بها ، وتعرف على حياة طلابها ومدرسيها ، وعلى أساليبهم التربوية وطرائقهم التعليمية وعن العلوم المتداولة بها فيذكر منها : التفسير ، الحديث ، الأصول ، الحساب ، التنجيم ، الكلام ، التصوف ، اللغة ، التصريف ، التوحيد ، التاريخ والجغرافيا ، الطب ، القضاء ، الأدب .

ويعتمد المؤرخون لتاريخ الحركة الفكرية في هذا العصر على عدة مصادر ، منها كتب الفقه كالمعيار للونشريسي ، ومعيار الوزانى ، وكتب التاريخ كذرة الحجال لابن القاضى ، ومناهل الصفا للفتتالى ، والنزهة لليفرنى ، وكتب الرحلات كمحاضرة اليوسى ، ورحلة العياشى ، وكتب التراجم ، كمرآة المحاسن للفاسى ، والدرر المرصعة ، ونشر المثنائى ، والدر الثمين لميارة ، وفهارس العلوم كالقانون لليوسى والاقنوم لعبد الرحمن الفاسى . وتقاسم الدلائيون والناصريون النفوذ العلمى في عدة أقاليم مغربية وفي البادية بصفة خاصة ، وظهر الدرقاويون في الاطلس ،

وكان نشاطهم ثقافيا صوفيا ، وهناك عوامل جديدة حفزت الى تطوير الثقافة المغربية تلك العوامل التى تتلخص فى عدة مظاهر منها (انتشار الزوايا) (2) وسيطرتها على توجيه البلاد ، ومنها الهجرة الاندلسية وما حملت الى المغرب من تأثيرات جديدة . ومنها الاتصال بالانتراك والتأثر بأساليهم ، أما الزوايا لقد كانت تارة بولى ، وتارة بدون ولي ، وتضم مجالس علمية مؤسسية على جلب الناس بالاوراد والأذكار ، وتطورت الحلقات فى بعضها الى رقص وسماع ، وظهر ذلك فى زاوية مولاي العربى الدرقاوى تقليدا للمشاركة بل ان أصحاب الطريقة العيساوية أخذوا بالشطح والتعرض للخيران والسموم وقد أخذوا ذلك من الرفاعية الشرقية المصرية ، ومنها أخذت البيارق والاعلام والطبول والمزامير .. وظهرت الزوايا بعد الاربطة ولكن بتوزيع جغرافى مغاير لما كان عليه نظام الاربطة من قبل ، لأن الزوايا كانت منتشرة فى داخل

(2) الزاوية

خلفت (الزاوية) نظام (الربط) وأصبحت هى المجال الحيوى لتكوين المنصوفة وتربية الشعب بمنهج حركى وفكرى وعقائدى . وكانت الطوائف والطرق الدينية لها زوايا خاصة بها تعددت بتعدد الطرق والطوائف كما كانت (الزاوية) مكانا للعبادة والزهد والاوراد ومن العادة أن توزع الزوايا حسب خطة قبائلية واقتصادية للتركيز على مجال التجمع البشرى والزاوية تتكون من بيت خاص لاسكان شيخها ، وبيوت خاصة بالضيواف وتهتم الزاوية بتعليم الاطفال ، كما يكون المسجد والمدرسة لدراسة القرآن الكريم ومسكن الخدم ومخازن لحفظ المؤن واصطبل ومتجر وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا مأوى لهم وهناك أراضى بعضها مزروع والبعض الآخر للرعى .

ومهمة الزاوية هى الصياغة العقيدية والفكرية والتربوية ، وتعتبر الزاوية بحق أهم ركيزة التصوف وانتشاره ولصياغة منهجية حركية تهتم بعدة أمور قد تعجز عنها الدولة فهى خلية اجتماعية يرتادها الاهلون لقضاء حوائجهم كما أنها مكلفة بذاتها من جميع النواحي الاقتصادية .. ويؤم الشباب الزاوية باعتبارها جامعة عليا تلقى فيها الدروس الشرعية على أيدى خيار العلماء ، وهو الى جانب ذلك يتلقى المتعد القديم فى التربية وكانت الزاوية تغرس فى نفوس الشباب روح الجهاد ، لذلك اهتمت الزوايا كذلك بعنصر التدريس العسكرى .

المغرب ، وكانت تتلقف التلاميذ والطلبة ليتلقوا بها المبادئ الدراسية الاولى قبل متابعة دراستهم في العواصم والمساجد الكبرى وساعد نموها اختلاف النزعات السياسية والصوفية كما ساعدت الزوايا في الحروب ضد الغارات الاستعمارية ، مما يقتضى مراكز معتمدة نائية عن العواصم لمجابهة غارة القرصان ، والمستعمرين وظهرت في أعقاب الدولة السعدية عدة زوايا وأهمها زاوية الدلائيين في تادلة ، وكانت ذات أثر كبير في تركيز الثقافة الاسلامية وتقويتها ، وهذه الزاوية تعتبر من أهم الزوايا وأشدها أثرا في البلاد المغربية ، أنشأها أبو بكر محمد بن الوجادى الزمورى من قبيلة صنهاجة في أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، وكانت طريقة مؤسسها تعتمد التادلية الجزولية ، وخلفه ابنه محمد بن محمد الملقب بالحاج ، وقد هدمت الزاوية الدلائية سنة 1668 ولم يبق من أثرها الا اطلال ورسوم ما تزال بارزة في جبال الأطلس المتوسط ، وفي أيام الشيخ محمد الحاج خرجت الزاوية من عزلتها العلمية واهتمت بالسياسة ، وشمل نفوذها فاس ومكناس والرباط والغرب ، واضطر المولى الرشيد لمحاربتها ، ولما انتصر عفا عن رجالها كما فى (الترجمان المغرب ص 7) ونقلوا الى فاس ثم الى تلمسان ، ويقول الناصرى فى الاستقصاء : « ان زاوية الدلائيين كان بها من معاطاة العلوم ، والدؤوب على دراستها ، واقرائها وقراءتها ليلا ونهارا ما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم حتى كانت اليها الرحلة فى المغرب لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب » .

وكان عميد الزاوية الدلائية الشيخ محمد بن أبى بكر من أعلام هذا العصر الذى تألق فيه اسم الحافظ أبو العباس يوسف الفاسى والامام محمد بن عاشر والعلامة محمد ميارة ... وفى كتاب (البدور الضاوية فى محاسن الزاوية الدلائية)

لسليمان الحوات ذكر لاعلامها وتراجم لرجالها .. وكذلك ظهرت زاوية علمية أخرى انقلبت الى حركة سياسية ، وهى زاوية الشيخ الزعرى التى ينتمى اليها ابن أبى المحلى المولود سنة 997 بسجل ماسة ، وقد ثار هذا الفقيه ضد السعديين وفتن الناس حقه من الزمن الى أن قتل فى احدى المعارك على أبواب مراكش وترك أبو المحلى عدة تأليف منها : القسطاس ، ومنجنيق الصخور . فى الرد على أهل الفجور ، والهوذج ... ومن الزوايا المعروفة فى هذا العصر زاوية السملالين بسوس ، ولم تكن زاوية ذات ولى وهى منسوبة الى أبى حسون السملالى الذى ثار ضد السعديين ، وحاول تأسيس دولة سملالية ، ولكن مولاي محمد الشريف نازله فى عدة وقائع وانتصر عليه ، ومن اشهر الزوايا المغربية الناصرية المنسوبة الى مؤسسها محمد ناصر الدرعى من قرية تمكروت ، وقد اطنب فى الحديث عنها المؤرخ الناصرى فى كتابه (طلعة المشتري ، فى النسب الجعفرى ، ومن (الزوايا) السياسية التى ظهرت فى هذا العصر زاوية أبى عبد الله العياشى الذى قاوم قرصنة الاسبان والبرتغال ودافع الاستعمار عن البلاد وكان العياشى فقيها مصلحا ، ومن اتباعه ابن سعيد الدكالى القاسمى صاحب زاوية دكالة ، ومن الزاوية المشهورة أيضا الزاوية العياشية ، أو الحمزاوية فى ناحية ميدلت ومنها العياشى صاحب الرحلة التى ترجم فيها لعدة رجال هذه الزاوية ، وقد ألف اليوسى فى نقد العكاكزة وتقاليدهم وانحرافاتهم ، وكانوا موزعين فى عدة مواطن بالمغرب .

وفى كتاب (حاضـر العالم الاسلامى) لشكيب أرسلان ذكر دور هذه الزوايا فى تاريخ المغرب من الوجهة السياسية والاجتماعية فقد أسدت الزوايا وبالاخص الناصرية والدلائية والشرقاوية معونة فى الثقيف ونشر الوعى الدينى فى سائر البلاد ،

وكان في زاوية محمد بن سعدون سيدي موسى مئات الطلاب ، وانتهج نهجه كثير من رجل الزوايا وأصبحت البرامج الدراسية تحتوى على دراسة مادة التصوف ، فعبد الله السوسى كان يفضل كتب السيرة على كتب التصوف ، لأن في الأولى سيرة الصحابة ، والثانية سيرة المتصوفة والغريب أن محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية لم يلبث أن انقلب على الزوايا ، رغم ما أسندته لدولته ، فامتحن أربابها سنة 908 ، وسجن عبد الله الكوشى ونفاه الى فاس ، واتهم باقى أصحاب الزوايا بأنهم يحفظون في زواياهم ودائع بنى مرين ، وفرض عليهم الضرائب بعد ما كانوا معفين منها ، كما اقتضت سياسة المنصور الذهبى نفى على باحمد بن موسى السوسى بتارودانت ، ولكن محاولات السعديين باءت بالفشل ، فقد تصدى الصوفى العياشى مجاهد سلا لحربهم ، وقويت شوكة الزاوية الدلائية ، وكان أبو المحلى من مشاهير الثوار الصوفييين ضد السعديين حيث احتل درعة ، كما قتل السلطان محمد الشيخ المأمون بن أحمد المنصورى العضاوى البقال لأنه تصدى له بجارح القول واتهمه بالتهاون في الدفاع عن العرائش ، ولم يمنع ذلك أن يكون المنصور السعدى متصوفا فقد قيل انه لبس خرقة التصوف على يد شيخه المنجور ... والواقع أن السعديين مدينون لرؤساء الطرق الصوفية الذين قاوموا بنى مرين وهدموا دولتهم لانحلالهم وعدم مقاومتهم للغزاة المسيحيين للشواطىء المغربية ، ومن هؤلاء عبد الله عمر الساسى المدغرى ، وعبد العزيز القسطينى ومحمد بن مبارك ، وهم الذين مهدوا لدولة محمد الشيخ السعدى بعد أن أيدوا ثورته بالسوس ، وذكر مؤلف (زهرة الشماريخ) بأن محمد ابن المبارك هو الذى أمر قبائل السوس بالانقياد للسعديين ولقد كان أثر الزوايا عظيما ولذلك لا بدع أن يقول مؤلف النشر : لولا ثلاثة لانقطع العلم من

القرن الحادى عشر ، وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ، ومحمد بن أبى بكر المجاطى رئيس زاوية الدلاء ، وعبد القادر الفاسى ، وقد ألف كثير من علماء التصوف فى هذا الفن ، من أشهر ما كتب فى ذلك (دوحه الناصر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر) الذى لخصه وير فى كتاب عنوانه (مشايخ المغرب فى القرن السادس عشر ، بعد تجريده من التصوف) والكتاب لابن عسكر ، وهو أول مؤرخ للحركة الجزولية المتصلة بالشاذلية - كما يقول بروفنصال - التى تفرعت عنها معظم الطرق الصوفية فى العالم الاسلامى و (البدور الضاوية فى الزاوية الدلائية) للحوات ، و (الدرر المرصعة بأخبار اعيان درعة) لمحمد المكي الدرعى ، و (تحفة الاخوان لنقيب صلحاء وزان) لمحمد الطاهري وكتاب الحضيكي المسمى (طبقات الحضيكي) ، وكاد أن يختص بصوفية سوس ، وألف ابن القاضى فى القرن العاشر (درة الحجال) ، و (الجذوة) وهى تحتوى على تراجم لكثير من الصوفية وطوائفهم كالتائفة اليوسفية ، والتائفة الاندلسية والعكاكزة ، والجزولية ، ويلاحظ هنرى باسى فى كتابه (أدب البرابرة) ان مصنفات التراجم اهللت الاساطير الشعبية المنسوبة للصوفية . وقد تصدى كثير من العلماء لمقاومة الزوايا بدعوى أن رجالها يدخاؤون بدعا فى الدين حيث يؤلفون جماعة تعتمد توجيهها خاصا نتعصب له وتعتقد أن من تمسك به نجا ومن خرج عنه ضل السبيل ، بل ان بعض المشعوذين يستغلون بساطة الدهماء فيجعاون منها مادة صالحة للاستغلال والعبث بثقتها أو تكييف جهودها حسب مصلحتهم وأهوائهم . وألف الشيخ أحمد ابن عبد السلام بنانى المتوفى سنة 1234 فى الرد على بعض الطوائف التى ظهرت بالمغرب فى عصره كتاب المعيار العربى عن فضيحة الطائفية التى أحدثت بالمغرب.

وفى كتاب المعيار لاونشريسى ذكر حركة الفتاوى الفقهية
التي تعرف عن حملة العلماء ورجال الدين ضد الطائفة كفتوى
العلامة القباب ضد اتخاذ شيخ فى طرق الصوفية ، وكفتوى
عبد العزيز القيوانى ضد الطريقة والطائفة .

وآلف الزياىى كتاب (سلوك الطريق الواربة) ، وآلف
أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصرى المتوفى سنة 1239
عن الطائفة سماه (المزايا فيما حدث من البدع والزوايا) وهو
كتاب يرد فيه على الحسن بن يوسف بن الشيخ محمد الدرعى
الذى دعم نظام الزوايا فى ذلك الاقليم كما فى طاعة المشتري ،
وشن المؤرخ الناصرى مؤلف الاستقصا حملة شعواء على الطوائف
وارباب الزوايا فى تاريخه المشهور ، وآلف الفقيه عمر الرجراجى
كتاب (هداية من تولى ، من غير الرب والمولى) تحدث عنه الامام
الامام المنجور فى المنهاج ، ونقد العلامة الهبطى المجتمع المغربى
فى عهده واصفا ما فيه من البدع والطرقية كما وقف ضد الزوايا
أبو العياش أحمد الشاهد بن التهامى حيث انتقد فكرة الطائفة
كما فى النشر وعرف المجتمع المغربى أواخر السعديين صراعا طيفيا
ضد الميز الاسروى .. ويذكر المؤرخون أن الامام المنجور قدمه
علمه فقام ليؤم بالسلطان فقال اليعمدي : « ان كان قدمه علمه
فقد آخره نسبه » بل قتل القاضى أبو النعيم الغسانى بعد حكمه
ضد (البلدين) فى خلاف نشأ بينهم وبين خصومهم ، ويعتبر ابن
ابن زكري اشهر من تولى الدفاع عن الاسلاميين فى عصره ، وقد
أيده عدد من علماء وقته ، ورد عليه آخرون كالشيخ بنانى مؤلف
(تحلية الآذان والاسماع) وكتاب (الوجد المغربى) ، وكانت
الأحاديث التى ساقها ابن زكري للدفاع عن نظريته كحديث (من
دخل هذا الدين فهو من العرب) سببا فى تدخل رجال الحديث كأبى
العلاء العراقى الذى أيد ابن زكري .

وظهر عامل جديد فى تلقيح الثقافة المغربية فى هذا العصر ذلك ان الأندلسيين بعد الجلاء تفرقوا فى كل مكان ، وتوزعتهم البلاد وساحوا فى الارض ، وكان نصيب المغرب منهم وافرا ، فقد حلوا بمختلف المدن الافريقية كالرباط وتطوان ووهران والجزائر وتونس ، ولعل نصيب تونس كان منهم كثيرا أيضا ، حيث بنوا بها أكثر من عشرين قرية ، وكذلك أقاموا ببـنزرت والقـسطنطينة والشام ، ويتحدث المؤرخون الاقليميون المغاربة دائما عنهم ، فمؤلف الاعلام بمن حل بمراكش واغـمات من الاعلام يترجم لعدد من الاعيان الذين اقبـروا فى مراكش ، ويذكر الكانونى مؤلف كتاب آسفى وما اليه عدة من هؤلاء الأندلسيين الذين وصلوا الى الجنوب المغربى ، ومؤرخ فاس محمد بن جعفر الكتانى فى السـلوة يترجم لمن أقبر منهم بفاس ، وأبو جندار فى كتاب الاغتباط فى تاريخ الرباط يترجم لعدد من الأندلسيين ، بل ان المنصور السعدى لما فتح السودان ألف منهم جيشا جرارا أمرهم بالمقام هناك فى ضواحي البلاد السودانية تثبيتا لسلطانه وظلوا به الى الآن كما يتبين ذلك الرحالة المعاصرون وكان هذا الجيش تحت قيادة جؤدر بن عبد الله الذى ولى السفارة فى لندن سنة 1637 وتوجد صورة له فى متحف لندن ، ومن السودان وصل فريق الى جزائر الخالدات (جزائر كنـاريا) حيث نشروا مدنيتهم بها ، وكان انتشارهم بنواحي الريف أوفر وأكثر لأنها طريقهم الى المغرب ، وكما انتشـروا فى جنوب الجزيرة الأندلسية انتشـروا فى نابل وفرنسا ، فاجتازوا جبال البرينية ووصلوا الى فرنسا ، ولا سيما فى المقاطعات الجنوبية منها ، وما تزال عائلات تعرف (من سلالة السـرازين) كما توجد عائلات فى سويسرا تنتمى الى السلالة العربية أيضا ، وكلمة (السـرازين) محرفة عن (السـراجين) أى بنى سراج وهى أسرة أندلسية مالكة حكمت بغرناطة ونزحت

الى أوروبا واشتهرت بها ، وكان (شاتوبريان) الأديب الفرنسي من الكتاب الذين كتبوا عنهم ، كما يحتفظ التاريخ الفرنسي باسم العلامة أبا زيد الذى سكن (تلوز) بعد أن تنصر أهله واعتنقوا البروتستانتية ، وكان من جملة المهاجرين الى جنيف لما اصدر لويز الرابع عشر أمره بطرد البروتستانتين ، كما كان صديقا لروسو وفولتير ، وما يزال بجنيف شارع يحمل اسمه الى اليوم ...

لقد هاجر الأنديلسيون (3) جزيرتهم لأسباب سياسية

(3) هاجر الأنديلسيون الى المغرب هجرة كبرى في حقبتين (الأولى) في عهد الدولة الإدريسية يوم تأسست مدينة فاس بعد ثورة (الرضى) بقرطبة، فجاؤا الى مدينة فاس وبنوا بها شطر المدينة (عدوة الأنديلس) ، ونقلوا اليها ثقافتهم وحضارتهم وعبقريتهم وهاجروا مرة ثانية بعد سقوط غرناطة بعد حروب دامية ضد المسيحية ، حيث تم جلاؤهم في جماعات كبرى ، وحيث كان عزمهم أن يعودوا مرة ثانية بعد حروب جهاد بحرى مبرر لم ينته الا بمكايد الكنيسة . وفي هاتين الهجرتين تدفق سيل من المهاجرين الى المغرب فرادى وجماعات ، فاندمجوا في البلاد المغربية التى كانت إحدى العدوتين . أما بالنسبة للهجرة الأولى ، فقد كان كثير من الفقهاء الأحرار يهاجرون بلادهم الى أوطان أخرى تمسكا بمواقفهم ... ومن هؤلاء الأنديلسيون الذين جاؤا الى (فاس) بعد أن دشن بناءها المولى إدريس ، فكانوا من أول العناصر العلمية التى دخلت الى المغرب ومنهم المفكرون الفقهاء والصناع الذين رفضوا (الحكم الأنديلسي)، فقد اتبع الحكم الأموي سياسة الأمويين الشرقية ، وفرض ضرائب أثرت على اقتصاد الأنديلس التى لم تتعود ذلك ، فارتفعت الأسعار وزاد ارتفاع غلاء المعيشة ، فتصدى الفقهاء للحكم الأموي مؤيدين حقوق الشعب اعتمادا على أن الزيادة في المكوس غير شرعية وبالتالي لا يلزم ادائها .

فاصطدام الحكم مع الحدادين والفقهاء ، وعبر الثائرون جسر (شقنودة) ، فتصدى لهم جند الحكم واتخذ فيهم ، وطرد من بقى من الفقهاء خارج الأنديلس ، وأعلن الحكم بن هشام بمواطاة بعض الفقهاء شرعية عمله بتشريد خصومه رغم أنه اضرم النار في الرضى ليفك الحصار عنه ، وطرد الفقهاء من أرضهم .. فجاؤا الى المغرب ونفوسهم تضطرم غيظا وتشوقا الى مجتمع عادل منصف ..

بالاضافة الى (القيروانيين) الذين جاؤوا لفاس بعد مظالم الاغلبية تلاحق العناصر الثائر القيرواني بالعنصر الثائر الأنديلسي .. وكانت ثمرة ذلك التلاقى بناء لاسس جامعة علمية تركز الاسلام السلفى الحق والديمقراطية في الحكم والعدالة في المجتمع .

اجتماعية واقتصادية ودينية فنزل معظمهم بالرباط وتطوان .
ويذكر مؤلف خلاصة تاريخ العرب أن الكثير منهم اجتازوا جبال
(البرنية) واستقباهم (هنرى الرابع) ، على أن هناك بقية
اندمجت في الاسبانيين بعد ان اعتنقت المسيحية ، وذكر الوزير
الغسائى المتوفى 1119 في رحلته انه لقي في اسبانيا كثيرا ممن
تجرى في عروقهم الدماء العربية ، وعندما دخل الأندلسيون الى
المغرب استعجم الناس أخلاقهم ولغتهم وفي رحلة (مويط) ان
الرباطيين كانوا يتكلمون بالاسبانية ، وكل هذا كان سببا في حدوث
نفرة بينهم وبين جيرانهم وألف عبد الرفيح سنة 1052 هـ كتابا
في الدفاع عن اسلام الانداسيين . والمهم أن للاندلسيين أثرا عظيما
في حفظ الصناعة والثقافة والملاحة الأندلسية ، وقد لعبوا دورا
في القرصنة البحرية ، ولم يمض على مكثهم بالمغرب مدة قليلة
حتى ظهر أثرهم جليا في الحياة الاجتماعية المغربية وفي الأدب
بصفة خاصة ، فكونوا مدرسة ثقافية تمتاز بخصائص الأدب
الانداسى من رقة وصفاء ، وقدرة على مزج العاطفة بالطبيعة ،
مع سحر الالفاظ وتناسق في انتقاء التعابير ، وفي مقدمة (سوق
المهر) ذكر لنماذج من هذا الأدب المغربى الذى يذكر دائما بأدب
الفردوس المفقود ، كما يضم تاريخ تطوان للمؤرخ محمد داود
وصفا حيا لحياة المهاجرين الأندلسيين الى تطوان وأدبهم بها ...
وتجاوز هذا التأثير ميدان الادب الى ميدان الفن ، حيث عملت
يد الصناع على بناء ما يذكرهم ببلادهم ، وكذلك حماوا معهم
الموسيقى الأندلسية بأطباعها المختلفة ، وحملوا أساليبهم فى الرى
ولم ينسوا أن يحافظوا على مظهرهم الاجتماعى الأندلسى سواء
فى حفلاتهم وأعيادهم ، أو فى لباسهم ، أو فى فنون خياطة الملابس
لنسائهم من تخريم وطرز وغير ذلك ، وظلوا متمسكين بتقاليدهم
لم يفرطوا فى شىء منها ، بل انهم حملوا معهم الى الرباط توابيت

علمائهم وصلحائهم فدفنوها من جديد لتعيش معهم في أرضهم الجديدة ، ولعرفتهم بلغة الاسبان والفرنح ومعرفتهم بعوائد الغرب وانظمتة فقد كان منهم السفير الى البلاد الاوربية وفي (الاغتباط بتراجم قضاة الرباط) لأبى جندار ذكر لعدة علمائهم وادبائهم وشعرائهم ...

كما كانت لهم اليد الطولى في الأدب والعلم والصناعة والزراعة حتى ضايقوا أهل البلاد وقطعوا أرزاقهم ، وكان لا يستعمل بلدى ما وجد أندلسى ، ويذكر ابن خلدون عن رحلتهم الى المغرب وأثرهم القوى في انقراض حضارتهم فيه في مقدمته بقوله : (والقت الأندلس بأفلاذ كبدها من أهل تلك المملكة بالجلء الى افريقيا ، ولم يلبثوا ان انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر أهل العدو لها وصعوبتها عليها وعوج السننهم ورسوخهم في العجمة البربرية) . وكان بالرباط كثير من النسوة المنحدرات من الاسر الاندلسية كآل يلائبو مثلا ينسجن انواعا من النعائيق والستور عجيبة التشبيك وفي الفلاحة حمل الاندلسيون الواردون على الرباط خلاصة تجاربهم الفلاحية وبالرجوع الى كتاب الفلاحة الأندلسية للطنفرى (زهر البستان ونزهة الأذهان) وكتاب الفلاحة الاندلسية لأبى زكرياء يحيى ابن العوام الاشبيلي (4) نجد تحليلا دقيقا لفن الفلاحة الذى يعتمد على اختيار الارض والمياه والغراسة ، وتربية واختزان التين ، والتفاح ، والكمثرى ، والسفرجل ، والاترنج والرمان والاجاص ، والقراسيا ، والعنب ، والقسطل والفسطق ، والبلوط . ومن تطعيم وتلوين الزهور والنتيمير في غير الابان ومن عادة الاندلسيين الرباطيين بان يهتم المسلمون بتعليم الصبيان آخر

(4) انظر تعليقا عليه في الجزء الحادى عشر من المجتمع العربى الدمشقى .

رمضان أساليب تزويق الألواح بدوائر وخطوط هندسية يلونها بمختلف الأصباغ لتدريهم على مبادئ الهندسة .

وتحول المورييسكو في اسبانيا المسيحية بعد نشاط محاكم التفتيش ضدهم الى مزارعين يعملون في الاقطاعات التي يملكها النبلاء ... ونظرا لخبرتهم ونشاطهم فقد أصبحوا عمدة الفلاحة والغراسة والاقتصاد بصفة عامة .. مما جعل النبلاء يقاومون الكنيسة في حملتها التنصيرية لما يفقدها ذلك من مزايا اليد العاملة ... وعندما ظهرت حركة العمال لمقاومة النبلاء كانت دعوتهم الى تنصير المسلمين ليضعفوا قوة النبلاء ولكن المسلمين آثروا العبودية وخدمة النبلاء بدل (التنصير) المفروض عليهم ، وبعد سنة 1521 عادت الكنيسة من جديد الى حملة التنصير بطريق محكمة التفتيش وانتهت فضائعها باجلاء (المورييسكو) عن الاندلس ... ولم يمنع ذلك كله من بقاء كثير من المسلمين باسباب ، تنصروا ظاهريا فقط حدثنا عنهم الغساني في رحلته (افتكاك الأسير) وبعد انتصار الجمهوريين باسبانيا جاهر كثير من الاسبان بأصلهم فنفروا في أوروبا وكانوا من أعلام الفكر بجامعاتها ، وفي أمريكا الجنوبية ، وبالأخص بالارجنتين والبرازيل ، وفي أرخبيل الفلبين حيث ما تزال بقية منهم في جزيرة (مور) ... كما استوطنوا افريقيا الشمالية والسنغال التي ما تزال تحتفظ ببقايا منهم ... ولم يمنع ذلك كله من بقاء كثير من المسلمين باسبانيا الذين تنصروا ظاهرا فقط .. أخذا بمذهب التقية .. وسمح لهم بالبقاء لأن البلاد لا تستغنى عنهم ، كما يقول المثل الانساني : « حيث لا عرب لا فائدة » « Mi entras mas moros mar ganancia... »

وقد حدثنا عنهم الغساني في كتابه (افتكاك الأسير) ... وبعد انتصار الجمهوريين باسبانيا جاهر كثير منهم بأصلهم

العربى ، وطلبوا بأراضيهم المغتصبة فى فترة محاكم التفتيش ...
ويذكر شكيب أرسلان فى كتابه حاضر العالم الاسلامى (44 ج
2 طبعة دار الفكر) أن ظهور كراهية النبلاء والرهبان بين هؤلاء
ليست نتيجة رواج المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية بل ثمة
عرق عربى عاد فنزع فى الاندلس بعد اعلان الحكم الجمهورى .

وقد حمل علماء الأندلسيون الى الغرب عدة مصطلحات
عربية فقد كانوا يلجون الجامعات الاوربية سواء الاسبانية أو
الفرنسية أو غيرها وحتى الجامعات الاسبانية فى أمريكا اللاتينية،
، عندما هاجر اليها الاسبانيون فنقل هؤلاء كل معطيات الحضارة
فنقل هؤلاء كل معطيات الحضارة الاسلامية الى أوروبا وكذلك
نقل الموريسكو عندما هاجروا الأندلس الى المغرب كلمات اسبانية
مما يعتبر من آثار التداخل الثقافى Interpenetration culturelle
ومن الكلمات التى حملوها الى المغرب فيزتا ، وسبيطار ،
ويوماضة ، وليموناضة ، وبورفة ومن ذلك الفرطيون (المثلث)
والمصطلحات النباتية والحيوانية مثل برييلو وأسماء الأطعمة
مثل بسطيلة ، وفداوش Fideros وباناضح Panadas
ومسبان Massepan واسماء الملابس مثل سباط وبلوزة
وماريون الخ

وكذلك تأثر المغرب فى هذا العصر بثقافة الترك العثمانيين
فقد كان المنصور السعدى معجبا بالامة التركية ونظامها وحاول
أن يقادها فاصطنع لنقسه جيشا على شكل الجيش التركى ،
وادخل التقاليد الملكية التركية الى البلاط السعدى ، وبعث الى
الاستانة سفراء تأثروا مثله بالحضارة التركية ، ومن هؤلاء
محمد بن على الفشتالى وعمر التمعروتى مؤلف النفحات المسكية
وأبو العباس أحمد بن على الهوزالى سفير المنصور الى مراد
الثالث ، وابن القاضى مؤرخ الدولة السعدية ...

إن وفرة الزوايا وهجرة الاندلسيين ، الى المغرب والاتصال بالمملكة التركية سواء ذلك الاتصال الجغرافى على حدود تلمسان أو الاتصال الديبلوماسى والعسكرى ، والذى استفاد منه السعديون وتأثروا به الى حد كبير ، كل ذلك أثر فى الثقافة المغربية فى العصر السعدى .

وفى الرباط بالخصوص ذكر مؤلف (سوق المهر) أن قدماء المهاجرين الاندلسيين ساروا فى البلاد ونشروا ما حملوا من علوم وآداب ، (ورغم سقوط دولتهم فإن حياة الافكار كانت متوقدة مشبوبة ، لأن سقوط الدولة لم يكن عن هرم طبيعى ، وإنما أودى بها الشقاق وعجل بدمارها الافتراق) .. وفى كتاب بلاغة العرب فى الاندلس أن الافتراق .. وفى كتاب بلاغة العرب فى الاندلس أن الدولة زالت على اثر الاضطرابات السياسية والحياة العقلية فى عز مجدها ، وعلمائها وأدباؤها كانوا لا يزالون فى ابان نشاطهم ونشوة يقظتهم العقاية حين انتشروا فى البلاد ، فأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له اثر نافع عند الأمم التى نزلوا فيها والواقع أن المورييسكو الذين خرجوا عند الجلاء الأخير بعدما ساكنوا الاصبان بغرناطة وأعمالها نحو من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت سيطرتهم ولهذا فلا تعتقد انهم ما زالوا على ثقافتهم الاندلسية اذ قد ضيق عليهم فى لهجتهم وعقيدتهم فكيف بالعلوم والآداب .

الاقتصاد فى عصر السعديين

استفاد السعديون من ثروة المغرب الفلاحية فى تنمية البلاد واعطائها مظهرا حضاريا جديدا . فعلاوة على تطور زراعة قصب السكر واحداث مصانع فى جنوب المغرب وبالاخص فى تارودانت وشيشاوة لصناعة السكر فقد صرفوا اهتمامهم الى

الاكتشافات المعدنية ، وقد استغلوا مناجم الحديد والقصدير والملح وطوروا وسائل الاستغلال ومعالجة الركاز وبذلك جعلوا من بلاد المغرب حقلا اقتصاديا كبيرا .

والواقع أن المغاربة القدماء استفادوا من مراكز المعادن كما يحدثنا عن ذلك البكري والادريسي والوزان وابن خلدون .

ويشهد الجيولوجيون ومهندسو المناجم المعاصرون بقدرة المغاربة القدماء على الاستفادة من مناجم الفضة والنحاس والحديد والذهب . وقد كانت هذه المعادن موجودة في جنوب المغرب وبالأخص في الجبال ، ولم يتوقف العمل بها الا في بداية عهد الحماية ، وما تزال هذه الاوراش معروفة الى يومنا هذا ، ولعل من اشهرها مناجم تاتاوتى بالاطلس الصغير وتايجت الذى كان معروفا بالذهب ، ومركز تاعدانت كما كان الحديد يستخرج من عدة مناجم في الريف الشرقى .

فهذه الثروة المعدنية ساعدت دولة السعديين على انشاء حضارة ظلت معالمها بارزة في قصر البديع بمراكش .

ويذكر (أندري جوليان) في تاريخ افريقيا الشمالية ص 475 ان المغرب احتكر الصناعات ورخص لليهود والمسيحيين باستغلال أرحاء السكر ، كما استغل مناجم الملح في تغارة ، وتدفق الذهب على مراكش . ويحكى الرحالة (لا درنس مادوك) الذى كان عاملا لشركة تجارية بمراكش انه شاهد بعينه ثلاثين بغلة مثقلة بأحمال الذهب ، وجاء في مجلة تطوان (العدد 4) في بحث . عن العلاقات التجارية بين المغرب وانجلترا . ، ذكر لتأسيس شركة تجارية في مراكش اشتمد الاتصال بين الانجليز والسعديين حتى فكر المنصور في احتلال اسبانيا أو اقتسامها مع اليزابيت التى آثرت ان تصرف جهودها نحو الهند .

ولا شك ان اتصال السعديين بالانجليز اتاح لهم ان يجلبوا المواد الكمالية من الطنافس والاولانى التركية والهندسية الشىء الكثير ، بل بنى المنصور قصرا متنقلا واهم صادرات المغرب كانت من المعادن والسكر الذى ما تزال معاملته فى حاحا ، وكما اتصل المغرب بالانجليز عقد صفقات مع هولندا التى اقترضت منه عدة مرات وكان لها فى المعمورة وآسفى مراكز تجارية مهمة.

لقد أمر السعديون أولا قبائلهم فى (سوس) أن يأتوهم بيضة عن كل عائلة فاجتمع لهم من ذلك آلاف من البيض ، ثم أمروا الذين جاؤهم بالبيض ان يأتو بالدرهم بدلها ، ففعلوا فتحصل لديهم مبلغ كبير من المال أصلحوا به شان البلاد والجيش ، وكانت تلك أول نائبة فرضت فى دولة السعديين ، ثم تطورت النائبة الى ضريبة مقدارها صفحة من الشعير وعشرين مدا من القمح لكل نائبة وصاعا من السمن ، وكبشا لكل اربع نوائب ، ولما جاء المنصور أخذ يتقاضاها دراهم ولا شك ان انصراف الاسبان والبرتغال عن الشواطىء المغربية ساعد على الاستقرار فى المغرب ، فقد اكتشفت امريكا وتوجه البرتغاليون الى البرازيل لاحتلالها ، ولما عادوا من جديد لهجوماتهم على المغرب تصدى لهم المغاربة فى وادى المخازن .

وكان المغرب فى عهد السعديين ينتج السكر الذى كانت معاملته منتشرة فى (حاحا) و (شيشاوة) ويصدر الجلود ، والزيت واللوز والتين والعسل والعنب ، ويجلب الزعفران والتبغ الذى دخل المغرب عام 1007 ، على يد تجار السودان ، فأولع الناس به ، كما كان يجلب المنتوجات والاولانى من أوربا ، وكانت (سلا والعرائش) فى جبل طارق مراكز تجارية للاصدار الى الخارج ، وأهم دول المعاملة هى : الانجايىز والهولنديون والاسبان وفرنسا .

وعندما استولى المنصور على السودان واستحوذ على مناجم الملح في تغازة قرب تاودنى الحالية ، كثر الذهب في المغرب . وقد استفاد منه ور من السودان ثروة طائلة من الذهب الخالص ، فلذلك لقب بالذهبي ، وقد ذكر جولبان (ص 480) تاريخ افريقيا الشمالية ان العملة المغربية ارتفعت قوتها الشرائية حتى صار التجار الانجليز يتهافتون عليها ، وتدفق ذهب السودان على عواصم المغرب الاقتصادية وسارع البرتغاليون الى تقديم اثار جزيلة للدولة لفداء اسراهم مما ساعد على انشاء عدة مؤسسات .

وكذلك كان السعديون مغرمين ببناء القصور المنتقلة وتحديث صاحب النفحة المسكية عن قصر بناء المنصور من خشب ، وربط اجزاءه بالصفائح المفضضة وأحاطه بسرادق من نسيج الكتان ، ونظم في داخله قبابا مزينة بأبهى النقوش ، ووصل القباب بدهاليز وتعاريج ، فصار القصر كمدينة تنتقل بانتقال الملك وكان من أثر تدفق الذهب على عاصمة السعديين ما كون لهم رصيда ماديا ضخما ، كما كانت الاتاوات الجزيلة التي يقدمها البرتغاليون والاسبان وغيرهم لفداء الاسرى مما ساعد على نمو مالية الدولة .

العمران :

بناء قصر البديع

في عام 986 هـ شرع المنصور في بناء (قصر البديع) واستمر الى عام 1002 ، وقد جلب السلطان المهندسين والصناع من اوربا ، ويذكر الفشتالي في مناهل الصفا أن سوقا تأسست قرب القصر حين بنائه قصدتها التجار بيضائعهم لكثرة العمال .

وقد جاب المنصور الرخام من بلاد الروم مقابل ما كان يصدره اليها من السكر وزنا بوزن ، واستورد كثيرا من مواد البناء من مختلف البلاد كالسودان وكان يوسع للعملة في اجورهم، وقد وصف القشتالي قباب البديع وضروب القطعيمات الذهبية التي موهت بها جدرانها ، ووصفه أيضا أيضا صاحب النفحة المسكية ، ذاكرا ما كانت تزين البيوت بأصناف النمازق والحائطات والطنافس والامراش الزجاجية التركية والانجليزية وصفائح الذهب والفضة .

وقد كان قصر البديع وحدة مستقلة ، وغلب هذا الطابع على القصور المغربية التي تطورت الى وحدات مستقلة كل قصر يضم ما يحتاجه من مواد مما يجعله قادرا على الاكتفاء مدة طويلة كلما داهم المدينة خطر خارجي ..

وشاهد المغرب في العصر تأثرات حضارية نتيجة اتصال المغرب بالبرتغاليين فقد بنى هؤلاء معازل عسكرية شاطئية اتسمت بضخامة البناء وبساطته واعتماده على الحجارات فقط دون الاخشاب ، وبناء آبار ومضفيات كما في (الجديدة) ومرافئ اصلاح السفن وأبواب سرية تصل القلعة البحرية بالبحر حتى يتمكن المستعمرون بسلامة الفرار ، كما في بناء الحصون البحرية بأسفى والجديدة .. وقد تأثر السعديون بذلك كله وادمجوه في بنائهم المعماري .

الرايات السعدية

كان البياض شعار الموحدين ، وكانت الويتهم بياض الا الاوية الثانوية فهي ملونة بالاحمر والابيض والاصفر اما اقبية الخليفة فقد كانت حمراء . وقد جملوا اركان خزانة المصحف

العثماني الذي حملوه من قرطبة الى مراكش بالالوية كما يذكر عبد الملك بن صاحب الصلاة في كتابه (المن بالامامة) .

فلما جاء السعديون أصبح جيش المنصور المكون من القبائل ، وجيش السود ، يحمل اللواء المنصوري وهو شعار الدولة المرينية ، وقد وصفها القشتالي بقوله .

(جيش الصباح على الدجى متديق
فياض ذا لسواد ذلك ممحق)
(وكأنه رايات عسكرك التي
طلعت على السودان بيضا تخفق)

طائفة في اعلام هذا العصر :

في فهرس اليوسى وهو من الزاوية الدلائية ، ذكر للعلماء الذين اخذ عنهم بسجلماسة ودرعة والسوس ومراكش ودكالة وقد عدد شيوخه فكان منهم أبوبكر النظامي ، ومحمد بن عبد الله الحسنى ، وعبد العزيز الفيلالى ومحمد التجمعتى وأبو مهدي عيسى السجستاني ، ومحمد المزوار ، ومحمد الهشتوكسى واحمد الاعرج بن محمد القائم بأمر الله الذى كان عالما مدرسا بالقرويين وذا كرسى للتدريس بها ، ثم خاص ميدان السياسة (ولد سنة 891 ومات سنة 951) — ومن اعلام هذا العصر احمد المنصور الذهبى الذى كان متضلعا فى الحديث والفقه والرياضيات والجبر والمقابلة له ارجوزة جيدة مدونة (ولد سنة 956 ومات سنة 1012) ، وعبد الواحد الحميدى واحمد القدومى واحمد المنجور ، وسقين الذى عده القصار من المجددين للاسلام على رأس القرن العاشر ، وكان داعية للاسلام فى افريقيا دخل بلاد السودان (وتوفى سنة 956) ، وابو القاسم بن ابراهيم وهو علامة ومفسر (مات سنة 978) ، وعبد الله الورياغلى

وهو مجتهد اصولى ، مرابط (مات سنة 954) ، وأو القاسم الحسانى ابن خوخو (مات سنة 956) وعثمان اللطى (المولود سنة 888 والمتوفى سنة 954) ، ومحمد بن غازى محدث ومؤرخ الف فى القراءات والحديث والنحو وله شرح خليل والمدونة (توفى سنة 919) ، ورضوان الجنوى الذى كان فقيها ومحدثا (ولد سنة 910 ومات سنة 991) ، وابن القاضى وهو مهندس وعالم مفكر الف عدة كتب اشهرها « المنتقى » والجذوة و « المنتقى » والجذوة و « الدرة » و « الغنية » و « المدخل لعلم الهندسة » (مات سنة 1025) ، ومحمد بن على القنطرى وهو اديب شاعر محدث وفارس عسكرى (مات سنة 1018) ، وعبد الواحد ابن عاشر فقيه مربى (مات سنة 1046) ، ومحمد بن قاسم ابن زاكور حافظ اديب وطبيب له مؤلفات شتى اشهرها شرح ديوان المتنبى وتذييل ارجوزة ابن سينا (مات سنة 1120).

الخرائن

اسس المنصور الذهبى خزانة عظيمة سميت بالخزانة المنصورية ، وقد جمعت كتبها من مختلف الاقطار حيث كان سفراؤه يحماون اليه من البلاد النائية مختلف الكتب وضمت الى خزانة القرويين بعد وفاته ، كما اشتهرت خزانة الدلائيين بنفائسها وخزانة تمكرورت وزاوية العياشى بذخائر الكتب النفسية .

الفهارس والمكتبات

من أهمها : فهرس يحى السراج الحافظ المفسر ولد سنة 1007 . ومحمد المرابط العالم الفقيه توفى سنة 1008 ، له كتاب فى النحو . ومحمد بن أبى القاسم ابن القاضى فقيه رحالة

فلكي ، وفهرستا المنجور المتوفى سنة 995 ، وفهرست العميرى .

المسرح الشعبى

ان الثقافة وليدة البيئة وتفاعل الانسان معها فى تحديده وحواره الدائم وهذا التحدى والحوار يستمر فى تجاذب عقلى أو وجدانى ينشأ عنه العلم والادب والفن ؛ وكما يتحدى الفرد الطبيعة بعقله ووجدانه تتحداها الجماعة الانسانية كذلك ، واذا عبر الفرد عن تفكيره بالكلمة فان الجماعة تعبر بما بالفن الجماعى ، وما يتبعه من عادات وتقاليد هى التى تسمى بالفلكلور اخدا من الكلمة الانجليزية (Folk-Lore) اى علم الشعب .

وقد عرف المغرب المسرح الشعبى ، الذى كان تعبيرا عن طبيعة المغربى السريع النكة ، والنقد البرىء ، ولم يكن يتخذ من المسرح مدرسة اخلاقية لان المسجد يطبع الاخلاق الاسلامية بالطابع الاصل ، فلم يعن الفن المسرحى الا بالتعبير الكوميدي عن فرحة الشعب ونقذه المتستر . ولهذا نجد فى المغرب مسرحا يسمى (بالبساط) ، واصل الكلمة من مكان البسط والانشراح فلها نفس معنى المسرح العربى ، وكان منتقلا يظهر فى تسلية أبى هياض ، وبو بظانة .. كما كان يشخص بعض الادوار الهزلية فى صورة الحيوانات وفى مظهر أشبه بالكرنفال وكان البطل يسمى (يوهو) ، والغريب أن الممثلين فيه يسمون عادة بالمسيحين (من السياحة) وما يمكن ان يطابق اليوم كلمة البوهيمى ...

ويرجع تاريخ البساط فى المغرب الى عهد عريق فى القدم ويظهر أنه من آثار المسرح الرومانى الذى كان متأثرا بالمسرح الرومانى عم كل المدن المغربية كشالة ووليلي وغيرها كما جاء وصف لمسرح قرطاج فى كتاب المسالك والممالك للكبرى .

ويعرف تاريخ اليونان ان اثينا كانت تقيم مسرحيات فلكورية في اعياد (ديونيسيات) حيث كان الممثلون يطوفون في المدينة الى ان يصلوا الى (التيميلي) كما يفعل رجال (السرك) في هذا العصر وكان (الكوريفي) هو بطل الرواية وكبير المجموعة، مما يطابق دور (البوهو) ويطلق على هذا النوع من التمثيل (كوموس) وكانت طبيعة هذه الجولة تقتضى الغناء والانشاد والخطابة . فكان (ديشيرامب) ينشد وتعزف له المجموعة حيناً ، وأحياناً يتكلم تلقائياً هزلاً كما يتفعل فرقة (البوهو) في البساط .

ولهذا (فالبساط) في المغرب متأثراً بالكوموس اليونانى فيما يظهر ، الا انه لا تصل المجموعة الى مسرح ، وانما تصل عبر الازقة الى ساحة عمومية ، وإلى القصر ، أو دار الباشا ، حيث يشرع الممثلون في التمثيل المتعمد على الرقص والغناء والفكاهة والهجو ، ويشمل (البساط) عدة فنون لا تختلف في ادائها انما تختلف فيمن يقوم بهذه الادوار ، واشهر ما بقى من اسماء الفرق التمثيلية (سيدى الكتفى) الذى كانت تؤدى الادوار جماعة المعلمين الخرازة والذين ألفوا نقابة بهم تضم اثنى عشر فرداً عليها عميد يسمى المقدم ، وله خليفة ، ويمثلون ادوارهم بانتظام في المنازل دون ان يعبروا الشوارع في شكل البساط ، ويتتدىء عميد الفرقة المسرحية باداء هزلى كله نقد وتهكم .

وبجانب هذا المسرح كان هناك مسرح بالشعر الملحون الذى يعتمد على الموسيقى في الاداء ، وقد كانت مسرحية (الفراجة) تعزف بها روايات هزللية شعرية بلغة الملحون ، وربما شخصوا (الحراز) وهو قصيدة طويلة جداً تصور عاشقاً يحتال للوصول الى حبيبته ، ويأتى الى منزلها في صور مختلفة ويظل بتحايل حتى يصل الى رغبته أو يشخصون قصائد (الضيف) أو

(القاضي) التي يصور فيها الشاعر أنه يحاكم عشيقه عند القاضي ، ويقدم حجج حبه وهواه وقد ترك لنا الشاعر الشيخ الجيلالي قصيدة رائعة في هذا الموضوع ، وتارة يكون الموضوع المسرحي مفاخرة عدة فتيات جميلات مختلفات البيئات والالوان والاعمار ، كالبديوية والحضرية والحررة والامة والعجوز والشابة والبيضاء والسمراء وهي مأخوذة عن مقامات الحضرمي المشهور ، ويحتفظ الشعر الملحون باللمحة الشعرية (الايوبية) نسبة لصالح الدين الايوبي ،، وهي ملاحم طويلة نصف الغزوات والعروب مع الكفار ، واشهر شعراء الملاحم سيدي عبد العزيز المغراوي صاحب الشدادية ، والشاب الغساني ومن شعراء الملاحم سيدي مبارك ابو الاطباق صاحب غزوة الصيد بن سلامة المخزومي ، والاسرائلية و (الراحة) وفتوح افريقيا ، ومحمد بن يخلف التلمساني صاحب قصيدة الراهب والضيافة وابن زيد البسطامي مع رهبان الدير .

الفن :

ينتقد (طيراس) الفن المغربي في عصر السعديين ويرى انه في متجه الى الماضي لم تستطع التأثيرات الجديدة التي تلقاها عن الاجانب ان تغيره أو تأتي بشيء ، فهو فن لا تذكىه روح ، وقد حاول الفنانون ان يعوضوا هذا الاسترخاء الفني بأنواع الزينة والالوان ، ولكنهم لم ينجحوا الى الاعماق ولعل افخم مآثر السعديين تتجلى في قصر البديع الذي وصفه الفشتالي بأنه يضم الكثير من أصناف الرخام الابيض والاخضر والمرمر والزليج المزوج بالذهب الخالص وتخطيطية الجدران بالصفائح الذهبية والنقش على الجيـص ، وقد شارك في بنائه فنانون من سائر الدول والاقطار .

ومن مآثرهم مسجد باب دكالة بمراكش الذى يحتفظ بالفن المرينى والشكل الموحدى ، والصومعة السعدية ، ومسجد المواسين بمراكش ، ويتجلى اقتباس الفن السعدى عن المرينيين فى الجناحين المتقابلين فى صحن مسجد القرويين ، الذين يشبهان جناحى قاعة الاسد بقصر الحمراء الى حد كبير ، ولا شك ان بقايا الفنانين المرينيين بفاس ساعد السعديين على تخليد الاثر الجليل بالقرويين حيث يحتوى كل جناح على مكان للوضوء ، وتحتفظ مدينة مراكش بمقبرة السعديين ، تلك المقبرة الملحقة بجانب القسبة على غرار مقبرة المرينيين بشالة ، وما تزال بقببها ذات النقوش الزاهية والرخام المنقوش والمواظ والاشعار الحكيمة المكتوبة فى زواياها والتى توحى للنفس بجلال الموت وعجز الانسان عن مغالبة الفناء .

وترك السعديون تأثيرا فى الذوق والملابس والاطعمة والحفلات والمواسم والمهرجانات ذات الاصل التركى التى اقتبسها المنصور السعدى (الذهبى) من بلاد الاستانة التى اقام بها واعجب بحضارتها ، فهو أول من لبس الرداء الشفاف على القفطان ،، ونسب اليه فقيلا له (المنصورية) ، وأول من نظم فرقة الموسيقى العازفة على الطراز الجديد ، واستعمل المظلة الملكية واستغل غراسة قصب السكر وطور معاملته بتارودانت وغيرها ، وغير نظام الاسوار التى اصبحت معززة بالبروج الصالحة لنظام المدفعية ، كما فى برج تازة ، وبرج فاس وغيرها ، وظلت هذه الدولة معتتية (بالحدائق) والتشجير ، والاهتمام بالزهور فى اكدال فى مراكش وللامينة بفاس وحمرية بمكناس واكدال بالرباط .

وظل الفن الجديد القائم على ازدواج الطابع الاندلسى والاسبانى المسمى بالفن المورييسكى ، يصطبغ بلون خاص يهدف

الى ضمان متانة الهيكل مع التنميق والزخرفة ، فيه تسطيرات
ناتئة ومقربصات وتلوينات وايصال في التوريق والنقش وانعدام
توازن الاجزاء وعدم جودة المواد ، ويرى (اندرى جوليان) في
« تاريخ افريقيا الشمالية ص 466 » انه فن واضح المعالم
متوازى النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الجيز
الذى يملؤه .

وقد جلب المنصور الرخام من ايطاليا ومن مناجم (انوكال)
المغربية و (كيك) واعتمد على مهارة الجباص في نحت مزيج
الكلس والرخام ومهارة النجارة في برى المواسير الخشبية التي
تتكون منها قطع المقربصات ، ومهارة الزلايجى في تلوين
الفسيفساء والاستيحاء من النباتات الفارسية التي تزين
السقوف والزهيرات بالقرنفل والسوسن في تخليد آية الفن
المغربى .

الموسيقى :

واستمرت العناية بالموسيقى الاندلسية خصوصا بعد
ورود الاندلسيين على المغرب ، وقد كانت مجموعة من التواشى
تؤدى بدون كلام ، فعمد الشاعر العلامة حمدون ابن الحاج
فملأها شعرا غنائيا لطيفا .

ومنها نوثية غريبة الحسين :

هل لى من مداوى الهوى	يداوى سقامى عاجلا
قلبى بالهوى اكتوى	ودمعى تراه سائلا
نجمى فى الهوى هوى	وحبى تراه مائلا
عن لقائى ما نوى	ان يكون لى واصلا

بغيتى منيتى
 عالج يا طبيب سقمى ودائى
 عسى عن قريب نبلىغ هنائى
 عالج يا طبيب قلبى الكئيب
 بوصل الحبيب عسى اجمع من غير رقيب
 فى روض منعـم خصيب
 يقول الاديب قولى ما أبدع يعجبني الاريب
 (الزهر ، معتبر ، لانظر لمن حضر)

الديبلوماسية :

عملت الكنيسة فى روما جهدها لتوحيد المسيحيين لمواجهة المسلمين فى المغرب ، فقرر البابا اقتسام الشاطئ المغربى بين اسبانيا والبرتغال توحيدا لجهودهم فى ضرب العالم الاسلامى الغربى .. ولم يستجب البروتستانت لارغبة البابا فشجعت على ضد قراره ، ولذلك احدثت شركة للتجار فى بلاد الهند .. والمغرب ، واخذ الاسطول الهولاندى يعبر الى الى الهند عن طريق الرجاء الصالح منذ سنة (1593 م – 1007 هـ) . وعقدوا معاهدة تجارية مع المغرب سنة 1010 لتأمين التجارة الانجليزية .. واذا كان الهولنديون اخذوا ينافسون الانجليز ، فقد اتحد معا لمحاربة اسبانيا عدوهم المشترك نظرا للخلافات السياسية والتاريخية والدينية بين البروتستانت والكاتوليك . ومن هذا المنطلق ارتكزت الديبلوماسية المغربية لتحرز انتصارات اقتصادية .

وصرف المنصور السعدى اهتماماته لغرس قصب السكر الذى كان معروفا فى افريقيا حسب المؤلف فى تاريخ الفلاحة الافريقية . ولكن المنصور طور فلاحته وأنشأ معاصر للسكر فى

شيشاوة وتارودانت . كما استغل المغرب مناجم المعادن الموجودة قرب سبلماسة للنحاس والذهب .. وراجت صناعة الحرير والقطن في الجديدة على يد الانجليز سنة 1864 كما ازدهرت مصانع الثوب المعروف (بالاطلس) .. واعطت هذه السياسة الاقتصادية ثمرتها فأصبح السكر المغربي مطلوبا في اسواق فرنسا وانجلترا واطاليا بالاضافة الى ما يصدره لاوربا والشرق من جلود وزيت ونحاس ورصاص وكبريت وحديد وملح البارود ، وبذلك أصبح (الدينار المغربي) هو العملة الصعبة في أوربا . ، وأخذ المغرب يقرض الدول الاوربية ، حيث ساعد هولاندا وغيرها بقروض مالية .

ومن هنا استطاع المغرب ان يفرض ديبلوماسية هادفة الى استرجاع الاندلس حيث كان يعتبر دولة المواجهة التي فشلت في حرب الاستنزاف في غرناطة والجزيرة ، فعمد الى الوسائل الديبلوماسية التي كانت اسبانيا تستغلها ضد المسلمين أيضا ، اذ ما كادت تسقط غرناطة حتى توجه آخر قضاتها ابن الازرق فسافر الى عدة دول اسلامية يطلب العون والممدد ، كتونس ، والقاهرة ، والحجاز ولكن هذه الدول التي كانت تعيش المنافسة فيها بينها خشيت أن يستغل (العثمانيون) توجه جيشها للمغرب فتحتل اراضيها ... وهي نفس المخاوف التي راودت العثمانيين ، واكتفى المصريون بتعيين القاضي ابن الازرق قاضيا بالقدس وبارسال وفد من المسيحيين ليحدث (البابا) في روما و (ايزابيلا) في اسبانيا .. وعاد الوفد وهو مطمئن على مصير المسلمين باسبانيا .

ويظهر ان اقدم سفارة فرنسية بفاس هي سفارة الكولونيل دوبيرتون في عهد مولاي عبد الله السعدي ، وكانت العلاقة

السفارية قوية بين المغرب واجلثرا رغم بعد المسافة واتساع الفوارق ، وكان أول سفير عوادمون الذى ورد على المغرب عام 1577 فى عهد المولى عبد الملك ، واستقبل بالقصر الملكى حيث قدم اوراق اعتماد الملكة وامر السلطان يخرج البرتغاليين والاسبان لاقتباله خارج المدينة ، وذكر فى رحلته انه شاهد العاب الكلاب الانجليزية والثيران وصيد البرك ، ويظهر ان هذه الالعاب لم تعرف الا فى عهد المولى عبد الملك الذى كان له ولوع بالعادات الاوربية .

كما ان الوفد الاسبانى الذى ورد على المغرب بتهنئة احمد المنصور غداة معركة وادى المخازن يتركب من ستين شخصا زيادة على السفير ، لابسين حلا مضمعا بالجواهر والذهب يحمل هديته التقليدية ، وفيها ياقوتة بقدر كف اليد علقبت بها جوهرة بقدر جوز قيمتها ثلاث الآف دينار مع زمرة بقدر النفاحة تتدلى منها زمردة اخرى طولها اصبح مع عقد انتظمت فيه اثنتا عشر ياقوتة تخللها ستة وثلاثين جوهرة مع مئة وعشرين اوقية من الجواهر ، وكلف كيوم بياراغذاة معركة وادى المخازن بتهنئة احمد المنصور والتذكير بروابط الود التى استوثقت بين فرنسا ومولاي عبد الملك والعمل على تحرير الاسرى ، وفتح المراسى المغربية للسفن الفرنسية واستيراد ملح البارود .. كما وجه احمد المنصور عام 1600 الى اليزابيت ملكة انجلثرا وفدا كان الغرض الظاهر منه الابحار فى مركب انجليزى ، الى الاسكندرية لشراء الجواهر ، والغرض الحقيقى هو القيام بمأمورية سرية ، من اجل تحقيق التحالف الانجليزى المغربى ضد البلاد المتآمرة على المغرب .

وسافر الكولونيل .. بيرتون فى عهد مولاي عبد الله السعدى،

وكانت العلاقة السفارية قوية بين المغرب وانجلترا رغم المسافة واتساع الفوارق ، وكان من اهم سفرائها السفير (هوادمون) الذى ورد على المغرب عام 1577 فى عهد المولى عبد الملك واستقبل رسميا بالقصر الملكى ، حيث قدم اوراق اعتماده للملك ، وامر السلطان بخروج البرتغاليين والاسبان لاقتباله خارج المدينة ، وذكر فى رحلته انه شاهد العاب الكلاب الانجليزية والثيـران وصيد البرك ، ويظهر ان هذه الالعاب لم تعرف لا فى عهد المولى عبد الملك الذى كان له ولوع بالعادات الاوربية .

وكان انتصار السعديين فى واد المخازن يؤذن بنشاط ديپلوماسى ، وقد طلبت من السعديين ملكة انجلترا ان يساعدوا انجلترا ضد انتفاضات امريكا .. وكان للمنصور فضل عظيم على الدبلوماسية لاستخدامه للسفرة وعقده لعدة اتفاقيات اقتصادية المعروفة بدبلوماسية (السكر) الذى ازدهر انتاجه فى المغرب .

حتى اذا سقطت غرناطة ، وأصبح المغرب يواجه اوروبا على اساس حفظ التوازن للحفاظ على ذاتيته بدا ذلك جليا فى مواجهته لاسبانيا ، فاعترف (بهولاندا) وهى من الدول التى اعلنت استقلالها عن اسبانيا سنة 1576 ، وأخذت هذه الدولة الجديدة تتقرب الى الملوك السعديين فى المغرب لتحفظ كيانها واستقلالها، وتجعل من المغرب حليفا لها ليصد تيارات الغزو السياسى ليصد تيارات الغزو السياسى والاقتصادى من المسيطرين القداماء عليها .. وقد ظهر عامل قوى فى المغرب أفقد هذا التوازن ، وهو السيطرة التركية على الجزائر ، وتهديدها للحدود المغربية مما جعل من الضرورى اتخاذ حلفاء من المعسكر الاوربى لمواجهة أى خطر محتمل ، وهذا ما جعل المنصور السعدى يهادن الدولة الاسبانية وينأى عن السياسة التقليدية المتبعة طيلة عصر المرابطين والموحدين والمرينين والتى كانت تساند الاندلس وتعزز

مواقفها . دل هذا سالم اوربا ، وولى وجهه الى جنوب المغرب مما جعل كثيرا من الذين لا يعرفون الاتجاهات السياسية في عصره يفتقدون عليه بعنف سياسته ازاء اسبانيا التى سالما وتربص بها الى حين ... وقد صرح بذلك فى التماسه لسلطان مكة ان يدعو له بالتوفيق لخوض معركة الاسلام .

وفى نفس الوقت لم يكن فى وسع السعديين الا ان يساندوا موقفهم بحليف أوربى من الذين يناوئون اسبانيا وهذا ما جعلهم يتجهون الى هولاندا التى عقدوا معها احلانا تجارية واقتصادية، وقد وجدت هولاندا فى هذه العلاقة ما تؤيد بها موقفا فى اوربا ... فهذه الاحلاف تسمح للهولنديين بدخول سفنهم البحرية الى الشواطىء المغربية تنظر الامن والاطمئنان فى سواحلها كلما روعتها سفن اعدائها ، ثم من الوجهة الاقتصادية تساعد هذه الاتفاقيات على التبادل التجارى بين البلدين ، حيث تستورد من المغرب الجلود والزيت واللوز والسكر والشمع والفواكه كالبرتقال والتين والعنب فى مقابل تصدير النسيج والمرايا والعتاد الحربى ، والحديد والحريير وقد كان المغاربة فى العصر السعدي مقبلين على انشاء قوة عسكرية برية وبحرية لهذا فقد كانوا فى حاجة الى تجهيز سفنهم وجيوشهم واذا عرفنا ان الصراع الذى استمر بين المغاربة المسلمين والمسيحيين فى الاندلس ، كما استمر بين المسلمين فى الشرق والصليبيين المعتدين عليهم عرفنا مدى الخناق والحصار الذى ضربته البابوية على كثير من البلاد المسلمة حتى لا تستمد العون الاقتصادى وتحقق التبادل لحفظ التوازن بين الصادرات والواردات ، ولكن نهضة الفكر الغربى وخروجه من التعصب الصليبي وظهور الممالك المستقلة على قومية جديدة فتتح الباب لخلق صلات بين الدول الاسلامية والدول الاوربية وهذا ما جعل هولاندا تتصل بالمغرب لاقامة علاقة سياسية تضمن

تطورا اقتصاديا في بلادها على أساس التبادل مع المغرب . وفي اكتوبر سنة 1596 كلفت حكومة هولاندا احد تجارها في المغرب أن يقدم اوراق اعتماده للملك المنصور الذهبي ، وقد سعى هذا السفير ان يحقق تعاونا اقتصاديا يسمح للهولانديين بامتيازات العمل التجارى في المغرب ويحدث التاريخ ان السفير الهولاندى قدم للملك المنصور اسيرا من اعيان المغاربة القاطنين بفاس حرروه في حصارهم لمدينة قادس باسبانيا كعربون على صادق الولاة .

وبموت المنصور دخلت البلاد المغربية في آخر عهد السعديين في عهد الاضمحلال لاسباب مبسطة في التاريخ ، وذلك ان كثيرا من الثائرين طمعوا في الحكم وتخلوا على خدمة البلاد فقادوها للفتنة والانحلال وانتشرت الاوباء والمجاعة . وظهرت ولايات مستقل بعضها عن بعض ، بل يحارب بعضها ، ومنها ولايات شاطيء ابى رقرق وفعلا اخذ هؤلاء يقيمون اتصالات دبلوماسية مع هولندا . أما علاقة المغرب مع فرنسا فقد كانت علاقة لها جذور قديمة مع الدول الاسلامية والدول العربية القديمة ، وأولى هذه العلاقات ما كان بين الخليفة الرشيد العباسي وبين الامبراطور شارلمان من سفارة الود ، وهدية الساعة العجيبة الصنع ، ثم ما كان من هنرى الرابع ملك فرنسا مع الاندلسيين يوم الجلاء عن الجزيرة ، فان كثيرا منهم عبر جبال البيرنى ودخل تراب فرنسا ، فقبل الملك نزولهم ، وجاد على بعضهم بالمسكن والزراعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر الى مرسى (غنية) و (مرسى أندوك) ثم ما كان بين دولة السعديين وبينهم من سالف العهود التى جددتها الوليد بن زيدان في عقده وما كان بين ابى عبد الله بن محمد العياشى من تجديد العهد القديم على يد نائبه ابراهيم بن على العربى الاندلسى بثغر سلا .

من مشاهير نساء في هذا العصر :

(مسعودة الوزكتية) التى اعتنت باصلاح السبيل وعمارتها فشيدت الخانات بالامكنة الخالية وبنت القناطر ، وولت الى نفسها العناية باليتامى والارامل ، وأسست فى مراكز مسجد باب دكالة ومدرسة للغرباء ومكتبة للمطالعة ، وجعلت جمرتى صومعة مسجد الكتبية من الذهب الخالص . وهى فى العصر السعدى مثل خنائة بنت بكار فى العصر العلوى التى كانت لزوجها وزيرة صدق يستشيرها فى امور الدولة تصدر عنها ظهائر فى بعض الشؤون القبائلية ورقية بنت الحاج ابن العايش الاستاذة الكبيرة وصفيعة بنت المختار الشنقيطية ، العالمة المشهورة .

سمعة المغرب :

كانت معركة وادى المخازن معركة فاصلة كما يقول (هزى طبراس) بين المسيحية والاسلام،حيث حطمت مطامع ملك البرتغال (سبستيان) الذى لم يترك وارثا فخلفه عمه ملك اسبانيا الذى دمج البرتغال فى مملكته وتحرر العالم العربى فى الشرق من سلطة البرتغال الذين انجلوا عن منطقة البحرين بعد أن احتلوها قرنا كاملا ، وعن الشط العربى سنة 1649 م 1059 هـ ... ورغم محاولات العثمانيين لفك الخليج العربى فى البرتغال فان القدر هيا معركة وادى المخازن للقضاء على الاستعمار البرتغالى ، تلك المعركة التى عبأ لها البابا المسيحيين عموما لخوضها انتقاما عن حكم العرب للاندرلس .

الحضارة الاندلسية وتأثيرها في العصر السعدي

الجالية الاندلسية :

كانوا يؤثرون ان يسموا بالاندلسيين ، وكان المؤرخون العرب يسمونهم بالمهاجرين الاندلسيين ، وأحيانا يلقبون بالغرباء. أما المسيحيون فكانوا يلقبهم (بالموريسكوس) وأحيانا (بالمدجنين) وهم الذين كانوا موزعين في اسبانيا قبل سقوط غرناطة وضواحيها ، والذين يعيشون في كنف الممالك الاسبانية منذ عهد المرابطين ، وكانوا أرقى حضارة من المسيحيين .

وكلمة (الموريسكوس) — Mariscos تصغير لكلمة Moros وهو لقب يطلق على جميع المسلمين الذين كانوا يحكمون الاندلس ثم غلبوا على أمرهم فصغر اسمهم تهويينا لهم .

ويرجع أصل هذه الكلمة الى اللغة البربرية (امور) وتعنى المغرب ، ودخلت اللغة اللاتينية فأصبحت كلمة Mauri - Maurus وتعنى سكان المغرب ، حيث كان جنوب المغرب يسمى بموريطانيا، ومنذ القديم أطلق سكان (لبيريا) كلمة (موريطانيا — تنزانيا) على المغرب العربى ثم أصبح الوافدون عايمهم من هؤلاء يسمون (بالمورس) مختصرا عن موريطانيا ، وأخيرا أطلقوا هذا الاسم على كل عربى ومسلم ، لان المغرب باب الوافدين على اسبانيا ، ولهذا فنترجم الى عارب أو متعرب .. أما كلمة (الموريسكوس) فتعنى المسلمين والعرب (والمدجنين) الذين ظلوا منتشرين في اسبانيا والبرتغال قبل سقوط غرناطة ، وأصلها (مور) وهى بربرية الاصل من (أمور) وتعنى المغرب .

لقد كان أجداد هؤلاء جميعا بناء الحضارة الاسلامية في أوروبا بصفة عامة ... وفي الانداس بصفة خاصة .. وبعد حروب

الاسترجاع المتعصبة أخذت تتداعى العواصم الاسلامية في الاندلس واحدة بعد أخرى .. وأخيرا فقد المسلمون غرناطة وضواحيها العظيمة ، فسلموا من الاستقلال الذاتى والحرية السياسية ، ونتج عن ذلك الهوان والاستسلام ، والفقر والضعة ، وتحمل شتى أنواع الاضطهاد الاجتماعى ، والاستسلام لطلب لقمة العيش من يد الاعداء المنتصرين .

واذا كان عالمنا المعاصر بما فيه من وسائل الاعلام المتعددة الاتجاهات ، فى كل بلاد ، وبما يتوفر عليه من منظمات سياسية وهيئات متعددة للدفاع عن الانسان وحقوق المواطنين .. اذا كان هذا العالم يزرع تحت نير الظلم والاضطهاد ، ومآسى التجهيز والنفى الجماعى ، فما أخرى ان يكون أولئك المنهزمون من فلول الاندلسيين المسلمين الذين سقطوا تحت وطأة الدونية على يد خصوم متعصبين من رجال الكنيسة وبالاخص من رهبانية (الجزويت) والفرق المتعصبة وبالاخص كذلك من الذين لم يكونوا رجال دين مسيحي بقدر ما كانوا حاقدين متعطشين الى الدماء تحت ستار ديانة الرحمة والمحبة ، والايمان والزهد .. فما أخرى ان يلاقى هؤلاء المسلمون من صنوف القتل والتعذيب والضعة والهوان دون أن يتحرك احد لنجدتهم والتشهير بأعمال أعدائهم ، وكشف النقاب عما يلاقون من عذاب .

لم يكشف المنتصرون من سلب المنهزمين المسلمين أموالهم وديارهم ومتاعهم وتوزيعهم فى البلاد وحرق كتبهم ووثائقهم ، ومن أمر بتغيير زعيمهم وعاداتهم ، ومحو تراثهم وتعطيل أعرافهم .. بل أمروهم ان يتخلوا عن معتقداتهم التى كافحوا من أجلها قرونا بل لم يكتفوا بذلك ، فأمروهم باعتناق المسيحية اذ بدت مصلحة فى تعميدهم ثم اتهمهم بالصبوة الى دينهم ليعملوا خدما فى حقولهم .. وأخيرا شق على هؤلاء المنتصرين ان ينظروا الى هؤلاء

المنتصرين ان ينظروا الى هؤلاء الذين يحمل وجودهم تاريخاً عظيماً ، فشردوهم في البلاد ، وقطعوهم في الارض أمماً ، وقدموا بهم الى البحر ليلاقوا من قرصنتهم ما بقى عليهم ان يلاقوا من المحن بعد ان سلبوهم ما لهم من مال ومتاع ، وقدرة صحة على مواجهة الخطوب .

وما تزال الحفريات الاسبانية تطالمننا من حين لآخر عن كشف المقابر الجماعية لهؤلاء المعذبين في الارض .. وقد نقلت الينا Le Matin de Paris في شهر يوليوز آخر هذه الكشف .

لقد سلطت الكنيسة محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق الذي أعطى صفة القداسة وتأيد العرش الكاثوليكي على هؤلاء، فعذبتهم سرا وعلانية بما أغذقه الخيال المسيحي على محترفي المسيحية .. فكانت أعظم مأساة عاشها (الانسان المسلم) في بلاد لم يقدم لها الا ثمرة حضارة انسانية سامية .

وتبدأ مأساة المورييسكوس ، عندما سقطت غرناطة في يد ايزابيلا وفرديناند ، حيث شعر الشعب المسلم ببداية المأساة رغم الوعود الكاذبة باحترامهم ، وأخذ كثير من المسلمين يغادرون بلادهم الى المغرب كلما تنكر لهف الدهر ، كما وقع يوم ثورة (الربض) على الحكم الاموي .. ووصف لنا مؤلف (أخبار العصر في انقضاء دولة بنى نصر) المؤلف سنة 947 هـ — 1540 م هجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة حيث كانوا يتركون ديارهم الى بلاد المغرب في (جماعات) تستقر كل واحدة منها بمدينة من المدن المغربية ، بعد أن يبيعوا ما خف من المتاع بأبخس الاثمان ، فيؤثرون السكن في المغرب (بالمدن) الصغرى أو (القرى) وأحيانا المدن المهجورة حتى يستطيعوا ان يكونوا مجتمعاً ملائماً لحياتهم .. فكان مالقة اختاروا مدينة (باديس) ، وأهل مرية

مدينة تلمسان ، وأهل الجزيرة مدينة طنجة ، وأهل بلش مدينة (سلا) ، وأهل طريف مدينة آسفى وأزمور .. واستأذن المنظرى فى تعمير مدينة (مرتيل) وبناء مدينة (تطوان) .

ان هجرة هؤلاء جميعا بعد سقوط غرناطة دليل على تسعورهم بما سيلاقون على يد (الكنيسة) المتلهفة الى السفك والتعذيب والايقاع بالمسلمين وسلب ثروتهم ، واستغلال مقدراتهم وعملهم ثم تشريدتهم ونفيهم .

لقد كانت الفترة الاولى من سقوط (غرناطة) ، فترة اعتدال سياسى أراد بها (فرديناند وايزابيلا) أن يهضما الى حين (الانتصار الكبير) لينقضا على الفريسة بكل قواهما .. كما كانت فترة اندماج بعض عناصر البرجوازية الغرناطية التى اختارت اعتناق المسيحية والتخلى عن المسلمين ، وهى جماعة من الامراء والوزراء والمترفين .. الذين تنكروا للشعب الغرناطى المسلم وأخلصوا بعد ذلك للمسيحية والعرش الاسبانى ..

وبعد هذه المرحلة أصبح من السهل أن تدمر (معاهدة السلام) التى أعلنها (فرديناند) و (ايزابيلا) قبل تسليم غرناطة والتى يلتزمان فيها بتأمين المسلمين على أنفسهم وأمتعتهم واحترام دينهم وشعائهم .. فقد كانت مجرد عهود كاذبة .. المسيحية عن مقاومتهم وتفريق كلمتهم ، حتى اذا اطمأن الى وخداع ليستسلم المسلمون بعد ان عجزت السلطة ضعفهم سلط عليهم الكردينال خمينيس بتتظيم الارهاب (العقائدى والدينى) وقتل (النخبة) ، واحراق الكتب والخزائن ، وتدمير الجماعة الاسلامية بالنفى والتهجير والتعذيب .. بعد استنزاف طاقاتها وقدراتها الفكرية والمالية والادبية .

لقد أدان المؤرخون المسيحيون أنفسهم أعمال (خمينيس)

الاجرامية .. ولكنها ادانة (لفظية) فقط ، فما يزال خميسس يعتبر في تاريخ رجال الكنيسة الاسبانية من الآباء الروحيين ، وهو الذى حاكم (الكتب) الاسلامية كما حاكم المسامين ، واحرقها كما أحرقتهم ، وأباد أمجاد ثقافة انسانية ليحل مكانها الاسترقاق والظلم ، والاغتصاب والجهالة والانحراف .

وهكذا ظهر (المورييسكوس) كشعب مسلم يقاوم في السر والعلن مظاهر الابادة الفردية والجماعية في اصرار لا مثيل له . فلجأت الكنيسة والعرش الاسبانى الى الاغراء وذلك بالابراء من القيود المفروضة على المورييسكوس على كل من تنصر ، تلك القيود التى تعنى (ضريبة الرأس) و (الغرامة) المفروضة على كل المورييسكوس .. ومضايقتهم جميعا بالدخول على منازلهم في كل وقت وحين ، وعدم الاعتراف بعقودهم المحررة باللغة العربية ، وفرض الخدمة عليهم وعدم السماح بتنقلهم ، ومنعهم من حمل السلاح ، واقامتهم بحى خاص بهم . وفعلا تنصر سكان حى الموريريا Moreria في غرناطة وبسطة وأهل وادى الكرين ، عساهم ينجون من العذاب . ورغم هذه (المؤامرة) الهادفة الى الى ابادة الشعب المسلم .. فقد ظل (المورييسكوس) صامدين في وجه الكنيسة والحكم الاسبانى .. فقرر ملك اسبانيا سنة 904 هـ اجبار التنصير ..

ولجأ (المورييسكوس) الى مذهب (التقية) الشيعى ، فتظاهروا بالمسيحية واستبطنوا الاسلام ، وكان العالم الاسلامى في صلب الانحدار فلم يستطع استنهاض الهمم لمقاومة (التنصير) ولم يزد الكتاب والحكام من ترديد الآهات على ديار الاسلام !!

وأعلن ملك المسيحيين في اسبانيا ان (الاسلام بها) ولهذا

فقد كان مبدأ (التنصير) يخفى أعظم جريمة عرفها التاريخ ، وهى جريمة ابادة شعب والقضاء على حضارة انقذت أوروبا من التخلف الفكرى والدينى والثقافة البدائية وعصر السحر والكهانة .. ولذلك فقد حرر (ديسا) المحقق العام تشريعا لحرب الابداء وسماء (محكمة التفتيش) أو (ديوان التحقيق أو التفتيش) يضم لجنة ملكية للتحقيق ، كما هو الشأن فى (قرطبة) .. وكانت (محكمة التفتيش) تعنى الظلم والافتيات والتآمر ، والاهانة واغتصاب النبلاء والجيش وحتى الرهبان لاعراض المسلمين .. كما كانت وسيلة لاستعباد الناس وعملهم بدون مقابل الا بالاحتقار والاهانة ..

ووجد (المورييسكوس) أنفسهم أمام مؤامرة جديدة فقرروا (الثورة) الداخلية .. و (الاستعانة) بتدخل الدول الاسلامية ومؤازرتها ومساعدتها من جهة الشواطىء الاسبانية .

فقد لجأ القاضى ابن الازرق الى تونس ومصر لطلب المعونة من قبل ، ولكن الخلافات بين رؤساء الدول الاسلامية فى مصر وتونس ، والخلافة العثمانية حال بين التدخل الفعلى ، ولم يزد الخليفة العثمانى عن ارسال وفد يطلب من السلطة المسيحية المتعطسة بحق الرعاية فكان الرد ببعث وفد لتطمين الملوك المسلمين على مصير (المورييسكوس) المنكوبين ١ .

وركب (١١ المورييسكوس) الطريق الصعب ، واعلنوا الثورة التى ذكرت (المسيحيين) بأمجاد المسلمين الحربية .. فأخمدت الثورة باعلان العفو عن الثوار شرط اعتناق المسيحية فى ظرف ثلاثة أشهر ، أو مغادرة اسبانيا متنازلين عن أملاكهم .

وبعد ذلك مارست محاكم التحقيق أبشع صنوف الارهاب والتزوير وتلفيق الحجج وانتزاع الاعترافات بالخدعة والمكر ،

وقبول شهادة الاطفال والعبيد والنساء وأعداء المتهم اذا كانت عليه علامة بل حتى (الاعترافات) التى يدلى بها المضطهدون سرا (للرهبان) تعتبر تهمة يحقق فى شأنها . ومنذ سنة 1242 م ومحاكم التفتيش تطارد المسلمين الاندلسيين ..

و (ديوان التحقيق) يهدف الى سحق (الموريسكوس) حيث يعمل بشرعية تامة وموافقة (البابا) الذى أصدر منشورا باقراره سنة 1478 م ، وتابعت الكنيسة الاسبانية تنظيم مجلسه وتنظيم وظيفة المحقق العام .

والعجيب ان (ديوان التحقيق) أصبح أعظم جهاز فى اسبانيا المسيحية ، حيث مزج فكرة القومية بالدين المسيحى ، ووجه السياسة الاسبانية ، وملا (الخزانة بالاموال المسلوقة .. ولقد تعودت الكنيسة الرومانية أن تحول الاضطهاد العسكرى الرومانى المؤلف الى (اضطهاد فكرى) بدعوى المحافظة على صفاء العقيدة ..

واستعملت لذلك كل أساليب الارهاب والتعذيب كما كان فى عصر الوثنية الرومانية تماما ، ثم تكونت محاكم للتفتيش توالى الاشراف عليها الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكانيون الذين حولوا الاديرة الى سجون للتعذيب والارهاب حتى يقيدون المتهمين (بالاغلال) الثقيلة فى بيوت مظلمة عفنة ، وأحيانا يبنون على (المتهمين) أسوار حجرية ليلاقوا (المصير) فى عذاب الاختناق والجوع والعطش ..

واستفادت الكنيسة من مصادرة الاموال ، ثروة طائلة ، كما استكانت الى الخزعات من مقاومة رجال الفكر الاحرار الذين كانوا يلاقون العذاب باسم المروق عن الدين ، وأصبح منصب (المحقق العام) أعظم منصب دينى وسياسى ، متوفر

على قوة مالية عظيمة مشرعة من الشعب المسلم مع اغتصاب
أعراض النساء وسلب الاموال ، والتهديد .

كما أصبح (ديوان التحقيق) يصدر أحكامه بالقتل والحرق
دون مبرر أو تشريع الا بأبسط التهم ، وكان توماس (دى
تركيمادا) المتوفى سنة 1498 م أكبر قس تولى كبر الظلم
والاضطهاد ، بوسائل التعذيب المعروفة فى القرون الوسطى ،
كتمزيق الارجل ، وكسر الفك ، وسحق العظام ، وسيل العينين ..
ثم يتم الحكم بالحرق الجماعى فى الغالب فى حفلات كبرى حيث
يسير الضحايا فى موكب الاوتودافى Auto-Dafe يتلى الشعب
ورجال الكنيسة (بالحرق الجماعى) .

ورغم جهود ديوان التفتيش لتتصير المسلمين ، فقد ظل
هؤلاء مخلصين سرا للاسلام ، يظهرن عندما يعبدون فى الكنيسة،
ولا يعرفون للرهبان بأسرارهم . ولذلك صدرت وثيقة تدين
المنتصرين وتحاكمهم من جديد بدعوى الصبوة الى دينهم القديم ،
اذ اتهموا انهم قالوا بأن المسيح ليس الاله ، وانما هو رسول ،
أو اذا تنظف أو أكل اللحم يوم الجمعة ، أو رفض أكل الذبائح
المسيحية ، أو ختن أولاده ، أو أنشد أغاني عربية ، أو أقام حفل
رقص عربية ، أو غسل الموتى ، أو كفنها .

والواقع ان المنتصرين لم يستسيغوا الديانة المسيحية وقد
عبر عن هذا الاغراب الشاعر المورييسكى خوان الفونسو حين قال :

أيها الغراب الاسبانى الملعون
يا ناشر الوباء ، أيها السجان البغيض
ها أنت واقف برؤوسك الثلاثة
على أبواب الجحيم ..

وقد أمر المعذبون ان يتعلموا اللغة الاسبانية القشتالية ،
ويعرفون (بالخميا دو) أب المستعجمين ، وسمى أدبهم —
Al Aljamia (بالعجمية) .

وقبل طرد المسلمين بأكثر من ثلاثين سنة ، أمر أسقف
غرناطة ان يازم أبناء المسلمين ابتداء من الخامسة من عمرهم
الى سن الخامسة عشرة بتعلم الاسبانية وتلقى تعاليم المسيحية ..

لقد عانى (المنتصرون) من صنوف الغدر والتعذيب ما
يشيب لهوله الصبيان ، وكان فرديناند هو الذى يتولى كبر سحق
الشعب المسلم فى اسبانيا ، وممالة محاكم التفتيش على أعمالها ..
وكفى ان يكون نموذج السياسة الميكافيلية فيمجده
ميكافيل نفسه فى كتابه (الأمير) ويتخذه مثالا يحتذى .. فلما
توفى سنة 1516م وجد (المسامون) الفرصة سواء من العمال
أو المزارعين فى الحقول ، للعودة الى تيه (الاطمئنان) فقدموا
(لشارلكان) ملتصبا للتخفيف عنهم وعدم الاعتراف (بالتصير)
بالاكراه ... فكان الجواب بعودة الكنيسة الى الاضطهاد من جديد،
وكانت الثورة فى ضاحية بانسية التى أخدمت بقوة النار والحديد .

والغريب ان النبلاء والاقطاعيين فى ولاية (الراجون)
تدخلوا لئلا ينتصر المسلمون فى هذه الولاية ابقاء على المزارعين
والصناع خدما لا يرقون الى درجة (المسيحية) . ولم تلب
الكنيسة مطلبهم الانتهازى أمعانا فى سحق الاسلام فى
الاندلس ١ .. بل حرم على (المورييسكوس استعمال لعنهم
ولباس زيهم القومى ، والاستجماع وفتح منازلهم أيام الجمع
وآلا يتسموا بأسماء عربية .

ورغم ان (شارلكان) واعد المنتصرين (بالمساواة) مع
المسيحيين ، فان هذا الوعد لم يتحقق قط ، بل ظلوا يكونون طبقة

مضطهدة مستعلة ، بل حرمت الهجرة الى ديار الاسلام لحاجة
المسيحيين لليد العاملة .

ولم تنفع (التقية) الدينية التي آمن بها علماء العرب
الغرباء المؤمنون من ملاحقة محاكم التفتيش ، ولم تمنع من
التصير الجماعي والفردى ومن المطاردة والمحنة .

وكانت (التقية) توجيه ديني سنى للحفاظ على الايمان
بالقلب وتاويل القول والتستر في العبادة وتتايمات التشريع
الاسلامى ، في العبادة والمعاملات والاحوال الشخصية . كما
كان (التصير) يهدف الى تحقيق مرحلة تغريب العقيدة واللغة
والعادات ثم اذابة المسلمين كطبقة مستضعفة في الكيان
الاسبانى .

ولما عجزت (محاكم التفتيش) عن محو هذا الشعب
وابنائهم وتقويت حضارته وغسل دماغه وتعطيل شريعته ،
استصدرت من السلطة قانون تحريم اللغة العربية والثياب
العربية والثياب العربية بصفة صارمة قاسية وذلك سنة 1566 م
.. وأعطى (للموريسكوس) ثلاثة أعوام لتعلم القشتالية ، ثم
تمنع كتابة العربية بعد ذلك في العقود والالتزامات والرسائل ..
ويحظر على المرأة الحجاب والزى الاسلامى .

وحاول (الموريسكوس) ان يستجدوا بالمغرب الذى كان
يعانى أزمة سياسية حادة بعد سقوط دولة بنى مرين ، كما
حاولوا الاتصال بالاثراك ، وامراء تونس وحكام القاهرة .

وكان المغرب مضطربا سياسيا واجتماعيا . بعد انفصال
دولة بنى مرين وبالاخص عندما تكونت امارة بن عبد الواد في
(تلمسان) وبعد استيلاء العثمانيين على الجزائر .

فلما جاء السعديون ، عزم المنصور على تحرير الاندلس
الاندلس بالتعاون التام مع الاندلسيين .. ولكن (المنصور) لم
يعمر طويلا ، فدخلت الدولة السعدية بعده مرحلة الانهيار .

وجاء (العلويون) ليجدوا كثيرا من المدن الشاطئية سقطت
في يد الاسبان ، والبرتغال ، فلم يستطيعوا الا مؤازرة الاندلسيين
في الجهاد البحرى . وسعوا الى استيراد الكتب الاسلامية
التي سلمت من الحرق . فأرسل المولى اسماعيل رسالة الى دون
كارلوس الثانى (كما فى الاتحاف ج 2 - ص 63) ليبيعث اليه
بالكتب الاندلسية الموجودة فى غرناطة وقرطبة وغيرهما فى مقابل
تحرير مائة أسير اسباني .

كما توجه الى اسبانيا السفير المغربى الوزير الغسانى ،
5 فكك الاسرى المسلمين ، وحمل كثيرا من الكتب الاندلسية ..
كما فى كتابه (رحلة الوزير فى افثكك الاسير) ، وكان الاسرى
فى الغالب من (المورييسكوس) المأسورين فى الجهاد البحرى .
ووجه المولى محمد بن عبد الله رسالة الى (كارلوس الثالث)
لفك الاسرى المسلمين ..

وتحدث محمد بن عثمان الكتاسى فى كتابه (الاكسير فى
فك الاسير) فى القرن الثانى عشر الهجرى عن ذلك ، وهكذا لم
لم ييذل المغاربة جهدا فى مساعدة (المورييسكوس) نظرا للاوضاع
الخرج الذى كان يعانيه (العالم الاسلامى) بعد خروج أوربا من
(العصر الوسيط) ومحاولتها لاستعمار البلاد الافريقية والسيطرة
على البحار .

وكان وضع العثمانيين فى عهد السلطان أحمد الاول (1603
— 1617) حرجا ، بسبب هزائمه البحرية فى حروبه مع النمسا
ومع فارس .. كما كانت الدولة تعاني ثورات فى عدد من الولايات

العربية والاوربية .. سيما وقد ظهرت قوة بحرية اسبانية وكرنسية وانجليزية فكان على الدولة العثمانية تعميم علاقات طيبة مع هذه الدول حفاظا على مركزها وموقعها الدقيق وعندما قررت اسبانيا تصفية (المورييسكوس) باشراف (الدوك دولرم — Duc De Lerme و (الكونت سالازار Conte De Salzare

ارتفعت دولة العثمان التي كان يكتبها المورييسكوس والوسطاء مثل (جارونيموانرفاز Jeronimœnriguez .. ولا شك ان الدولة تدخلت سريا لنقلهم بالاساطيل والسفن البحرية بدليل هجرة بعضهم الى الدول العثمانية ووجود حى خاص بهم باسطمبول ، والمعروف ان السلطان أحمد الاول بعث بالامير ال خليل باشا فى مهمة الى المغرب فوصل اليه بتاريخ 2 سبتمبر سنة 1613 كما ورد فى كتاب :

(Chntal de la Veronne « Relation entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié de 6è siècle et le début de 17è siècle » en Revue de Loudent Musulman de la Méditerranée N° 15-16 Aix en Provence, 2è semestre 1973, P. 398).

ولا شك انها كانت فى موضوع محنة (المورييسكوس) لان الاتصالات السرية كانت مكثفة بين العثمانيين والمورييسكوس .

كما سعى السلطان أحمد الاول لى بريطانيا وفرنسا والبندقية لتساعدهم وتسهل لهم الهجرة الى الدولة العثمانية .

وكلف السلطان (ابراهيم انما) بالتوجه الى لندن ، ومقابلة الملك جاك الاول لمساعدة (المورييسكوس) على الانتقال الى اراضى الدولة العثمانية ، ولكن ملك انجلترا نظرا لمعاهدة السلم بينه وبين اسبانيا ، وخوفا من اثاره غضب الكنيسة ، لم يستجب رغبته . وأرسل كذلك الى ملكة فرنسا مارى دى ميدسيس Marie de Medecis الوصية على ابنها لويس الثالث عشر ،

رسالة بطلب مساعدة المورييسكوس المقيمين بجنوب فرنسا وتوفير وسائل نقلهم الى أراضى الدولة العثمانية فلبت الدعوة .

كما راسل دوق البندقية فى مساعدة (المورييسكوس) ، اجتياز الهجرة الى الاراضى العثمانية عن طريق بلاد مع مساعدتهم وعدم التعرض لاحوالهم وذويهم . كل ذلك فى مقابل مصالح البندقية وتمديد المعاهدة معها .

ولا شك ان الاتصال كان جاريا باستمرار بين (المورييسكوس) و (الدولة العثمانية) بدليل وجود وثيقة محررة بتاريخ جمادى الاولى سنة 1023 تؤكد ان رغبة المورييسكوس فى سبب الهجرة الى الدولة العثمانية برا لا بحرا ، نظرا لان (لصوص البحر) يعترضون طريقهم .

وقد أثار الفقهاء فى المغرب جدلا عن جواز هجرة المورييسكوس الى بلاد الاسلام أو المدجنين ، كما كان المغاربة يسمونهم . وألف الونشريسى كتابه (اسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلبه على وطنه النصرارى ولم يهاجر ، وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواج) .

ومن رأى الونشريسى ان الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فريضة الى القيامة ، وكان بعض العلماء يفتى بعدم الهجرة ووجوب المقاومة .

وقد أثر المورييسكوس الاخذ بحديث (ان لا هجرة بعد الفتح) فقد بقى (المورييسكوس) فى الاندلس صامدين ينتظرون الفرصة المناسبة لاعلان الثورة بقيادة فرج بن فرج ، لتكون آخر مقاومة ..

وعمت الثورة انحاء الاندلس ، تحت قيادة (السدون فرناندو) ، وتمركزت بالبشرات (الارض الوعرة) المليئة بالقرى المورييسكوسية ، وهو من سلالة بنى أمية حيث توج سنة 1568 ، تحت اسم محمد بن أمية ، وانتخب ابن فرج وزيرا وابن جوهر قائدا عاما للجيش ، وفشلت الثورة للمقاومة الوحشية التى لقيها الثائرون حيث مثل بأبطالها فنزع لحمهم عن عظامهم أحياء ، وذبح الاسرى والسجناء ، ذبحا (جماعيا) وشردت الاسر بتفريق الآباء عن أبنائهم ، والامهات عن بناتهم فى البلاد الاسبانية ..

وبعد قتل محمد بن أمية خلفه ابن عمه مولاى عبد الله ، فعين فلييب الثانى (الدون خوان) لسحق ثورة المورييسكوس . فاستسلم مولاى عبد الله سنة 1570 م ثم عاد للمقاومة اليائسة ، والتحريق والدمار والتشريد ومصادرة ما يملكون ، وتوزيعهم على البلاد الاسبانية كلها :: وقتل قائد الثورة على يد بعض الخونة وحمله الى غرناطة لاعدامه (وهو المقتول) بصفة رسمية .

فسحقت (الثورة) ولكن الثقافة الاسلامية ظلت تتأجج فى عقل الشعب المسلم المغلوب على أمره ، فعبروا عن هذه الثقافة بأدب (الخميادو) أى باللغة القشتالية المكتوبة بالحروف العربية.

وتول (المورييسكوس) الى شعب يعمل باستمرار فى ميدان الاقتصاد والتجارة والفلاحة ، وظلوا متماسكين يحIRON السلطة الاسبانية بذكائهم ودأبهم وتكاثرهم ، بل كانت لهم حملات سرية ، فاتهمتهم السلطة (بتزوير العملة) وتخريب الاقتصاد الاسبانى .

ولم يمت هذا الشعب فى (اسبانيا) نفسها ، بل ظل متمائزا بشخصيته وثقافته ، يمارس دينه فى سرية وتكنم ويؤلف فى مختلف فروع المعرفة ، وكانت الثقافة (الالامية) Aljama ذات طابع

عريق ، وظهر أدبهم (الرومانى) كأروع أدب اسباني ، وظلوا يكونون (جماعة) ذات اتجاه سياسى مشبع بروح الثورة والحرية .

بل ألف الموريسكوس (بالاحمادو) (رحلات حجازية) مما يدل على أن بعضهم كان يحج (سرا) الى الديار المقدسة . ومما نعري من هذه الرحلات ، رحلة (حاج بوى منتون) التي قام بها صاحبها من بلده الى بلنسية فتونس فمصر مع وصف لمكة والمدينة .

كما كتبوا قصصا فروسية كحكاية المقداد . وقصة مدينة النحاس والقماقم ، وقصص الصالحين ، وقصة يوسف وزليخا ، ، وقصة ذو القرنين .

ونشر (الموريسكوس) زجلهم الغنائى فى الاندلس واطاليا وانجلترا وفرنسا ، وكان خوان رويت الموريسكى Juan-Ruiz نائب الاسقف بناحية هينا من المع الكتاب فى هذه الموضوعات ، ومن أمثلة ذلك الرسالة التي وجهها (تروتاكونفبينتوش) الى المرأة المغربية ، ومن الالحن والاشعار التي وضعها للراقصات الموريسكيات ، ومن أشهر انتاجه قصيدة (القديسة مارية) .

ومن أشهر الاغانى الموريسكيات ذات التأثير فى الادب الاسباني أغنية العربيات الثلاث :

عشقت ثلاث فتيات عربيات فى جيان
عائشة وفاطمة ومريم
ثلاث عربيات بالغات الجمال
ذهبن يجمعن الزيتون

فوجدته قد جمع في جيان
قلت لهن من أنتن ايتهما الفتيات
عائشة وفاطمة ومريم

وفي ديوان (كالدن) أنشودة باكية يقول فيها :
فيها :

على الرغم من الاسر الشمس
الذي اراده الله لنا بتقدير خفي عادل
فاننا نبكى عزلة الدولة الاثريقية

وظل المورييسكوس على اتصال مستمر بالمسلمين في افريقيا
كما كانوا على اتصال مع هنري الرابع ملك فرنسا ، وأنشأوا
سفنا جهادية خارج الاندلس لتهاجم المملكة المسيحية الاسبانية،
واعانتهم السفن التركية والمغربية على الانتقام المسيحي ، وحمل
المورييسكوس الى ديار الاسلام .

وظهرت حركة التحرير في البحر بقيادة زعماء المورييسكوس،
مثل بلانكو وأحمد أبو على وغيرهم كثير .

وأصبح (الجهاد البحري) ميدانا خصبا يفتح باب الآمال ..
وحاول (المورييسكوس) أن يساعدوا المولى زيدان السعدي لغزو
الاندلس بعد ان ارتكب اخوة الشيخ المامون خطأ طلب مساعدة
فليب الثالث للحملة على أخيه زيدان مقابل تسليمه العرائش ،
(كما وقع في معركة وادي المخازن) .

وفي نفس الوقت عجزت (محاكم التفتيش) عن قتل هذا
النفس العظيم ، فقرر رأى السلطة المسيحية في اسبانيا ان يتخلصوا
من المورييسكوس ، الا باغراقهم جميعا في البحر أو حرقهم جميعا
أو أخذهم للعمل في السفن ومناجم الهند .

وتمت اصدار مجلس الدولة الاسبانية سنة 1609 م أمرا بنفى المورييسكوس جميعا من بلاد اسبانيا الى افريقيا وأوربا مع استقاء ستة فى المائة للعمل فى حقول الارز والسكر وتنظيم الرى وصون المنازل ، وهكذا أخذ (المورييسكوس) يشدون أمتعتهم وتحملهم السفن الى بلاد افريقيا وجزر الخالدات كما تحمل السفن اليوم الفتناميين الضائعين فى البحر الهادى تتقاذفهم الامواج ليلاقى من نجا منهم الى المراسى الامر بالعودة للموت فى أعماق البحار .

وكان معظمهم يسير فى قوافل للشواطىء ليهاجروا الى المغرب ، حتى تهاجمهم العصابات ، لتفتك بالاعراض وتقتل الصبيان وتبيع الفتيات والفتيان فى سوق النخاسة .

استقبلتهم اوربا فى عهد هنرى الرابع الذى سمح لهم بالاقامة وراء نهر الجارون . واستقبلت الثغور الايطالية بعضا منهم ، وكانوا يلاقون الاضطهاد من المسيحيين اينما حلوا وأين ارتحلوا ..

بل ان جماعات منهم نزلت فى وهران فاعتدى عليها الاعراب بالساب والنهب .

وتجاوز عددهم ثلاثة ملايين حسب بعض الروايات أو تجاوز (المليون) ولكنهم ظلوا يمثلون شعبا عريقا يستحيل تدميره .. وانتشروا فى العالم كله ، فقد حملتهم السفن (بأسماء) اسبانية مسيحية الى أمريكا الجنوبية ، والى جزر الهند الشرقية ، والى جنوب افريقيا .. وكانوا يعيشون (أمراء) البحر الاسبانى بتقارير ضافية وخرائط بحرية علمية ، فاكشفت اسبانيا العالم الجديد ، بفضل تقاريرهم ومغامرتهم .. ونسبت تلك الكشف الى أمراء البحر المشهورين .

ان مسلمى (الفلبين) من هؤلاء وجزيرة (المور) تحمل اسمهم وتؤكد شخصيتهم بوضوح ... كما ان عديدا منهم بالارجنتين والبرازيل وغيرهما من بلاد أمريكا الجنوبية .

ونزح بعضهم الى (أمريكا الجنوبية) ، بعد اكتشافها أوائل القرن السادس عشر سنة 1516 م ، وبالأخص في الارجنتين ، وقد كان هؤلاء هم المخططين لهذه الاكتشافات للبحث عن عالم جديد يأويهم بعد ان ضاقت بهم الحياة في اسبانيا أو بعد ان رفضوا الدخول بقلوبهم الى المسيحية ، فوجدوا في هذا العالم متنفسا لعقيدتهم وكان منهم نفر من بنى رزين حكام شرق الاندلس . وقد تابعت الكنيسة هؤلاء وضيق عليهم الخناق وذوبتهم في هذه المجتمعات الثابتة ، وما تزال (الارجنتين) تأوى التقاليد الاسلامية العربية ذات الطابع الاندلسى الى يومنا هذا .

ولست أدري كيف غفل المؤرخون ان يربطوا بين نفى الاندلسيين ، وهزيمة المسيحية في معركة وادى المخازن على أرض المغرب فمعركة وادى المخازن كانت معركة فاصلة بين المسيحية والاسلام وكان مشروع السعديين هو العودة الى الاندلس .. وخشيت اسبانيا من التعاون بين الاندلسيين في الداخل والمغاربة وتوقعت الهجوم من الخارج بمؤازرة الداخل ، فانتظرت قليلا لتتلخص نهائيا من المسلمين .

وتأخرت (اسبانيا) بعد نفى (المورييسكوس) من أرضها، ويقول (ريشليو) الذى عاصر مأساة نفى المورييسكوس : « ان مأساتهم أشد ما سنجلت صصف الانسانية جرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في أى عصر سابق » .

ويقول الدكتور لى : « ان تاريخ المورييسكوس لا يتضمن

فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضا خلاصة لجميع الأخطاء والاهواء التي أعدت لتتحد بأسبانيا في زهاء قرن من عظمتها أيام شارل الخامس الى ذلتها في عصر كارلوس الثاني .

والحق ان (اسبانيا) باتفاق المؤرخين عانت أعنف الازمات بعد نفى المورييسكوس . حتى ليقول المثل الاسباني (حيث لا عرب لا فائدة) .

لقد ظلت (الحضارة الاسبانية تسير في نفس الحضارة الاندلسية التي ذبلت بعد نفى (المورييسكوس) وتأخرت الفلاحة والصناعة وضعفت التجارة ، وقلت الموارد المالية وبقيت ملامح الثقافة الاسلامية باهتة متحولة الى ثقافة (فلكورية) وصفها السفير الغساني (سنة 1691 م) ، عوائد الاندلسيين المسيحيين التي ما تزال به مسحة اسلامية كالذبح يوم عاشر ذي الحجة ، وتحجب النساء وغير ذلك ، كما ذكر شكيب أرسلان في حاضر العالم الاسلامي ، كثيرا من هذه الحالات بل ظلت بعض القرى الى القرن التاسع عشر تتكلم باللغة العربية .

ولا يمكن ان نقدر عدد المسلمين الاندلسيين تحت حكم اسبانيا ، فاذا كان عدد المسلمين في عهد بنى أمية يقدر بين عشرين وخمسة عشر مليونا ، حسب الاحصاءات العصرية المعتمدة على عدد المدن والاستهلاك المحلي للسكان ، فان تقديرات السلطة الاسبانية لعدد المسلمين في الاندلس بعد احتلال غرناطة لا تخلو من تقليل عددي لشأنهم تهوينا لامرهم ومكانتهم .

ويذكر مؤلف خلاصة تاريخ العرب ان عدد المسلمين المطرودين من اسبانيا بعد فتح غرناطة ثلاثة ملايين نسمة .

بعد وفاة احمد المنصور السعدى ، وفد على المغرب أمواج عظيمة من اللاجئين الاندلسيين ، وحظيت تطوان والرباط وسلا

بعناصر نشيطة منهم ، وقد ساهموا في كثير من الاعمال البحرية ، كما شارك المورييسكوس بحظ وافر في الميدان الاقتصادي والتجاري ، وبالاخص في المغرب وتونس .. وبلغ عدد ما استقبل المغرب منهم حوالى 60 الى 80 ألفا منهم سنة 018فـ - 1609 م حيث انبثوا في أجزاء كثيرة من البلاد التونسية كسهل مجردة وكرمبالية والسلوكة وناحية تونس وغيرها ، فعبأوا الطرق وزرعوا البساتين ، وأحدثوا عدة زراعات وصناعات كما في J. Pignon, Initiation a la Tunisie p. 103 وكذلك عملوا سواء بالمغرب أو تونس على تنشيط التجار مع الدول ، عن طريق البواخر التجارية ، غير أن نشاط حركة الجهاد البحرى كان أكثر أهمية بالنسبة لاي قطر .

ولم ينطفئ (الاسلام) ولا خمدت ثقافته في قلوب (المورييسكوس) بل ظلوا يتسترون باسلامهم ، يصلون في الكنيسة ، ويقرأون سرا سورة (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ويستظهرون في بيوتهم ويقتلون بعد خروجهم من الكنيسة .. ويؤلفون كتباً مبسطة في القصة والتوحيد والتفسير والسيرة النبوية والقصص القرآنية . وجاءت تفاصيل ذلك في عدة مصادر (تاريخ المورييسكوس) مع تثبيت المعاجم والتأليف (أنظر تاريخ الفكر المورييسكوس) ، بلاسوس .

وبعد سقوط الملكية الاسبانية المتحالة مع الكنيسة ، وعلان الجمهورية انتشرت الحرية الى حد ما ، وجهر كثير من الاندلسيين بأصلهم العربى وطلبوا بأرضهم وممتلكاتهم التي انتزعتها الكنيسة غصبا وظل العرب فيها مزارعين في نظام اقطاعى متعصب ، واستجابت الحكومة لطلبهم بل طالبوا بالاستقلال الذاتى .. بل ظهروا في ميدان السياسة والحكم ويقال ان رئيس

جمهورية اسبانيا Alkala Zamora من أصل عربى (القلعة زمورة) .

وبرزت فى الاندلس حركة ثقافية لاحياء التراث العربى الاسلامى فى الاندلس ، فنصبت تماثيل لابن رشد وابن حزم وابن الخطيب ، وقدم احد نواب (مجريط فى عهد الجمهورية مشروع اعادة مسجد قرطبة الى الاسلام .. واسست فى اسبانيا (الجمعية الاسبانية الاسلامية) .

ومن الخطأ أن نساير المرخين الذين يزعمون نهاية الثقافة الاندلسية بمأساة (المورييسكوس) وتشريدهم . والحق ان الثقافة الاندلسية الاسلامية ظلت تلتهب قوية جبارة تطور العالم كله وتسير به الى استشرافية التقدم والنماء .

لقد كانت مأساة المثقفين والعلماء الاندلسيين ، ولم تكن مأساة الثقافة والعلوم الاندلسية ، ذلك ان النظريات الاصلاحية فى السياسة والاجتماع ، وملفات الاختراعات ، انتزعت من يد أصحابها واستغلها اعداؤهم معفين على اسمائهم وعبقريتهم .. والمهم ان العالم مدين لهؤلاء الاندلسيين فيما عرفت أوروبا من نهضة علمية ، وما عرف فى افريقيا وآسيا والمحيطات من اكتشافات وفتوحات ، فقد كان المسلمون الانداسيون ، أعظم المفكرين فى العصر الوسيط حيث كانت أوروبا ذات ثقافة بدائية ، ويشهد مؤرخو الفكر العربى ، ان قيام التأليى العلمى فى أوروبا يرجع للمسلمين الاندلسيين سواء فى الطب أو الرياضيات أو العلوم بل ان (اسبانيا) خضعت خضوعا علميا للغة العربية التى كانت لغة المصطلحات العلمية ، وخلال حكم (الفونسو السابع) 1126 — 1157م ، انكبت اسبانيا على نقل التفكير الاندلسى الفلسفى والعلمى والادبى والقصصى الى أربا بحفة

عامه بترجمته الى اللغة اللاتينية .. وكان (رامن لك) ودانتى
والفرايلى ..

ويثبت التاريخ العلمى لاسبانيا وأوربا ان الفلسفة والآداب
والاخلاق والشعر والقصة نقلت عن الاندلسيين نقلا حرفيا اما
بصفة صريحة أو بصفة ملتوية . وان كل هذه الآثار كان وراءها
(الغرباء) الاندلسيون الذين عذبوا وامتهنوا واختلست آثارهم،
وأرغموا على العمل فى الحقول للزراعة وفى المدن للتجارة ، وفى
الكنائس والمعاهد لاعطاء عصارة التجربة العلمية والادبية
لجماعة من المتبحرين بالمعرفة واللقاب العلمية .

فقد اخترعوا (البارود) اثناء حروب غرناطة وطوروا
استعماله ، وانقض اعداؤهم على ثمرة الاختراع وزعموا ان
الفضل لهم فى الاكتشاف . انتزعوا (الاكتشافات البحرية) من
العرب وزعموا ان كريستوف كولمب هو المكتشف .. وقد اثبت
التاريخ الحديث ان كريستوف استعان بالكتب العربية ، والبحارة
المسلمين وبمشروع (خوة المغرورين) لاكتشاف العالم الجديد .

وكان للجالية الاندلسية عمل عظيم فى أوربا المسماة
(بكوليج) محرفة عن اسم كتاب (كليات ابن رشد) الذى كان
معلم أوربا ، وكان أبو زيت (أبوزيد) المنتصر على الطريقة
(البروتستانتية) من الموجهين لفولتير ، وروسو ، ونيوتن ،
وليبنتر . كما كان (موروجاميرى) (المغربى الجعفرى) نائب
كورسيكا أعظم فقيه فى فرنسا ..

وكانت صناعة المدافع الاولى بمراكش على يد موريسكى
من محريد ، كما كان بها مصنع للبارود من أوائل دولة السعديين
(زيانى ، ترجمان ، ص 352) واغلب جهاز المدفعية من الاتراك
والعلاج والموريسكوس ، اما فرق التخريب وانشاء الفنادق ونقل

المدفعية فهي من سكن الجبال الذين يدعون — ابنو درارن وبعد انهزام الاسطول المغربى وفقد كثير من وحداته سنة 741 — 1340 بعد ان فقد 600 قطعة فى سواحل الجزائر على اثر عاصفة هوجاء ، ومنذ ذلك توقف عمليا كل تدخل رسمى للمغرب بالاندلس عن طريق البحر وقد اهتم السعديون ببناء أسطول جديد بكيفية تدريجية حتى بلغ منتهى قوته فى عهد المنصور . وكانت القيادة العامة للاسطول تسند غالبا الى عنصر المورييسكوس .

وكذلك كانت الجالية الانداسية عظيمة بثقافتها وتفوقها الحضارى فى العمران والبناء وفى التنظيمات الاجتماعية واقامة الحفلات والولائم ، والتمتع بالموسيقى والطرب ، ومعرفة التصوير والنحت على الخشب والجبس .. ومما لا شك فيه ان الفن العمرانى المرينى والسعدى والعلوى مدين للصناع الاندلسيين ، بل ان صناعة (الزردخان) من الذهب والحريير الرائجة بفاس ، كانت عن عمل الجالية الانداسية المقيمة بفاس كما ذكر ذلك ابن خلدون .

قوة المورييسكوس البحرية :

هدف (المورييسكوس) وراء اختيارهم للاقامة بالرباط الى تكوين قوة هجومية للعودة الى بلادهم والانتقام لانفسهم .. والغالب ان المنصور الذهبى واعدهم سرا باعانتهم على العودة وذلك يبدو من خلال تصرفاته الديبلوماسية ، وتصرفاته التنظيمية ، فقد كان المنصور الذهبى يتوسل الى الله ان يحقق العودة الى الاندلس على يده كما يظهر ذلك من رسالة بعث بها فى موكب (الحج) لتلقى على قبر الرسول بيت فيها آماله وطموحه ، كما انه حاول السيطرة على مالى والسينغال لقطع الطريق على البرتغال حتى لا يحتلوا هذه البلاد ويحاصروا المغرب من جنوبه

و (ثالثا) لانه ابرم اتفاقية مع انجلترا للتضييق على المملكة الاسبانية .

أما من جانب (المورييسكوس) فقد انضموا الى جيشه في غزو الجنوب سعيا وراء اكتساب أموال تساعدهم على تنظيم شؤونهم المادية وتقوية مركزهم العسكرى كما انهم نظموا أمور جهاد البحر حتى يستطيعوا مهاجمة (اسبانيا) فبنوا فى الرباط دارا لصناعة السفن وانشأوا مدرسة ملاحية للدراسة البحرية وصناعة السفن واصلاحها ومعرفة طرق البحر ليلا بواسطة حركة النجوم . وقد كان منهم أساتذة نبهاء مارسوا المهنة وأبدوا كفاءة ومقدرة .. وفعلوا سيطر (المورييسكوس) على البحر الاطلسى والمتوسط ونسقوا عملهم مع مراكز الجزائر ، وليبيا ، وهم جميعا من (المورييسكوس) المتوافدين على هذه المنطقة .

وقد ذكر المؤرخ الرباطى (الضعيف) ان السلطان محمد بن عبد الله كان يريد اخراج أهل الرباط للصويرة لحصارهم أخاه بالقصبة ، ولكنه عدل عن ذلك لانه رأى فى خروجهم فراغا ، ولن يجد من يقوم مقامهم بشؤون البحر .. سيما وقد كانت الدولة المغربية تعتمد على خبرتهم فى شؤون البحر ، والتقنية المدفعية .. كما كانت تعتمد عليهم فى السفارات الدبلوماسية لمعرفةهم باللغات الاجنبية كالانجليزية والاسبانية والايطالية والفرنسية حيث كان أغلب السفراء منهم ، كالسفد ابن عبد الله ابن عائشة ، سفير المولى اسماعيل الى لويس الرابع عشر ، وكالسفير التهامى المدور فى بلاد السويد والمستيرى فى انجلترا وغيرهم كثير .

كما كان منهم (أمراء البحر) كالبعودى وبربيس والمستيرى والعربى حكم والعنفى ولبريس وغيرهم .

وكانت للانداسيين سفن كبيرة كسفينة (الكوار) وسفينة

المشارى ، وفي كتاب (الضعيف) تفصيل لحركة الجهاد في البحر .. الى ان جاء السلطان عبد الرحمن الذى أراد احياء الجهاد البحرى ، واذن لرؤساء البحر بالعدوتين بالخروج منها ، وغنموا بعض سفن (النابريال) لعدم ادلائهم برخصة العبور فهم (النابريال) على العرائش ، فقررت الدولة المغربية العدول عن تشجيع الجهاد في البحر لتأييد الممالك الاوربية ضد الاندلسيين والافارقة والعرب والمسلمين بصفة عامة .

ولم تكن لدى موريسكى أبى رقرق أول الامر أكثر من أربع بواخر سنة 1617 م (1026 هـ) ثم أصبحت في سنة 1036 هـ (1626 م) تبلغ الستين . واقترح قائد أسطول فرنسى على ريسيليو وزير فرنسا المشهور أن يسمح باغراق باخرة فرنسية في ميناء أبى رقرق حتى يضطر السلطان الى عقد اتفاق مع فرنسا من شأنه ان يوقف الجهاد الموريسكى وهكذا يضطر القراصنة الى تحرير الاسرى الفرنسيين وعلى الرغم من ان الاسطول الفرنسى طبق هذه الخطة فعلا فانها لم تؤد الى نتيجة .

ثم قل البواخر الاندلسية ، فأصبح 22 سنة 1044 هـ (1635 م) والى عشرين سنة 1058 هـ (1647 م) ، وكانت بواخرهم تجلب في الغالب من أوربا ، كما كانوا يصنعون عددا منها بمساعدة الهولانديين في الرباط ، وكانوا يصلون في مغامرتهم الى الشواطى الانجليزية ويهاجمون السفن الاجنبية .

وكانت للموريسكيين علاقات دبلوماسية مع كل من هولاندا وفرنسا وانجلترا حيث كان لليهود دور بارز في السمسرة التجارية بين الموريسكيين وهولاندا ، وكان هؤلاء يضايقون أشد مضايقة سائر المراكب التى تخرج للصيد في عرض المحيط الاطلسى ، مما فرنسا تفكر في عهد لويس الثالث عشر سنة 1038 هـ (1629 م)

و 1039 هـ (1630 م) فى أمر يقضى بارجاع كل باخرة احتزها احد الطرفين من الآخر ، وإن تفتح موانئ كل من الفريقين لتجارة الطرف الآخر ، ويسمح باستقرار قنصل فرنسى بالرباط ، ولا يباع الاسرى الفرنسيون بسلا .

ومنذ سنة 626م قدم مبعوث عن البلاط الانجليزى جون هاريس قصد الاتصال بالمجاهدين حول القيام بهجوم مشترك ضد اسبانيا ، وكان ملك انجلترا فى ذلك الوقت هو (جاك الاول) ، ومن ضمن شروط الاتفاقية تحرير اسرى الانجليز وتسليم أربعة عشر مدفعا مع ذخيرة الى المجاهدين ، وقد عاد المبعوث فى السنة الموالية يودم ستة مدافع وكمية من الذخيرة ، ولكن قضية الحلف ضد اسبانيا لم تقبلها الحكومة البريطانية التى لم تترشح اذ ذاك لمساعدة المجاهدين الذين كانوا قد قطعوا علاقتهم مع السلطان زيدان ، وحينئذ تم تحرير اسرى الانجليز بعد أن توصلت اماره أبى رقرق فى مقابل ذلك بالاسلحة المتفق عليها .

وفى عاشر ماى 1036 هـ (1627 م) تم الاتفاق بين الامارة وجون هاريسن على أن تفتح كل موانئ الطرفين لترويج بضائع الطرف الآخر مع عدم التعرض لسفن أى منهما ، والتزام انجلترا بتحرير جميع المورييسكيين الاسارى بمملكتهما ، وتعهدها اماره أبى رقرق بمساعدة انجلترا حربيا على أعدائها . وامضى الاتفاقية عن الامارة ابراهيم بركاش ومحمد باركو ، غير ان شارل الاول رفض توقيع الاتفاق . ولم يمض قليل حتى استولت السفن الانجليزية على باخرة للمجاهدين ، ورد المورييسكيون بالاستلاء على عدد من البواخر الانجليزية ، وعلى الرغم من أن جون هاريسن عاد الى المغرب يؤكد باسم ملكه أنه يتبرأ من مسؤولية تصرفات السفن الانجليزية التى استولت على الباخرة المورييسكية ، فان

المجاهدين رفضوا أن يسمحو (للمبعوث) بالنزول من باخرته ،
وقد قضى جون هاريسن ست سنوات في التردد بين أبى رقرق
وبلاده (من سنة 1626 — 1631) عسى ان تحسن العلاقات بين
الجانبيين ، ولكنه لم يوفق الى ذلك .

هذا وما تزال مدينة الرباط وتطوان وغيرهما ، تحتفظ
بعائلات كثيرة من هذه الجالية تحمل أسماءها الاسبانية
والبرتغالية ، ولا شك ان محاكم التفتيش حملت العرب والمسلمين
على تغيير اسمائهم ، ولذلك فأسماءهم اما عربية محرفة أو
اسبانية . أما الاسبانيون والمسيحيون بصفة عامة الذين كانوا
يدخلون للاسلام ، فانهم كانوا يغيرون اسماءهم العائلية باسماء
عربية واسلامية .

وما تزال اسبانيا الحديثة تحتفظ بعائلات أندلسية تحمل
اسم (موريسك) .

و (الاسبان) كانوا يعرفون المغرب العربى باسم لاتينى هو
(مورتينا تتوانيا) أى (مورتينايا وطنجة) ثم أصبحوا يطلقون
على الوافدين من المغرب ويسمونهم (مورس) مختصرا عن
(موريطانيا) وأخيرا يطلقونه على كل (مسلم) وعلى كل عربى ،
لان المغرب باب افريقيا والاسلام والعروبة .

وباختصار ، فان الجالية الاندلسية كانت عظيمة بتفوقها
الحضارى وتجربيتها التاريخية ، وكانت متفوقة في الميدان
الاجتماعى والتجارى والفلاحى والعسكرى ، ومتمرنة على
الثقافة البحرية ، كما كانت متفوقة في ميدان صناعة الزجاج
والاوانى وحياسة الثياب مسيطرة على الاقتصاد الداخلى
والخارجى بما يستورد وتصدر من منتجاتها .

وكان طموحهم لا حد له ليحققوا انتصارات في البحر والبر

وليعودوا الى وطنهم منتقمين لما لحقهم من جور بل ان النفسى والتغريب ربط آصرتهم وألف بين قلوبهم زيادة على تفوقهم العلمى ..

واذا كان (الاندلسيون) يهاجرون الى المغرب لنشر العلم وطلبه ، ويقيمون فى مختلف البلاد والقرى ، فقد كانت اعظم جالية من (المورييسكوس) استقرت فى (رباط الفتح) الذى كان عاصمة استراتيجية ايام المرابطين والموحدين للجهاد فى الاندلس .. فكان الامل ان يستقروا فيه لتوحيد صفوفهم وبناء اسطول قوى يعينهم على العودة الى بلادهم .

وكان رجال العلم والفقهاء يعطفون على الجالية الاندلسية ويدافعون عنها ويأتمسون الاعذار لبعض مواقفها السياسية والاجتماعية ، ويروى عبد الله بن عبد الرفيح الاندلسى المتوفى سنة 1052 م فى كتابه الانوار النبوية .. ان الاستاذ القطب ابو الغيث القشاش قال له فى احدى رسائله (لا يحبكم الا مؤمن ، ولا يبغضكم الا منافق) .

وقرب عبد الله الغالب هذه الجالية اليه ، وكون بها جيشا اسند قيادته الى سعيد بن فرج الدغالى الغرناطى ، وهو عبارة عن وحدات اندلسية استقرت بكل من فاس ومراكش ، وكونت اهم فرق جيش الغالب ، وكانت ثكنتهم فى مراكش بحى روض الزيتون والذى كانت تحيط به البساتين والحقول ، ولم يقبلوا الخضوع لاي ضابط غريب عن وسطهم ، كما حدث ذلك ايام عبد الله الغالب . ثم اعيد تصنيف الفرق وتنظيمها واعيد تنظيم الحرس الخاص وكان العنصر التركى يكون فرقة مستقلة ، بينما كون جيشا ثان يجمع العلوج والعناصر الاندلسية وغيرها من الفرق التى تساهم فى العمليات الحربية ، وجعل المعتصم

الرماة من المورييسكيين في معركة وادى المخازن فى الصف الاول
بربر جزولة .

وكان سعيد ابن فرج الدغالى قائدا لجيش الاندلس ايام
الملك المعتصم ، ومن كبار القادة فى عهد ابن مروان ايضا ابو على
الغورى وحسين العالج الجنوبى ، وعلى بن موسى ، واحمد بن
موسى ، وابو طيبة وحاجبه رضوان العالج ، وكلهم ساهموا فى
معركة وجاء المورييسكوس من بلنسية وقشتالة واسترامادور
Estramaduro حيث وفدت جالية من هرناشو Hornacho وهى
مدينة بشرق ماردة ، كما جاءوا من اراكون ، وقطلونيا ومرية .

واستقر الهرناشيون بقصبة الاودايا ، واستقر معظم
المورييسكوس بالرباط كما استقر بعضهم بسلا .. وعرف
الهرناشيون بثروتهم المادية لتفوقهم فى تزييف العملة الاسبانية
اتلانا للاقتصاد الاسبانى ، كما كانوا متفوقين فى استخدام
الاسلحة النارية ، فاعانوا زيدان السعدى فى حروبه الداخلية ضد
السملالى .

وقد سعى الهرناشيون الى اقامة جمهورية نصف اعضائها
من الرباط ، والنصف الآخر من سلا . وكانت أول جمهورية مغربية
بحوض ابى رقراق ابتداء من سنة 1614 ، واستمرت ثلاثين
سنة ، وخضعت لدستور ينظم شؤونها الداخلية والخارجية الا
الحكم بالاعدام الذى كان الحق فيه للسلطان .

وتعاضم نفوذهم فى البر والبحر واضطر القبطان
الانجليزى Mainwaring ان يفاوضهم فى شراء الاسرى المسيحيين ،
وكانت موارد الجهاد تقسم بين الديوان وصاحب المركب وقائد

المدفعية والجراح والبحارة والضباط واحيانا يتقاضى منهم السلطان الخمس الشرعى .

ونبغ منهم ضباط كبار ، نذكر منهم يوسف (بسكاينو) وفي مقدمة (الفتح للمؤرخ ابي جندار) ذكر لعدد من امراء البحر المشهورين ، ولتأسيس مشيخة أو جمهورية حسب تعبير المؤرخين الغربيين تعتمد انتخاب مجلس صغير يسمى (بالديوان) ينتخب رئيسه كل سنة . واعترفت بهم انجلترا ، وانضم الاندلسيون الوافدون على الرباط الى هذه المشيخة ، على اساس ان ينتخب كل من الطرفين نصف اعضائه واختلفت الجمهورية الرباطية مع (العياشى) ، سنة 1631 م — 1040 هـ ، ثم اختلف الهرناسيون والاندلسيون ودخلوا في صراع فيما بينهم ... واخيرا انقسم (المجاهدون البحريون) الى ثلاثة فرق ، احدهما بزعامة القصرى ، والثانية تتاصر السلطان ، والثالثة تناصر العياشى .. وبعد ذلك هاجمهم العياشى فانتصروا عليه .

وجاء فى رحلة مويط الاسير بسلا عام 1670 فى الفصل الثانى عند كلامه على مدينة الرباط :

وقد كانت هذه المدينة (يعنى الرباط) جمهورية مستقلة سنين عديدة وذلك منذ طرد ملك الاسبان لجالية الاندلس من غرناطة بسبب ما اثاروه من الفتن عليه ولما وصلوا الى سلا عقب تلك الفتن وكانوا يريدون ان يعيشوا احرارا مستقلين وراوا انفسهم اكثر عددا واشد قوة من سكان سلا الاهليين وارغموهم على عدم الاعتراف بأى سلطان كان وخلع طاعة الحكام الوقتيين كابن ابي بكر الدلائى الذى كان دخل الى بلاذهم ووعدهم ببيعته فحاصروا ابنه عبد الله امير القصبه ، وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز 15 عاما فدافع عن نفسه مظهرا الشجاعة والشهامة

بضع سنوات وكان يعينه على ذلك ملك البرتغال والدوك مدينا كلى سينيورد بورسائط موى قرب قادس ، ويمد انه باليرة والسلاح وييعثان اليه بالسفن المشحونة بالذخائر الحربية والاقوات لان اباه ابن ابى بكر كان قد وجه سفراء الى اسبانيا والبرتغال مستنجدا بهما وحيث كان مدخل الوادى ممنوعا على اهل سلا بسبب اشراف القصبية المحاصرة عليه ، وكان اهل البادية يعاونونهم ، فاشتدت عليهم المعيشة فجلب اليهم عدد من التجار المسيحيين سفنا مشحونة بالقمح وانزلوها على الساحل الكائن ما بين المعمورة وسلا فربحوا بذلك اموالا طائلة لان الاندلسيين المهاجرين كانوا يشترون القوت منهم بما جلبوه من الحلى والجواهر التى جاءوا بها من الاندلس ، فاستولوا على ثروتهم بسبب ذلك) .

واذا ففى هذه الحقبة كان الحكم فى العدوتين (الرباط وسلا) جمهوريا (مشيخيا) ولم يكن جنوحهما للمخزن سوى سوى صورة فقط ، واصبح الاوربيون انفسهم لا يعتبرون من مملكة المغرب سوى مقاطعة سلا وتبادلوا مع رؤساء العدوتين من المعاملات التجارية المعاهدات السياسية . وتوجد وثائق بامضاء اربعة من رؤساء سلا والرباط وهم عامر بن محمد وابو الطيب بن عبد الرحمن عبدون والحاج يوسف السنسيباض والامين سعيد اجنوى ، وذلك بتاريخ ثامن رجب عام ثلاثة وخمسين والف وتوجد معاهدة اخرى بتاريخ الف وستين 1060 وعليها امضاء المذكورين ما عدا امضاء عامر بن محمد ثم زيادة امضاء عبد الله القصرى ومحمد بن طلحة والحاج محمد الزيدى .

ويذكر دوكاسترى بان اسطول الجمهورية كان يسطو على على اساطيل البحار وقرصانهم كما كان الحكم قويا وان القوة البحرية انشأها الاندلسيون كانت اشد تأثيرا على اوربا من

البحرية الجزائرية التي كانت للاتراك بالجزائر ، كما يذكر لان المراكب الشراعية الاندلسية كانت اكثر عددا واوفر مددا وكان بحارتها وعساكرها اشد جرءة وازيد خبرة بالمراوغة البحرية وبفنون الملاحة والرماية ، ثم يذكر المؤرخ دوكاسترى في كتابه الوقائع البحرية التي كان يقوم بها الاندلسيون الغزاة المعروفون عند الافرنج باسم لصوص البحر أو لصوص سلا مستدلا ان ما كان يسمى باللصوص هم من اهل الاندلس ساكنى القصبه ، لانهم استقلوا وانشأوا اسطولهم صرفوا عزمهم الى التضييق على اهل اوربا وشن الغارات عليهم انتقاما من ظلمهم .

وذكر المؤرخ الرباطى (الضعيف) ان السلطان محمد بن عبد الله كان يريد اخراج اهل الرباط للصويرة لحصارهم اخاه بالقصبه ، ولكنه عدل عن ذلك لانه رأى في خروجهم فراغا ، ولن يجد من يقوم مقامهم بشؤون البحر .. سيما وقد كانت الدولة المغربية تعتمد على خبرتهم في شؤون البحر ، والتقنية المدفعية .. كما كانت تعتمد عليهم في السفارات الديبلوماسية لمعرفةم باللغات الاجنبية كالانجليزية والاسبانية والايطالية والفرنسية حيث كان اغلب السفراء منهم ، كالسفير ابن عبد الله ابن عائشة ، والسفير التهامى المدور فى بلاد السويد والمستيرى فى انجلترا وغيرهم كثير .

كما كان منهم (امرأ البحر) كالبعودى وبربيس والمستيرى والعربى حكم والعنفى ولبريس والمستيرى .. وغيرهم .

وكانت للانندلسيين سفن كبيرة كسفينة (الكوار) وسفينة المشارى ، وفى كتاب (الضعيف) تفصيل لحركة الجهاد فى البحر .. الى ان جاء السلطان عبد الرحمن الذى اراد احياء الجهاد البحرى ، واذن لرؤساء البحر بالعدوتين بالخروج منها ، وغنموا بعض سفن (التايرىال) لعدم ادلائهم برخصة العبور فهم

والنابريال) على العرائش ، فقررت الدولة المغربية العدول عن تشجيع الجهاد في البحر لتأييد الممالك الاوربية ضد الاندلسيين والافارقة والعرب والمسلمين بصفة عامة .

ولم تكن لدى موريسكيى ابى رقرق اول الامر اكثر من اربع بواخر سنة 1617 م (1026 هـ) ثم اصبحت في سنة 1036 هـ (1626 م) تبلغ الستين . واقترح قائد اسطول فرنسى على ريشيليو وزير فرنسا المشهور ان يسمح باغراق باخرة فرنسية في حوض ميناء ابى رقرق حتى يضطر السلطان الى عقد اتفاق مع فرنسا من شأنه ان يوقف الجهاد الموريسكى وهكذا يضطر القراصنة الى تحرير الاسرى الفرنسيين ، وعلى الرغم من ان الاسطول الفرنسى طبق هذه الخطة فعلا فانها لم تؤد الى نتيجة .

ثم قل عدد البواخر الاندلسية ، فاصبح 22 سنة 1044 هـ (1635 م) والى عشرين سنة 1058 هـ (1647 م) ، وكانت بواخرهم تجلب في الغالب من اوربا ، كما كانوا يصنعون عددا منها بمساعدة الهولنديين في الرباط ، وكانوا يصلون في مغامراتهم الى الشواطىء الانجليزية ويهاجمون السفن الاجنبية .

وكانت للموريسكيين علاقات دبلوماسية مع كل من هولندا وفرنسا وانجلترا ، كما كان لايهود دور بارز في السمسرة التجارية بين الموريسكيين وهولندا حيث كان هؤلاء يضايقون اشد مضايقة سائر المراكب التى تخرج للصيد في عرض المحيط الاطلسى ، مما جعل فرنسا تفكر في عهد لويس الثالث عشر سنة 1038 هـ (1629 م) و 1039 هـ (1630 م) يقضى بارجاع كل باخرة احتجزها احد الطرفين من الآخر ، وان تفتح موانئ كل من الفريقين لتجارة الطرف الآخر ، ويسمح باستقرار قنصل فرنسى بالرباط ، ولا يباع الاسرى الفرنسيون بسلا .

العلويون

1659 م – 1070 هـ

القرن الحادى عشر الهجرى

القرن السابع عشر الميلادى

تقديم :

عانى المغرب فى اعقاب العصر السعدى ازمة الطائفية والقبلية ، فظهرت مقاطعات منفصلة عن بعضها تخضع لحكم محلى (كالزاوية الدلائية) التى اسسها ابو محمد الدلائى وخلفه ابنه محمد بن ابنى بكر ، وقد انقلبت من زاوية ذات نزعة دينية الى زاوية سياسية بدأت نشاطها بحرب البرتغاليين فى الجديدة وازمور ، وكمقاطعة (سوس) التى خضعت للسملاليين ، ومقاطعة الشمال تحت حكم الخضر غيلان ومقاطعة تابوعصامت فى الجنوب بتافلات ، ومقاطعة على بن رشيد من قبل ، فى الشاوين الذى جعل من هذه المدينة مركزا لمواصلة الهجوم على المراكز البرتغالية والاسبانية فى السواحل المغربية ... وكمقاطعة سلا التى كانت تخضع لامرة العياشى ، ومقاطعة الرباط الخاضعة للمشيخة الاندلسية بالاضافة الى بقايا السعديين بمراكش . ومقاطعة سجلماسة تحت حكم العلويين التى سرعان ما نجحت فى الشمال وبايعت المولى محمد اميرا عليها فى سنة 1050 هـ ثم جاء المولى الرشيد ليؤسس الدولة ، وبعده أخوه اسماعيل الذى ركز اسس الدولة فى الداخل والخارج ، فجرد القبائل من السلاح ووجهها لاصلاح الارض ، ثم شيد القلاع والحصون التى بلغت

سبعين مركزا ، واف بين القبائل ، وفتح طنجة سنة 1095 وكانت بيد الانجليز بعد تنازل البرتغاليين عنها ، والعرائش 1101 هـ واصيلا 1102 والمهدية 1109 وبقيت سبتة ومليلية بيد الاسبان ... واسس جيش الودايا ، وجيش البخارى .. وبموته دخلت البلاد فى اضطرابات متوالية من جراء تدخل الجيش فى السياسة الداخلية فى البلاد ...

وعندما توفى المولى اسماعيل خلفه المولى العباس احمد بن اسماعيل المعروف بالذهبي فبقى عهده فى مواجهة الجيش الذى حاول والده ان يجعل منه درعا لمواجهة الاحداث والفتن ولكنه لم يلبث ان اصبح كما وقع فى عهد العباسيين منتظما يثير الفتن ، وخلع الجيش المولى احمد وبايع ابن مروان ثم عاد الى تنويع المولى ابي العباس من جديد الى ان جاء المولى عبد الله فبويص سنة (1141) وبقي فى الحكم يعانى ازمات التنطعات والفتن الى ان جاء أبو الحسن على بن اسماعيل فبويص سنة 1147 ، ثم عاد المولى عبد الله من جديد الى السلطنة ، وبعد فتن دامية بويص محمد بن اسماعيل ثم فى غمرة الاحداث عاد ابوه من جديد ، واخيرا انتقل الى المستضىء بن اسماعيل ، ثم عاد المولى عبد الله من جديد الى الحكم محاربا المولى المستضىء وفى سنة 1163 تسلم العرش المولى محمد بن عبد الله فنظم الاقتصاد ونظام الجبايات العامة ، ووظف على الموازين والابواب والمحصولات الفلاحية والمواد التجارية وطهر الجهاز الادارى من الانتهازيين ، كما نظم الجولات الاستطلاعية ، وكرس جهده لبناء اسطول قوى ، وعمل على تجديد الدراسات واحياء العلوم .

الاطار الاقتصادي

لقد عرف حوض البحر الابيض المتوسط نشاطا

اقتصاديا رائعا حيث كانت السفن تحمل البضائع والمواد المختلفة من الهند والصين التي عواصمهم شواطئ المتوسط كما تحمل على متنها الرجال والنساء وما يعتلج في قلوبهم جميعا من وجدان، وفي عقولهم من علم ، وفي ضميرهم من دين واخلاق مما مزج بين هذه الحضارات المختلفة وأثر بعضها في بعض على ان (الاقتصاد) كان المحرك الاول لهذه الهجرات التي تجر وراءها الربح المادي والادبي وتكون منشأ الحروب والسلام ، وما تجره من انتصار واسترقاق وعبودية وتسخير وما يتبع ذلك من بناء حضارى متلاحق بين الاجناس .

وكان المغرب مجالا واسعا للنشاط الاقتصادي الفينيقي والروماني والبيزنطي ثم تغيرت شبكات الاتصال الاقتصادي في هذه المرحلة التاريخية التي نحن بصدد الكلام عنها ، وكان التشكلات الاقتصادية أخذت تتغير بعد التدخل الاوربي في أواخر القرن الثامن عشر ولعل التشابه واضح بين ما جرى في الهند وما جرى في المغرب حسب التحليل الماركسي لتغير البنيات الاجتماعية تبعا للتغير الاقتصادي . فقد رأى ماركس سنة 1853 بخصوص الهند ان السيطرة الاستعمارية الانجليزية غيرت الاسس المادية للنظام الرأسمالي في الهند ، ويستنتج من ذلك ان التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية في ابتكار النمو الرأسمالي بدون تدخل اجنبي ، هذا ما وقع في المغرب أيضا حيث ان المغرب خرج من عزلته وانفصل على العالم الغربى الذى كان في اوج توسعه ورغبته في البحث عن المجالات الحيوية للاقتصاد .. فوجد الاستعداد كاملا في المغرب الذى كانت البنيات الاقتصادية في حاجة الى تطور سيما بعد فشل المشروعات الانمائية .

الاقتصاد :

ذكر اكنسوس ان المولى الرشيد ضرب 1078 أول سكة علوية ، واقرض تجار اهل فاس قرضا عموميا ، وبذل المولى اسماعيل جهودا لرفع المستوى المالى للبلاد ، فزاد في جميع الواردات والصادرات والمصاريف الجمركية ، واستورد المغرب المنسوجات كاللحف المسلمين والمرايا والساعات والاسلحة وبعض المعادن كالكبريت ، كما استوردت (الرايط) وادوات الطبخ والسكاكين ، وفي سنة 1261 عانى المغرب ازمة اقتصادية بسبب سياسة الباب المفتوح للتجارة الاجنبية وزاد الازمة استفحالا الديون التى استدانها المغرب من الخارج .

ولما استتب الامر للمولى اسماعيل وحرر المراسى التى كانت بيد الاجانب الا (البريجة) التى ظلت بيد البرتغاليين الى عهد حفيده المولى محمد بن عبد الله ، فانتشر الامن فى البلاد حتى كتب المؤرخون عباراتهم التقليدية (ان المرأة والذى يخرج من وجدة الى وادى نول فلا يجد ان من يسألها من اين ، ولا الى اين) وساعد هذا الاستقرار والامن على ازدهار النشاط الاقتصادى ، وذكر الزيانى فى (البستان) ان ثمن القمح بلغ ستين أواق للمد والشعير ثلاث وراس البقر من المثقال الى المثقالين والسمن والعسل رطلان بالموزونة والزيت اربعة أرتال بها ، وكانت جنان حمرية تحتوى على مائة الف من شجر الزيتون وقد حبس المولى اسماعيل غلتها على الحرمين الشريفين . وكانت البضائع تفرض عليها واجبات جمركية فى المدن والمراسى ، وترقب على طول الطريق لفائدة الولاة المحليين ، وقد ذكر المؤرخون ان اثمان البضائع ، كانت ترتفع بازدياد المسافة ، فمن مكناس مثلا الى السوس يرتفع ثمن (اى 59 كيلو) من الزيت من دوكا ونصف ويروى اندرى جولييان عن احد المؤرخين الفرنسيين وصف

عمل المولى اسماعيل وجهوده في سبيل توسيع ثروة بلاده بالتجارة التي كانت تحتل اذ ذاك مكانا سياسيا في الاقتصاد المغربي فكان بيت المال يتقاضى عن جميع الواردات والصادرات عشرة في المائة ، بل تصل هذه الواجبات الجمركية الى 25 في المائة فيما يخص الصمغ ، وقد وصف السفير الفرنسي (أولون) الذي زار المغرب عام 1693 الاقتصاد المغربي اذ ذاك ، فلاحظ ان اليهود والمسيحيين كانا يحتكرون التجارة عمليا ، وكان في مدينة فاس نحو الخمسة آلاف من اليهود يحركون التجارة في مجموع بلاد المغرب .

العمـران

اذا كان المولى اسماعيل اعظم بناء في هذا العصر حيث تجلت مآثره في مدينة مكناس وبالاخص في باب منصور العليج وغيرها ، وفي بناء المعامل والحصون فإن ولده المولى عبد الله بنى بفاس مسجدا ملكيا عظيما كما بنى محمد بن عبد الله جامعا بالرباط ، وشيد قصرا عظيما بمراكش والقصر الابيض انها توزع على ثلاثة فروع :

- (1) النقط المعززة حول بعض القبائل (السائية) .
- (2) وسلسلة معاقل تادلة وملوية لحصر قبائل الاطلس المتوسط .
- (3) والقلاع المتسلسلة في الطرق الرئيسية من تازة الى تارودانت .

ومن بقايا هذه القصبات ، قصبة (خشان) وتادلة ، واحميدوش ، وأبو لعوان . والقصبة عبارة عن بناية محاطة بجدران سمكية مع مخارج مربعة وتضم دارا ومسجدا ودكانا

وذخائر . كما بنى العلويون عدة قناطر اهمها قطرة سبو (طولها 150 مترا مع عشرة اقواس) وبنوا عدة سقايا ودورا للوضوء ، واسسوا عدة مساجد ومدارس وصفها بدقة المؤرخ ابن زيدان في كتابه مفاخر العلويين ، وفي كتابه الانتحاف في تاريخ مكناس .

وكان من نتيجة احتكاك المغرب بالدول الغربية ان اخذ الاقتصاد المغربي يتأثر بالمناهج المتبعة في الغرب من بيع الاراضي والمراسي لغير السكان المجلس فما كاد ان تخلق اقطاعيات جديدة في المغرب ، غير ان المولى الرشيد العلوي كان حذرا من هذه المناورات الخطيرة يقضى على ابن مشعل .

الفلاحة

عرف المغرب منذ العصر الروماني بأنه ارض الفلاحة والغابات ، لذلك فقد ظل دائما مصدر الحبوب الى اوربا ، كما عرف بغراسة الاشجار ولاسيما بعد خروج الاندلسيين من الاندلس واقامتهم بالرباط وتطوان ، حيث طوروا في الغراسة بهما وغرس المولى اسماعيل أكداه مكناس باشجار الزيتون ، وعندما زار ادریان اقليم مراكش سنة 1641 وصف جنان بأنها أجمل مكان في الدنيا ، اذ زرع فيها على الأقل (15000) شجرة من الزيتون .

الاسطول

ذكر « جان بابتيست » في مذكراته عن اسطول مولاي اسماعيل ان قطعة لم تكن تتجاوز الست ، منها اثنتان في ملك السلطان ، واربع في ملك الافراد . وكانت بسلا وحدها 12 سفينة تحت امرة عبد الله بن عائشة الذي اصبح سفير المولى اسماعيل في بلاط لويس 14 .

السكان

ذكر الحسن الوزان اعداد تقديرية لعدد الدواوير في المغرب في القرن العاشر فذكر انها كانت تبلغ 1165 دوارا مقاتلتها من المشاة 694000 ومن الفرسان 65300 ويرى ما سينيون ان تطبيق قاعدة كاريتي على ذلك ان عدد السكان يعرف عادة باضافة عدد المقاتلة الى رבעه من العاجزين ، فيصير ذلك ثلث عدد السكان (لان الباقي فيه اطفال ونساء وشيوخ غير قادرين على القتال) لان الباقي فيه اطفال ونساء وشيوخ غير قادرين على حمل السلاح ، وطبقا لهذه القاعدة يكون عدد سكان البادية 2850000 . وقد احصى قبائل البربر الحسن الوزان فكانت 75 قبيلة وقدر عدد مقاتلتها ب 285000 . وقد احصى قبائل البربر الحسن الوزان فكانت 75 قبيلة وقدر عدد مقاتلتها ب 1085000 ، فيكون عدد السكان حسب قاعدة كاريتي 4071000 من البربر ... وذكر دوفونطان في كتابه « اسماعيل الاكبر امبراطور المغرب » في رسالة الراهب فرنسي حوالى القرن الحادى عشر (انه كان بناحيتى مراكش وفاس 16 مقاطعة و 250 مدينة جميلة اصغرها تحتوى من السكان على ثلاثين ألف نسمة تقريبا ، وكان في مدينة فاس وحدها بالضواحي 1600000 نسمة تقريبا .

عصر السلطان محمد بن عبد الله :

امتاز عصر محمد بن عبد الله وهو ملك مثقف عالم ، (يعنى بحق مشاكل عصره) بمحاولاته المتعددة لبعث حركة اصلاحية شاملة ، في كل مرافق الدولة .

أخذ المولى محمد بن عبد الله يعمل جاهدا لتطوير معامل الاسلحة في المغرب ، وقد بعثت الدولة العثمانية ببعض العمال

التقنيين ليكونوا اطارا للصناعة الحربية في المغرب . وتوزع العمال في المدن المغربية ، فكان معلمو (القنابل) بتطوان ، ومعلم (المراكب) بسلا ، ومعلمو (الرمي) بالرباط ، واصحاب المدافع بفاس (كما في الاستقصا) .

واعتمد المولى محمد بن عبد الله ، على الرباطيين والسلويين لخبرتهم الجهادية ضد القرصنة في هذا الميدان . ويذكر مؤلف مقدمة الفتح تفاصيل عن تطور الاسطول في هذا العصر . وقد بلغ عدد المراكب المغربية في العهد المحمدي (20) قطعة كبرى و (301) ، فركاطة ، وعدد رؤساء البحر (60) ، والجيش البحري 4000 .

وبعد تفكك أوصال الامبراطورية المغربية التي كانت تمتد من طرابلس الى الاندلس ضعفت السيطرة على البحار ، ازدهرت القرصنة ، وقد أصبحت المهدية وكرا للقرصنة في أيام بنى مرين وضمت اخلاطا من مختلف الاقطار ، فيهم المسيحيون ، وفيهم المسلمون بل إن المسيحيين كانوا اغلبية كما يقول دو كاستري ، وبعد ظهور العلويين استرجع المغرب مكانته ، غير ان استيلاء خير الدين على الجزائر حول محور التجارة الدولية من المشرق الى الغرب اثر الاكتشافات البحرية الكبرى ، فاصبح مضيق جبل طارق (الطريق التجاري) ، وقد ازدهرت القرصنة بسبب الاندلسيين الذين كانت تذكهم المغامرة البحرية ، فوجدوا في هذا النظام ذريعة للانتقام من اعدائهم الاسبان .

وكان مبدأ حرية التجارة في البحار وسلامة التجار وجعلها فوق الاعتبارات الدينية مما ساعد على الازدهار ، وقد درس المستشرق سيموند Simondi ولاطرى Latre قضية القرصنة ودفعوا للاجراءات الموجهة ضد المغرب في شأن البضائع المرتكبة

باسم القرصنة البحرية . أما عبد المولى الحسن عقدت النية على أحداث اسطول جديد للمغرب واشترت قطعتان من الخارج ، ولكن الاستعمار الغربى كان بالمرصاد باحبط هذه المحاولة .

بناء مدينة الصويرة

كان تأسيس مرسى الصويرة عملا سياسيا واقتصاديا يرمى الى جلب الاجانب الى المراسى لتنشيط المبادلات التى كان من شأنها ان تنعش ميزانية الدولة غير ان التجار المسيحيين هجروا الصويرة لان ابناء المرسى كانوا يفرضون عليهم رقابة صارمة ، وكانت لهذه المدينة جالية يهودية لها صلة وثيقة بجاليات سوس والاطلس ، وما لبثت ان استولت على تجارة اقصى الجنوب وبذلك اثرت على الاقتصاد المحلى وبرزت نشاطهم جميعا ، نظرا لاعتمادها على اساليب ربوبه .

ميزانية الدولة

لما بويح المولى محمد بن عبد الله وقف على مختلف والده 200000 ديناراً عبدلوية ، ومن الذهب ما يساوى 400 000 ريال ووجد كذلك 285 000 ريال و 20 000 موزونة وكان بيت مال السلطان ينتقل معه على ظهور البغال حيث ما ذهب ، وقد كان جاء فى مذكرات (سنيى) فى موضوع الحالة العامة لتجارة فرنسا مع ساحل المغرب عام 1767 « ان المراسى العامة هى العرائش وسلا واسفى والصويرة واكاير وقد استقلت هذه المراسى فى سنة 1767 (16) سفينة متقلة بالمنسوجات والسكر والحديد وحملت المراكب الفرنسية وحدها من المغرب الزروع والاصواف والجلود والزيوت والصمغ واللوز بما قيمته 647000 جنيه فبلغت صادرات المغرب الى فرنسا فى غصون تلك السنة

ضعف وارداتها وضيق المغرب نطاق المراسى فلم يفتح في سنة 1773 في وجه المراكب التجارية الفرنسية سوى العرائش والصويرة وقد بلغت قيمة الصادرات اذ ذاك 860 000 جنيه وكانت الواجبات الجمركية المفروضة على الواردات لا تتجاوز العشر بينما كانت الواجبات الموظفة على الصادرات تتغير تبعا لنوع البضاعة وحالة الحصاد كما جاء في كتاب (ملوك فرنسا والمغرب) لشارل بتز (ص 114) وكان بيت مال السلطان ينتقل معه على ظهر البغال حيثما ذهب كما كان لكل مرسى بيت مال خاص بفتح على رأس كل ثلاثة أشهر .

وذكر محمد الدكالي في (الاتحاف الوجيز) عن تأثير الانتاج الاوروبي على الانتاج المغربي البدوي اذ ذاك كان رخيصا بالنسبة للانتاج المغربي المعتمد على اليد العاملة ولهذا فان معامل القطن والكتان وطرازتهما بالعدوتين تاخرت في عهد المولى سليمان وبقيت في سلا فقط دون الرباط ستمائة معمل مهملة .

وصف بريتوارت في كتابه « تاريخ المغرب » حالة البلاد عام 1727 م . فذكر ان مقاطعات الجنوب يسهل فيها زرع القطن والتوابل والسكر ، وان ذلك يدل على ثروة البلاد التي يوجد فيها النحاس ومعادن الفضة والذهب .. وذكر ان مقاليد التجارة بيد اليهود والمسيحيين لان المغرب لا يفهمون التجارة مع الخارج . فكان مما يجلبه التجار الاوربيون الى المغرب من ثياب والحديد، والكبريت ، والبارود ، والاسلحة ، والرصاص مقابل اللوز والتمر والصمغ والجلود والنحاس والعسل، وذكر ان قوافل مغربية تذهب كل سنة الى غينيا في عدة آلاف من الجمال قاطعة المسافة الفاصلة بين البلدين في ظرف عشرين يوما ، وترجع مثقلة بالابريز والعاج وريش النعام والعبيد .

أزمة الاقتصاد المغربى

استسلمت الحياة الاقتصادية والاجتماعية المغربية بعد الاستعمار الفلاحى للاراضى المغربية لهجمات الغرب الاقتصادية الاستعمارية ، ويمكن ان نجعل مدينة فاس كأساس للتغيير الاقتصادى لتواجد البرجوازية وعلماء الدين لمواجهة الاستعمار التى استفاد اكثر منهم فى هذه المواجهة .

وكانت نشأة (البورجوازية) التجارية المحلية فى أواخر القرن 19 فى اوج تطورها الى درجة انها كانت تفرض نفسها كعنصر مسيطر داخل السلطة . وكانت تتميز علاقتها الجديدة بالمخزن طيلة القرن 19 وبالأخص تلك المتمركز فى فاس لسببين : ضعف السلطة المركزية فى القضاء على (السبية) وعلى رد الهجوم الاستعمارى المتكرر على المغرب ابتداء من سنة 1818، وهذا ما مكن البرجوازية الاوربية من توسيع نفوذها حتى أضحت الشريك المتساوى للسلطة السياسية ، وظهور ثلاثة مصادر جديدة للتراكم الاقتصادى فى المغرب : أ - نشوء الماكة الخاصة وتوسعها : ب - تحالف البرجوازية الاوربية ، عمليا فى شكل امتيازات ورساميل (للبورجوازية الاوربية) التابعة للرأسمالية الاوربى ، وظهرت هذه التبعية فى البداية عندما أصبحت غالبية (تجار) المغرب فى منتصف القرن التاسع عشر وكلاء رئيسيين للتصدير نحو أوربا ثم الاستيراد المنتوجات الاوربية وتوزيعها فى مختلف انحاء البلاد مع ظهور نظام (الحماية) وتحولت المدن مع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى مركز للتدخل الاوربى فى المغرب بحيث بدأت القوى الاوربية بواسطتها تفويض اسس الاقتصاد المغربى ، واستبدالها (الاسس) (بميكانيزمات) التبعية المفروضة على المغرب.

الضمان الاجتماعي (مساعدات اجتماعية)

جاء في (درة السلوك) ان المولى محمد بن عبد الله انفق ايام الغلاء الذي وقع عام 1189 الى 1895 خمسمائة الف الف دينار اى نصف مليار ، ويذكر المؤرخون ان السلطان رب الخبز في جميع نواحي المغرب فكان يوزع على المعوزين في كل حومة سواء في الحاضرة أو البادية حيث وزعت اموال طائلة على القبائل في شكل سلف يؤدي زمان الخصب والرخاء وتنازل السلطان للقبائل عن ذلك مؤكدا انها كانت منحة من أول وهلة وانما ذكر السلف ليلا يستبد بها الاشياخ والاعيان ، واسقط في تلك المدة جميع الضرائب عن قبائل وكان يعطى للتجار الحاضرة ، أو البادية حيث وزعت اموال طائلة على القبائل في شكل سلف يؤدي زمان الخصب والرخاء ، وكان يعطى التجار الاموال ليحبوا بها الاقوات من الديار الاوربية وبيعها باقل من ثمنها .

المبادلات التجارية

ذكر « جيرمان مويط » ان التجار الفرنسيين كانوا ينقلون الى المغرب البضائع الاوربية المختلفة : فمن اسبانيا الفضة ، ومن انجلترا الثياب الرفيعة ، والحرير ، والصوف الملون ، ومن هولندا مختلف المنسوجات . وكذلك من روان وبريطانيا ومن البرازيل وبورديو القطن والتبغ ، كما يجلبون السكر والكبريت والاصباغ والورق والفولاذ والحديد والرصاص والوانى السكاكين والمقصات والابر والاقفال والمرايا والمشط . اما صادرات المغرب ، فهي الجلود والعنب وصفائح النحاس والصمغ والقصدير والصوف . ولم يكن المغرب يصدر الحبوب والماشية ، لان ذلك كان محظورا الا في ظروف خاصة ، وفي مقابل البارود والعتاد الحربى .

العلاقات مع الخارج :

... كان من الواجب يسعى المغرب جهده ليقويم علاقات ديبلوماسية مع الدول الاوربية رغبة في خلق بيئة سليمة ، حتى يتاح له الاستقرار والاطمئنان في البلاد ، ولذلك وجه الى اسبانيا الوزير الغساني للعمل على فك الاسرى المسلمين ، واستجلاب كتب علماء الاندلس والمغرب من اسبانيا .. وليسعى الى اقامة معاهدة مع اسبانيا .. وقد حاصر المولى عبد الله مليونية سنة 1188 كما يقول ابن عثمان في رحلته أو في 1185 كما يقول الناصري في الاستقصاء ، وفشل الحصار لان اسبانيا رأت فيه مخالفة للمعاهدة بين الدولتين ، وقد احتتمى الغزل نظرا للبس في نص المعاهدة مع ان النص الرسمي في خزانة تطوان واضح دون تحريف فيما يظهر ...

وعقد المولى محمد بن عبد الله صلحا مع السويد سنة 1176 ، معاهدة السلام مع فرنسا ، وهذه المعاهدة تعتبر امتدادا لمعاهدة المولى اسماعيل مع لويس الرابع عشر .. كما عقد معاهدة سياسية تجارية مع الدنمارك سنة 1181 . وتجاوزت المعاهدة النشاط الدبلوماسي الى النشاط التجاري ، وخصص الروسي (تشولكوف في كتابه) نظرة تاريخية الى التجارة الروسية (فصلا عن التجارة بين روسيا والمغرب ودعا في كتابه ان يوسع التجارة الوس افق التجار) وان يصدروا الى المغرب المصنوعات الحديدية والزجاجية والجلد الاحمر والخشب عن مرسى ليفورن) .

وبجانب هذه الوثائق الدبلوماسية الدالة على مدى نجاح العلاقات الاقتصادية بين المغرب وروسيا ، نجد وثائق أخرى كمعاهدة صداقة بين روسيا والمغرب ، في بداية سنة 1792

الموقعة في (جاسى) والتي تنص على حماية السنن التجارية الروسية من قراصنة البحر الابيض المتوسط حيث كان الاسطول المغربى قادرا ومسيطرا على الجانب الغربى لهذا البحر .

وجاء عهد المولى سليمان (1792 — 1822) الملقب بعالم الملوك الذى بويغ سنة 1206 . وكان داعية سلم ، فلم يحارب الاتراك حين احتلوا وجدة ... وانما اقنعهم بالتنازل عنها كما تنازل عن تلمسان حين ثار اهلها بالاتراك راغبين الدخول فى حكمه ، وقد اقام علاقة مع السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثمانى ، ومع والى تونس حمودة باشا ، ودعا للحركة الوهابية فى المغرب ، ثم جاء بعده المولى عبد المولى عبد الرحمن الذى انضمت تلمسان فى عهده الى المغرب . ثم تنازل عنها ، وخاض معركة اسلى وتطوان ، غير ان التوسع الاستعمارى الذى اخذ يهدد المغرب كان بلغ الاوج ، مستغلا صعب اجهزة الدولة فى داخل المغرب وضعف وطنية بعض التجار والعملاء الذين آثروا عن جهل وقلة وعى ، مصالحهم الشخصية على مصلحة البلاد العامة .

جاء عهد المولى سليمان بعد ركود دبلوماسى فى عهد المولى يزيد والمولى مسلمة اللذان لم يطل حكمهما طويلا ، وقد ورث المولى سليمان عبثا ثقيلًا فى ميدان الدبلوماسية المغربية ، ذلك ان اوربا كانت تواجه حملات نابليون العنيفة حيث كان القائد الفرنسى يهدف الى حصار القوات الانجليزية ليفل من حدثها .

لقد كان نابليون يحلم باحياء روما القديمة ليسوس العالم عسكريا ، لذلك انهى عمليا عهد الثورة الفرنسية يوم اعلن عن تسميته قنصلا أولا حيث اخذ يحاول التحكم فى اوربا ومصيرها

ولا شك انه كان يفكر في المغرب كما فكر في غزو مصر ، ولكن المولى سليمان كان يسلك سياسة الحياد الايجابي ، ولذلك وقف في وجه اعتداء نابليون على اسبانيا ، كما وقف في وجه اعتداءات امريكا على طرابلس ، وفي كتاب (مبيج) عن الدبلوماسية المغربية توضيح لهذه المرحلة الدقيقة من سياسية المولى سليمان ، واياما كان فان الشعب الاسباني قاوم الحملة الفرنسية بما لديه من قوة ، وكذلك وقفت النمسا بزعامة مترنخ لتقاوم نتائج الغزو النابليوني ، وادى ذلك الى ظهور القوميات في اوربا وكل هذه الحركات العنيفة في اوربا كانت تردد صداها في السياسة المغربية الخارجية التي التزمت الحياد ، ونادت بحرية الشعوب في تقرير مصيرها ، ولذلك لم يكن نابليون راضيا عن سياسة المغرب وقد خامرته فكرة مواجهته ، ولكنه عدل عن ذلك، وكتب الى المولى سليمان يطلب منه خيلا مغربية يوجهها اليه على يد سفيره بطنجة .

الزوايا :

قضى المولى الرشيد على الزاوية الدلائية، وحاول متابعة الزاوية الناصرية ولكنه عدل عن ذلك لمساقتها له ، وضايق زاوية وزان . كما سجن المولى اسماعيل احمد التسناوى (ناظم رجال الحلية ورجال التشوف) ، وتصدى المولى سايمان لمحاربة الزوايا والطوائف والمواسم في خطبة مشهورة متداولة متأثرة بالحركة السلفية والوهابية وبالاخص بعد ورود السنوسى من بلاد الشرق وتدريسه بالقرويين ، ولم يمنع هذا ان يكون السلطان سليمان متأثرا بالصوفية السلفية كما يتبين ذلك من اجازته المتصلة بالسند الجزولى ، وكذلك السف خطبة ضد المواسم والطوائف ، وجدد المولى اسماعيل صريح احمد الشبلى وعبد الله

القصرى ، واسس السلطان محمد بن عبد الله ضريح سيدى محمد بن عيسى وكان فى نفس الوقت عالما سلفيا ينشر كتب الحديث ، غير ان ذلك لم يضعف من شأن الزوايا فى أول هذا العصر ، ويلاحظ لفى بروفنصال فى كتابه (مؤرخو الشرفاء) ان كتابة التاريخ توقفت بعد القرن الحادى عشر وخلفها فن التراجم نظرا لاستفحال الطرقية فى القرن الحادى عشر ، على انه فى آخر هذا العصر ضعف نشاط علماء التصوف اثر ظهور الحركة الوهابية ومساندة المولى سليمان لها بما آلى من كتب فيها وتصدى العلامة السنوسى لتأييدها فى القرنين .

وأشهر ما كتب فى التصوف والتراجم فى هذا العصر :

مرآة المحاسن لمحمد العربى الفاسى . والمنح الصافية فى الاسانيد اليوسفية لاحمد بن ابى المحاسن . والمنح البادية لمحمد الصغير بن عبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة 1134 . وابتهاج القلوب باخبار الشيخ ابى المحاسن وشيخه المجذوب . وصفوة من انشر فى اخبار صلحاء القرن الحادى عشر . ودرة الحجال فى مناقب سبعة رجال للافرانى ، وبذل المناصحة فى فضل المصافحة لاحمد السوسى البوسعيدى .

وكان ابو المحاسن الفاسى يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية فى آداب السلوك بالقرويين . والف محمد العربى بن الطيب القادري عدة كتب صوفية ، اهمها تحفة اهل الصديقية ، وكذلك الف اخوه عبد السلام اغاثة اللهفان ، والمقصد الاحمد ، ومعتمد الراوى فى مناقب سيدى الشاوى .

ونظم عبد الرحمن الصوفى فى الملحون الشعبى وجمع ذلك (دو كاسترى عام 1896) فى كتابه Gromes de Sidi Abderrahman كما الف ابن القصيرة كتابا فى العشق وهو صاحب كتاب مناقب

ابن عمر ، على ان فى محاضرات اليوسى وصفا للحياة الصوفية بالمغرب وذكر لرحلة ابنى عبد الله ناصر الى الشرق وتلقيه الطريقة الشاذلية للمصريين ، وكذلك تضم الرحلة العياشية نقفا عن حركة التصوف المغربى فى العصر العلوى .

وكتب الشيخ احمد الناصرى رحلة فيها معلومات صوفية ، وقد ترجم نقفا منها بريوجير تحت عنوان :

(De l'Algérie et des Etats Barbares que de l'Ouest de l'Est)

وكان لابد ان تظهر حركة ضد المتصوفين المنتشرين هذا العصر ، واهم من نقد هؤلاء ابن عبد السلام الناصرى فى كتاب (المزايا فيما أحدث فى ام الزوايا) ، وكتب محمد بن عبد الكريم المغيلى كتابه (تنبيه العافلين بدعوى مقامات العارفين) ، وكشف قناع الالتباس عن بعض ما تضمنته بدع مدينة فاس لمحمد لصباغ ، وألف اليوسى المحاضرات المصنفة (سنة 1095) ، والف المهدي الفاسى ، كتاب تحفة اهل الصديقية ، وصفح القفا لم يتبع سيرة المصطفى . وقبله فى القرن التاسع صنف احمد الماجرى كتاب (المنهاج الواضح) ، كما ألف ابن الخطيب ، الرد على اهل الاباحة ، وسد الذريعة . وفى القرن التاسع كذلك ألف الشيخ زروق محتسب الصوفية كتاب عدة المرید الصادق .

الفن المعمارى :

عمد العلويون فى أول الامر الى الجمع بين التقاليد المرينية والسعدية ، ويتجلى ذلك فى منشآت مكناس كمدينة الرياض 44 والقصر الابيض ومسجد (للا عودة) ومسجد (الروا) ودار مخزن مراكش بقببها « الستينية » واجنحتها المتعددة ، ويمتاز البناء العلوى باتساع رقعته وفخامته ومتانة الاسوار والعلو الشاهق واستعمال عناصر الفن التقليدي ، ويتسم (مسجد الروا)

بخلوه من كل ممر اساسى ، وعدم وجود اى رواق فى ساحته وعدم تناسق توزيع ابوابه مما يحمل على الظن ان عنصرا هندسيا جديدا مستوحى من الغرب ويعسر أن نذكر أعلام الفكر فى هذا العصر ونكتفى بأشهرهم وهم :

البعقىلى 1009 وهو عالم فلكى ، له تعليقات وتعقيبات فى علم الفلك ، وهو الذى انشا الساعة الرخامية بجامع (تارودانت) والف روضة الازهار

ومنهم الرحالة العياشى مؤلف الرحلة العياشية المشهورة ..

ومنهم الطبيب العلمى المعلق على النزهة للشيخ داود ، والمخيل لارجوزة ابن سينا ، ومنهم المسناوى 1059 ومنهم عيارة 1072 شارع ابن عاشور والتحفة وناقد ابن زكرى ، ومنهم عبد القادر الفاسى 1007 ومنهم عبد السلام القادري 1110 مؤلف المقصد والاقتباس وهو شاعر (وبيوغرفى) مشهور ، ومنهم الشاعر القصصى محمد العلمى صاحب الانيس ، وصاحب الموشحات ، ومنهم احمد واعاى السوسى 1046 م مؤلف رحلة الزلفى ، ومنهم ابن جلال ، والحبابى صاحب المقامات والامداح النبوية والسيبى الصقيل ، ومنهم احمد بن ناصر الدرعى مؤلف الاجوبة ، والرحلة ، ومنهم العلامة الطبيب الزبادى مؤلف بلوغ المرام ، ومنهم اللغوى الازمورى ، والشاعر سليمان الحوات ، والعلامة الرودانى والعلامة الشركى .

واخذت الزوايا فى الظهور من جديد فبرزت الزاوية (الحراقية) المشهورة فى تطوان باستعمالها للطرب بالآلة الموسيقية ، وكالزاوية (الوزانية) لمؤسسها عبد الله الشريف الذى جاءت تفاصيل عنها فى كتاب (تحفة الاخوان فى شرفاء وزان)

وكزاوية الشيخ ماء العينين في الساقية الحمراء بشنقيط ،
وكالزاوية التجانية بعين الماضى لمؤسسها السيد احمد التجانى
دفين مدينة (فاس) .

ويذكر أوجين لوبان (Engen Subin) في كتابه مغرب اليوم
(Morocco of today) صفحة 34) ان القديس فرنسيس نفسه
ارسل أول بعثة فرنسيسكانية الى المغرب حيث استقرت بمراكش
بالاضافة الى بعثات مسيحية اخرى ظلت بفاس ومراكش
والصويرة واسفى وازمور والجديدة وعدة قرى اصبحت الان
مدنا كالخميسات وازرو ، وكانت البعثة في مراكش اسكتلاندية
بروتستانتية يشرف عليها احد اتباع الكنيسة المسيحية في
(غلاسغو) وقد استغل المستعمرون عمل البعثات وجعلوهم
حلفاء الاستعمار .

فظهر رد فعل لمقاومة المسيحيين والشك في نوايا الكنيسة
التي انحرفت داخل الانحراف وفي ربيع سنة 1930 وكان نشاط
حركة التبشير الكاتوليكي متجليا في الظهير البربرى الذى فضح
أمره وقاومه المعارضة قاطبة بعنف ...

تأسست أول مطبعة حجرية بفاس سنة (1868) وقد
بدأت المطبعة عملها في شكل بسيط ، تطورت في عهد محمد بن
عبد الله ، وظهرت مطابع حجرية متعددة تأزرت على نشر التراث
المعربى ، وطبع كتب العلماء للالمعى في عصرهم كمطبعة
(الازرق) ومطبعة (بن عبد المولى) ومطبعة الذويب ، ثم
ظهرت المطبعة الحفيظية وبعد ذلك المطبعة الملكية ، بالاضافة الى
طبع الكتب المغربية بمطابع القاهرة كمطبعة (بولاق) في القاهرة .

الدبلوماسية :

كان التطور الاقتصادي في أوربا والبحث عن المادة الخام من الاسباب التي أثرت التجربة الدبلوماسية في أوربا والمغرب ، ومنذ اكتشاف أمريكا الجنوبية واستيلاء البرتغال والانجليز على سواحل وجزر في إفريقيا وآسيا والصلات تشتد في الدول الغربية والمغرب ، اذ أن طريق السفن والمواصلات وحفظ توازن القوى الاقتصادية كان يركز على أسس سياسية تنمو باستمرار في المغرب والدول التي يهمها الامر ... ولا شك ان الصادرات المغربية الى الخارج كانت في حاجة الى تنظيم اسواق وفتح مجالات وبحث عن الزبناء بالإضافة الى الصادرات التقليدية من جلود ولحوم وثمار وفواكه وعسل وسمن وريش كما ان القطن والزرابي كانت صادرات أخرى ظهرت في عصر السعديين كالسكر الذي كان يصنع في شيشاوة ومراكش وتارودنت .

لذلك ظهر عامل جديد في ميدان الدبلوماسية المغربية وهو الصلات التي تربط بين زعماء الطوائف وبين ممالك أوربا منذ بداية انهيار الدولة السعدية ، حيث كان في هذا الترابط ما يضمن لهؤلاء صداقة تمدهم بالعون المادي كحشاء الاسلحة والعون المعنوي كاستنادهم الى دولة من الدول الكبرى .. ولذلك لا بدع ان نرى صلات دبلوماسية بين السعديين ، والانديلسيين الدلائيين . اما مع السعديين فيذكر دوكانستر في الجزء الثاني ص 106 من السلسلة الاولى من هولاندة ان زيدان السعدي حين انتصر عليه ابو محلى اضطر الى مغادرة آسفى والتجأ الى مرسى أكادير (سانت كروا) فاكثرى في شهر جوان — 1612 باخرة القبطان جان فيلبسى دوكانستيلان ، (ليذهب لى فرنسا ويلتجىء الى ملكها لويس 13 ليمده بالاسلحة) وكانت وردت المغرب وحملت اليه رسائل من لويس الثالث عشر والذوق دوكان (بحملها أمتهته ولكن الباخرة

فرت بسرعة في الشاطئ الى فرنسا وقد سرقت السفينة أيضا من طرف اسبانيين فحمل ما فيها الى اسبانيا ومن جملة ذلك خزانة كتبه التي كان عددها يتجاوز ثلاثة آلاف مجلد فأهداها الملك فيليب الثالث الى خزانة الاسكوريال ، وضعت من أجل ذلك ثقة السعديين في فرنسا فاكترى المولى زيدان باخرة هولندية من مرسى أسفى وحملها اهله وعددهم مائتان الى أكادير والمهم ان المولى زيدان كتب رسالة الى حكومة هولندا بتاريخ 27 ربيع الثانى عام 1020 يذكر ان سفينة فرنسية وردت الى المغرب وعليها سفير فرنسا القبطان جوهان فيليب ، الذى وقع اتفاقية صلح بين فرنسا والمغرب وبمقتضاها فكت الاسرى الفرنسيين . واستعمات الباخرة لنقل أمتعة السلطان السعدى الى فرنسا ولكن ربانيها فرا دون سبب معقول ، ولذلك أوفد زيدان السعدى سفيريه القائد احمد الجزولى وناصر قرطة ليذهبا الى فرنسا عن طريق هولندا .

والسفير الجزولى هو أحمد الجزولى قاضى تارودانت وسوس كما يذكر دوكاستر مذكرة من القائد يوسف بيكاستر سفير المولى زيدان الى حكومة هولندا بتاريخ 31 يوليوز 1624 فى موضوع خيانة جام أبوت الذى باع سلعة للمغرب ثم غادر البلاد دون ان يدفع السلعة التى اخذ ثمنها . وكان ممثل المغرب فى هولندا (صامويل بلاش) وهو يهودى من أسرة معروفة بالمغرب وكتب الى المولى زيدان اقتراحات على هولندا وردت عند دوكاستر (ص 55 ج الثانى ، السلسلة الاولى) وفى نفس السلسلة ج 3 ص 290 مذكرات (روبرل الهولندى 15 ابريل 1623) يذكر فيها بيع التاجر النيرلندى لاسلحة الى أصحاب بودمعة وفى نفس السلسلة (ص 4 و 5 ج 4) سرد ليوميات التاجر الهولندى ادريان ماتان الذى جاء الى المغرب فى 1646 على ظهر الباخرة

(جينلورلاند) وكان بها السفير الهولندي لابي دميعة (انطوان ليدركيك) ليفاوض في اطلاق سراح النصارى المأسورين بسوس - وصاحب اليوميات يتكلم عن سوء معاملة الاسرى ناسيا ما يلاقيه المسلمون في بلاد اوربا من محن الاسر والتعذيب والاسترقاق .. والغريب ان السفير الانجليزى (هريسون) يتحدث في مذكرته المؤرخة في اكتوبر سنة 1630 على ما ينعم به تجار النصارى من حرية وامن في بلاد سوس . وفي نفس السلسلة ص 575 ج 5 يروى عن البحار هو دو لوستر (الهولندي) الذى كان يعمل في البحرية الهولندية في سفينة (سالاماندر) حياة الاسرى واقتداءهم لسته عبيد هولنديين كانوا في طريقهم الى البرازيل . ويروى في نفس السلسلة ص 571 ج 5 حكايات عن رحلة لوتير مقتبسة من حياة لوتير بقلم جرار براند وهى مطبوعة بأمرتردام سنة 1698 . وفي نفس السلسلة أيضا ص 470 ج قرار من حكومة هولندا ولاهاى في موضوع الباخرة اراسموس التى تحطمت بشاطئ المغرب بسوس فوجهت الحكومة الهولندية رسالة الى سيدى على بتاريخ 21 ماي 1639 اعتمادا على الاقتراح الذى قدمه السفير اسحاق بلاش الى حكومة هولندا الذى يرى ضرورة احياء علائق هولندا مع المغرب ونفوذ المغرب على غينية التى بها شركة الهند الغربية ، وفيها ما يشعر بأن الحكومة المغربية كانت تعرف مدى تلاعب اليهود بالعلاقات مع اوربا ودفاع اليهود عن مصالحهم .

أما عن علاقة هؤلاء مع انجلترا ، ففي السلسلة الاولى في رسالة من وليام باحى الى ملك انجلترا هز الرابع بتاريخ 1543 ان الفرنسيين يفكرون في أخذ المعدن من المغرب لصنع المدافع .

وفي ص 71 ج 1 نقل عن رحلة جامس طوماس الى المغرب بتاريخ 1552 وبها ذكر للتجارة ونقل البضائع وزراعة قصب السكر . وفي السلسلة بالجزء الاول ذكر للمراسى التى تتعامل معها

انجلترا وعلاقة البرتغال وانجلترا بالمراسي المغربية والمــــواد
التي يشتريها المغرب وفي مقدمتها الاسلحة .

وفي الجزء الاول نقل عن رحلة الانجليزى هزى رويبر بتاريخ
غشت 1585 وتمثله للمكة اليزابييط في المغرب ومفاوضته مع
السلطان السعدى ووزيره ابراهيم السفينانى وتوجه السفير
المغربى الثالث فى السلسلة الاولى من رسالة من سيدى على الى
شارل الاول ملك انجلترا فى موضوع الاسرى بتاريخ صفر
سنة 1040 موافق 1630 .

وفى ص 235 ج 3 عريضة للتجار الانجليز القاطنين بالمغرب
الى حكومتهم فى موضوع احتجاج هؤلاء على اعتبار سيدى على ،
على السعديين ، وبه تقرير أيضا من (بينو) الانجليزى فى
موضوع التجارة الانجليزية مع المغرب ، ثم تقرير آخر كتبه
(سكوت) فى نفس الموضوع .

وتحدث دوكانسر عن العلائق مع فرنسا فجاء (فى السلسلة
الاولى ص 303 ج 1) نص اتفاق تجارى بين روان الفرنسية فى
فى شأن باخرة سمسون الفرنسية التى تحمل السلع وتأتى
بالسكر ... و (فى ص 544 ج 3) نقل عن رحلة مارج الفرنسى
ويذكر هذا الرحلة انه حضر مقابلة السفير المغربى جوذر بن
عبد الله الملك انجلترا بلندن . وهذا السفير برتغالى الاصل . سافر
الى انجلترا صحبة (روبر بلاك) .

ويذكر دوكانسر فى السلسلة الاولى (ص 414 ج 3) معاهدة
لويث الثالث عشر والسلطان الوليد الزيدانى بتاريخ 1631 فى
موضوع عدم تفاوض فرنسا مع الثائر بن على الملك .

وفى صفحة 358 ج 3 ذكر لبيعه المولى عبد الملك السعدى
من مراکش وفاس وسوس وكاكو ، ووادى النيجر .

وظلت السياسة الخارجية المغربية على هذا النمط حتى اذا جاء المولى اسماعيل كان البطل الذي وحد المغرب شمالا وجنوبا شرقا وغربا على أساس شبكة من القلاع والحصون ونقل القبائل من جهة الى أخرى لخضد شوكتها ، بما سماه الزرهوني في رحلته (باللف) وتكوين جيش مغربي تعتمد عليه الدولة لمواجهة الغزو الخارجي ، والفتن الداخلية بدل الاعتماد على القبائل . وكان من نتائج هذا الاستقرار خلق حوار دبلوماسي مع مختلف الدول وتبادل سفراء معتمدين مع المغرب .. وسأعرض باختصار الى الدبلوماسية المغربية من وجهة المغرب فقط ، حتى تكون النظرة الموجزة متكاملة على الاقل ، وقد يكون المولى اسماعيل من الذين ركزوا الدبلوماسية المغربية على أسس عريقة ، فقد بسط له في العمر ، واتيح له ان يحكم مدة طويلة ، وفي عصر حافل بالاحداث سواء في فرنسا حيث لويس الرابع عشر — 1715 — 1643 — أو في انجلترا ، حيث الخلافات المستفحاة بين البروتستانت والكاثوليك أو في روسيا القيصرية حيث عصر كاترين (1729 — 1789) أو في الدولة العثمانية التي كانت في أوج عظمتها وعزها ورغبتها في السيطرة على الشمال الافريقي كله ..

واذا كان الاستعمار بمفهومه الاستغلالى للأرض وسكانها والاتجار في انتاج القارات اخذ يستهدف بعنف كلا من افريقيا وآسيا ، فان عدة بلدان أخذت التحرر بالقوة ، وكان من جملتها امريكا التي اعلنت الانفصال عن انجلترا ، وأخذ الامريكيون يقاومون الاستعمار وبدأت المقاومة يوم اعلنوا الاضراب عن (الشاي) وعقدوا أول مؤتمر في مدينة فيلادلفيا سنة 1774 ليقرروا فيه الصمود ضد المستعمرين والاستعداد للحرب ، وفي المؤتمر الثانى المنعقد في نفس المدينة سنة 1775 انتخبت واشنطن قائدا عاما وأعلن عن ميثاق الانسان .. وكان العالم الاسلامي

وضمنه المغرب يتطلع الى تحرير المستعمرات ، ليتحرر من تربصات الكنيسة وحنقها على العالم الاسلامى بعد هزيمتها في الحروب الصليبية ، ولهذا كان المغرب في طليعة المؤيدين لتحرير الانسان وعلان ميثاق حقوق الانسان التى أعلنت في الواقع منذ عهد الخليفة عمر رضى الله عنه الذى قال : « متى استعبدتم وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » ؟ وبدأ الغرب يتطلع الى الشرق وافريقيا بعد هزيمته في الحروب الصليبية ، ويمكن ان نعتبر سنة 1534 في عهد فرانسوا الاول بالنسبة لفرنسا أول محاولة حكومية رسمية لارتياح العالم بحثا عن مجال اقتصادى . حتى اذا كانت سنة 1604 بدأ الاستعمار الفرنسى على يد شامبلان Champlin الذى انشأ مستعمرة سماها (أكاديا) المعروفة الآن (توفا سكوشيا) ثم سنة 1608 مستعمرة (كوبيك) .. ثم انشأ مستعمرات اخرى في خليج المكسيك سنة 1682 المسماة بلويزيانا نسبة الى الملك لويس الرابع عشر ثم وقعت حرب السنين السبع سنة 1756 واشتركت فيها فرنسا ضد روسيا محاولة تركيز جهودها بين سياستها في أوروبا ، وسياستها فى المستعمرات ، فأضاعتهما معا على يد (بت) الذى كان يسعى لقهر الاسطول الفرنسى .. وفى هذا العهد العصيب كانت فرنسا تخطب ود المولى اسماعيل الذى عرف كيف يحتفظ بالصدقة بين فرنسا وانجلترا ليبنى لبلاده مجدا سياسيا ومكانة اقتصادية فقد كانت (أوروبا) على عتبة نهضتها الكبرى ، مستفيدة من التجربة الاسلامية ومن الثقافة العربية المنتشرة آنذاك في اكسفورد والسيربون وسلامانكا وسالرنو ، وكانت نهضة اوربا مدينة للمفكرين الاحرار المعارضين لتوجيه الكنيسة والمتأثرين بالفلسفة اليونانية المترجمة والمشروحة بواسطة العرب ، حيث كان منهم فولتير ، وروسو ، وبيكون ، والعالم الانجليزى (نيوتن) للمولى

اسماعيل معاصرة مطابقة تماما لمواده ووفاته ، أى سنة 1643 — 1727 وهو قائد الفكر التجريبي التحررى فى أوربا، وهو فكر استفاد من آراء التجريبيين العرب وكان (لابلاس) Laplace 1759 — 1827) العلامة الفرنسى الفيزيائى المشهور من اساطين تحرر الفكر الغربى واطلاعه على حضارة الشرق كما كان منهم منتسكيو الذى كانت له جولات فى كتب ابن خلدون ، وكان لهذا التحرر الفكرى تأثير على السياسة وأساليب الحكم فى أوربا فعاشت انجلترا سنواتها الاولى فى التجربة البرلمانية ضد شارل الاول 1625 — 1649 ثم جاء جيمس الثانى سنة 1687 فأصدر لائحة التسامح الدينى على حساب البروتستانتية وتدخل السلطان المولى اسماعيل فى الموضوع معلنا ان البروتستانتية أكثر تقربا للإسلام من الكاثوليكية .

ولا شك ان الخلاف فى انجلترا من جهة وفى فرنسا واسبانيا من جهة اخرى اثر فى المستعمرات الامريكية ، مما أدى إلى استقلال امريكا واعتراف المغرب بهذا الاستقلال ليخضع لشوكة الاستعمار الانجليزى والفرنسى ، والبرتغالى ، وبينما كان الغرب المسيحى يبحث عن مجالات للتوسع الاستعمارى ، ويعيش فى تناقض مع المبادئ الحرة التى أعلن عنها كتاب القرن السابع عشر ، ويحاول تحقيق الانظمة البرلمانية فى نهاية عصر اويس الرابع عشر الذى كان يعيش قمة عهد التفويض وفى نفس هذه الحقبة كان المغرب يعيش عهد اسماعيل الاول باحثا عن اداء رسالة انسانية ، وتحقيق وحدة داخلية ، ومقاومة الغزو الاستعمارى الجديد .. أما من وجهة النظم التشريعية والحكم فقد كان المولى اسماعيل — وهو أعظم حاكم طبع عصره — لا يصدر فى آرائه الا عن فتاوى الفقهاء والعلماء صيانة لدينه ، فكان المجاصى واليوسى وغيرهما من أقرب العلماء اليه ، يبذلان النصح ويقيمون الحكم

على أساس اسلامي ، وكان المولى اسماعيل يحاول دائما ان يقنع الغرب برسالة الاسلام فقد بنى قلعة خاصة لمن يسلم من اسرى المسيحيين في المغرب ليحتفظ سكانها بتقاليدهم ، ووجه رسالة الى ملك انجلترا ينتقد المسيحية ويرى ان البروتستانتية احسن من الكاثوليكية على اى حال ، وقد اهتم الكتاب المسلمون في عصره بالمقارنات بين المسيحية والاسلام مبدين سماحة الدين الاسلامي وآخذين على المسيحية نزعة التقليد والاستسلام والخرافة وانظمة الكهنوت .

وشهد السفراء الذين وردوا على المغرب امثال استيورت والكومندار استيفار (كما يتمتع به عصر المولى اسماعيل من استقرار وتفتح وعمران ، حتى اذا جاز ان نقارن بين عصر لويس الرابع عشر وعصر المولى اسماعيل نرى انهما طبعاً عصرهما بطابع القوة والفن ، فكانت قصور مكناس ببساطة فنها المعماري ، لا تقل مكانة عن قصور فيرساي وعبقريّة الفنان الفرنسي مع اختلاف ذوق الفنيين .

واذا كان المولى اسماعيل أسس للمغرب داخليا فقد كانت قضايا الحدود الشرقية مما يثير المشاكل السياسية ولذلك كاتب ابراهيم الشريف في تونس ليضيف على الاجانب الذين اخذوا يتسربون الى الشمال الافريقي ويقيمون خلافات مع جيران المغرب .

وفي سنة 1103 هجرية ارسل لحاكم الجزائر سفارة لعقد الهدنة وكان من اعضاء الوفد المغربي المولى عبد الملك وكاتبه . فأرست معاهدة صلح وحسن جوار ، وقد كانت معركة العرائش التي خاضها المغرب ضد الاسبان اعظم اعلان عن سياسة الحكم الجديد الذي لا يهادن في قضية الوحدة المغربية ولذلك ارسل اليه

كارلوس الثانى وفدا سفاريا فيه (منديل) للمفاوضة فى قضية اسرى العرائش وكان رده ان بعث اليهم (سنة 1109) عمر بن الوهاب الغسانى لتحرير اسرى المسلمين من جهة ، وأخذ الوثائق الاسلامية التى بقيت بالاندلس بعد نهاية حكم العرب بها ، أما مع انجلترا فقد وجه الى المولى اسماعيل (شارلس الثانى) لعقد تحالف يضايق به فرنسا ويقطع الطريق على منافسه جيمس الثانى وقد وقف المولى اسماعيل مع جيمس الثانى ودعاه الى الاسلام ، ويوجد نص هذا الكتاب بعدة مصادر مغربية وغيرها ، كما توجد وثيقة سياسية توضح السياسة الاسماعيلية فى الحلف بين فرنسا وانجلترا رغم ان علاقته مع لويس الرابع عشر كانت اقوى من اية علاقة مع دول اخرى ، لأن لويس الرابع عشر كان راغبا فى الاتصال مع الدول الافريقية محاولا بذلك سد الطريق أمام الانجليز حسب المناهج التقليدية للسياسة الفرنسية ، ولذلك تردد كثير من سفراء المغرب على فرنسا كعلى الريفى ومحمد تميم وعبد الله بن عائشة ، الذى اشتهر فى بلاط لويس الرابع عشر بذكائه ودعابته وخفة دمه حتى ليقال انه خطب ابنة لويس الرابع عشر للمولى اسماعيل تمثينا لصلات بين المغرب وفرنسا .

وفى عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله توجهت سفارة الى الحجاز لتعرج على الاستانة ، وفى كتاب احراز المعلى لمحمد بن عثمان تفاصيل عن هذه السفارة التى كان على رأسها المولى عبد الملك بن ادريس والكاتب محمد بن عثمان وتوالت السفارات الى الدولة العثمانية التى كان فيها ابو القاسم الزياني ، ومحمد الزوين الرحمانى .

وكما قويت صلاته مع العثمانيين قويت مع سلطان مكة الشريف سرور حيث صاهره بتزويجه كريمته وكانت هذه الرابطة من اقوى ما يمتن الصلة بين المغرب والمشرق ورفع سمعة البلاد

وذكره في مختلف الاوساط الشرقية وتأكيذا للتضامن الاسلامي الاسلامي وجه الى ولاية طراباس مراكب تجارية محملة بالمؤن الغذائية وذلك بعد ان حلت ازمة اقتصادية بطرابلس ، ومع الاسف فقد تصدت الاساطيل البحرية من نابل للمراكب المغربية ولذلك رأى ان يؤمن في الطريق البحرى بعد هذه الحادثة فيهادن دول البحر الابيض المتوسط .

واذا تركنا الشرق وافريقيا الشمالية لنرى الدبلوماسية المغربية في اوربا نجد ان المولى محمد بن عبد الله أبرم عدة اتفاقات ومعاهدات وكان يواجه في ذلك صعوبة جمة أولها للخلافات المستفحلة مع الدول الغربية فيما بينها وثانيها على المجالات الاقتصادية وثالثا مشاكل القرصنة البحرية التي كان المغاربة يردون هجماتها المستمرة ويتهمون دائما بين الدول الاوربية باعتداآتهم وقد ساق القرصان المغاربة سفينة فرنسية فهاجم الاسطول الفرنسي مدينة سلا والعرائش ، واضطرت فرنسا ان تخاطب الحكومة المغربية لفداء اسراها وكان ذلك بداية المفاوضات مع لويس الخامس عشر وعقد الكونت دبرنيون معاهدة مع المغرب تضم عشرين مادة ، وتوجه بعد ذلك على مرسيل الى باريس لتنفيذ الاتفاقية . واقامت فرنسا مفوضا عنها بطنجة وهو (برطلمين دبطنير) وفي عهد لويس السادس عشر توجهت بعثة دبلوماسية برأسها الطاهر فنيش وسهرت هذه البعثة على تنفيذ شروط الاتفاقية المتعلقة بتبادل الاسرى مظهرة الجوانب الانسانية في القانون المغربي ورغبة حكومة المغرب في الازدهار والامن والسلام العالمى . هذا عن السياسة المغربية مع فرنسا ، أما مع جارة المغرب اسبانيا فقد توتر الجو بين الدولتين لاسباب كثيرة ، اهمها مآسى حروب الاسترجاع وثانيها الغزو الصليبين على الشواطىء المغربية وعندما اصبح المغرب في

ظلال وحدته قويا منعا حظيت اسبانيا وده واتباعا لذلك توجهه احمد الغزال سفيرا للملك كارلوس الثالث وقد ترك لنا السفير كتابه (نتيجة الاجتهاد) ابرز فيه ملاحظات تاريخية وسياسية وهو يتم عن ذكائه ولباقته .

وتوجه سفير آخر الى اسبانيا وهو ابن عثمان الذي الف في موضوع رحلته (الاكسير في افثكاك الاسير) وقد نجح في سفارته موفقا .

ونظرا لمكانة المغرب بين دول الشرق والغرب فقد ظلت اسبانيا من السفير المغربي ان يتدخل في قضية أسرى اسبانيا بالجزائر ، كما سعت من جهتها ليراعى ملك نابولى سيادة الاسطول المغربى في حوض المتوسط .

ويذكر التاريخ فرسان رودس الذين كانوا يحكمون مالطة كما كانوا صليبيين متعصبين القرن الثامن عشر الذين طالما اغاروا على الشواطىء الافريقية وقد فكر المغرب في قطع دابر عملهم على الصعيد الدبلوماسى وكان (محمد الحافى) خير من انتدب لهذه المهمة والسفير ابى عثمان كذلك حيث اتصل برئيس هذه العصابة (منويل درويلد) كما اتصل بملك نابولى (فرنادى) وفك سراح اسرى المسلمين التونسيين والطرابلسيين .

وكذلك توجه للسويد الحاج التهامى لعقد معاهدة مع حكومتها كما عقد مع الدنيمارك معاهدة ابرمها القنصل الدنماركى كوشرب .

ووجه الى انجلترا القائد العربى المستيرى ليبرم اتفاقا مع جورج الثانى على اساس المعاهدات المغربية الانجليزية . وتوجد وثائق ورسائل متبادلة بين محمد الثالث وجورج واشنطن عن التوسط فى خلاف بين ليبيا وتونس من جهة وأمريكا من جهة

أخرى ، ومنها رسالة شكر من جورج واشنطنون الى محمد بن عبد الله كما بحث فيها الوثائق يصدر الحاج عبد الرحمن ان سفير الباشا الفرمايلى ليشكر السلطان المغربى على الوساطة الموفقة .

ويمكن ان يجعل من سنة 1777 فترة تحول فى السياسة المغربية حيث شعر الملك المولى محمد بن عبد الله بمدى خطورة الغزو التركى لافريقيا الشمالية وايمانا منه بالخلافة الاسلامية أخذ يدعو للاتراك على المنبر بتأييد حمايتهم للاسلام ، وأصدر فى ذلك الوقت قرارا يدعو فيه الدول القوية الى السلام ، وكانت روسيا تحت حكم كاترين الثانية التى بلغت دعوة المغرب فكان ذلك بداية عهد دبلوماسى مشرق ، اذ فى سنة 1878 وقع اتصال بين ممثلى روسيا وممثلى المغرب ، كما وقع اتصال بين ممثلى المانيا وفرنسا وانجلترا وبالجيك واسبانيا لتسليم دعوة التعايش السلمى .. وبالنسبة للروسيا فقد وقع فى التاريخ المذكور اجتماع بين قائد الاسطول الروسى (كوزليانوف) والسفير المغربى محمد بن عبد الملك ، حيث اجتمعا معا فى مرسى (ليفورى) وابلغ القائد الروسى السفير المغربى امر كاترين الثانية باتخاذ موقف ودى ازاء المغرب ، كما ابلغه السفير المغربى قرار الملك محمد بن عبد الله بفتح الموانئ المغربية أمام السفن الروسية ، وتبادل القائد الروسى والسفير المغربى صكوك عهد التعايش السلمى والتبادل الاقتصاوى وتنص الوثائق المتبادلة على ضرورة التعايش السلمى والتبادل الاقتصادى لازدهار البلدين ، وتنميتها ، وتنفيذا لمقتضيات المعاهدة وضع القائد الروسى بارجتين (بافل) و (كونستزا) اللتان اقلتا الوفد المغربى من (ايفورن) الى طنجة ، واستقبلتا فى المغرب بحفاوة . ورجع الوفد يحمل رسائل من ملك المغرب سيدى محمد بن عبد الله الى كاترين الثانية ونائب رئيس سلك الامبرالية وتدعو الرسائل الى تأكيد الدعوة

الى التعايش السلمى وتوثيق عرى الصداقة .

أما عن علاقته مع اسبانيا فقد عقد معها معاهدة مكناس ذات ثمانية وثلاثين مادة على يد السفير ابى عثمان .. وقد حاول جهده ان يضيق من حرية التجارة الاوربية فى المغرب فيمنع المغاربة من الذهاب الى اوربا للتجارة ليضايق حرية التجارة الاوربية فى المغرب ، أما مع انجلترا فقد أبرم السفير الانجليزى جيمس ماريه سفير جورج الرابع والسفير المغربى عبد الرحمن عشعاش واحتوت المعاهدة فى احدا واربعين مبدءاً حيث أبرمت بفاس سنة 1081 م .

وابرم مع حكومة السويد معاهدة وقعها من الطرف المغربى عشعاش الى تبادل الهدايا حيث وردت عليه مدافع حربية وبعث المغرب اسدا وخيلا عربية وقد تعود المغرب ان يهدى لاوربا الاسد والزرافات والخيول وكانت هذه الهدايا تتطلب رعاية كاملة ووسائل لنقلها ومرودين لحراستها ، ولطالما ارتفعت نفقاتها الى ما يعادلها .

ان المشاكل وبالاخص الدبلوماسية التى واجهها المولى سليمان هى قضية الحدود الشرقية وبالاخص فتنة عرب تلمسان والترك ، نظرا لرغبتهم فى الانضمام الى المغرب وكانت هذه القضية تتطلب كثيرا من اليقظة واللياقة فى حلها وفى سنة 1181 عقد المغرب مع الدانمارك معاهدة تجارية حضر بموجبها على تجار الدانمارك الاستمرار فى شركتهم التجارية ، وكان قد ترتب فى ذمتهم 12500 ريال — كما عقد المغرب معاهدة مع السويد .

وعندما نشبت الحرب بين العثمانيين وروسيا ساعد فى هذه الحرب فمنع السفير الحرية الروسية من الدخول الى البحر

الابيض المتوسط وكان الاميرال المعطى فلوريس حارس البحر المتوسط ليوقف في وجه السفن البحرية وقد تجنب الروس الدخول الى البحر المتوسط ثم غنم المغرب بعد نهاية الحرب سبعة عشرة سفينة لم يخضع لشروط المعاهدات البحرية أما الشرق فقد كان مقبلا على نهضته الكبرى حيث ظهرت الحركة الوهابية ذات النزعة الاصلاحية وكان المولى سليمان من المؤمن يجدون دعواها حيث اعلن منشورا في بلاده متفقا مع خططها واذا كان عصر بنى مرين قد بلور خلاصة تجربته السياسية ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع في مقدمة كتابه فان عصر المولى سليمان اعطى تجربة تاضحية للمؤرخ الزيانى الذى طالما تنقل في عواصم الشرق والمغرب في سفارات ناجحة مبرزا فهما عميقا للمشاكل الشرقى والاسلامى امام تهديد الغرب وثقده ومغامراته .

وجاء المولى عبد الرحمن (1778 - 1859) ليجد العالم مقبلا على صراع أشد مما كان يعانيه في عصر المولى محمد بن عبد الله والمولى سليمان من بعده ذلك ان أوروبا اجتازت مرحلة الصراع الداخلى فيما بين ممالكها الى مرحلة الاصلاح السياسى والتوسع العسكرى خارج أوروبا فكان مترنيخ منظم النمسا محافظا على سلطته كما كان فردريك وليم الرابع يحاول فى المانيا الاحتفاظ بسياسة مما ادى الى ثورة 1848 التى أقصى بها عن الحكم وثورة المانيا التى تداركها فريدريك .

وكانت هذه الاحداث فى أوروبا تساير عهد ازدهار فى الكشوف العلمية مما دفع أوروبا الى التوسع الاقتصادى والبحث فى مجالات لهذا التوسع . ففتح الانقلاب الصناعى باب الاستعمار الأوروبى حيث اضطرت المعامل للبحث عن المواد الخام ، فما كان من اسباب الاستعمار واختلاف نوعيته بين قطر وآخر ، وفرضه بالقوة الضارية والاحتلال العسكرى وابادة المقاومة المضادة

والتدخل المباشر واستغلال البلاد اقتصاديا .

وحسب مراسيم متبعة ذكرها بعض السفراء في مذكراتهم وذكرها المؤرخ ابي زيدان في العز والصولة فقد كانوا يحفظون بمقابلة الملك بحضور الحاجب وهيئة الوزراء ... وكم حاول بعض السفراء ان يشذ عن هذه القاعدة فما استطاع الى ذلك سبيلا .

وجاء السلطان محمد بن عبد الرحمن ليجد نفسه وجها لوجه أمام تحدى أوربا السافر أيضا وامام دول مستبجحة بقوتها العسكرية ، ودهائها الدبلوماسية ، ومكايدها المتربصة . وادرك لساعته ان القضية رهينة يتطور المغرب اجتماعيا وعسكريا وتقنيا ، كما ادرك الكتاب المغاربة المعاصرون ان على المغرب ان يواجه أوربا بسلاحها ، فألف الكردودي تأليفا في الحرب النظامية الواجبة على الامة ، والى في نفس الموضوع المؤرخ اكنسوس .. فوجه السلطان محمد الرابع بعثات الى اوربا للتخصص في التقنيات وفرض التجنيد العسكري واهتم بالمعارف التقنية وتكوين الاطارات .

لقد واجه الملك محمد الرابع مشاكل سياسية داخل البلاد وخارجها ، فقد كان المغرب يعاني ازمة التخلف الاقتصادي بسبب كساد العملة ومضايقة نظام (الحمایات) الاجنبية لبعض الافراد المغاربة الذين استغلوا هذه التدخلات فتعاونوا مع الاجانب واصابوا عن غير قصد سيادة المغرب في الصميم كما كانت هزيمة كما كانت هزيمة (اسلى) قد جرأت كثيرا من الدول الاجنبية لتتحم عرين المغاربة ظانة ان قوة البلاد قد انهارت امامهم ، ودون ان يدركوا أن هزيمة (اسلى) كانت ترجع لعدم تنظيم الجيش تنظيميا جديدا ، أما روح الجيش ومعنويته فقد كانت أقوى من ان تمتحن .. ولذلك اضطر محمد الرابع أن يخوض مع

اعداء البلاد حربا ضروفا في الشمال ليظهر لهم مزايا الجيش المغربي ومعنوية الشعب رغم رداءة الاسلحة وهللت اساليب الدفاع ، فواجه في نفس الوقت عدة عراقيل تغلب عليها بعزم واخلاص ودهاء . فقد سن نظام التجنيد الاجبار في البلاد ، واهتم بتكوين الطلاب والمعلمين على اساس جديد لتتوفر البلاد على اطر صالحة . وبهذه الوسيلة أعاد للبلاد هيبته ومكانتها في الخارج وظل على اتصال مع رجاله الذين بثهم خارج المغرب ليعرف نقط الضعف في السياسة الخارجية للدول التي كانت تهجمه وكان يبدى اعجابا كبيرا ببسمارك وسياسته ... وكان للانجليز مصالح اقتصادية في المغرب تصادم مصالح الانسان كما كانت فرنسا في الجزائر ذات مطامع في المغرب . وفي هذا الجو الحالك استطاع أن يبعد عن المغرب شبح الغارات التي تهدده وأن يقيم بين المتنافيين مشاكل عصفت باتحادهم ، وواجه الدبلوماسية الاسبانية مع المواجهة العسكرية في رد طلباتها لتعويض الخسارات المزعومة مما لحقها من القبائل الشمالية ، والواقع أن الحرب التي ادت لدخول الاسبان لتطوان والمعاهدة صلح كانت السياسة المغربية تسعى لتخفف من وطأتها جهد المستطاع .

وكانت المعاهدة التي عقدت مع الاسبان لتنظيم تعويضات ما يدفعه المغرب بتاريخ شوال سنة 1276 الموافق ابريل 1860 . تنص على جعل نصف دخل المراسى للاسبان ويحضر مع امناء المغرب بعض المراقبين الاجانب ... كما عقد فرض مع دولبة الانجلتر لدفع المعجل مع التعويض وكان هذا أول فرض اقتضره المغرب من الخارج نظراً لضعف موارده والتالب المغربي عليه ... ثم وقعت الحكومة المغربية مع الحكومة الاسبانية معاهدة تجارية حضر للمفاوضة فيها من الجانب المغربي المولى العباس الذي

كان قائد الجيش المغربى فى الشمال وكانت المعاهدة فى مدريد سنة 1278 الموافق لسنة 1861 وتشمل هذه المعاهدة اربعاً وستين مادة ، وهى اطول معاهدة مغربية كما يقول المؤرخ ابن زيدان حيث ابدى فيها المتفاوضون حرصهم الشديد على ضمان حقوقهم ثم تلت هذه المعاهدة اتفاقية مكملة لها . وبعد هذه المعاهدة تحسنت العلاقات مع الاسبانيين فتوجه الوزير ابن ادريس الى ملكة اسبانيا ايزابيلا ، لخلق جو من حسن الجوار والتفاهم وردت اسبانيا بسفارة ود ومجاملة .

وكما استطاع المولى محمد بن عبد الرحمن ان يطور العلاقة مع اسبانيا الى جو من التفاهم فقد وجه كاتبه السفير ابن ادريس الى نابليون الثالث ليهنئه بمناسبة تنصيبه امبراطورا على فرنسا ثم مفاوضة الحكومة الفرنسية فى توضيح علاقتها مع المغرب ولم تكن الحدود الشرقية مطمئنة بعد الاحتلال الجزائر فكانت قضايا الحدود مما يثير التدخلات الاجنبية وحسبما لذلك وجه الى حكومة باريس سفارة يرأسها الحاج عبد الرحمن العاجى وثانية تضم القائد عبد الكريم الشرقى وابن سعيد وثالثة يرأسه وزير الخارجية محمد بركاش .

وبعد ان حقق الصلات الودية فى فرنسا ليضمن استقرارا محكما فى المجال الاوربى وجه الى انجلترا الكاتب عبد الرحمن الشرقى . وكانت الغاية الاستفادة من خبرات الانجليز الانجليز واقامة علاقة ودية ليحفظ التوازن فى السياسة الخارجية وبذلك يضع حدا للمطامع التوسعية ويتمكن من العمل لبناء المغرب الجديد ذى الاطر الحية القادرة على مواجهة التطورات الحديثة وقد استهدفت سياسة المولى محمد بن عبد الرحمن الى استغلال التنافس الاستعمارى واقحام الدول ذات النوايا السيئة اتجاه المغرب الى تنافس حاد فيما بينها قصد ربح الوقت لبناء الداخل

وقد استعان بالصراع المرير الذي كان بين بسمارك ونابليون الثالث ، كما استعان بين الانجليز والاسبان سواء في مجال القارة السوداء أو في مجال السيطرة على البحار وقد عرضت عليه دولة الانجائز مساندته لرد عدوان الاسبان بشرط التضييق على نشاط القنصل الالمانى (ويير) بينما كان يرى في بسمارك خصما عنيدا للفرنسيين الماخمين في الحدود تقرب اليه (جون كلش) ليزعج الفرنسيين . واعانته تقارير (وانفرن) على ابراز نشاط بيع الفرنسيين والاسبانيين للأسلحة بالمغرب لاغراء المفسدين القارة الافريقية والاسيوية والامريكية لاستغلالها واستعمارها حتى اذا كانت سنة 1797 وقع خلاف بين فرنسا وداي الجزائر ، واشدت معارضة شارل العاشر ملك فرنسا ، فصرف الشعب عن المعارضة باسأل حملة الى الجزائر سنة 1830 ثم تدخلت في شؤون تونس سنة 1869 وبهذا اصبح المغرب مهددا بالاستعمار الغربى فكان على السياسة المغربية في عهد المولى عبد الرحمن ان تجابه الموقف بكل ما لديها من مقدرة ودهاء ، سيما وقد فشلت المقاومة العسكرية في معركة (اسلى) واصبح المغرب في حاجة الى فترة من الزمان مديدة ليدرب جيشه على الاسلوب الحربى الجديد

وقد حاول المولى عبد الرحمن ان يكون خير معين للامير عبد القادر الجزائري ولكل انهيار مقاومته ودخوله الى الحدود مما اثار بسرعة التدخل الفرنسى المسلح فاضطر المولى عبد الرحمن ان يعقد معاهدة مع فرنسا لصيانة الحدود المغربية وتولاها ابو سلهم زطوط من طرف المغرب ، وثانية لتولاها القائد حميدة الشعى من المغرب والجنرال دولار من فرنسا .

أما مع البرتغال فقد أمضيت معاهدة للسلام والصداقة واخرى مع الحكومة الاسبانية وثالثة مع الحكومة الانجليزية

ورابعة مع الولايات المتحدة وخامسة مع نابولي ، ووقع اتفاقات تنازل مع السويد والدنمارك . وكان كل ذلك ليكسب المغرب صداقة الدول الاوربية ويتوجه الى الداخل لينظم البلاد تنظيميا عصريا يواجه به التحدى الاستعماري العسكرى اذ كان المغرب ضعف عسكريا أمام قوة التسليح الغربى وتطوره العسكرى فان الدبلوماسية المغربية احتفظت فى اخرج أوقاتھا بتقاليدھا واتجاهھا واهدافھا ولذلك لم تضعف قط أمام التسلط الاجنبى مما جعل دھافنة الاستعمار يعجبون بقوة شخصيتها ، فقد كان على السفراء مهما كانت قوة الدول التى يمثلونها ان يخضعوا لمراسيم التقاليد السفارية المغربية فكان عليهم الاقامة بطنجة ثم التوجه الى مقابلة الملك فى احدى عواصم المغرب فى فاس أو مكناس أو الرباط أو مراكش بعد ان يؤذن لهم ثم عليهم ان يقيموا فى المدينة قبل التشرف بالمثل بين يدى الملك مدة أيام التطهير وعليهم ان يوضحوا المطالب ليتقدموا بها وعليهم ان ينتظروا المناسبة ليقبلوا فى موكب رسمى تعزف فيه الموسيقى وتدق الطبول .

وفى هذا العهد اصدرت الجالية الاوربية فى (الجديدة) صحيفة للتعرف بالمغرب فلم يضايقھا وانما استعان بها لتحقيق التنافس — كما لم يساعد شركة تجارية لبناء خطوط السكة الحديدية فى المغرب لما عرف من آمالھا المفروضة فى استغلالھا لمساعدة المفسدين ، فتقاعس عن مساندتها وشهد الثلث الاخير للقرن الثامن عشر ميز علاقة قوية بين المغرب وروسيا ، وفى الوثائق التاريخية سواء المغربية أو الروسية ما يزال فى الاراشيف والسجلات دليل على ما اكتسبه المغرب من سمعة ناهضة فى بلاد الروس ، مما جعل الصحف الروسية الصادرة فى بطسبرج ، الصحيفة المشهورة (اخبار بطرسبرج) تكتب مقالات عن

حالة المغرب مستتدة في ذلك الى تقارير القنصل الروسى في جبل طارق الكونت فورنستوف الذى كان له اطلاع على اخبار المملكة المغربية ، ويظهر من هذه الوثائق ان الحروب استمرت بين بلاد تريد الحفاظ على استقلالها من غزاة مجاورين وتريد حليفا اسلاميا مرهوب الجانب .

وتحتفظ الخزانة المغربية بصورة لاستقبال محمد الرابع للسفير البيريطنى جان درمنضو سنة 1859 .

(العلاقة الدبلوماسية مع فرنسا) :

كانت لفرنسا علاقة قديمة مع الدول الاسلامية والدول العربية وأولى هذه العلاقات ما كان بين الخليفة الرشيد العباسى وبين الامبراطور شارلمان من سفارة الوداد ، وهدية الساعة العجيبة الصنع ، ثم ما كان من هنرى الرابع ملك فرنسا مع المسلمين الاندلسيين يوم الجلاء عن الجزيرة ، فان كثيرا منهم عبر جبال البيرنى ، ودخل تراب فرنسا ، فقبل هذا الملك نزولهم ، وجاد على بعضهم بالمسكن والزراعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر الى مرسى (غينة) و (مرسى لنجدوك) ثم ما كان بين دولة السعديين وبينهم من سالف العهد التى جردها الوليد به زيدان فى عقده ، ثم ما كان بين (ابنى عبد الله بن محمد العياشى) وبين دولتى فرنسا وانكلترا ، مع تجديد العهد القديم على يد نائبه ابراهيم بن على العربى الاندلسى ، بثغر سلا ، الى ما كان بين ملوكهم وبين ملوك العلويين من راسخ التقدير للمغرب وطالما عقدت بينهم السفارات ، وأولها ما كان بين المولى اسماعيل وبين لويس الرابع عشر ، وكان من سفرائه على بن عبد الله الريفى ، عامل تطوان ، والحاج عبد الله بن تميم عامل تطوان ايضا ، وهو متولى عقد الصلح بين الدولتين ، والامضاء على شروطه بمدينة

(سان جرمن) ومن اشهر سفرائه اليه قبطان البحر الحاج عبد الله بن عائشة الرباطي ، الذي كان من جملة ما قال في شأنه السلطان المذكور في بعض رسائله التي في هذا الصدد : (وهو ان كان معروفًا برياسة البحر ، فله المقام العلى ومزيد عناية ، وكريم خطوة) ، ومن المنسوب اليه الفندق والصقالة بالرباط لغاية اليوم ، وكان من نتائج ذلك التعارف ان الامبراطور لوزير الرابع عشر اعان المولى اسماعيل على فتح العرائش من يد الاسبان باسطول ذى خمس قطع حاصرها بها بحرا ، ثم ما كان في أيام المولى محمد بن عبد الله من بعث قائد الرباط ورئيسه ابن الحسن على ما رسيل الى الوزير لوزير الخامس عشر لعقد الصلح المشهور وكان قد سبق قدوم سفيره الى مراکش بهدية نفيسة وبمتحف اللوفر سيفاً مرصع القبضة بنفيس اللؤلؤ من هدية المولى محمد بن عبد الرحمان وعهد اوزير وفليب أوفد اليه سفيره عامل تطوان الحاج عبد القادر بن محمد اشعاش عنوانا على تشييد الوداد بين الدولتين ثم في عهد المولى محمد بن عبد الرحمان وعهد نابليون الثالث بعث اليه كاتبه ابن ادريس العمراوى الشهير يهنئه بالامبراطورية واجاب السلطان برسالة يعبر فيها عن ارتياحه لهذه السفارة ، ثم اوفد اليه قائد جيشه ابا عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقى وعامل سلا محمد بن سديد السلوى في شأن المفوضين المبعوثين الى المغرب فتحقق لها الملك ووزراؤه واحتفلوا ومما راج في هذه الرحلة مها ينبيء بشغف الملك المذكور بالعلم انه رغب الى السفيرين ان يبحثا له في كتب التاريخ بالمغرب عن تاريخ بناء رومة واسم بانيتها ويظهر لى ان الذى دعاه البى هذه المناقشة ما كان في ذلك العهد من توالى البحوث الاثرية عن ذاك لما ان المؤرخ الافرنسى لوزير دوبوفور كان قد فند عاميا الاساطير التي كانت تملئ في شأن تأسيسها . وقد انتجت تلك

البحوث انها كانت قرية ذات اكواخ على تل مربع يحصنها سور بداخله قلعة يأتجا إليها عند الخطر ، ثم انما تضخمت تبعا لنمو حركة الحياة فيها سنة عدة مدن قديمة تطورت على هذا الاساس .

ثم في عهد المولى الحسن ورياسة المريشال مكماهون كاتب أول دولة بعث إليها سفيره الحاج محمد بن الطاهر الزبدي الرباطي ومعه الامين السيد بناصر بن احمد غنام الرباطي برسم الكتابة في شأن تجديد الوداد وتعديل قضية الامتيازات القنصلية ثم في عهد الرئيس الريفي بعث أيضا القائد عبد بن علي السعيدى وكاتب حضرته السيد عبد الواحد بن المواز لتشييد صرح الصداقة الى ما كان إليها من البعثات لتلقى العلوم العصرية ودرس الفنون الحربية كل هذه وثائق تاريخية تنبىء بسبق التعارف وحسن التألف .

وصرف المولى الحسن الاول جهوده لاصلاح وزارة الخارجية فخصص عملها في النظر في أمور المحبسین ... والوساطة بين السلطان وسفراء الدول وعقد الشروط والمعاهدات ، وتولى شؤون الاجانب .. وأحدث بطنجة قنصليات خارج المغرب كقنصلية القاهرة وقنصلية جبل طارق .. واستهدف من اعماله في وزارة الخارجية مقاومة الاحتلال سياسيا وديبلوماسيا ، وتطوير العلاقات المختلفة مع الدول ، والتعريف بقوة البلاد المغربية وقدرتها على الصمود وعلاقتها التاريخية ...

ولجأ المولى الحسن الاول الى الاستفادة من الصراع الاستعماري فبعث عددا من سفرائه الى أوروبا ، ولذلك أوفد بعثة ديبلوماسية برئاسة الحاج احمد الزبدي الى رئيس جمهورية فرنسا (مكماهون) كما أوفد الى ملك ايطاليا فكتور عمانويل

(القائد بوشتى البغدادى) والمعطى الشاوى الى المانيا ووجه الى الامبراطور فريدرك الثالث القائد الطيب بن هيمة وعبد السلام بن رشيد ومحمد بركاش .

ونظرا لقرب اسبانيا من المغرب وارتباط قضايا الدولتين فقد وجه عدة سفارات الى ملك اسبانيا الفنش الثانى عشر وزوجته مارى كريستين يذكر منهم محمد بن الباشا عبد الله بن احمد ، وعبد السلام السويسى وعبد الكريم بريشة وبوشتى البغدادى وعبد الحميد الرحمانى كما وجه محمد المؤذن الى (كارلوس الاول) ملك البرتغال ووجه الى البابا ليون 13 عبد الصادق الريفى (كما بعث هاندار ادول جميعها بدورها بسفراء الى المغرب ، فمن سفراء فرنسا في عهده (طيسو) و (الكونت دونيني) ، ومن سفراء انجلترا شارل الانليزي ، ومن سفراء اسبانيا (بانكوس) والجنرال (مرطينس كمبوس) كما استقبل المولى الحسن بفاس سفير المانيا (أوفمر سنة 1893) .

وكذلك اقام علاقة دبلوماسية مع الولايات المتحدة ووجه الى رئيسها (هارسوس) رسائل ود وصادقة ، وشعر الاستعمار الفرنسى والاسبانى بمدى الضغط الدبلوماسى الذى تسلكه السياسة المغربية والذى يوشك ان يؤذى بمطامعها ولذلك قررت الدولتان تصفية القضية المغربية بتنازلات بين ايطاليا وانجلترا لتخلص لفرنسا المغرب الجنوبى ولاسبانيا المغرب الشمالى ولكن المغرب نهج سياسة الاستفادة من صراع الدول الطامعة في المغرب تلك السياسة التى ادت الى انعقاد مؤتمر يقرر مصير المغرب وكان ذلك المؤتمر (مؤتمر الجزيرة الخضراء) المنعقد 16 يونيه 1906 ممثلى خمس عشرة دولة وجاء المولى عبد العزيز الذى ولى الحكم وهو ما يزال فتى يافعا وكان من حسن الحظ ان يتألف نجم الدبلوماسية المغربى

الخطير (موسى وحمو) ثم كان البطل عبد الكريم الريفي قائدا عظيما ضرب الاستعمار الاسباني في الصميم وكبده خسائر فادحة في العتاد والارواح والسمعة العسكرية .. فتحالف الفرنسيون والاسبانيون لمقاومته ... وتراجع المستعمرون عن خطتهم فخفضوا متظاهرين بتطبيق وثيقة الحماية التي تقر وجود (مخزن) بمثل السيادة المغربية .

ملامح نهضة المغرب :

واتجه الشعب اتجاهها تقليديا ليحافظ على شخصيته وحضارته ، فلم يغير من معالم التراث الذي ورثه بل تقوقع في حضارته القديمة ، تعليما ، وثقافة واقتصادا ... وحاول المستعمرون ان يتظاهروا شكليا بالحفاظ على الحضارة التقليدية بينما أوجدوا تعليما مختلطا يعتمد التاريخ والحضارة الغربية والتنقيص من الحضارة الاصلية .. وقد ظهر تيار تجديدي في التعليم الحر ، والثقافة الاسلامية السلفية التي قاد لواءها كثير من المصلحين والمجددين .

وسعى المغرب الى تكوين أطر دبلوماسية لتوثق الصلة مع العالم وتعرفه بالقضية المغربية مستجدة بالعالم العربي والاسلامي الذي لم تكن حالته أحسن من حالة المغرب وبما ان الدولة العثمانية كانت مهيمنة على العالم الاسلامي روحيا فقد اراد المغرب ان يشجع مكانتها العالمية ، ويمتن صلته بها وتوجه الوزير بريشة الى الاستانة لاحاطة الدولة العثمانية بما يجري في المغرب ، كما توجه ابراهيم السنوسي لنفس المهمة فاقترحت الدولة العثمانية على المغرب فتح سفارة لها بطنجة .. واحبط هذا الاقتراح من لدن الدول الاستعمارية ورغم ذلك فقد ظل العتابي

والتركزى يتحدثان فى المشرق عن محنة المغرب ومضايقته
المستعمرين لسيادته .

ورغم المحاولات الاصلاحية التى خاضها المغرب بجرأة
وحبيطة ، فقد كان من المحتم أن يصيب المغرب ما اصاب الجزائر
أولا وتونس ثانيا من الخضوع لقوة الاستعمار .. وهكذا اعلنت
الحماية الفرنسية سنة 1912 فى جنوب المغرب ووسطه كما
أعلنت الحماية الاسبانية فى منطقة الشمال المغربى .. وبدأ التحول
الثقافى والحضارى والتمدنى الى الاتجاهات الغربية التى
نقلت حضارتها للمغرب لتحقيق هدفين (الاول تنمية اقتصادهما
باستغلال الخيرات واليد العاملة) (الثانى) تركيز نفوذهما
الاستعمارى فى المغرب بالقضاء على الحضارة المحلية واستلاب
الفكر الثقافى لتحل محله ثقافة المستعمر ووقف المغرب
يتحدى التوجيه الاستعمارى .. فثارت فرقة عسكرية مغربية على
الضباط الفرنسيين ، كما اعلن الثورة رجال الاطلس .

ورغم دسائس المستعمرين وتآمرهم ، فقد ظل المغرب
متاساما ، مما أتاح للمسيحيين ان يمارسوا بحرية دينهم بل
استغلت الكنيسة هذا التسامح وأرسلت بعثات تبشيرية ويذكر
أويجين لوبان فى كتابه (مغرب اليوم صفحة 34) ان القديس
فرنسيس نفسه أرسل أول بعثة فرنسيسكانية الى المغرب حيث
استقرت بمراكش بالاضافة الى بعثات مسيحية اخرى ظلت بفاس
ومراكش والصويرة واسفى وأزمور والجديدة وعدة قرى
أصبحت الان مدنا كالخميسات وأزرو ، وكانت البعثة فى مراكش
بروتستانتية يشرف عليها احد اتباع الكنيسة المسيحية فى
(غلاسغو) . وقد استغل المستعمرون عمل البعثات وجعلوهم
حلفاء الاستعمار ، فظهر رد فعل لمقاومة المسيحيين والشك فى

نوايا الكنيسة التي انحرفت داخل الانحراف وفي ربيع سنة 1930 كان نشاط حركة التبشير الكاثوليكي متجليا في الظهير البربري الذي فضح امره وقاومه المغاربة قاطبة بعنف .

النهضة المغربية الحديثة :

نظرا لموقع المغرب الجغرافي واحتكاكه المستمر بالغرب فهو أقدر على استيعاب التطورات الغربية وهضمها واذابتها في شخصيته القوية التي لا تمحى بين التيارات الشرقية والغربية ولعل النكبات الاستعمارية التي تلاحقت بالشرق الاسلامي وسارعت بتدهوره وانحطاطه جعلت المغاربة يحتاطون كثيرا في اتصالهم بالغرب والشرق مما اوقعه في عزلة لم يكن شرها بأقل مما اصاب البلاد الاسلامية والعربية الاخرى ، وبذلك فقد صلته القوية التقليدية بالشرق المنهار المستعمر الذي لم يعد يملك ما يعطى من حضارة ، كما فقد صلته بالمغرب الذي لن يعطى الا ما نتج عن عصر القوميات والاستعمار على حساب المغرب ، وطبعاً بقيت اتصالات تقليدية ضعيفة بالبلاد الشرقية ، كما كانت هناك صلات سفارية واستخبارية بالبلاد الغربية في نطاق محدود ، ولم تمنع هذه العزلة ان تتردد في المغرب اصدااء الاحداث الكبرى التي كانت بالشرق والتي ظهرت في ثلاثة محاولات : (الاولى) نهاية نظام الخلافة العثمانية وتعويضها بنظام دستوري اقليمي ، (الثانية) بعث الاسلام السلفي وتجديده ، (الثالثة) اعادة النظر في مناهج للتربية والتعليم .

بداية النهضة :

عندما سقطت الجزائر في قبضة فرنسا سنة 1830 وتونس سنة 1881 شعر المغاربة ان منفذ اتصالهم بالشرق أحكم

اعناقه وان عزلتهم عن الغرب تعنى حبك المؤامرات ، ففكروا جديا فى نقد بلادهم ونقد مجتمعهم نقدا ذاتيا ، وقر رأى أغلبيتهم على وجوب اصلاح بلاهم دينيا وتربويا وسياسيا بالقضاء على نظام الحماية والفوضى الادارية والفتن الداخلية ... دينيا بتنظيم حركة دينية سلفية على غرار ما فى المشرق تحارب الانحرافات التى يستغلها المستعمرون لصالحهم ، وتعليميا ، بايفاد بعوث الى الغرب لدراسة العلوم التقنية ، وقد انعكست هذه النهضة على الانتاج الفكرى انعكاسا قويا فسخرت الاقلام للاعراب عن هذه المحاولات لانقاذ المغرب .

ففى خصوص التنظيم السياسى ، عمل السلطان المولى الحسن الاول . والسلطان المولى عبد الحفيظ على ادخال اصلاحات مهمة فى الادارة المغربية ، وتحديد اختصاصات المسؤولين واحداث وزارة منظمة للخارجية والمالية ، والحد من الامتيازات الاجنبية ، واصلاح نظام الجمرک ، وظهر وزراء محنكون كالوزير موسى بن احمد ومحمد الجباص ، واهتمت وزارة الحربية بتنظيم الجيش وامداده بالمعدات الحربية وتدريب ضباطه بالمانيا وايطاليا وانجلترا وفرنسا ، وانشاء معمل للسلاح ، وتكوين اسطول مغربى .

وفى خصوص الاصلاح الدينى برز مفكرون يدعون للحركة السلفية على غرار دعوة الشيخ الامام عبده وجمال الدين الافغانى كالفقيه كنون ، والمؤرخ الناصرى .

وفيما يخص اصلاح التعليم نظمت بعثات الى خارج المغرب لمختلف الدول الاوربية كفرنسا واسبانيا وايطاليا والمانيا وانجلترا ، فى عهد السلطان المولى الحسن الاول والسلطان المولى عبد العزيز ، وقد تخرج من المعاهد الغربية كثير من الطلاب نذكر منهم : الجباص ، والاديبى ، وشهبون الجغرافيان ، والعلمى

الطبيب ، ولكن معظم طلاب هذه البعثة لم تساعدهم الظروف على نشر معارفهم وأفادة أمتهم كما كان ممتظرا ، لذلك ظلوا منعزلين عن المجتمع يشعرون بغربة نظرا لعدم استعداد المجتمع للاستفادة منهم .

على أن ظهور المطبعة كان عاملا قويا في طبع عدة مؤلفات وخلق حركة عامية نشيطة ، فقد نفقت حركة طبع الكتب بفضل المطبعة الحجرية التي أدخلها الطيب الروداني الى المغرب ، وكانت حافزا على نشر الكتب القديمة وتأليف عدة كتب دراسية في مختلف العلوم القديمة ثم آزرتها مطبعة الحروف المركبة ، التي ساعدت على ظهور صحافة مغربية ذات اثر عظيم في تطوير التفكير الشعبي فصدر (المغرب) في طنجة منذ سنة 1889 ثم المغرب الاقصى بها أيضا أيضا ، ثم جريدة (السعادة) سنة 1905 بالرباط ثم (الصباح) سنة 1906 ثم جريدة (لسان المغرب) سنة 1908 .

ولا شك أن هذه الصحافة كانت بجانب اهتمامها بالاخبار تهتم بنشر مقالات ادبية وتاريخية مما كان له اثر في خاق المغرب الجديد . ويعسر ذكر جميع اعلام الفكر الاسلامي المغربي في هذه الحقبة على أن المشهورين منهم بتأليفهم هم :

الفقيه المهدي ابن سودة سنة (1294 هـ) والمصلح محمد كنون سنة (1310 هـ) والفقيه على الدمناتي سنة (1309 هـ) والشاعر احمد ابن الحاج سنة (1310 هـ) والمعجمي ابراهيم التادلي سنة (1311) والطيب عبد السلام العلمي سنة (1313 هـ) والمؤرخ احمد الناصري سنة (1315 هـ) والمعلم الصوفي ماء العينين سنة (1328 هـ) ومحمد بن قاسم القادري ، والنوازلي المهدي الوزاني سنة (1342 هـ) والعالم احمد ابن

الخياط سنة (1343 هـ) والمحدث محمد بن جعفر الكتانسي
سنة (1345 هـ) والاديب احمد بن المامون البلغيثي سنة (1348)
والاديب الملكى البيضاوى سنة (1354 هـ) .

ولقد كان اعلان الحماية الفرنسية فى جنوب المغرب والحماية
الاسبانية فى شماله سنة (1912 م) بداية الاحتكاك المير بين
الشخصية المغربية المقاومة ، والقوات الاستعمارية التى حاربت
القوات المقاومة السياسية والعسكرية النظامية بعد الحماية فى
آخر عهد السلطان عبد الحفيظ وحاربت الثورة المنظمة العاملة فى
جبال الريف تحت قيادة بد الكريم الخطابى ، وكشفت عن
سياسة التجزئة القانونية واللغوية بين العرب والبربر بعد
الاعلان عن الظهير البربرى سنة (1930) .

وعند ذلك استجمعت الشخصية المغربية قوتها لتتناضل ضد
التفتت والانهيال . كان بعث الفكر المغربى هو طريق الخلاص ،
وبرزت عوامل شتى للنهوض بالامة المغربية واحياء تراثها وبعث
شخصيتها وتنظيم صفوفها ، وظهر ذلك جليا فى التنظيمات
السياسية والتجديدات التربوية والاصلاحات الدينية والنهضة
الادبية .

ففى التنظيم السياسى اقامت الحماية حكومة فرنسية
مصغرة بجانب حكومة المخزن وذلك لتركيز النظام الاستعمارى
الهادف الى محو الشخصية المغربية وظل النظام المخزنى يقاوم
الاستعمار تحت قيادة الملك العظيم محمد الخامس الذى يعتبر
اعظم شخصية وطنية مغربية ونشأت فى المغرب حركات سياسية
شعبية منظمة ، عارضت الحماية بالقوة حيناً ، وبالسباحة اخرى،
ونفخت فى المغاربة روح الكرامة وبنّت نهضتها على احياء الثقافة
ونشر التعليم ، فاهتمت الامة بالدراسة التى خضعت لثلاثة

انواع : (الاول) الفرنسى الذى اقام التعليم على التقنيّة والارتباط بالحضارة الفرنسية فى الجنوب والحضارة الاسبانية فى الشمال وتفتيت الشخصية المغربية المحافظة على الاسلام وعروبة اللغة .

(الثانى) التعليم الوطنى الذى نشر فى مدارس التعليم الحر المغرب لمقاومة الفرنسية وتقوية الشخصية المغربية المحافظة على الاسلام وعروبة اللغة .

(الثالث) التعليم الدينى الذى تركز فى جامعة القرويين العتيقة ، فصدر ظهور لاصلاح برامجها ومناهجها وتقرير مصير المتخرجين منها فى عهد السلطان المولى يوسف فى 22 ربيع الثانى 1333 : موافق 9 مارس 1915 م ، وقد تجلّى اثر هذه النهضة فى الانتاج الادبى المنشور فى هذه الحقبة رغم ضآلته فى اسلوب رسائل محمد ابن موسى ، ومحمد السليمانى سنة (1344) ، وفى كتاب محمد غرنيط (1946 م) « فواصل الجمان » واحمد بن المواز سنة (1341 هـ) مؤلف حجة المنذرين ، وفى تأليف محمد البلغيثى الاديب الفاسى المشهور ، كما ظهر ذلك فى موضوعات الشعر الذى ظل فى لغته ، يحمل محل قوالب القديمة ، يستجيب لحاجات العصر ويحث على التقدم ، وكان من اعلام الشعراء البارزين محمد القباچ سنة (1364 هـ) ومحمد ابن ابراهيم سنة (1375 هـ) والمختار السوسى سنة (1961 م) والقاضى سكيرج سنة (1948 م) وعبد الرحمن حجي سنة (1963 م) والجزولى ، واليمنى الناصرى ، وابوبكر بنانسى ، واحمد الزبىدى .

وفى حركة الاصلاح الدينى ، ظهرت دعوة العالم السلفى الشيخ ابى شعيب الدكالى سنة (1356 هـ) الذى نشر فى المغرب

دعوة الحركة السلفية على غرار ما فعل الشيخ الامام في مصر ، وكان عمله استمرار لعمل الشيخ السنوسي في عصر المولى سليمان العلوى ، فقد ترك مدرسة حديثة سلفية قاومت البدع والطرقية التي كان ينزعها عبد الحى الكتانى سنة (1383 هـ) ، ومن اعلام مدرسته السيد محمد السائح سنة (1367 هـ / 1948 م) والسيد المدنى ابن الحسنى سنة (1378 هـ) والسيد محمد ابن العربى العلوى سنة (1383 هـ) ، وقد اشتغل هؤلاء بنشر السلفية السنية بما اذاعوا من مؤلفات ، والقوا من دروس واحاديث ، فترك الاول تحقيق الامنية ، واعجاز القرآن ، كما ترك الثانى شرح لمختصر خليل بالحديث والسنة ، أما الاخير فقد كان ابا للسلفية الوطنية لم يترك مؤلفات متداولة ، وانما القى عدة دروس توجيهية كانت ذات اثر عظيم في الحركة الوطنية المغربية واثر ذلك في كل مرافق الانتاج الفكرى ، حيث نشطت حركة البحث العلمى ، وكتابة المؤلفات ، بل صدر لمحمد اقصى سنة (1364 هـ) كتابا مدرسيا للتعليم في النحو العربى ، بأسلوب جديد وانتشر في العالم العربى كله ، وكتب محمد بوجنـدار سنة (1345 هـ) تاريخ الرباط وشالة ، كما كتب المؤرخ ابن زيدان سنة (1365 هـ) تاريخ مكناس والعز والصولة ، وكتب العباس بن ابراهيم سنة (1378 هـ) تاريخ اعلام مراكش وكتب السيد محمد الرامى كتاب الجغرافية المغربية وهو اول كتاب مدرسى لتعليم الجغرافية المغربية .

وتولد عن ضغط الحصار الذى يفرضه الاستعمار بين المشرق والمغرب ، تطلع المغاربة الى آثار الكتاب الشرقيين ومحاولتهم الاستفادة من التقدم العلمى والادبى والاسلوب السلفى في المشرق ، وظهر ذلك جليا في الابحاث التاريخية والادبية التى صدرت في هذه الحقبة ككتاب التراتيب الادارية وفهرس

الفهارس للمكتانى ، وكتاب الفكر السامى فى تاريخ الفقة الاسلامى
لمحمد الحجوى وتحقيق الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون لعبد
العزیز بن ادريس والسيد علال الفاسى ، وتحقيق القرطاس لابن
ابى زرع ، للهاشمى الفيلىلى ونشر كتاب الفلاحة لابن خيـر
بتحقيق التهامى الناصرى ، ونشر كتاب علم الفلاحة عند المؤلفين
العرب بالاندلس للدكتور مياس بترجمة عبد اللطيف الخطيب ،
ونشر كتاب دلائل الاعجاز لعبد القادر الجرجانى ، لمحمد بن
تاويت الطنجى ككتاب التعريف بابن خلدون ، وشفاء السائل ،
وجذوة المقتبس الحميدى .

وحقق معهد الدروس العليا عدة كتب اهمها جذوة الاقتباس
لابن القاضى ورسائل موحدية لمؤلف مجهول ، والبديع فى وصف
الربيع لمؤلف أندلسى .

أما الانتاج الادبى ذو المطابع الاسلامى فقد تجاوز الطريقية
التقليدية التى كانت تدرس مختلف الموضوعات جملة الى
تخصص فى الموضوعات واستعمال لاسلوب جديد متأثر بكتاب
المشرق ، وبالاخص بكتاب مجلة الرسالة كأحمد حسن الزيات ،
والعقاد والمازنى وطه حسين ، ولكنه تقليد لا تختفى فيه الشخصية
المغربية التى ظلت تصطنع الاسلوب العربى الفصيح السليم
متجنباً فى الغالب حوشى الكلام واغلاط الصحفيين ويمكن ان
تقيم موضوعات الانتاج الادبى الى تأليف ومقالة وبحوث وقصص
ودواوين شعرية ، فقد عالج المؤلفون موضوعات ادبية كما فعل
عبد الله كنون فى النبوغ المغربى ، وسلسلة (مشاهير ادباء
المغرب) حيث عرف تاريخ الادب المغربى من عصر الادارسة
الى اليوم مع سرد لمنتخبات شعرية وتراجم مقتضبة ، وكتب
السيد علال الفاسى موضوعات اجتماعية كالنقد الذاتى ، والف
كذلك (كتاب الحركات الاستقلالية) فى المغرب ، وكتب السيد

عبد الهادي بوطالب كتاب (وزير غرناطة) وهو سرد قصصى تاريخى لحياة ابن الخطيب ، والف المكى الناصر (كتاب فرنسا وسياستها البربرية) .

واستمر الانتاج على غرار ما تقدم فى فن التاريخ فكتب محمد الكانونى (اسفى وما اليه) وكتب محمد السائح (تاريخ الرباط) ، وكتب الرجراجى (الشموس المنيرة فى تاريخ الصويرة) ، وكتب المختار السوسى (المعسول فى تاريخ سوس) ، ومحمد داود تاريخ تطوان ، ومولاي عبد الرحمن ابن زيدان الاتحاف بتاريخ مكناس ، وكما اختص هؤلاء فى تاريخ المدن تخصص آخرون فى دراسة العصور والشخصيات كما فعل محمد المنونى فى العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحدين فى تراجم المشهورين ، وكما فعل محمد الفاسى فى كتابه عن ابن عثمان ، ومحمد الرشيد ملين فى كتابه عن المنصور الموحدى ، وعبد العزيز بنعبد الله ومحمد التطوانى فى كتابهما عن ابن الخطيب، وترجمت بعض الكتب المهمة بالموضوعات المغربية الاسلامية فترجم الدكتور تقى الدين الهلالى مدنية العرب لجوز ماكيب وعزيز الحبابى قسما من كتاب (كرادوفو) « عن مكبرى الاسلام » كما صدرت كتب عن تاريخ الغرب لمحمد الرهونى التطوانى وعبد الله كنون ومحمد بن عبود التطوانى .

وتبلور هذا التطور فى التفكير الاسلامى فى المجالات الوطنية ، كرسالة المغرب للسيد محمد غازى ، والمغرب لسعيد حجي ، والمغرب لصالح مسية ، والمغرب الجديد المكى الناصرى ، والثقافة المغربية لابن غبريط ، والاطلس لليزيدى والدفاع لمحمد بن الحسن الوزانى .

والواقع ان هذه النهضة المتوثبة المشحونة عزمًا لاهياء

معالم الحضارة المغربية ومجابهة التحدى الاستعماري كانت ذات اثر قوى فى خلق تيار جديد يحرر المغرب من خطر التفويت الحضارى والثقافى .

وقد ربط المغاربة تطورهم الاقتصادى والاجتماعى بمصيرهم السياسى فلم يتعاونوا مع الاصلاحات التى جاء بها (اريك لابون) ولا مع المشاريع الفلاحية التى لوح بها (جوان) ، واعلن عن الاستقلال سنة 1955 بعودة الملك المنفى محمد الخامس الذى بدا يضع اسس الدولة الجديدة .

وشملت هذه النهضة كل ميادين الحياة المعاصرة المركزة على السلفية الاسلامية فازدهر الانتاج الفكرى بعد خموس . وظهرت عشرات المجلات تحمل الفكر الجديد ، كما صدرت مؤلفات وابحاث ، ويمكن ان نلخص ذلك فى تطور الادب الصحفى والمقالات الادبية ، والابحاث التاريخية .

فقد استجابت الصحف والمجلات للموضوعات الاسلامية والفكرية التى تشغل الرأى العام فى البلاد فظهرت فى الميدان مجلات تهتم بالدراسات العلمية والادبية (كالبينة) التى اصدرتها وزارة الشؤون الاسلامية ودعوة الحق التى تصدرها وزارة عموم الاوقاف ، والبحث العلمى التى يصدرها مركز البحث العلمى التابع لجامعة محمد الخامس ، ومجلة تطوان التى يصدرها نفس المركز التابع لتطوان ، ومجلة (آفاق) لاتحاد كتاب المغرب ، والايمان لجمعية شباب النهضة الاسلامية ، ومجلة التربية الوطنية ، واقلام التى تصدرها جمعية كتاب القصة ، ومجلة المغرب التى تصدرها وزارة الخارجية ، ومجلة موريطانيا التى تصدرها وزارة شؤون الصحراء و (شرق) التى

تصدرها جمعية نسوية ، وكلها مجلات لا تخلو من مناقشة القضايا العربية والاسلامية .

أما الصحافة فقد ازدادت انتشارا في انواعها وموضوعاتها السياسية والمذهبية ، واشهر الصحف : الانباء ، والعلم ، والصحراء المغربية ، والتحرير ، والمكافح ، والمغرب العربي ، واخبار الدنيا ، ودنيا الاخبار ، والمساء .

ومن المع الكتاب في المجالات الدولية ، ذوى الاتجاه الاسلامى ، محمد غازى ، وعبد الخالق الطريس ، وسعيد حجي سنة (1361) ، ومحمد بنونة ، وعلال الفاسى وعبد الله ابراهيم ، وعبد العزيز بنعبد الله ، وعبد الكبير الفاسى ، ومحمد ابا حنينى ، وابراهيم الكتانى ، والمهاشمى الفيلالى ، ادريس الكتانى ، وعبد القادر الصراوى ، وعبد اللطيف خالص ، واحمد الاخضر ، وعبد السلام الهراس ، والحسن السائح ، وعبد الله الجرارى ، والعياشى الجرارى ، ومحمد السرغينى ، والخورى ، وخنائة بنونة ، ومصطفى القصرى ، والرحالى والحمداوى .

أما المقالة الادبية فقد تركزت في دراستها على موضوعات مدققة في لغة واضحة والنظام لقضايا الساعة ، وقد أصبح أسلوبها النثرى يمتاز بالاشراق والوضوح والعناية بالفكرة وصدرت مؤلفات ادبية في موضوعات تاريخية وسياسية واجتماعية ، ككتاب ، جولات في تاريخ لعبد القادر الصراوى ، وتاريخ المغرب للمهاشمى الفيلالى ، ومظاهر الحضارة لعبد الزيز بنعبد الله ، ونشر عبد الوهاب بن المنصور رحلة الكردودى ، وكتاب العز والصولة لابن زيدان ، كما نشرت وزارة الشؤون الاسلامية ، كتاب مدارك لابن القاضى عياض وغيره .

وكان لابد ان يتطور الشعر في نطاق هذه الحركة الشاملة وتتنوع فنونه فنبغ عدة شعراء نقتصر على ذكر بعضهم :

علال الفاسي ، وعبد المجيد بن جاون ، وعبد الملك البلغيثي ،
ومحمد الحلوى ، ومحمد ابراهيم ، وعبد الرحمن الدكالي ،
والحسن طرييق ، وعبد الكريم الطبال ، وعلى الصقلي ، ومحمد
الحبيب ، وعبد الكريم ثابت ، ومحمد المعداوي ، وادريس الجاي ،
وعبد اللطيف خالص ، وعبد الواحد السلمي ، ومحمد العلمي ،
وابى بكر اللمتوني ، والمدني الحمداني ، وعبد الكريم التواتي ،
على انه لم يصدر الا ديوان الحلوى وديوان ابن ثابت ، وديوان
ابن الحبيب ، وديوان مكار ، وديوان محمد المعداوي .

وتعرف المغاربة على المسرح الحديث منذ سنة 1341 حيث
مثلت فرقة محمد عز الدين المصري رواية هارون الرشيد ،
فتكونت عدة فرق تمثيلية اعتنت بالموضوعات الاسلامية والعربية
تولد عنها بعد ذلك بكثير فرقة الاذاعة الوطنية المشرف عليها
عبد الله شقرون الذي كتب عدة تمثيلات باللغة الدارجة ، وفرقة
الشعبية والرياضة التي برز فيها عزيز السغروشني ، والطبيب
العلج ، وعالج الكتاب مسرحيات تاريخية يحتفظ بهذا ليقارب الى
ما كتب في المسرح وكتب ابوبكر اللمتوني مسرحية شعرية
(بقيت وحدي) كما كتب الحسن طرييق مسرحية المعتمد بن
عباد ومعركة وادي المخازن .

وعالج الكتاب القصصيون موضوعات حية من مترعة من
مترعة من الشخصية المغربية فاشتهر عبد الرحمن الفاسي
بأقصوات فاس ، واحمد بناني بسبع قصص فاسية ايضا ، وكتب
عبد المجيد بن جلون (وادي الدماء) وعبد الكريم غلاب (مات
قرير العين) و (سبعة ابداب) وكتب عبد الجبار السحيمي عدة

قصص اجتماعية ، كما نشر البقالى والصقلى وبوعلو عدة قصص بالعلم والراى العام .. ولم يبق المغرب بعيدا عن مبدا الفن فظهرت نهضة الفنون التشكيلية فى المغرب ، حيث نرى لوحات قيمة تنتمى الى مختلف المدارس الفنية وتعتبر عن مجتمعنا المغربى كلوحات القاسمى ، وابن الكاهية ، والادريسى ، وكريم بنانى ، وعلى الحدانى ، ومحمد شعبة ، والشرقاوى . أما الشعر الملاحون فقد استمر حيا عبر التاريخ يردد الاحداث فى لغته الشعبية ومنابع عن الروح الاسلامية وبرز فيه ابن زوبع .

ولا ننسى ان الثقافة الفرنسية تركت بالمغرب مدرسة ادبية مهمة ذات انتاج حى يصطنع كتابها اللغة الفرنسية للتعبير عن افكارهم كالدكتور الحبابى مؤلف (الشخصية فى الاسلام) والصفريوى مؤلف (السبحة العنبرية) والشرابيى مؤلف (الماضى كما هو) و (التيوس) والشاعر (كمال الزبدى) .

وكان الاستشراق دور مهم فى بعث التراث المغربى سواء البربرى أو العربى وبالأخص فى ميدان التشريع والاسلاميات ، ومن المع البرزين فى الابحاث الاستشراقية : (جون مارسى) و (دو كاسترى) ناشر الوثائق ، والمؤرخ (تيراس) مؤلف تاريخ المغرب ، والمؤرخ (اندرى جوليان) مؤلف (افريقيا الشمالية) ، و (ليفى بروفنصال) مؤلف (مؤرخو الشرفاء) والدكتور (كايى) مؤلف تاريخ الرباط و (لتورنو) مؤلف تاريخ فاس ، والاستاذ (فور) ناشر التشوف وانيس الفقير ، و (دوجياكمو) صاحب مبحث حفصة الركونيه ، ونشر عيوش كتاب درة الحجال لابن القاضى ورسائل موحدية ، وكتاب البديع ، وتولت مجلتي التعليم ، نشر عديد الابحاث الاستشراقية حيث كتب المستشرقون والمستعمرون مئات الابحاث المختلفة بالمغرب ، كما تولت مجلة

(كونفليان) و (برسييف) و (الاستقلال) نشر ابحاث ادبية واجتماعية بأقلام مغربية .

وكان لتطور التعليم في المغرب بعد الاستقلال اثر واضح في تنظيم جامعة القرويين التاريخية المهتمة بالدراسات ويتكوين أول جامعة مغربية بالرباط التي يعتبر مركز البحث العلمي من فروعها ، فقد اهتم بنشر ابحاث علمية في الجغرافية للدكتور عوض ، والتاريخ للدكتور مبيج ، وعدة نشرات اخرى وابحاث اسلامية وتاريخية .

والواقع ان الادب المغربي رغم تطوره ما يزال يعاني نقصا في كيفية العرض وكمية الانتاج ، فالانتاج التاريخي تنقصه الموضوع ، والانتاج الادبي ينقصه التركيز والشمول واتساع دائرة الثقافة العامة ، والانتاج القصصي ما يزال مستوردا من الموضوعات المغربية ومعالجة القضايا التي تعيشها طبقات الشعب صباح مساء .

مصادر :

- مفاخر العلويين ، لعبد الرحمن بن زيدان .
- احاديث عن الادب المغربي للحديث ، عبد الله كنون
- تاريخ المغرب في القرن العشرين ، روم لاندو
- تاريخ الصحافة في المغرب الاقصى ، عبد العزيز بنعبد الله — العلم .
- الادب العربي في المغرب الاقصى ، للقباج .

التنظيمات الادارية المغربية

الادارة في الاسلام :

اهتم الاسلام بتنظيم الدولة المسلمة تنظيما دقيقا ، وفي كتب السيرة دراسة ضافية لتنظيم الدولة الاسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد وجه عليه السلام عدة أمراء الى مختلف اقاليم الجزيرة العربية التي دخلت في الاسلام لتنظيمها وفق اصول وقواعد الاسلام ، ومن هؤلاء أمير مكة عتاب بن أسيد وكان نائب كسرى ، فلما أسلم ولاءه النبي على جميع مخاليف اليمن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي هؤلاء العمال ويزودهم بتعاليمه وتوجيهاته وكيف يرأسون في القضايا العامة ، وكان يعهد اليهم بعهد مكتوب يتضمن ما يلزمهم من عمل وهذا العهد هو أصل الظهير الذي يستظهر به لدى من وليه عليهم ، ويسمى بالظهير أو الصك .. وشاع ذلك في عهد الامويين والعباسيين مع اضافات التأثيرات الحضارية .

ولم تختلف الانظمة الادارية في المغرب عن المشرق الايسيرا ، فقد قسم العرب الفاتحون المغرب الى عمالات على أساس الوحدات القبائلية عكس التقسيمات الرومانية وكذلك فعل الادارسة والمرابطون ، والموحدون وغيرهم .. واعتمدوا النظام اللامركزي بالاخص في الاندلس مما أدى الى ظهور الاقطاعات في عهد ملوك الطوائف .. بل كان نائب امير المسلمين وأمراء الاقاليم ، يتخذون كتابا يخلع عليهم عليهم بعض المؤرخين لقب الوزراء (كما في الاحاطة ج ، ص 213) ...

وكذلك جعلوا في عاصمة الدولة المركز الرئيسى لقيادة الحرب وضرب السكة .

وكان من عادة المسلمين اذا دخلوا بلادا أقروا أهلها على ما كانوا عليه اداريا وسياسيا وأبقوا لانفسهم الرياسة العامة وقيادة الجنود ، فكانت واجبات العمال الرئيسية مراقبة الاحكام في البلاد المفتوحة واقامة الصلاة ، واقتضاء الخراج ثم بدأت ولايات الاعمال تتحول الى خدمات محلية ثم تنوعت الولايات وهي في جملتها ترجع الى امارة وامارة خاصة والامارة العامة نوعان امارة استكفاء وامارة استيلاء ، أما امارة الاستكفاء فهي امارة التفويض حيث أصبح الدعاء للخليفة على المنابر ، والسكة والنقود ، أى نقش اسم الخليفة على المنابر ، والسكة والنقود ، أى نقش اسم الخليفة على السكة والطراز ، وهو أن يرسم الخلفاء أسماءهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج (الاجريسم) للدلالة على أن لابسها اما الخليفة ، أو واحد من أهل دولته (وأول من فعل ذلك هو عبد الملك ابن مروان وعمم ذلك على الملابس وستور المنازل ، وغير ذلك وقد عمموا في لباس الجند والبنود والاعلام ، وكان لها دور خاصة ينسج الطراز ، وموظف خاص يسمى صاحب الطراز ، وشاع ذلك في بلاد المشرق ثم في بلاد الاندلس .

كما كانوا يعدون من قبل شارات الملك السرير والمنبر والتخت والكرسى ، والالوية والرايات والموسيقى .

واذا كان الاغلبية نقلوا ذلك في تونس فان المغرب ظل متواضعا في نقل هذه التقاليد ولم ينقل المرباطون منها كثيرا لان دولتهم كانت متقشفة .. وقد اقتفى آثارهم الموحدون فلما جاء بنو مرين تأثروا بما في الاندلس حتى اذا خلفهم السعديون تأثروا بالانظمة العثمانية وبالغوا في ذلك ، واستمر العلويون على ما كان قبلهم .

الوضع الحضارى والاقتصادى والاجتماعى فى المدينة والبادية :

يزعم كثير من المستشرقين المبررين للتدخل الاستعمارى ، ان الدول الاوربية تمتاز بالوحدة والمركزية والجفاظ على مصالح الطبقات بخلاف بلاد الشمال الافريقى التى تعاني التمزق والفتنة .. وحذا هذا الزعم الى تقسيم بلاد المغرب الى بلاد المخزن أى البلاد الخاضعة للسلطة المركزية ، وبلاد السبية المكونة من القبائل التى تعيش حياة لا مركزية .. وقد سن الاستعمار نظام (المحمين) أى الذين تحميهم الدول الاوربية ليخرجوا عن نظام الحكومة المركزية اضعافا للدولة ، حتى فى المدن والعواصم الخاضعة للمخزن .. وحلق الخيال التاريخى الاستشراقى فاعتبر ان كل كوارث الحروب والفتن هى خروج عن الطاعة . ناسيا أن أوربا عرفت نفس الصراع فى نفس التاريخ ، فانجلترا عانت الانفصال بين (سكتلاندا) (وايرلاندا) (وغاليا) وكل دولة أوربية الا وعاشت صراعا أشد مما عاناه المغرب دون أن يكون ذلك دالا على السبية .

ويرى بعض المؤرخين الغربيين أيضا ان نظام الطوائف الذى عاناه المغرب هو نظام (فيودالى) .. بينما يثبت التاريخ أن هذا النظام يمتاز فى أوربا بانعدام المدن وتقدم البادية .. بينما المغرب عرف ازدهارا مدنيا وتطورا فى نمو العواصم .. بل ان البادية المغربية نشأت متأخرة فلم يعرف المغرب البادية الا بعد دخول العرب أيام الموحدين .. حيث أصبحت البادية تؤدى عملها فى نطاق الاكتفاء الذاتى والتعاون مع المدينة ... ويعنى الاكتفاء الذاتى الاقتصاد والعدل والنظام والاعراف المحلية ... ولم يعرف المغرب قط ملك الارض للاسياد ولا نظام العبيد ولا الضرائب غير الشرعية فى السلم ولا نكران حق المجاهدين من سكان البادية وهم سواد الجيش الوطنى . وأدى تطور الاقتصاد الاوربى

وازدهار التجارة الى فتح أسواق في المدن نافست الانتاج المحلي ... وكونت طبقة من التجار الذين أثروا ثراء فاحشا أدى الى تفوق الحضارة في المدينة على الحضارة في القرية مما سبب انعدام التوازن بين البادية والحاضرة وبذلك عرف المغرب في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حضارة تجارية انعكست على الفكر والعادات والحياة الاجتماعية في المدينة وحضارة قروية ساكنة في البادية مما سبب نفورا بين الحضارتين ، وبالتالي أفضى الى عداء بارد بين الطرفين .

وكان موقف المغرب مغائرا لحركة تاريخ أوروبا ، فللمغرب مركز اقتصادي عظيم .. وكان توازنه الاقتصادي معادلا لتطوره الفلاحي ، فلهذا كان مصدر الانتاج الى أوروبا ، يصدر اليها المواد الخام سواء كانت حبوبا أو مواشى أو معادن أو غير ذلك ... ولكن التطور الحضارى بسبب حضارة (البخار) جعل الدول الاوربية تسعى لتطويق المغرب بواسطة سفنها وعزله عن افريقيا وعن آسيا .. وانتصر الاستعمار مجهزا على القوة العسكرية والثقافية والروحية ... وبدأت الحركات الوطنية مجددة للسلفية الاسلامية لتقف ضد الغزو الاوربي .. واذا استطاع المغرب الحفاظ على القوة الروحية والثقافية فان العجز العلمى والتقنى ظل المشكلة الرئيسية في البلاد .

تنظيم الحكومة المركزية :

ان دار الامارة هي أول ما يؤسسه الحاكم العربى عوضا عن الفروم الرومانى . وكان عقبة بن نافع . أول من أسسها بالمغرب ثم ركزها حسان بن النعمان وهى أول ما بناه العرب الفاتحون كمركز للاقامة حتى يمكنهم العمل ، وبجانب دار (الاقامة يؤسس المسجد الجامع ثم مصالح الدواوين كديوان

الجند ، وديوان الخراج ، وديوان الرسائل ثم (دار الضرب) لسك النقود . ثم تبني الدور والمنازل حيث تكون الاحياء والحدارات .. وتقسم المدن عادة الى نصفين يتوسطهما السماط أى الشارع المصطفة حولها الدكاكين .. وأطلق العرب المغاربة القيسارية (منسوبة الى قيصر) على الاسواق التى بها حوانيت التجارة يحيط بها جدار ويدخل اليها من باب واحد . وروى البكرى أن هشام بن عبد الملك أمر عامله عبيد الله بن الجحباب بإنشاء خمسة عشر (ماجلا) صهريجا خارج سور المدينة ليكون سقاية للسكان وتسمى الحكومة حسب العرف المغربى (بالمخزن) وهو مشتق من خزن (أى ادخر) ، لان بيت المال كان مخزنا ومدخرا للاموال والزروع والاسلحة .. وذكر ميشو بيلير ان هذا اللفظ استعمل لأول مرة بافريقيا فى القرن الثانى الهجرى ، وأطلق على صندوق الحديد الذى يخزن فيه الامير أموال الخراج ، والجزية ، ثم أطلق على بيت مال المسلمين ، ثم على الحكومة نفسها .. ويرى أن الحكومة المغربية تسمت به من القرن السادس عشر فى نهاية العصر السعدى .. ويظهر ان المغاربة استعملوا كلمة مخزن منذ القديم غير ان الاستعمال كان شعبيا ولم يصبح رسميا الا فى عصور متأخرة ، وبالاخص بعد اتصالات المغاربة بغيرهم من الدول الغربية الذين كاتبوهم وكتبوا عنهم بكلمة (المخزن) .

وسمى المغاربة قصر الملك بدار المخزن حيث يستقر حرمه وديوانه . كما كانت له حاشيته ينقسم أفرادها الى أصحاب ومسخرين ، وجيش .. فالاصحاب منهم أهل الشكايات وأهل الكمية هم خدمة الملك فى قصره كأصحاب الفراش وأرباب الوضوء والسجادة وأمرهم يرجع للحاجب .. والمسكرون المختصون بحراسة السلطان من الجند والعساكر ،

ويسمى رؤساء الجيش قوادا وقائد الرعى يرأس الف رجل ،
ثم قواد المئة والمقدمون والعساكر .

رجال السلطة التنفيذية :

ومهمتهم تدبير البلاد والتصرف فيها ، وتدبير النفقات وكان
الوزراء عادة خمسة قبل أن تصلح أجهزة الحكم وأولهم الوزير
الصدر الاعظم ، وهو مدير الديوان ، المدير لأمور الملك ، والمخطط
للسياسة ويعرف في الشرق بوزير التفويض ..

وزير البحر : المهتم بالمفاوضات والبحرية والحمايات
والاجانب والاجناس ، وينوب عنه بطنجة حيث الدول الاجنبية
نائب عنه .

وأمين الامناء : المهتم بالسياسة المالية للدولة بصفة
عامة .. من النظر في المكوس والديوان والاكريسة والاراضى
المخزنية ويعينه أمناء ثلاث . أحدهما للداخل والثانى للشكارة
والثالث للحسابات .

والعلاف : ومهمته النظر في الجيش وكسوته ورواتبه وهذا
المعروف (بصاحب العرض) في الاندلس والمشرق .

وزير الشكايات : المهتم بالنظر في القضاء والشكايات وهو
اليه الاحكام الصادرة من القضاة وهو كما كان يسمى بصاحب
المعروف بصاحب (الرد) في الاندلس والمغرب . أى الذى ترد
المظالم حسب تعريف المهدى الوزانى فى حاشيته على الزقاقية .

العمال :

وكان السلطان يولى على الامصار (قوادا) أغلبهم من
الجيش فيفصلون فى الدعاوى . وهم المعروفون (بصاحب المصر)

في الشرق و (العمال) أعظم من القواد درجة وهم المسمون (بالولاة) في الشرق الذي جاءت تفاصيل عنهم في الاحكام السلطانية وقسمهم (الماوردي) في الاحكام السلطانية الى ولاية الخاصة ... ويظهر أن كلمة الباشا لم تعرف في المغرب الا بعد وصول الاتراك الى الجزائر .

القضاء :

إذا كان العمال في الولايات يضطلعون بالنيابة عن الامام في السياسة العامة ويتصرفون فيها بالاستشارة مع الحكومة المركزية ، فقد كان التشريع والحكم بيد القضاة ويرجع تنظيم القضاء الى عهد الرسول عليه السلام ، وقد ذكر السيوطي كما في كتاب (الشهاب) على الشفاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان له حكم الباطن كالظاهر وحكمه في الظاهر كان تارة في القضاء وتارة بالسياسة والسلطنة أى الامارة العظمى وتارة بالفتوى ولهذا فقد جمع بين الشريعة والحقيقة . ولذلك أيضا ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحكم بين الناس فيما شجر بينهم من خلاف ، وقد أفرد النوازل التي حكم فيها الرسول الفقيه الأندلسي محمد بن فرج بكتاب سماه اقضية الرسول صلى الله عليه وسلم يعين قضاة من شيوخ الصحابة وشبابها ويكتب لهم عهدا بذلك ويعين لذلك من هو أعرف بالاحكام الشرعية وأشد تقطنا لحجج الخصوم وخدعهم كما قال عليه السلام في معاذ بن جبل (أعلمكم بالحلال والحرام معاذ) ولم يكن يشترط في القاضي كبر السن وإنما يشترط فيه المعرفة بأمور الحلال والحرام ، وكان هؤلاء القضاة يرجعون الى الرسول صلى الله عليه وسلم يستشيرونه ، فلما قبضه الله اليه استمر الخلفاء على هذا المنوال الى أن أخذ الخلفاء يولون على القضاة قاضيا كبيرا ليتولى

أمرهم ويسمى قاضى القضاة كما يسمى قاضى الجماعة فى المغرب والاندلس ولهذا أصبح القاضى المقيم بعاصمة الخلافة وهو قاضى البلاد التى على حكمهم ، يستتبع عنه من شاء ، وفى ترجمة أبى يوسف أنه كان قاضيا للمشرق والمغرب وهو أول من من خوطب بقاضى القضاة كما كان يقال له قاضى قضاة الدنيا وكان ذلك فى عهد هارون الرشيد . ومنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والقضاة تعدد لهم رواتب مياومة أو سنويا وذلك وذلك ليتفرغ القاضى للعمل القضائى واصدار الاحكام ، وتطور نظام القضاء الى وظيفة النظر فى المظالم وهى أوسع من وظيفة القاضى لانها تمزج بين السلطة الزاجرة والعدالة لتقمع الظالم ، وترجر المتعدى ، وتنفذ حكم القضاة ، وتعنى النظر فى البيئات والفرائد والفرائد وتأخير الحكم الى ظهور الحق ، واستحلاف الشهود وكان الخلفاء يباشرون هذه الوظيفة بأنفسهم الى أيام المهتدى بالله كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتولاها بنفسه ، وينتقد أحكام القضاة والعمال ويناقشهم فيها وتسمى ولاية المظالم ، كما أن الخليفة عمر كان حريصا على توليتها حتى أنه قال لان عشت ان شاء الله لا جعلى الرعية دولا فانى أعلم أن للناس حوائج تقتطع دونى أما عمالهم فلا يرفعونها الى ، أما هم فلا يصلون الى ، أسير الى الشام ، فأقيم بها شهرين الخ وبهذا فان وظيفة المظالم هى وظيفة وزارة العدلية والداخلية اليوم .

وقد كان الخليفة عمر عين شخصا لتحقيق الشكايات وتنقضى أخبار العمال ، ويذكر المقرئ أن أول من نظر فى المظالم هو على ابن أبى طالب ، ونظمها عبد المالك بن مروان ثم عمر بن عبد العزيز وكان الخليفة لا يولى العامل أكثر من عامين . وكان الموحدون فى المغرب لا يولون القضاء أكثر من عامين كما ذكر الزركشى .

وكان القاضى يفصل بين الخصومات ، أما فى بيته أو جانب

من المسجد ويستعين بالعدول ويذكر ابن الخطيب في مثالي الطريقة أن الصحابة لم ينقل عنهم أن شاهدا اتخذ حانوتا وطلب على الشهادة أجرا ، وانما كان الناس يشهدون بينهم ويستوثقون بخيارهم وفضلائهم ، كما ورد في الاصابة أن في تاريخ ابن صمادح أن العلاء ابن عقبة والارقم كانا يكتبان بين الياس العهود والمعاملات ، وقد عرف من القضاة من يختص بفرض الموارث حيث كان هناك قاض خاص بها لأنها تقتقر الى الى دراسة خاصة وأحيانا يعين القاضي عدلا خاصا بالموارث كما كان الوكلاء يدافعون عن من كلفهم بذلك فقد وكل النبي عليه السلام عمر ابن أمية على عقد نكاح أم حبيبة ، وكذلك يعتمد القاضي على الخبراء والبصراء (وهو الرجل يكون له البصر بالبناء) يبعثه الامام ليحكم بين المتنازعين فيؤخذ بقوله وغالبا ما يكون عارفا بأمور الهندسة والبناء ، كما كان الخليفة يستعين بالقسام وهو الذي يقسم بين المحاربين الاسهم عند انتهاء الحروب وقد تطورت هذه الوظائف تطورا كبيرا حيث أن الخلافة أصبحت مقيدة بقوانين دينية شرعية واشتملت على الامامة وأصبحت لها شروط واختلفت بين المذاهب الاسلامية كحق عند الحنفية ، والوصاية وحماية الحرمين والاحتفاظ بالامانات الكبرى .

وأسس الادارسة أول حكومة صغيرة في المغرب حتى جاء المرابطون فنظموا الكتابة و (ديوان الانشاء) ونظام الوزارة ، وإذا كان المولى ادريس الثاني أسند القضاء الى أحد الفقهاء المشهورين في عصره فان حتى العصر المرابطي عرف منصب (قاضي الجماعة) أو (قاضي الحضرة) الذي كان له اتصال بأولى الامر كما ذكر القاضي عياض في مشيخته حيث كان القاضي يشترك في مجلس الامير ويؤخذ برأيه .. ومن مفاخر البربر (ص 53) أن أمراء الاندلس كانوا يستفتون (قاضي الجماعة) .

وكانت مشيخة العدوتين تعطى لقاضى الحضرة أو قاضى سبنة وطنجة — فى الغالب — ولقاضى الجماعة بقرطبة ، أما سلطة القاضى فانت متعددة ويخضع له عدة خطط . فهو يشرف على الشورى ، والفتيا ، والاحكام ، والصلاة ، والخطبة ، والتعليم .

فالشورى وهى الاعتماد على مشورة الفقهاء ليستشيرهم وهم أربعة (اثنان يشتركان فى مجلس القاضى ، (واثنان) فى المجلس الجامع ليدليان بالمشورة لمن يطلبها وكان للفقهاء رئيس ينظم أمرهم ويشرف عليهم .

وكان القاضى يولى (فى الغالب) لكل خطة فقيها مستقل بشؤونها كخطة الاحكام حيث يتكلف بها فقيها يجلس للناس رفاق الاموال والايتام وأمور الدولة كما يولى على خطة الصلاة والخطبة فقيها ، والحسبة فقيها . واتخذ القضاة الكتاب .. بل كان القضاة يبدأون حياتهم الادارية بالكتابة ثم بخطة الشورى وخطة الاحكام أو الصلاة والخطبة قبل أن يصبحوا قضاة كما اصطنع القضاة الحجاب حرصا على مكانتهم ويشرف على بيت المال ، وموارده من الاحباس والاوقاف .. ولهذا فكان له حق اصلاح المساجد وبناء الصوامع وضع المنابر والمحاريب والانفاق على خدام المساجد .. وأحيانا تصرف هذه الاموال للجهاد باقتراحه كما ذكر « ابن عبدون فى رسالة الحسبة » .

بل كان القضاة يشتركون فى الغزو والحرب بجانب القواد العسكريين .

أما الصلة بين القاضى ورئيس الدولة فكانت بواسطة (الوزير) أو كاتب (الخليفة) لان القاضى يمثل السلطة الفعلية التشريعية ، والخليفة يمثل السلطة العليا .. ويتقاضى أجرته من

بيت المال ويسكن دارا حبسية وكانت في فاس بجانب المسجد وكان القاضي يشرف على التعليم في القرويين كما كان للقاضي نفوذ واسع ومكانة كبرى كالقاضي عياض ، سبتة ، والقاضي ابن معيشتة في فاس والقاضي ابن عميرة في الرباط .. وكان قضاء سلا في عهد المرابطين في بنى عشرة كما للحميري في السروض المعطار .

ويعين القاضي من طرف الخليفة ويكتب له ظهير توليته ، كما في المرقية العليا ، وهذا الظهير هو دستور القاضي . عليه أن يعمل بموجبه والالتزم للعدل .

وخطة القضاء تعنى الفصل، بين الناس في أموره واختصاصاته ، وكان تصرفه مستقلا في النظر في المحجورين والمفلسين ، والوكلاء واليتامى وفي النظر في مصالح الطرقات والابنية ولصفح اليهود ويصفها ابن خلدون في المقدمة بأنها أعظم الخطط قدرا . وكل أهل الولايات أعوان له .. وكان القاضي يستعين بالعدول الذين يكتبون أحكامهم في رسوم وتسجل لديه .. واعتاد القضاة المغاربة أن ينتقوا العدول من العلماء الفضلاء الى أن ضعف الامر وأصبح القضاة والعدول من الاميين ولاسيما في البوادي .

وعرف المغرب نظام القضاء على غرار ما كان في الاندلس ، فكان القضاء أهم منصب في الدولة كما كانت خطط أخرى وثيقة الصلة به كخطة الشورى والاحكام (ابن الأبار ، التكملة ، نشر كوديرا ص 536) كما كانت خطة صاحب الاحباس تتبع في الغالب ، وصاحب الرد وصاحب الشرطة ، وصاحب الخمس ، وصاحب المظالم ، وخطة صاحب الوضوء ، وصاحب السجادة وصاحب الصلاة ، وترجع خطة صاحب الصلاة في الاندلس

والمغرب الاوسط الى القرن الثالث الهجرى . وصاحب الصلاة هذا الذى يؤم بالناس فى الصلوات ، وذلك لثلاث تلتبس هذه الخطبة بوظيفة الامام بمعنى (الخليفة) على أن القاضى كان له النفوذ المطلق فى التشريع والاحكام وكانت الخطط الاخرى تتبعه فى الغالب ، الا ما كان له اتصال بالسلطة العامة . وكانت مسطرة الحكم موكولة الى القاضى حيث يقضى حسب اجتهاده ثم أصبح تابعا لولى الامر ، بحيث يرجع له فى تعيين المذهب الذى يجب على القاضى أن يحكم به سواء كان مذهب الاغلبية أو لم يكن مذهبها ، وانما هو مذهب الخليفة فقط ، ولم يعرف المغرب تعيين قضاة لباقي المذاهب التى لا تتمذهب بها الدولة ، كما كان فى الشرق ، وفى الدولة العثمانية بصفة خاصة ، ونظرا لان المذهب أساس القضاء والافتاء والسلوك العام للمجتمع فقد جرى تطبيقه على النوازل والاحكام وبذلك أصبحت هذه النوازل محل خلافات حسب استنباط العلماء والفقهاء ، وبذلك ظل الفكر القضائى يجتهد داخل المذهب ولم يفقد الحيوية والاستنباط ، كما يتهمه كثير من المنقولين دون حجة .. وبذلك كان للقاضى الاختيار أو الاجتهاد فى اتباع الاحوال المذهبية ولم يمنع ذلك أن يخضع القضاء للوحدة الفقهية فى الحكم ، اذ أنهم اشترطوا فى الحكم والفتوى ان تكون بالراجح أو المشهور ، أو ما به العمل من المذهب المعروف لديهم ، بل أصبح يذكر فى ظهير تعيين القاضى انه يسير على هذا المنهاج فى أحكامه ، وكان المذهب المالكى هو مذهب الدولة الرسمى ، والمشهور من الاحكام ما كان على مذهب مدرسة ابن القاسم ، من أعلام المالكية ثم يحكمون بما جرى به العمل ، ويراد به الحكم الذى حكم به قضاة نزهاء مشهورون بمكانتهم الفقهية بشروط أن يكون الحكم صدر ممن يقتدى به وبعدم ضعف ماخذه واندرجه تحت أصل شرعى . أما ما جرى به العمل فقد

ابتكر المغاربة والاندلسيون هذا الاسلوب الاجتهادى فى أحكامهم ويراد به ما سارت عليه الامة ، ولم يناقض حكما شرعيا ، وانما ارتكز على الاعراف والعادات التى لا تخالف اطلاق القواعد الدينية وما جرى به ويسمى بالعمل المطلق أو ما جرى به العمل فى مدينة العمل قد يكون مطلقا . دون اعتبار للبلدة والاقليم ، من المدن ويسمى العمل الفاسى أو الرباطى أو المراكشى .. وقد تضمنت نوازل الوندشيشى ونوازل الوزانى ونوازل السجلماسى وغيرها من النوازل أحكاما فقهية .. وكانت كتب هذه النوازل تصور المشاكل القضائية والاجتماعية فى مختلف الاعصار ... وحماية للمتقاضين كان بجانب منصب القاضى منصب المفتى وهو من يكتب أحكاما فى القضية برغبة من المتقاضى ليدلى به هذا الاخير الى القاضى ، فكان بمثابة المحامى فى هذا العصر بخلاف المفتى فى المشرق .

ولاية المظالم :

كانت وحدة القضاء هى النظام السائد فى أوائل عصور الاسلام ، ولذلك كان القاضى يتولى « الى جانب الفصل فى الخصومات واصدار الاحكام » رد المظالم والحسبة .

والمظالم قد تكون من افراد الناس ، وقد تكون من الولاة وعمال الدولة . ثم أخذ الخلفاء ينظرون فى ظلمات الناس من الحكام . فظهرت ولاية المظالم وهى اشبه بالقضاء الادارى فى هذا العصر ويعرف الماوردى نظام المظالم بأن « قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة » .

وكان والى المظالم ينظر فى ظلمات الافراد من الحكام والحياة والقضاء . وفى بعض الاحيان يتدخل والى المظالم فى احكام القضاة ولو بدون دعوى ، ولهذا فهذه الولاية شبه محكمة

الاستيناف ، والقضاء الادارى ، وكان يستعين والى المظالم بهيئة
من معاونين والمستشارين والقضاة والعدول .

الحسبة :

يقول علماء النظم أن أصل كلمة الحسبة من احتسب فلان
على فلان أى أنكر عليه قبيح عمله ، أو مشتقة من (الاحتساب)
لله أى ادخار الاجر لان صاحبها المحتسب يذخر أجره ، لامره
بالمعروف ونهيه عن المنكر .. وقد جاء أصلها فى الشرع الاسلامى
من وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما جاءت تشريعاتها
فى أقوال الرسول عليه السلام وتصرفاته ، وتقريراته ، وقد
استعمل الرسول عليه السلام سعيد ابن سعيد بن العاص
على سوق مكة بعد فتحها ، كما استعمل سيدنا عمر رضى الله
عنه على سوق المدينة ، وقد وردت تفاصيل عن (الحسبة) فى عهد
الرسول صلى الله عليه وسلم فى عهده للولاة والقضاء راتباً
يومية ...

واهتم علماء النظم الاسلامية بموضوع الحسبة فذكر
المأوردى فى الاحكام السلطانية أن على صاحب الحسبة أن يبحث
عن المنكرات الظاهرة ليصل الى انكارها ، ويبحث عما ترك من
المعروف الظاهر يأمر باقامته ويتخذ عليه أعوانا ويعدى اليه
فيه ، وليس ذلك لغيره ويشترط فى المحتسب كما ذكر المأوردى ،
وخشونة فى الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة .. كما ذكر علماء النظم
الاسلامية أن على المحتسب أن ينظر فى قضايا البخس فى الكيل
والوزن والغش والتدليس ، وقضايا المظلم والتأخير فى أداء الدين .
وقد سن الرسول عليه السلام تشريعاتها فكان أول محتسب فى
الاسلام ، وجاء فى الترميذى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر
على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال

يا صاحب الطعام ما هذا ، قال أصابته الشماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، ثم قال من غشنا فليس منا كما أن الرسول بعث من يمنع بيع الطعام حتى ينقل الى حيث يباع الطعام وكان يؤدب في بيع الطعام مباشرة ... وكان الخليفة عمر يقوم بأمر الحسبة بنفسه فقد منع رجلا يشبع جملة ضربا لانه لم يستطع السير وقال له الخليفة ، حملت جملك ما لا يطيق ، كما كان يطوف في الاسواق وذرته معه فمتى رأى غشاشا ضربه وربما أتلف بضاعته ، كما كان يقول : أيها الناس احتسبوا أعمالكم ، ونهى عن مذاق اللبن بالماء ، ونظرا لكثرة أعماله فقد خص بعض الصحابة بالنظر في القضاء ، وأصبحت الحسبة تابعة للقاضي .. وكان الفصل بين عمل القاضي والمحتسب ضروريا لان عمل القاضي يبنى على التحقيق والائانة ، وعمل المحتسب يبنى على الصرامة والشدة والسرعة والفعالية .. لان موضوع القضايا يختلف . وبينما يتطلب (موضوع القضاء) البحث والاستقصاء ، يتطلب (موضوع المحتسب) السرعة والانجاز حتى لا تتوقف مصالح الناس وتضيع أمورهم ، ويتعطل سير الاعمال العامة . وقد تطور المجتمع الاسلامي وتعددت مرافق العواصم والمدن ، فأصبحت مهمة المحتسب منتشعة تشمل النظر في الميدان الاقتصادي والتجاري ، والاجتماعي ومقاومة الغش والانحراف ، وتنظيم المهن والحرف ، ومراقبة الاسعار ، ويذكر القلقشندى في موسوعاته الادارية والتنظيمية للبلاد الاسلامية ، أن على المحتسب اعتبار الموازين والمكاييل ، وإعادة الزائد منها الى التوبة والتعديل ، وان عليه أن يهذب ويؤدب ويزجر ، كما كان عليه أن يهتم بهندسة المدينة وتناسق الدور ، وهدم المتداعي منها ، كما يهتم بأمر الناس باغلاق الدكاكين الى المسجد لإداء الصلاة في الجمعة والاعياد ويشرف على آداب

المجتمعات العامة من الحفلات والاعراس والمواسم ورعاية آداب الحمامات ، ويقاوم المفسدين ، والسكران والمنحرفين .. ويسهر على رعاية الاطفال في الكتاتيب والمدارس ، ويراقب الوعاسا والخطباء لئلا يحرفوا الكلام عن مواضعه ويفسدوا العقول .

كما يسهر على الصحة العامة حتى يمنع المرضى من الاختلاط بالاصحاء . والمتسولين من ازعاج السابلة ، وتوجيههم الى اوراش العمل ، ويمنع الحملين من تعذيب الحيوانات ، ويدعو ارباب السفن الى التخفيف من حمولاتها .. ويساعد الغرباء والمعوزين ... وباختصار فقد كانت وظيفة المحتسب تشمل وظيفة البلديات وطرفا من أعمال وزارة الصحة ووزارة الاعلام ، ووزارة الاوقاف ، ووزارة التعليم ، ووزارة الفلاحة ، ووزارة المالية ، والنقابات .

الحسبة وتطورها حسب رأى ابن خلدون :

كان تنظيم الدولة الاسلامية يرتكز على أسس دينية ، لان أمير المؤمنين له نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الامرين ، أما في الدين فبمقتضى رعايته لمصالحه ، وله وظائف تابعة له حيث يقوم كل بوظيفته ، والوظائف الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة مندرجة تحت الامامة الكبرى متفرعة عنها ، فامامة الصلاة والفتيا من الوظائف الدينية الكبرى ، وأما القضاء فقد تطور عبر التاريخ الاسلامي فكان في عصر الخلفاء للفصل بين الخصوم ثم توسع في أعماله بسبب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى ، واستقر آخر الامر في الفصل بين الخصوم ، واستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم ، والنظر في مصالح الطرقات ، والابنية والامناء ، والنواب والنظر في المظالم وأحيانا كان القضاة سواء في الشرق

أو الاندلس يجعلون على قيادة الجهاد . وأما النظر في الجرائم واقامة الحدود سواء في المشرق أو في المغرب فكان يرجع الى نظر صاحب الشرطة .

وكان القاضى نظرا لكثرة مهامه يستعين بموظفين دينيين ذوى مركز اجتماعى مهم ، منهم المكلفون بالعدالة ومنهم المكلف بالحسبة ، فأما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فرض على القائم بأمر المسلمين ، ويعين لذلك من يراه أهلا له فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الاعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين ، وأهل السنن من الاكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها من الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ، ولا تتوقف على تنازع أو استدعاء ، بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ، ويرفع اليه ، وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش والمكايل والموازين وحمل المماطلين عن الانصاف ، وأمثال ذلك ، مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم . وهذه أعمال من مهام القضاء ولكن نظرا لعمومها وسهولة أغراضها يكلف بها موظف تابع لمنصبه ، وكانت في كثير من الدول الاسلامية سواء في المشرق أو في المغرب تابعة للقضاء حيث يولى القاضى المحتسب باختياره . ولما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وأصبح نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك ، وأفردت بولاية خاصة بها ... وعلى هذا فقد وقع تنظيم جديد لمهام وظائف الدولة .

الحسبة في المغرب (تاريخيا)

وقد عرف المغرب نظام الحسبة منذ بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان ونظم نظام بلديتها سنة 50 هـ ثم تطور التنظيم البلدى في عهد (الشيخ الامين) حسان ابن النعمان الذى دون الدواوين وكتب الخراج . وفي عصر موسى بن نصير ازدهرت المدينة الاسلامية في افريقيا حيث أحدث (دار ضرب النقود) . وعم البناء . وبنيت الدور على شكل منازل الفسطاط ، وانتشرت الكتاتيب والمساجد ، ونظمت الاحياء حتى تخلف العواصم الاسلامية الجديدة (العواصم الرومانية) بأنظمتها البلدية الرومانية (Municipia) والمجلس البلدى *Ordre décurionum* المنتخب ، ووكيلا المال وعضوا المجلس الساهرين على الطرقات والاسواق وتوزيع الحنطة وتنظيم الالعب ، كما جاءت تفاصيل عن ذلك في كتاب (أندري جليان .. تاريخ افريقيا الشمالية) ولذلك اجتهد المسلمون أن يحققوا نظاما عدل وأمتن من التنظيم الرومانى الشكلى ، فنظمت الاسواق والدكاكين ، وعين على كل صنف من الاسواق (عريف) من بين وجوه تلك الصنعة ، ووظيفة العريف أو (الامين) مقاومة الغش والسهر على حسن العلاقات بين أصحاب المهنة وعمالهم واعوانهم والحرص على ضمان حقوق الاجير كبيرا أو صغيرا كما في كتاب (المالكى) وفي كتاب (معالم الايمان) . ثم في عهد المولى ادريس الثانى الذى يعتبر أول من أقام نظام (المخزن) في المغرب حيث استقضى عامر بن محمد ابن أنس وسفيان الثورى ، وبنيت فاس في عهده ونظمت أسواقها ومنازلها وعين موظفون ساهرون عليها . وفي عهد المرابطين اضطلع يوسف ابن تاشفين باصلاح المغرب واعتمد على الفقهاء ورد أحكام البلاد اليهم وجعلهم أصحاب الامر في البلاد القائمين على تطبيق الشريعة الاسلامية ، ولم يكن لهم قبل ذلك نفوذ واسع من

بيت المال ، وجعل المرابطون للقضاة طبقات كقاضى الجماعة ، وقاضى الاقليم وقاضى القرية ، وكان لكل اقليم كبير قاضى جماعة يشرف على القضاء فى اقليمه وزعامة القضاة لقاضى الجماعة بمراكش الذى يسمى بقاضى الحضرة وهو أقرب الناس الى مجلس الخلافة وعضو بمجلس الشورى ، وكان القاضى يشرف على وظيفة الشورى والفتيا ووظيفة الاحكام والصلاة والخطبة (ووظيفة الحسبة) وكثيرا ما كان القاضى يولى احد معاونيه خطة الصلاة والخطبة مجتمعتين وخطة (السوق والحسبة) كما ذكر ابن الابار فى كتابه (التكملة 2 ص 353) ويستعين بالاعوان ولهذا فقد كان (المحتسب) تحت امرة القاضى يتدخل فى شؤون أرباب الحرف والصناعات ويولى على كل صناعة رجل من أهلها يفصل فيما ينشب بينهم من خلاف كما فى كتاب ابن عبدون (رسالة فى الحسبة) (ص 214) ويحرص ابن عبدون وهو من الفقهاء على أن تظل أزمة الامر بيد القاضى ، وكان الخليفة اذا ولى كبير القضاة يكتب له عقد توليته الذى يصبح بمثابة دستور على القاضى أن يحترم نصوصه ويعمل بموجبه ، فان جار أو بدل ، أو خالف ، تعرض للعزل .. ثم تطورت ولاية الحسبة فى عهد بنى مرين نظرا لتطور الحياة المدنية فى وتأثر المغرب بالحضارة الاندلسية التى هاجرت اليه وبالاخص بعد سقوط غرناطة .. فواجه المحتسب التطورات الجديدة وعظم نفوذه وكثرت مهامه وأصبح المسؤول عن التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى العاصمة سواء فى ميدان السهر على نظام المدينة وما هو من مهام رئيس البلدية (اليوم) أو مراقبة الانتاج وتوزيعه وحقوق العمال وأصحاب الحرف والتجار والمستهلكين، وفى عهد الدولة العلوية التى واجهت التنظيمات الجديدة الاوربية، زادت مهام المحتسب نظرا للتطور الاجتماعى وتنظيم السكة ،

والقرض التجارى الذى سنه المولى الرشيد ، ثم تطور نظام
الواردات التجارية فى عهد المولى محمد الرابع .

نظام وظيفة الحسبة فى المغرب :

لقد تطور تنظيم الحسبة فى المغرب عبر تاريخه الحضارى،
فبينما كان المحتسب تابعا للقاضى أصبح فى عصر الدولة العلوية
اليقظة ، يولى بظير من جلاله السلطان ، والظهير (فى الواقع)
يعتبر دستوراً للعمل لانه ينص دائماً على الاختصاصات والمهام ،
ويضيف اليها ما جد من الاحداث ، وبذلك تكون قوانين الدولة
تساير الاحداث ولا تتقف بعيدة عن التطورات ... فكان الظهير
يفوض للمحتسب الامر فى جميع شئون المدينة المعين بها ،
 ويفصل فى النزاعات بين أصحاب المهن وفى الحرف والصناعات ،
كما كان يحدد الاسعار ، ويراقب المبيعات ، ويحمى المستهلكين من
الغش والتدليس وكان فى عمله متعاوناً مع القاضى وصاحب
الشرطة وعامل المدينة ... وللمحتسب ادارة خاصة به ولكنه
موظف ليس ببيروقراطيا ، فعليه أن يتفقد الاحوال بنفسه ،
ويتجول فى المدينة ، ولا يعتمد على نوابه كما كان الشأن فى المشرق
وكانت له سلطة تقديرية Pouvoir discrétionnaire واسعة ...
ونشاطه الادارى يبرز فى أربعة ميادين (أولا) فى رعاية المدينة
ونظافتها والسهر على تنسيق هندسة البناء ، وتوزيع المياه ،
وتنظيم الاسواق ، وحماية السابلة ، وتفقد الكتائب ، والمنشآت
التجارية والحرفية ، وأوراش العمال ، وجرت العادة أنه كلما
شعر المواطنون بتدهور أحوال المدينة تساعلوا (أين المحتسب ؟ .
(ثانيا) مسؤولية رقابة التجارة والصناعة والخدمات الاجتماعية،
وبالأخص فيما لا يحدده القانون ويصبح من باب الاخلاق
والآداب وعفة النفس ، أو فى المنازعات التى لا تحتاج الى نظر

القضاء .. وكان المحتسب يعتمد على (أمناء) لا تعينهم الدولة ، ولكن يرشحهم أهل الحنطة ، ويعينون بعد الاتفاق عليهم لامانتهم ونزاهتهم وخبرتهم وجديتهم ، لا بطلبهم ، فيكلفون بهذه المهمة ما لم يطعن أحد في أمانتهم بصفة شرعية ، فلم يكن الانتخاب اجماعيا ، وانما كان تراضيا تقريرا سكوتيا ، وكان لكل حنطة (أمين) يعرف قضاياها ورجالها ومشاكلها وهو المنسق بين باقى أمناء الحنط ... حتى لا تطغى حنطة على أخرى ، وحتى يمكن التآزر والتعاون بينهم ، فاذا لاحظ (أمين) الخرازين ارتفاعا فى أثمان الجاد فانه يتصل بأمين (الدباغين) عند الامين ليتخذا حلا ملائما ، ولم يكن الامين يأخذ أجره من الدولة وانما يتقاضى أجرته مما يفرض له فى بيع البضاعة

Prélèvements de centimes sur le prix de vente

واذا وقع خلاف بين البائع والمشتري رفع الامر الى (الامين) فاذا رضى أحدهما برأيه ، فض المشكل ، والا تدخل المحتسب فاذا لم يرض المتنازع بالحكم فانه ينادى (بالله والشرع) أى أستأنف الحكم للقاضى ليقول الحكم الشرعى فى الموضوع ، لان كلمة (استئناف) الحكم تعتبر طعنا فى حكم المحتسب ومع ذلك فان المحتسب قد لا يجيز له الاستئناف اذا كان الامر واضحا مبينا لا يستحق ذلك ، كما أن الحرفيين عند ما يقترحون تشريعا جديدا أو موقفا خاصا ، فان المحتسب يرفع الامر للقاضى حتى يكون كل اصلاح وتجديد وموقف (وفق الشريعة الاسلامية) وهكذا كان المحتسب رغم أنه معين بظهير يرجع الى القاضى ليطمئن الى حكم الشريعة الاسلامية فيما يقوم به من أعمال . (ثالثا) العقوبات الجزية التى يتخذها المحتسب .. ؟ فاذا اكتشف غشا فى (البضاعة) فان سلطته فى العقوبة تقديرية .. وبما أن البضائع كان من المفروض فيها أن

تكون سليمة ... فلم يكن التاجر في حاجة الى تحسين وسائل العرض والاعلان . ؟ فالاصل هو السلامة ولهذا فان المحتسب يعرض البضاعة (الرديئة) فالبلغة المغشوشة تشق وتعلق في باب الخزازين ولا تنسل عما يقع للبائع . (كما يقول المقرئ في نفح الطيب) .. أما المواد المغشوشة فان كانت سالمة غير مضره أعطيت للمؤسسات الخيرية ، كما اذا كان الغش في نقص الميزان وتطفيفه ، وفي كتب النوازل ذكر لعدة قضايا من هذا النوع . (رابعا) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان المحتسب يبحث عما ترك من المعروف الظاهر ليأمر باقامته وينهى عن المنكر ، والمراد بالمنكر ما يخالف ما أمر به الشارع أو ما يمسس بالنظام العام والمصلحة الخاصة والعامة ، والعرف والعادة ... دون ان يصبح اجراما وغصبا وفتنة فذلك أمر من اختصاص القاضي وكذلك الامر بالمعروف ، وارشاد الناس الى الطريق السوي بدل اشتغالهم بتوافه الامور أو تناسي أداء الفروض الدينية ، فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليس بيد الناس جميعا وانما هو موكول الى موظف خاص هو (المحتسب) هذا وكان (الامين) يستمر في وظيفته ولا يعزل ولا يتقاعد الا اذا ظهر عجزه لكبر أو مرض وليست له أية حصانة ، لان الاسلام لا يقر الحصانة لمن يتولى مسؤولية مهمة ، لم يؤد عمله كان أحق من غيره بالعقاب لانه خان (الامانة) .

أما المحتسب (فكان موظفا يتقاضى اجرا على عمله وربما استعان أيضا بالتقنيين (بشيوخ النظر) اذا احتاج الى ذلك ، كما يستعين بالعلماء والفقهاء والوعاظ وأصحاب الرقائق لمعرفة المشعوذين وادعياء المعرفة ... وكان المربي العظيم الشيخ زروق يلقب بمحتسب الصوفية ، وبهذا فان التنسيق وتكامل الخبرة (accomplissement) متوفران في هذه الوظيفة المهمة .

محاولة تقوية (الحسبة) في عهد الاستعمار :

لقد عمل المستعمرون بجد ليمسخوا الادارة المغربية عن عريق تقويتها ، وأحيانا باستعمال (الجنسيد) الادارى . فأقاموا نظاما محكما للبلديات ، وخصصوا مكتبا للحسبة لتصغيرها في نظر الشعب ... ورغم أن المسيحيين في حركة الاسترجاع كانوا ييقنون على نظام الحسبة ، فان المستعمرين عملوا جهدهم على مسخها وتنشويها وتصغيرها .. ولكن مع ذلك ، والفضل للدولة العلوية . ظل الشعب يقظا لم تفقه الحيلة الاستعمارية .. وكانت حكومة الجلالة المرحوم محمد الخامس رضى الله عنه تعبيرا عن الاستمرار وتعلق الشعب بمقوماته ومقدساته الدينية والسياسية .

وظائف متعلقة بالحسبة :

كانت الحسبة تدرس في علم خاص بها وهو (علم الاحتساب) قال عنه صاحب كشف الظنون ان علم الاحتساب هو علم يبحث عن الامور الجارية بين أهل البلد في معاملاتهم اللاتى لا يتم التمدن بدونها من اجراؤها على القانون المعدل ، بحيث يتم التراضى بين المتعاملين وعن سياسة العباد بنهى المنكر وأمر المعروف لا يؤدي الى مشاجرات وتفاخر بين العباد بحيث ما رآه الخليفة في الزجر والمنع ومبادئه بعضها فقهي ، وبعضها أمور استحسنانية ناشئة عن رأى الخليفة والغرض منه تحصيل الملكة في تلك الامور ، وفائدته اجراء أمور المدن في المجارى على الوجه الاتم .. وهذا أدق العلوم ولا يدركه الا من له فهم ثاقب ، وحس صائب ، اذ الاشخاص والازمان والاحوال ليست على وتيرة واحدة ، بل لابد لكل واحد في الامان والاحوال سياسته الخاصة ، وذلك من أصعب الامور ، فلذلك لا يليق منعها الا من له قوة

قدسية مجردة عن الهوى كعمر بن الخطاب كان عالما في هذا الشأن .. وكان الخليفة عمر يقوم أخلاق الناس بالعنف والضرب بالدرّة .. بحد محدود لا يتجاوزه وكان المحتسب يأمر من يطوف في الاسواق لاعلامهم بما يجب أن يعرفه الجميع ويعرف بالمنادى وصوته يسمى البريح .. وفي المغرب يسمى (البراح) .

وقد كان تحت أمر عامل المدينة صاحب السجن ولم يعرف العرب السجن حتى زمن الامام على بينما عرف المغاربة السجن منذ عهد القرطاجنيين ... ولم يطور السجن في المغرب نظرا لتنفيذ العقوبات بسرعة أو لابقاء المتهم في السجن مدة قصيرة وتتولى الدولة الانفاق عليه وفي بعض الاحيان تتولى الاسرة ذلك .. والواقع أن (السجن) كان عقوبة صارمة بالنسبة للمفسدين والخارجين عن الحكم والمفتانين ، وفي قصر البديع آثار لسجن السعديين وهي لا تقل عما هو منتشر في أوروبا آنذاك من حجر مظلمة ضيقة علقت بها السلاسل والقيود .

وقد سأل المولى اسماعيل القاضي بردلة وابن رحال عن أول من أحدث السجن وكيف كان الناس يسجنون فكان ردهما واضحا ملما بتاريخ السجن كما في (نوازل المناوى) ويعتبر سجن المولى اسماعيل بمكناس من أعظم سجون المغرب القديم .

ولاية الشرطة :

وهم الذين يحرسون الامن في المدن والبادية ويحافظون على النظام وهم أعوان للحكام وأصحاب المظالم . فكانوا يعزرون ويقيمون النظام ... واعتاد أن يقوم بها جنود من عسكر النظام الغالب . ويشرف على الحرف (العريف) وهو المعروف باللامين فيما بعد ، ويشرف على تنظيم العلاقات التجارية بين الناس ليحفظ من الغش .

مصادر الكتاب

- (الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية) مؤلف مجهول نشره علوش بالرباط سنة 1936 .
- (كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل) لابی محمد علی بن احمد بن حزم المتوفى سنة 456 هـ (المطبوع بالقاهرة سنة 1317) .
- (زهرة الاس في بناء مدينة فاس) لابی الحسن علی الجزائى (طبعة تلمسان سنة 1922) .
- (التشوف الى رجال التصوف) لابی یعقوب بن یوسف ابن یحیی بن عيسى التادلى المتوفى سنة 917 (طبعة الرباط سنة 1960) .
- (المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب) لابی عبد الله بن عبد العزيز البكرى 487 (طبعة ذى سلان الجزائر سنة 1917) .
- افريقيا الشمالية ج ديوا
- موقیه — ماضی افريقيا الشمالية .
- (كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائها ومحدثيها وفقهائها وادبائها) لابی القاسم خلف بن عبد الملك توفى سنة 587 (طبعة لدريد سنة 1882) .
- (البيان المغرب) لابن عذارى المراكشى .
- (اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس) لعبد الرحمن بن زيدان طبعة الرباط 1929) .
- (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية) لابن عبد الله محمد بن ابراهيم الزركشى (طبعة تونس 1289) .
- (كتاب الصلة) لابی جعفر احمد بن الزبير المتوفى سنة 708 (طبعة الرباط 1937) .
- (الاحاطة في اخبار فرناطة) للوزير لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة 776 (طبعة القاهرة) .
- (قلائد العقيان) لابی نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى بن

- خاتان المتوفى سنة 535 (طبعة القاهرة سنة 1275) .
- (طبقات علماء افريقيا) لمحمد بن الحارث بن احمد الخشنى (طبعة الجزائر سنة 1914) .
- (الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب) لبرهان الدين ابراهيم بن على بن محمد اليعمرى المعروف (ابن فرحون) المتوفى سنة 788 هـ .
- (نيل الابتهاج بتفريز الديباج) لاحمد بابا التمنكتى ، أبو العباس احمد بن احمد بن عمر (من علماء أول القرن الحادى عشر) .
- (اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين) طبعة باريس سنة 1928 لابی بكر البندقى الصنهاجى .
- (ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض) 3 اجزاء (طبعة القاهرة 1940) للمقرى شهاب الدين محمد ابن التلمسانى .
- نيد تاريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر المؤرخ مجهول الاسم الله سنة 712 نشرها بروفنصال بالرباط سنة 1934 .
- (المعجب فى اخبار المغرب) لابی محمد عبد الواحد ابن على التميمى سنة 699 (طبع بالقاهرة وبغاس) .
- (جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس) لابن القاضى احمد بن محمد بن أبى العافية (طبعة فاسية) .
- ج . مونسو (الافارقة) دراسة حول الدول والسلاطين بافريقيا .
- شارل اندرى جوليان (تاريخ افريقيا الشمالية) .
- (الخزيرة فى محاسن اهل الجزيرة) لابن الحسن على الشنترينى سنة 542 ء الجزء الاول ، المجلد الاول والثانى طبعة القاهرة سنة 1942 . مشتمل على جميع ما املاه الامام محمد بن تومرت على تلميذه عبد المؤمن ابن على (نسخة مطبوعة بدون تاريخ) .
- (تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين) ليوسف اشباح طبعة القاهرة سنة 1940 .
- (القوى البحرية والتجارية 500 سنة 1100) تأليف ارتيا لورنوتين ، ترجمة احمد محمد عيسى ، مراجعة سعيد فريال ، نشر مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، القاهرة سنة 1960 .
- (رسالة مراتب العلوم) من 60 الى 90 نسخة الخزانة عدد 11264 .
- (الاغتباط (مخطوط) بخزانة الرباط — ابو جندار .

- (الانيس المطرب في تاريخ فاس) لابن ابي زرع ، (مطبعة سلا) .
- (الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى) للناصرى ، (مطبعة مصر) .
- (حقائق الاسلام) — عباس محمود العقاد .
- (مدارك القاضى عياض) الجزء الاول .
- (المنتخبات العبرية) — محمد عبد المنعم خفاج ج 1 و 2 و 3
- (نفع الطيب) — المقرئ
- (الدرر البهية) — الفضلى (طبعة فاسية) .
- (العصور القائمة للمغرب) — كوتى .
- (كتاب البربر) — عثمان الكعاك .
- (كلمة « بربر ») — دائرة المعارف الاسلامية .
- لكسوس (بحث المدينة التاريخية) — م المناسى (مطبعة تطوان) .
- (العلوم والآداب والفنون) — محمد المنونى (مطبعة تطوان) .
- (قرطاجنة في اربعة عصور) — احمد توفيق المدنى .
- (كتاب العبر) — لابن خلدون .
- (هانيبال) — الدكتور مؤنس (مطبعة مصر) .
- (مراكز الثقافة في المغرب) — عثمان الكعاك (طبع الجامعة العربية) .
- (التربية في الاسلام) — الدكتور احمد الاهوانى (طبع بمصر) .
- (تاريخ الفكر الاندلسى) — الدكتور حسين مؤنس .
- (الثقافة الانسانية وفلسفة التربية) — مباحث دولية نظمها اليونسكو .
- (دولة المرابطين) — الدكتور حسن احمد محمود .
- (سلوة الانفاس) محمد جعفر الكتانى (مطبعة فاس الحجرية) .
- (سوس العامة) — المختار السوسى ج 1 و 2 .
- (الاطار الجغرافى لتاريخ الجزائر) — مبحث مجلة الفكر (السنة 5 عدد 2) .
- شهيرات المغرب (مخطوط) لمحمد العيذى (الكانونى) .
- (نشر المتانى لاهل القرن الحادى عشر والثانى) ، للقادرى محمد بن الطيب (مطبعة فاس الحجرية) .
- وغير ذلك من المصادر المذكورة في الكتاب .

الفهرس

3	حضارتنا الاسلامية في المغرب
5	تقديم
7	مقدمة
29	تحديدات ومفاهيم عن الحضارة
51	نشأة الحضارة في المغرب
61	الحضارة المغربية ما قبل الاسلام
91	مراكز الحضارة المغربية الاولى
101	السيطرة الرومانية وتحدى الحضارة المغربية للسيطرة الرومانية
119	الحضارة الاسلامية المغربية
123	موقع المغرب حسب الاصطلاح العربى القديم
147	الحضارة المغربية الاسلامية
175	القرن الخامس والسادس الهجريان — المرابطون —
207	القرن السادس والسابع الهجريان
255	عصر بنى مرين — القرن السابع — التاسع الهجرى
290	الحضارة المغربية
327	الحضارة الاندلسية وتأثيرها في العصر السعدى
361	العلويون 1659 م — 1070 هـ
419	التنظيمات الادارية المغربية
443	مصادر الكتاب

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

